

- مدخل عام -

لقد كان العلم - الذي ينطوي على علم و مهارة تقنية، و التي تعني مجموعة من معارف و أبحاث على درجة كافية من الوحدة و العمومية، و التي من شأنها أن تقود البشر الذين يتكرسون لها إلى استنتاجات متناسقة، لا تنجم عن مواضع ارتجالية و لا على أذواق أو اهتمامات فردية تكون مشتركة بينها، بل تنجم عن علاقات موضوعية نكتشفها بالتدرج و نؤكددها بمناهج تحقق محدودة.¹ - طوال جزء كبير من تاريخه نشاطاً نظرياً صرفاً و كان من الطبيعي أن لا يقترب من الأخلاق.

أما في عصرنا الحاضر فقد أصبح التداخل وثيقاً بين المجالين، بحيث أمكن للعلم أن يتدخل في تفكيرنا و في مشاكلنا الأخلاقية، و في ذات الوقت صارت الأخلاق تسعى إلى توجيه العلم أو على الأقل تستهدف اختبارها بطريقة نقدية، على أن هذا الانتقال من الانفصال التام بين العلم و الأخلاق إلى التداخل الوثيق بينهما لم يحدث فجأة، و إنما حدث على مراحل متعددة، و مهدت له ظروف كثيرة . ففي مطلع العصر الحديث انهار المثل الأعلى القديم للمعرفة، و هو العلم لأجل العلم و بدأ ظهور مفهوم جديد للعلم يدور حول فكرة السيطرة على الطبيعة و الوصول إلى مزيد من التحكم في العالم الخارجي و من هنا أخذ العلم يسعى إلى تحقيق نفس القدرة على الفهم و على السيطرة التي تحققت بالنسبة للطبيعة، بمعنى تجاوز المعرفة النظرية المنقطعة الصلة بالواقع، والاجتهاد في التقريب بين مجالي المعرفة العلمية و التطبيق العملي لها، من منطلق أن العلم أصبح هو ذاته نوعاً من السلوك و السعي إلى التغيير. و بعبارة أخرى، تحول اهتمام العلم أكثر إلى إثارة مشكلات تتعلق بكيفية استخدام العلم و الغايات التي ينبغي أن يخدمها ، والجوانب التي تطبق فيها النتائج المتراكمة على الكشوف العلمية بالنسبة لحياة الإنسان، و كلها كانت تمثل أسئلة جديدة لم تكن لتظهر في التصور القديم للعلم، و كان مستبعداً أن

¹ - لالاند ، موسوعة المصطلحات التقنية والنقدية الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل المجلد الأول، منشورات عويدات، بيروت، 1963، ص 1249.

نجد لها نظيرا عند فلاسفة الإغريق مثلا، أمثال أفلاطون وأرسطو الذين خاضوا جميع ميادين الفكر و لكنهم ظلوا ينظرون إلى العلم على أنه تأمل محض، و يضعون بينه و بين حياة الإنسان العملية حواجز لا يمكن عبورها، أما السبب الثاني فهو اقتحام العلم لميدان علم النفس الإنسانية و المجتمع البشري إيدانا ببدء عهد جديد يقترب فيه العلم من صميم المشكلات العملية للإنسان (العلوم الإنسانية و محاولة علمنة الظواهر الإنسانية).

فعلى المستوى المعرفي يلاحظ أن سقراط يميل إلى توحيد المعرفة و الخير بالرغم من اعتقاده بأن الرصيد المعرفي ضئيل للغاية. و الأهم من ذلك في نظر سقراط هو السعي إلى المعرفة، فالخير هو البحث المنزه، وهو مبدأ يعود تاريخه في الحقيقة إلى أصل فيتاغوري، و يترتب عن ذلك إذاً أنها القوة الأخلاقية الدافعة من وراء حركة العلم.

و هنا تتجلى معالم المشكلة الأخلاقية الناشئة على حسن أو سوء استخدام العلم، فإذا كان البحث العلمي يهدف في نظر رسل إلى تفسير الظواهر بخلاف النظرة التي سبقتها من سيطرة للكنيسة و إصدار الأحكام القطعية، موضحا هذا الفرق على ضوء الحقائق التاريخية، " فلقد كانت السلطة التي يكتسبها التراث العلمي مختلفة عن تلك الأحكام القطعية التي كانت الكنيسة في العصور الوسطى تحاول عن طريقها أن تفرض سيطرتها على الناس." (2)، فلاشك في رأينا أن الباحث يواجه مهمة مزدوجة، فمن واجبه أن يتابع الموضوعات لدراستها قدر المستطاع، و عليه أيضا ذلك بغض النظر عن نتيجة استخدامها سواء كانت مريحة أم متعبة، و من جهة أخرى هو ملزم كذلك بأن يحول هذه الكشوفات إلى نتائج مرضية في بعدها الأخلاقي.

و في عصرنا هذا ازداد التداخل وثوقا، ذلك لأن التغلغل المتزايد للتطبيقات العلمية و التكنولوجية في

² - رسل ، حكمة الغرب ، - ج 1 ، ص 17 .

حياتنا، جعل العلم يتصل اتصالاً مباشراً بمشكلات حيوية بل مصيرية، مثل مشكلة البقاء و الفناء، و مشكلة التلوث، و مشكلة التزايد السكاني و الأزمات الغذائية و كلها أمور تقع على الحدود التي تربط بين العلم و التكنولوجيا من جهة و الأخلاق من جهة أخرى.

و هكذا تطورت الأمور بحيث أصبحنا لا نجد مناصاً من البحث في النتائج الأخلاقية للعلم، و أمس العلم في عصرنا الحاضر قوة تؤثر في حياتنا و مسلكنا العلمي، لا مجرد إرضاء لحب استطلاعنا. و زال الفاصل بين وظيفة العلم في إلقاء الضوء على ما هو كائن، و وظيفة الأخلاق في إرشادنا إلى ما ينبغي أن يكون.⁽³⁾ و من الواضح أنه ليس بإمكان الجميع الاشتغال بالبحث العلمي، نظراً لما تستوجبه الروح العلمية من شروط و مواصفات و قدرات و استعدادات، و عليه و جب أن يكون هناك مجال للحرية في مناقشة قضية أن السعي إلى الحقيقة هو خير في ذاته، فالبحث العلمي و طيد الصلة بالحرية و هي نوع من الخير، و بالتالي فالتسامح هو شرط ضروري لأي مجتمع يراد للبحث العلمي أن يزدهر فيه، و تعد حرية التعبير و التفكير هما أيضاً عاملان حاسمان في إقامة مجتمع علمي، و الذي يتميز بسيطرة العلم و مقوماته و لا يضاهايه في ذلك شيء و لا يقر بواقع آخر سوى ذلك الذي يتضمنه في معادلاته و صيغته.⁽⁴⁾

لقد خصصنا جانباً لعرض مختلف الإسهامات التي حملتها فلسفة رسل الأخلاقية باعتباره كان سباقاً للدعوة إليها أو من منطلق أنه كان من بين المؤسسين الأوائل في إرساء قواعدها أو لكونها ببساطة تامة صاحب جرأة غير مسبوقه في الدفاع عنها و مواجهة المعارضين لها سواء على الصعيد المعرفي الاستمولوجي أو الحضاري الإنساني و حتى على مستوى الممارسة العلمية و أخلاق العلم، حيث ارتكزت فلسفته الأخلاقية على وضع ضوابط تحدد علاقة الإنسان بالمعرفة و مجمل الشروط التي تجعل من التقدم العلمي

³ - فؤاد زكريا ، التفكير العلمي ، ص 228-229-230 .

⁴ - لالاند ، موسوعة المصطلحات التقنية والنقدية الفلسفية، ص 1250.

و التكنولوجيا أداة لتحقيق السعادة و الرخاء الإنساني و تجنبه ويلات الحروب و الصراعات و التعاسة و الشقاء.

لقد أسهم رسل إسهامًا كبيرًا في المناقشات التي دارت حول الأخلاق والسياسة والدين والتعليم وقضايا الحرب والسلام. ولم يَر هذه الإسهامات باعتبارها إسهامات فلسفية بالمعنى الضيق للكلمة كما سيتضح لاحقًا، فكان يرى الفلسفة باعتبارها فرعًا فنيًا من فروع المعرفة يتناول الأسئلة المجردة التي تُعنى بالمنطق و المعرفة و الميتافيزيقا لا غير، و هذه المناقشات الأخرى في المقابل - في رأيه - عبارة عن قضايا تتعلق بالعاطفة والرأي، وترتبط بالنواحي العملية للحياة و أقر بإمكانية وجود تحليلٍ للخطاب الأخلاقي والسياسي في إطارٍ صوري؛ أي كدراسة منهجية تتناول منطق الخطابات الأخلاقية والسياسية بدلًا من جوهرها؛ و لكن ما كان يهمله هو القضايا العملية والمشكلات الواقعية، خاصةً بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى.

لقد أدى ذلك كله إلى ظهور صيحات عديدة تنادي بضرورة الوقوف على الآثار السلبية التي خلفها عصر العلم الحديث، عصر الآلة الصناعية، تلك الآثار التي ألفت بظلالها على كل من الإنسان والبيئة الطبيعية المحيطة به، وأصبحت البيئة من الموضوعات الرئيسية التي حازت على اهتمام كبير من نواحي عدة، حيث نجد أن هناك اهتماماً علمياً وثقافياً وأخلاقياً وجمالياً وفلسفياً، يُعنى بضرورة إيجاد رؤية تركز على علاقة الإنسان بالبيئة الطبيعية بحيث تقوم هذه العلاقة على التوافق و الانسجام، لا على التعدي والسيطرة. و من هنا يتناول هذا الجهد المتواضع بالتحليل دراسة أزمة الإنسان و البيئة في عصر العلم و تطبيقاته، ابتداءً بعرض جملة من التحولات التي أفرزها التقدم العلمي والتي ساهمت في بلورة فلسفة رسل الأخلاقية، وهي ذات الصلة بمفهوم التقدم العلمي و الآثار المترتبة عن عصر العلم في الإنسان و بيئته و من ثمة الانتقال لاحقاً لكيفية حل المشكلات البيئية التي تسبب الإنسان في حدوثها حلاً فلسفياً وفق ما قدمه رسل من

حلول و اقتراحات، بحيث تتجاوز عالم الأفكار النظرية إلى عالم الحلول العملية، بالاستناد على المنهج التاريخي في شرح التطور التاريخي للمشكلات المختلفة وكيف صارت بهذه الخطورة، ثم المنهج النقدي لتقييم نظرة الإنسان للعلم ومدى تأثيره على وجوده، وعلى البيئة المحيطة به، وأخيراً استخلاص عدة نتائج من هذا. لقد حاولنا أن نكون موضوعيين قدر الإمكان في تقديم هذه الانجازات التي حققتها فلسفة رسل الأخلاقية و بينا في ثنايا هذه المباحث الدور الفعال الذي لعبتها أطروحاته في معالجة العديد من القضايا والمشكلات التي أفرزتها حركية النشاط العلمي و مراحل تطور التكنيك و أساليب التقنية الحديثة، و بدا لنا جليا مدى اهتمام فيلسوف الإنسانية بمشكلات الإنسان و سعيه لإيجاد حلول لها و تبيان ما يجب القيام به لتقويضها و تذليلها و اكتشفنا أيضا مواطن الخلل في فلسفته و التي لاحظنا تمكنها منها بالدليل، على غرار الانطلاق من بعض الأفكار المسبقة و استغلالها لتأسيس العديد من المواقف الفلسفية على غرار مركزية الفكر الأوروبي الذي يمثل سليل الحضارة الإغريقية و إقصائه الصريح لإسهامات الحضارات الشرقية، و الاعتماد كذلك على منطق التعميمات انطلاقا من تجربة المجتمعات الأوروبية مع تاريخها الديني الذي تميز بممارسة الوصاية و التفويض و الخلاص و إسقاط هذه التجارب على واقع المجتمعات الأخرى دون مراعاة لخصوصيتها الثقافية و الدينية، و بدا لنا أيضا مدى تحيزه لثقافته و إن كانت في عمقها مهلهلة و دعوته في ذات الوقت إلى التحلي بالحياد و الموضوعية فكان هذا مؤشراً على التناقض مع مقتضيات نسقية البناء الفلسفي و شكلا من أشكال المفارقة.

و لقد اعتمدنا في كل هذا على أسلوب التحليل و المقارنة و استقراء الوقائع والعينات لبناء الاستنتاجات و الاستنباطات التي تؤيد بعمق ما لمسناه من استحداثات و تجديدات و إضافات أجادت بها قريحة فلسفة رسل الأخلاقية. و لعل أفضل طريقة لوصف إسهام رسل في المجال الأخلاقي هو القول بأنه كان معلماً أخلاقياً معنياً برفع مستوى الأخلاق عند الناس أكثر مما كان فيلسوفاً أخلاقياً.

- الفصل الأول -

السياق التاريخي وتأثيره في تصور علاقة الأخلاق بالعلم عند مرسل.

المبحث الأول: العلم و التقنية دون الأخلاق في خدمة السياسة .

1- العلم في خدمة الأهداف السياسية:

لقد كان لاستغلال التكنيك في المجال السياسي السائد في القرن العشرين، دورٌ كبير في بلورة تصور رسل لعلاقة العلم بالأخلاق، باعتباره أرضية للبحث في مدى قدرته على تحقيق السعادة وتجاوبه مع طموحات الإنسان الهادفة إلى تجسيد مطلب الرفاهية والسعادة بشكل أفضل، فالنظريات السياسية ساهمت في طرح العديد من التساؤلات والنظر في أسسها وغايتها من خلال النقد والمراجعة و البحث عن البدائل، مما يجعل نطاق البحث أكثر شمولية، فيرتقي إلى ما هو أفضل سياسيا واقتصاديا وأخلاقيا وعلميا و بحكم أن كل هذه الاهتمامات شروطٌ أساسية لتحقيق المنفعة والسعادة الإنسانية.

إن النظريات السياسية المعاصرة لا تعدو أن تنقسم إلى عينتين تعكس كل منها طرحا في كيفية بلوغ السعادة سياسيا و بناء مجتمع سياسي كفيل بإرضاء كافة المطالب السياسية لكل الأفراد والاستجابة لحقوقهم السياسية، فالعينة الأولى تعرف بالأنظمة الديمقراطية الليبرالية ومثلها المجتمعات الغربية وشمال القارة الأمريكية، أما الطرح الثاني فيمثله المعسكر الشرقي والذي ينهض بفلسفة تحاول أن تجمع بين متطلبات الفرد السياسية والاجتماعية بالدرجة الأولى.

و من هنا عرف هذا النظام بالديمقراطي الاجتماعي، دون إغفال عينات من الأنظمة السياسية التي اعتمدت على القوة بشقيها المادي والمعنوي كمرجعية لها في إدارة شؤون الأفراد السياسية باعتبارها تمثل صفحة من التاريخ السياسي الإنساني على غرار الأنظمة الديكتاتورية التي ظهرت في فترات تاريخية محددة والملكية التي نجد لها نظيراً حتى اليوم ، يبقى الآن تقدم عرض تاريخي لهذه الأنظمة و تبيان كيف كان لها التأثير في نسج موقف رسل الأخلاقي في مواجهة ما يتم توظيفه من أساليب علمية و تقنية واستثمار نتائجها المختلفة لدعم سلطتها ونفوذها و الترويج لفلسفتها.

و تتضح رؤية رسل المميزة لكيفية إقامة مجتمع علمي يدرك طبيعة العلاقة الوطيدة بين العلم و الأخلاق من خلال تحديد ما يجب القيام به كإصلاح لتطويق الآثار السلبية لهذه الأنظمة، فيؤكد هذه الرغبة " بأن العالم الذي نصبو إلى رؤيته، عالم يحفل ببهجة الحياة أكثر مما يوجد الآن من مأساة وجودنا اليومي" (5).

⁵ - رسل ، سبل الحرية ، ترجمة عبد الكريم أحمد ، القاهرة، 1985، ص ، 207.

1- النظام الديمقراطي الليبرالي:

نظام اقتبس فلسفته ومنهجها من التصور الأثيني للحياة السياسية المبني على النهج الديمقراطي و الذي يعني حكم الشعب اصطلاحا، بحيث يحتكم إلى الإرادة الشعبية وحرية الاختيار في انتقاء الممثلين للشعب و حكامه، من خلال تنظيم انتخابات يفترض أن تكون شفافة و نزيهة بحضور ممثلين عن المجتمع السياسي و تنظيماته ومؤسساته أثناء عملية التصويت و الفرز، و الفوز يكون حليف من فاز بثقة الأغلبية من المصوتين، و ينتظر من الحاكم أساساً أن يسهر على تطبيق القانون واحترام الثوابت الوطنية و إشراك الممثلين في مراقبة الحكومة دوريا على أن يتم كل هذا في فترة انتخابية محددة دستوريا.

و من مميزات هذا النظام ، الذي يعد جون لوك (J. Locke) أحد الأعمدة المؤسسة للنظرية الليبرالية، أنه يقوم على الحرية السياسية فيرفع كل القيود عن النشاط السياسي⁽⁶⁾ من خلال السماح بإنشاء الأحزاب السياسية و حرية التعبير و المشاركة السياسية سواء أكان ذلك انتخابا أم ترشحا، كما ينادي هذا النظام إلى ضرورة استقلالية السلطات لاسيما السلطة القضائية⁽⁷⁾ ، مما يعني إمكانية محاسبة الطبقة الحاكمة و النواب و مسيري المصالح العامة.⁽⁸⁾

كان هذا عرضا نظريا لمبادئ النظام الديمقراطي الليبرالي، أما على المستوى التطبيقي فهناك العديد من التجاوزات التي تقع في ثنايا هذه الوصفة السياسية، فهي نظريا تدعو إلى الحرية وتضعها ضمن أهم أولوياتها وتمجد الحرية السياسية وتعتبرها دعامة أساسية لتحقيق النضج الديمقراطي، وأنه من الضروري فتح المجال للعمل السياسي لكافة الأفراد بالتساوي، أما الواقع فيكشف عكس ذلك، بحكم أنها أنظمة تتحكم فيها قوة المال و الأعمال، فالمسيطر اقتصاديا هو المسيطر سياسيا⁽⁹⁾،

و من أجل هذا فأسلوبها في إدارة الشؤون السياسية مبني على البراغماتية الفاحشة التي تهتم بالنتائج دون النظر إلى الوسائل، " و يتمثل دافع السيطرة في التصنيع و في النهج العلمي، كما يتمثل في المذهبين الفيلسفين اللذين يقال لهما المذهب البراجماتي و المذهب الإنساني، و يقول كل من هذين المذهبين على العموم إن معتقداتنا تكون صحيحة بقدر ما تمكنا من استخدام هذا الشيء استخداما ينفعنا، و هذا ما

⁶ - رمسيس عوض، رسل المفكر السياسي، دار الطباعة و النشر، القاهرة 1966، ص ، 100.

⁷ - الطيب بوعزة ، نقد الليبرالية، مكتبة فهد الوطنية، الرياض ، ط1، 2009، ص، 24- 25.

⁸ - الطيب بوعزة ، المرجع نفسه ، ص 72.

⁹ - رمسيس عوض، رسل المفكر السياسي ، ص 97 .

يمكن تسميته بالنظرة الحكومية للحقيقة"⁽¹⁰⁾، ذلك " أن النظرية الليبرالية في السياسية بمعناها العام هي نتاج التجارة"⁽¹¹⁾، فالغاية تبرر الوسيلة، لدرجة أنها تعتمد إلى الظلم و الاحتقار السياسي و افتعال الذرائع و المبررات للحفاظ على مصالحها السياسية سواء أكان هذا داخليا أو خارجيا من قبيل عدم الالتزام بتعاليم الديمقراطية و انتهاك حقوق الإنسان والتدخل لحماية الأقليات، فيكون من الطبيعي خلق بؤر للتوتر بفعل التدخل في الشؤون السياسية لدول أخرى من أجل استنزاف خيراتها و استغلال شعوبها⁽¹²⁾. مما يبيح للسلطة السياسية تسخير كل الأساليب العلمية و الطرق المعرفية و الإمكانيات التكنولوجية لتحقيق مآربها السلطوية.

إن موقفاً بهذا الشكل من التعميم في الأحكام يدفع بنا إلى توجيه بعض الانتقادات التي نعتقد أنها على جانب من الموضوعية، فلا يمكن أن يكون للحياة السياسية و تقلبها علاقة وطيدة بإفرازات العلم ببعديه النظري و التطبيقي، بدليل إمكانية مساهمة العلم بشكل واضح في النهوض بالحياة السياسية مساهمة إيجابية، من قبيل ما يقدمه من ضمانات و أدوات و وسائل الرقابة في ثنايا الممارسات السياسية، لاسيما الوسائل المادية و الإعلامية و الأخلاقية و الأدبية التي تنحو بالحياة السياسية منحاً إيجابياً و بالتالي المساهمة الفعالة في تحقيق السعادة و الرفاهية للمجتمع و مؤسساته المختلفة.

أما الديمقراطية الاجتماعية أو الاشتراكية هي نظام سياسي سيطر بداية من عشرينيات القرن الماضي و امتدت فلسفته العملية لتشمل كافة دول المعسكر الشرقي بعد الثورة البلشفية⁽¹³⁾ و الإطاحة بالنظام القيصري في روسيا، فظهرت هذه النظرية السياسية للمطالبة بتغيير النظم السياسية التقليدية وعلى رأسها نموذج الديمقراطيات الليبرالية الغربية نظراً لما تحمله من تناقضات في صميمها و ما يترتب عنها من نتائج تتنافى مع قيم العدالة و الإنسانية و ما تفرضه من بؤس و شقاء إنساني، بإعطاء بديل عملي يزيح أساليب التسيير الليبرالي و يستبدله بمفهوم الدولة كأداة لإدارة الشؤون السياسية، و من هنا فالملمح الغالب هو النظرة الأحادية في المعلم السياسي التي تأتي في طليعتها الأحزاب اليسارية الاشتراكية و الشيوعية و التي يليها وصف الديمقراطية.

¹⁰ - رسل، النظرة العلمية، ت. عثمان نويه، ت، عثمان نويه، دار المدى للثقافة و النشر، دمشق، ط1، 2007، ص، 240 .

¹¹ - رمسيس عوض، رسل المفكر السياسي، ص، 105.

¹² - رمسيس عوض، المرجع نفسه، ص، 93.

¹³ - مصطلح يعني الأغلبية باللغة الروسية.

وتتصف الأنظمة الديمقراطية الاشتراكية عموماً بالتضييق على المشاركة السياسية وجميع السلطات الثلاث في يد الطبقة الحاكمة، مما يعني ممارسة الاستبداد بشكل مقنن و استخدام أساليب القهر و العنف في حق الفئات التي لا تقاسم السلطة نفس القناعات السياسية مع احتمال التصفية الجسدية و الزج بها في مراكز الاعتقال الإنسانية كما حدث في الفترة الستالينية، فيصف رسل وضعها السياسي بالقول: " تنطوي صورة الاشتراكية التي تقوم فيها الدولة بدور صاحب العمل و يتلقى فيها كل من يعمل أجراً، على أخطار استبدادية و عرقلة للتقدم و تجعلها أسوأ حتى من النظام الحالي، إذا كان هذا ممكناً" (14).

و يهتم هذا النظام بالعمل على تلبية المتطلبات الاجتماعية للأفراد فقط ، فتبادر بالسعي لمحاربة الطبقة الاستغلال من خلال إقرار الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج و توزيع عائداتها بالتساوي على العمال، بالإضافة إلى تقديم خدمات اجتماعية مجانية بهدف مساعدة الطبقة الضعيفة اقتصادياً نتيجة دخلها المحدود، من تعليم و صحة و باقي المتطلبات الاجتماعية الهادفة إلى القضاء على الفروقات الاجتماعية (15). و كان من الطبيعي أن يترتب عن هذا التصور السياسي القائم الكثير من المواقف المعارضة لاسيما في الغرب، فتعرضت روسيا إلى الحصار الاقتصادي و العلمي و ساءت حينها أحوال الناس اليومية خاصة إذا كان الوضع الاقتصادي لا يسمح لروسيا بمواجهة هذا الطوق مما اضطرها إلى العودة إلى الأساليب البدائية من أجل التكيف مع هذا الموقف، باعتبار أن الاقتصاد الروسي لاسيما الصناعي في غالبيته كان رهين الخبرات الأجنبية، و في تلك الظروف تركزت معاني التعاسة و البؤس و أصبح من الصعب إقناع العامة بأن هذا النظام هو الأقدر على جعلهم سعداء أكثر من غيرهم من شعوب العالم إلا إذا كان ذلك بسطان القهر و العنف و الخوف و التهيب.

يبدو أن للنظريات السياسية دور كبير في صياغة موقف رسل إزاء طرق و أهداف توظيف العلم و التقنية في الجانب السياسي حيث كانت باعثة على النقد والإصلاح نظراً لما شابها من نقائص و عيوب، فالنظام الديمقراطي الرأسمالي والديمقراطي الاشتراكي كلاهما صادر حرية الإنسان بشكل أو بآخر فهما لا يختلفان، من حيث أن كليهما يضع الآلية في مقدمة انشغالهما، إذ كانت الصناعات الاحتكارية أو النشاط الصناعي في الدول الشيوعية في تلك الفترة قائمة على الآلية من أجل الآلية ذاتها و ليس من أجل إسعاد البشرية و خيرها، ما يعني أن هذه النظرة ستؤدي إلى وأد كل ما هو جميل و فني في الحياة الإنسانية. (16)

14 - رسل، سبل الحرية ، ص ، 211.

15 - رسل، المصدر نفسه ، ص ، 26.

16 - رمسيس عوض ، المرجع السابق ، ص ، 127.

إن التدقيق في هذه النتائج و المنطلقات يوشك أن يكرس حقائق ليست بالضرورة ما كان عليه الوضع حقيقة في نظرنا، إذ أن الوضع لم يكن سوداويا تماما بهذه الصورة القائمة، و التي يعتقد أنها الباعث الوحيد لإعادة النظر في علاقة العلم بالأخلاق التي ساقها رسل في كثير من مؤلفاته، فالشرق الاشتراكي كان أيضاً محل إعجاب بالعلم و تكريس نتائجه في خدمة مصالح الأفراد و الجماعات ، فاهتمامه بالعلم لا يختلف عن اهتمام الغرب الليبرالي به، و نلمس هذه الحقيقة في السبق العلمي الذي حققه الشرق في ميدان التكنولوجيا و تطبيقات العلم العملية، انتكاسة و حتى بافترض انتكاسة استغلال نتائج العلم في روسيا الاشتراكية، فإن الخلل لا يكمن بالضرورة في العلم النظري و بحوثه التطبيقية بقدر ما له صلة بذهنية و مزاج الطبقة السياسية المتطلعة لامتلاك عناصر القوة و سعيها للسيطرة و التفوق على خصومها.

صحيح أن الحياة السياسة كان لها وزن كبير في إثارة الشعور بالتعاسة و الشقاء، إذا كرست أشكال الاستبداد السياسي- بالاعتماد على الأساليب العلمية طبعاً، و ما تزودها به مخابر البحث العلمي من أدوات و تكنولوجيات و الاستعانة بخبرة المعاهد الدولية المتخصصة في الدراسات الإستراتيجية- حتى في ظل مجتمعات كنا نعتقد أنها الأكثر ديمقراطية و نعتبرها إلى اليوم قدوة في الانفتاح، إذ تبين أن قوة المال والأعمال هي الفيصل في كل تجربة سياسية و لو كانت عريقة، فالقوي اقتصاديا هو الأقوى سياسيا بالضرورة و أن كل ما يتبع ذلك من مواعيد وإجراءات انتخابية يبقى شكليا.

يضاف إلى ما سبق أن هذه الأنظمة في جوهرها لا تحترم النزاهة في ديمقراطيتها التي يفترض أن تكون سليمة ديمقراطية أئينا، بل تعتمد إلى السيطرة و الاستعمار و لا ترى بدا في غزو دول ضعيفة تملك ما تعتقد أن يمثل مصدرا للثروة و سبيلا لتقوية نفوذها و هيمنتها، مستخدمة في ذلك مبررات و ذرائع تمهد لتدخلها

العسكري في سياق فلسفة نفعية و براغماتية هدفها تحقيق المصالح و أن العبرة في النتائج دون الاكتراث بحكمها الأخلاقي، حتى و إن كنا نعتقد أن الأنظمة الليبرالية ليست بهذه المساوى بعدما اجتهدت في فتح المجال السياسي للأفراد و القيام بالعديد من الإصلاحات التي تحد من هيمنة رجال الأعمال و دعم السلطة القضائية التي تحقق في مصادر تمويل الحملات الانتخابية و علاقة ذلك بالوسط المالي، مما عزز ثقة المواطن في نزاهة المواعيد الانتخابية الهامة و المشاركة فيها بقوة.

أما العينة الثانية فهي صريحة في نهجها الاستبدادي حيث تمارسه علنا، فتحاصر حرية الفرد السياسية و تدعوه إلى القبول بالوصاية و تجعل مشاركته في المسار السياسي شكلية و دعائية بالأساس، خاصة إذا كانت تتمسك بزمام السلطة و ترفض مبدأ التداول عليها مع التضييق على المعارضة و محاربة التشكيلات الحزبية و نفي الخصوم و المنشقين، لكن هل يعني هذا أن هذه الأنظمة ألغت كل الحقوق السياسية للأفراد ولم تتخذ من سلطة العلم إلا دعامة للممارسة الاستبداد أم ميزها أيضا حضورا للأبعاد الأخلاقية في نظرها للعلم و التكنولوجيا و مراعاتها على المستوى التطبيقي؟ قد يصدق إلى حد ما على الديمقراطيات الاشتراكية التي تدير الحياة السياسية بيد من حديد،

و على الرغم من ذلك، فإن الأنظمة الديمقراطية الليبرالية - كما أشرنا سابقا - لا تركز الاستبداد على كافة المستويات ، فهناك مجال للممارسة الحرة لاسيما في ظل السلطة الرابعة التي تكشف ما يجري في الكواليس و ترفع جهود التعتيم، و تبحث في مصادر تمويل الحملات الانتخابية و تفضح ما كان مشبوها منها بالدليل، مما أضفى على الحياة السياسية أكثر شفافية، أما فيما يخص أشكال الاستغلال فقد تراجعت بحكم وجود منظمات دولية و محكمة دولية ترافع ضد الضعفاء و تحاكم السلطات المستبدة و تحقق في جرائمها و تخضعهم إلى المسألة باعتبار أن هذه السلطات القضائية ذات استقلالية تامة و لا تخضع إلى أية جهة وصية. و هذه الآليات التي تسمح بتجسيد هذه الأغراض النبيلة ذات البعد الأخلاقي في مستواها السياسي، تكشف لنا إلى حد ما مدى حضور القيم الأخلاقية في الممارسة العلمية و تبني نتائجها التطبيقية لافتكاك إنجازات إنسانية و حضارية تحتوي على عناصر قيمة مدارها الخير و الشر و هذا ما يستجيب دوما لمقتضيات المجتمع العلمي و مبادئه التي يقوم عليها.

2- العلم أداة للدعاية و التضليل السياسي:

أما على المستوى الداخلي فالواقع السياسي أكثر سوءاً، فيبدو المشهد السياسي أنه قائم على النزاهة و الشفافية، أما الاقتراب من حيثياته فيبين أنه مؤسس على مبادئ لا تختلف عما كانت عليه في المجتمع الطبيعي الذي قدمه بعض فلاسفة العقد الاجتماعي كافتراض لتبرير الانتقال إلى المجتمع السياسي، و نعني بهذا أنه وضع سياسي تتحكم فيه قدرات الفرد المادية و الاقتصادية حتى يتمكن من السيطرة سياسياً.

فالحياة السياسية مبنية على الانتخاب الطبيعي، فالمرشح لأي منصب سياسي بحاجة إلى قوة المال لتمويل حملته الانتخابية و ما يقتضيه من قدرة على الفوز بتركية لوبيات الاقتصاد وأصحاب الاستثمارات الكبرى والشركات العملاقة⁽¹⁷⁾، التي تختار الحاكم السياسي تبعاً لقدرته على ضمان مصالحها و الزيادة في رصيد أرباحها على النطاقين الداخلي و الخارجي ، بحيث " سيلجأ أقطاب المال الذين يتحكمون في مصائر السياسة الأمريكية إلى الضغط الدبلوماسي و القوات المسلحة، بل سيلجئون عند الاقتضاء إلى الاستيلاء على الأقاليم لتحقيق السيطرة السياسية"⁽¹⁸⁾.

لا بد هنا من استدراك بعض التفاصيل الواردة في هذا التحليل و التي نعتقد من الواجب الوقوف عندها بوقف نقدية و تفويمية بالاستناد إلى ما يؤكد الوقع السياسي الراهن، حيث أن تراكم التجارب السياسية للمجتمعات البشرية الحالية جعل من المعرفة و التقنية و تطبيقاتهما شرطين أساسيين للتطور و التقدم في الحقل السياسي، و من ثمة لم تعد إشكالية علاقة العلم بالأخلاق و ما تقتضيه من تساؤلات تطرح بنفس الحدة في سياق مساعي تطوير مساوئها و سلبياتها الكلاسيكية التي أثارها البعض سابقاً، أما تحليل هذا التجاوز فمرده إلى انتشار الوعي السياسي لدى الطبقات السياسية و الذي يحث على ضرورة احترام خيارات الأغلبية و الحفاظ على مصالح عموم الأفراد و ما يقتضيه من صيانة للدعائم الأخلاقية و القانونية التي تستقر عليها الحياة السياسية العامة للدولة.

¹⁷ - سبينوزا ، رسالة في السياسة ، ترجمة عمر مهيبيل ، المطبعة الوطنية ، الجزائر ، 1995 ، ص ، 124.

¹⁸ - رسل ، سبل الحرية ، ص ، 149.

من هنا يتضح أن الديمقراطية الليبرالية في المجتمعات الغربية ديمقراطية شكلية، تخضع لمنطق المنفعة و القوة المادية و الاستخدام الضيق للقدرات العلمية و تكريس الجهود العلمية و التسويق لها بهدف ضمان التفوق السياسي لاسيما التوظيف المباشر لوسائل الإعلام الثقيل و الخفيف منها لأغراض دعائية و رفع شعارات طوباوية و التبشير بأفكار إيديولوجية زائفة في الممارسة السياسية حتى وإن كانت تدعي عكس ذلك نظرياً بمنح الأفراد حقوقاً سياسية نظرية كحرية التعبير و المشاركة السياسية و حق الترشح و الانتخاب و فتح مجال الإعلام و حق المعارضة دون الإفصاح عن سر التفاوت في الحصول على هذه المكاسب السياسية و الطرق الممكنة لتحقيقها.

فالحق متاح للجميع نظرياً و القدرة على الإمساك به للقلة عملياً، فهي قائمة على التفاوت الاجتماعي بدعوة من أعلام هذا الاتجاه السياسي منهم فولتير (voltaire)، و مونتسكيو (Montesquieu) (19)، و بالتالي تبقى مجرد شعارات سياسية يراد بها الترويج لها إعلامياً وسياسياً و توظيفها لممارسات و ضغوطات سياسية على دول أجنبية تصنفها بأنها أنظمة شمولية، إذ يؤكد رسل هذا الحقيقة " بأن العالم الذي نعيش فيه قد امتلأ شراً حتى فاض عبابه و ليس لنا سوى أن نرجو انجلاء هذه الشرور كما تتجلى ظلمات الليل الكثيفة، و مع هذه الرغبة القوية في محو هذه الشرور فما زالت على حالها من القوة و التمكن" (20).

إن الإعلام و الدعاية التي حث رسل على ضرورة تقييدها و ضبطها بمنظومة قانونية و أخلاقية أصبحت من توصيات الماضي، بحجة أن هذه الوسائل لم تعد تستخدم بإطلاقية و عشوائية مثلما كان عليه الحال في الماضي القريب، فهي تخضع حالياً و بالخصوص في المجتمعات الديمقراطية إلى دفتر شروط واضح المعالم يدعو الإعلامي المحترف إلى احترام مبادئ و دعائم الإعلام الحر و ركائزه الأخلاقية، و في آن واحد تحمل تبعات هذه الحرية الإعلامية من خلال توعده بالتعرض إلى المتابعة القضائية في حالة ما إذا خالفها و أدخل بشروطها و نصوصها، و عليه لا مخافة اليوم على الأقل من وجود مثل هذه الانتهاكات و التعديلات و التجاوزات، بل بالعكس إن هذا الجهاز الديمقراطي صار يحتل مكانة أساسية في مناحي الحياة العامة و يعول عليه بشكل بارز في النهوض بالمجتمع نحو الأفضل.

19 - الطيب بوعزة ، نقد الليبرالية ، ص 73.

20 - رسل ، مثل عليا سياسية ، ت، فؤاد كامل عبد العزيز، الدار القومية للنشر، القاهرة، 1986، ص ، 15.

و يلاحظ أن التصور الماركسي في مستواه السياسي يوصف عادة بأنه نظام طوباوي⁽²¹⁾، و الذي كان محل نقد من قبل العديد من المفكرين، منهم ميشيل فوكو (Michel Foucault) و ألتوسير⁽²²⁾ (Althusser)، فهو أقرب إلى النظري أكثر منه إلى التطبيقي، حيث كان بمثابة طرح فلسفي يمثل تصوراً لنظام اقتصادي يكفل تحقيق العدالة الاجتماعية و الرخاء الاقتصادي و هي ذات الأهداف التي لم تتمكن الأنظمة الاقتصادية السابقة- في رأيهم- من تجسيده، إلا أن التجربة الاقتصادية مع هذا النظام كانت بعيدة في نتائجها عن هذه الطموحات، إذ يفقد هذا النظام التماسك الذي يبدو عليه حينما يتم إسقاط هذه النظرية على أرض الواقع، فكثيراً ما ارتبط هذا التصور بالعديد من المساوئ و العيوب.

و يعزى ذلك حسب بعض المنظرين السياسيين إلى عدم تمكنه من مراعاة ماهية وطبيعة الإنسان و التي ترفض الاستسلام للخوف و السيطرة و العنف و ميالة إلى الحرية و الانعتاق وتنشد العدالة في الحقوق و الواجبات مما عجل بسقوط قلاع هذا النظام، إذ أن طبيعة التسيير ما فتئت تفرز العديد من النقائص و التناقضات، منها استناده على آلة القوة و العنف و التعويل على الدعاية و تهمين البحوث العلمية و فبركة نتائجها للإبقاء على هيمنتها السياسية، و الإدعاء بأن الحاكم يمثل صوت الشعب و يحترم توجهاته السياسية. كما تميز بانتشار اللامبالاة و تعطل المشاريع بفعل مصادرة روح الإبداع و الابتكار العلمي و التكنولوجي إلا ما ينسجم منها مع التوجه السياسي و الإيديولوجي للسلطة الحاكمة، مما جعل النمو الاقتصادي بطيئاً و يفتقر إلى أبسط ضروريات الحياة و صرف الأموال في التسليح و الدعاية و تقوية ركائز النظام و أجهزته القمعية فتراجعت الحريات و حل محلها الخوف و الاضطهاد و استعمال كل الوسائل للدفاع عن هذه التوجه السياسي والتدليل على أنها الايديولوجيا الأفضل سياسياً، فيخبرنا رسل عن الطابع العام لهذا النظام، بأنه " بات عسيرا على المرء أن يضع ثقته في الدولة كوسيلة للحرية أو في الأحزاب السياسية كأداة قوية إلى حد يرغم الدولة أن تكون في خدمة الشعب"⁽²³⁾.

²¹ - Kader . S. Nair , **Théorie et politique** , Imprimerie nationale, Alger, 1984.p. 61

²² - Ibid. p. 93

²³ - رسل ، سبل الحرية ، ص ، 48 .

أما على المستوى العلمي فكان الطابع العام هو تسخير الأبحاث العلمية لتطوير منظومة الدفاع و الهجوم العسكرية و السباق لابتكار وسائل الفتك و الدمار و لم يكن الاستخدام السلمي لها إلا نادراً، فالأهم هو تحدي الغرب و إثبات فشل خياراته السياسية، و يلخص رسل هذه المعطيات أنه " و في الواقع لقد أثبت الزمن أن نظريات ماركس لها عدة مآخذ"⁽²⁴⁾.

و قبل الانتقال إلى فقرات المبحث الثاني، حري بنا أن نجتهد في استنباط بعض الحقائق التي نستشفها من بين سطور المبحث الأول، و لعل أهم هذه الاستنتاجات أن العلم في كل الأحوال يبقى حيادياً في حد ذاته و من هنا لا يمكن تحميل مسؤولية ما شهده العالم من خروقات و كوارث و تجاوزات، فنتائج العلم مهما كانت لا شك أنها بريئة و المسؤول عن ذلك الوضع هو بطبيعة الحال، من يستغلها في غير محلها، أي بعيداً عن غايتها الإنسانية التي ارتبطت دوماً بالهدف الأسمى للمعرفة، و يترتب عن هذا أيضاً أنه لا يعقل أن يتم لحاق الاقتضاء بالعالم أو الباحث.

فلا ينبغي أن يكون محل تجريح و نقد ، إذ أن نتائج التقنية ما هي في نهاية المطاف إلا تكريس للاستغلال السيئ من طرف السياسة و أصحاب النوايا السيئة و بالتالي يجب علينا أن نتجاوز الرأي الذي يُحمّل العلم و العلماء سلسلة الإخفاقات و الكوارث السياسية التي شهدها العالم في الفترات المتأخرة و التي كانت نتيجة استغلال نتائج التقنية بشكل سلبي و مفرج. و نعني بهذا ما شهده العالم من حروب و نزاعات و انتهاكات استخدمت فيها التقنية أبشع استغلال و التي استجابت في مجملها إلى تطلعات سياسية و رغبات فردية جامحة تسعى لحيازة أسباب التفرد بالقوة و التسلط.

²⁴ - رسل ، المصدر السابق ، ص ، 44 .

المبحث الثاني: توظيف العلم والتقنية في الحياة الاجتماعية و الاقتصادية دون الاعتبارات الأخلاقية.

1 - العلم و الواقع الأسري و الاجتماعي:

إن الظروف الاجتماعية التي سادت مطلع القرن العشرين كانت باعثا على النقد و الاعتراض من قبل رسل، فعوض أن تكون هذه المجتمعات ساعية إلى المحبة و الصداقة، نراها تعمد إلى نشر الحسد و الكراهية، حيث أن سلوكها الاجتماعي يستجيب إلى الدوافع الفطرية الإنسانية من أنانية و حب الذات و رغبة في إقصاء الآخر و التغلب عليه مما يطبع حياة العامة من الناس بطابع الصراع و التوتر والمواجهة، فلا غرابة أن يكون هذا العصر عصر الحروب و الأزمات السياسية و الاقتصادية ما دامت الرغبة في تحصيل المنفعة الشخصية هي الغالب و السائد.

كما يتميز الواقع الاجتماعي بذيوع أفكار و ثقافات تنادي بالتطرف و العنصرية و رفض الأجنبي لكونه يمثل منافساً و دخيلاً و يشكل تهديداً للثقافة المحلية و العمل على زوالها من الداخل، فيرجح أن هذه الأفكار انتقلت إليها و نهلتها من بعض التيارات الفكرية المتطرفة و الإيديولوجيات المعاصرة مثل النازية و الفاشية، و من هنا يقترح رسل بغية القضاء على هذه الاتجاهات من خلال احترام الحريات الفردية و الجماعية التي تعد من أهم ركائز الديمقراطية و إحدى أبرز سننها، " فالجو الديمقراطي يساعد على القضاء على الزعم من حق الرجل الأبيض أن يمارس سيادته على الأجناس الأخرى. فالنقاش الحر يساعد على دحض الأفكار الداروينية القائمة على نظريات شبه علمية المؤيدة لمبدأ التفرقة العنصرية" (25).

و بالعودة إلى الراهن، و على مستوى الفردي، يلاحظ تراجع الحريات الفردية، إذ أن هذا المكسب الطبيعي أصبح في انكماش مستمر خاصة في ظل وجود قوانين تحد من هذه الحريات و تضع أمامها حواجزاً و خطوطاً حمراء، حيث بات من الصعب على الفرد أن يعبر عن آرائه بكل حرية و يعبر عن تطلعاته و ذاته بكل سهولة و يبدع و يبتكر في مجالات الحياة بكيفية سلسة، فالسلطة السياسية صادرت هذه الحقوق و آزرها سلطة المجتمع التي تسعى إلى إضفاء التجانس بين الأفراد في ردود أفعالهم و إكراههم على الانصياع لقانون الزمرة، و لا ترى في معارضته إلا تمرداً عليها ينبغي أن يسحق و سلوكا يجب أن يدان و يستهجن.

(26)

²⁵ -رئيس عوض، ، رسل المفكر السياسي، ص ، 115.

²⁶ - رئيس عوض ، المرجع نفسه ، ص ، 190.

و على صعيد البناء الاجتماعي، يبدو أن رهانات التطور و التقدم مازالت تراوح مكانها وتعرضها العديد من الصعوبات في ظل وجود مشاكل تواجه الفرد يوميا تحول دون انفتاحه على ذاته و على العالم الموضوعي، فالقوالب الاجتماعية الجاهزة تؤكد ضرورة الانصياع للأطر الاجتماعية و التمسك بها سواء كانت عقائدية أو أخلاقية، مما انعكس سلبا على قدرة الفرد في إبداء قناعاته الخاصة و التعبير عنها بكل حرية.

و فيما يخص الوسط الأسري، فالوضع القائم يميل بالدرجة الأولى إلى الفردية والاستقلالية و بذلك أضحت الأسرة مهددة بالانحلال و فقدان وظيفتها البيولوجية و التربوية و الاجتماعية، و التي من خلالها تحفظ بقاء النوع و تمنح عناصر التوازن النفسي و تمارس دورها التهديبي و التربوي، بدعوى الحرية و النزوع إلى تحقيق السعادة الفردية و الاعتقاد بعدم وجود ضرورة تلزمهم بربطها بسعادة الغير، و الحاجة لمشاركتهم و إشرافهم، ففي نظر هؤلاء أنهم مستقلون اقتصاديا، و هو الأهم و لهم وجود مستقل عن كيان الجماعة. إن تركيبة المجتمع كان لها أثر كبير في إرساء موقف رسل مما هو متداول من طبيعة العلاقة بين العلم و الأخلاق، و الميل إلى فرضية إمكانية الاستغناء عن الوازع الأخلاقي و الاهتمام بما يقدمه العلم و الثقافة من حلول في سياق مواجهة تحديات و قضايا المجتمع، حيث أفرزت هذه البنيات الاجتماعية العديد من العوائق و التحديات ذات طبيعة اقتصادية و اجتماعية، منها على سبيل المثال مشكلة شيخوخة المجتمعات الغربية و انتشار ظاهرة الطلاق التي تعتبر تهديدا لاستمرارية المجتمع الغربي و احتمال زواله و اندثاره لاحقا، مما اضطر رسل إلى تبني موقفاً اتجاه هذه الأوضاع و البحث عن كيفية معالجتها و تغيير الذهنيات و الثقافة المسيطرة على هذه المجتمعات، " فحتى في أوقات السلام يعيش أغلب الرجال حياة من العمل مملة ثقيلة فالنساء تدفعن إلى أعمال شاقة تقتل الأمل في حياة سعيدة قبل انقضاء الشباب، و الأطفال يتكون لينشعوا في جو من الجهل لا تذكو فيه عقولهم و لا تنشط فيه أحيلتهم."⁽²⁷⁾

²⁷ - رسل، مثل عليا سياسية، ص ، 16.

يضاف إلى هذه التحديات الانتشار الواسع للجريمة بجميع ألوأها وأشكالها، إذ نادرا ما تسلم التجمعات السكانية من مظاهر الانحراف و العدوى التي تنتقل من ضاحية إلى أخرى، لاسيما إذا كانت الظروف الاقتصادية تتسم بطابع الفقر المدقع كما هو الحال في بعض التجمعات السكانية أو الغنى الفاحش، فيكون من الطبيعي تعشيش السلوك الإجرامي و تفريخ عدد لا حصر له من المجرمين و المنحرفين باعتبار هذا السلوك وسيلة للتكسب و أداة لتغيير واقعهم الاجتماعي و الاقتصادي دون مراعاة انعكاساته الأخلاقية.

أما مبررات تفسير هذا الوضع، فمرده حسب العديد من المواقف الفكرية و الفلسفية و حتى العلمية (28) إلى غياب العدالة الاجتماعية و التوزيع العادل للثروات أو من أجل الحفاظ على مصالحهم الاقتصادية في ظل التنافس الحاد بين العصابات و الجماعات الإجرامية، فتلجأ إلى تصفية خصومها و منافسيها، وعلى هذا الأساس أضحي طبيعي أن يميل الأفراد إلى النصب و الاحتيال و السرقة و المتاجرة في الممنوعات و الترويج لها، و التي تعلق لإقامتها على هذا الطراز من السلوكات بغياب خيارات اقتصادية و وجود دواع و التزامات اجتماعية تدفعهم إلى ذلك.

و ما زاد من وتيرة هذه النشاطات الإجرامية هو عجز الحكومات عن معالجتها بسبب قصور في الوسائل و الإمكانيات المختلفة و شساعة المساحة في حالة التهريب و المتاجرة في الأسلحة، أو غياب سياسات اقتصادية ناجعة تمكن الفرد من تحسين مستواه الاقتصادي وبالتالي إحياء الأمل في تحقيق سعادته و بهجته في ظل واقع يفترض أن يراعي التوازنات الاقتصادية و يكرس الجهود العلمية و التكنولوجية لتحقيقها، وهناك سبب آخر ساهم في انتشار الجريمة يتمثل في سياسية اللاعقاب و التي تقرأ على أنها تشجيع لارتكاب المزيد منها. (29)

و يلاحظ اجتماعيا أيضا وجود أسباب تمنع تحقيق سعادة الأفراد التي تمثل الغاية القصوى نظريا من طلب العلم و المعرفة و الاستعانة بالتكنيك في حياتنا اليومية، منها عيوب تتصل أساساً بالتعليم و أهدافه، حيث يسود في أساليب التربية حب التطابق و التجانس و احتقار الفردية، أما هدفه الجوهرى يختزل في الخضوع للسلطة و غرس الآلية و أحيانا الهراء عن طريق التكرار و ما يعقبه من أثر مغناطيسي في مطلع

28 - موقف النظرية الوضعية من الإجرام خاصة مع فيري الذي يعتقد أن الجريمة سلوك حتمي تتحكم فيها شروط اقتصادية

موضوعية، فالفقر المدقع و الغنى الفاحش في نظره كلاهما طريق نحو الجريمة.

1 - رمسيس عوض، رسل المفكر السياسي، ص 173.

حياة الفرد ، حيث " أننا أصبحنا غير قادرين على الإيمان بالكمال الجامد، وصرنا نتطلب في أي نظام اجتماعي نرتضيه أن يتضمن في ذاته الباعث و الفرصة للتقدم نحو الأفضل." (30).

و من هنا فالأساليب التعليمية لا تسعى إلى تحرير الإنسان فكرياً ولا تعمل على نضجه ذهنياً وتأكيد حريته في التعبير و من ثمة تكوينه ليصبح فرداً صالحاً، بل تسعى إلى جعله مواطناً صالحاً بمعيار الوفاء لمبادئ و ثوابت التوجه السياسي و الاستجابة للسلطة الحاكمة بالانقياد والاستسلام و القبول بهيمنتها واستغلالها الدائمين (31).

و إذ كان من المنتظر أن يهدف النظام التربوي إلى تكوين الفرد و تنشئته حتى يصبح بمقدوره أن يتخذ موقفاً إزاء مشكلات، و يبدع أيضاً وسائل للتكيف و يستخدم الأسلوب العلمي في التعامل معها و البحث عن حلول ناجعة لمعالجتها و الاحتكام إلى العقل و المنطق في بناء أحكامه المعرفية و الأخلاقية، كما " أن الفرد في المجتمع العلمي يشعر بضآلته و هوان شأنه، فتركيز السلطة في يد قلة يسلب الكثرة قدرتها على المبادرة" (32)، لقد حث رسل على البحث عن بدائل لإصلاح منظومة مجتمعه التعليمية و تغيير مناهجها التربوية بحكم غياب هذه المواصفات الفردية و التقصير في تقديمها اجتماعياً.

إن الواقع الأخلاقي هو الآخر كان مؤطراً و باعثاً على موقف متميز لدى رسل، باعتباره دعامة أساسية للإبداع العلمي و التقني و تطوير للمناهج العلمية و التعليمية و التربوية، فالملاحظ أن الوضع الأخلاقي الذي أحاط برسول، أهمل الكثير من متطلبات الإنسان البيولوجية و مهد في نظره إلى الكبت و المعاناة النفسية.

كما أن التقدم الحضاري لم يغير من أساليب التعامل، فبقيت على تزمته و الاعتقاد بأن القسوة و الشدة و التعسف كفيلة بجعل الفرد شجاعاً وقادراً على إثبات رجولته، ثم أن ما يميز القرن العشرين هو الإلحاح على التلقائية و التي كان لها آثارٌ سلبية في اتجاه تدمير الإنسان من الداخل، فلا يحفز على الحركة و النشاط إلا ما يقابل ذلك من أجر، إذ يفتقد نشاطه إلى النشوة و المتعة والرضا و الارتياح، " كما أنه لا ريب في أن الذهن تزداد حدته و قدرته على الخلق في عالم يقل فيه تعرض الغريزة إلى الضغط ، و تكون الحياة فيه أكثر بهجة، و بالتالي يكون الناس فيه أكثر حيوية مما هم الآن" (33).

³⁰ - رسل ، سبل الحرية ، ص ، 169.

³ - رمسيس عوض، المرجع السابق ، ص ، 172

³² - رمسيس عوض ، المرجع نفسه، ص ، 110.

³³ - رسل، سبل الحرية، ص ، 210.

و تلاشت هذه الخصوصيات و الملامح مع مرور الوقت خاصة بمجيء الآلة و انتشارها في التصنيع و ما صاحبها من ملل وقلق و عفوية في الأداء، حيث يبين لنا رسل أن صرخات الألم تتردد أصدائها في قلبي. و أن وجود أطفال يتضورون جوعا و ضحايا يتعذبون على أيدي الطغاة، و شيوخ عاجزين أصبحوا عبئا مقبوتا على أبنائهم – إن وجود عالم من الوحدة و البؤس و الألم، مما يحيل الحياة الإنسانية كما يجب أن تكون إلى سخرية للساحرين . إني أتوق إلى تخفيف وطأة الشر، و لكني لا أستطيع، فإني أعاني منه أنا الآخر. " (34)

يتضح إذن من معاينة الواقع الأخلاقي في الفترة التي أحاطت برسل، أنه واقع محكوم بالتنافس و الاهتمام المفرط بالكم، دون مراعاة المعايير الأخلاقية، فاقصديات العالم الغربي تقريبا لا تكثر كثيرا بالمنظومة الأخلاقية، إذ أنها تلجأ إلى طرق ملتوية في زيادة رأسمالها وإثراء رقم أعمالها مثل الاحتكار و المضاربة و الاستغلال و الهيمنة و الانتهازية و النفعية التي تعكس الأنانية و حب الذات المفرط.

و إذا دققنا في الحياة الأخلاقية بزمكانيتها التي عرفها رسل، سنراها أيضا موسومة بالطبقية و غياب العدالة على كافة المستويات، في ظل وجود مظالم اجتماعية تؤيد فرضية انتفاء السعادة واستمرار حالة البؤس و الشقاء التي ورثتها المجتمعات الغربية من العصور الظلامية (35)، و نشر ثقافة اليأس و فقدان الأمل في أوساطها، و بذلك تبعث على الكراهية و الحسد و الصراع و تشعر الفرد بالتهميش و الإقصاء و أنه موضوع للاحتقار و الهيمنة بعدما يلاحظ أن الغني يزداد غنا و الفقير يزداد فقرا، دون أن يتمتع هؤلاء الأفراد مثل غيرهم بالتذوق الجمالي و الفني و بساطة الحياة و بحجتها، و من هنا فالحضارة الراهنة ألحقت الأذى بالفنون و قوضت قدرات الفرد الإبداعية خاصة في المجال الفكري و الفني، فيعبر رسل عن تدمره من هذا الوضع باعتبار " أن كل ما يجعل الحياة محتملة في نظر من يحب الجمال سيتلاشى في عالم مثل هذا. " (36)

34 - رسل، سيرتي الذاتية، ت، عبد الله عبد الحافظ و آخري، دار المعارف، القاهرة، 1970، ص، 08.

35 - يقصد بها العصور الوسطى التي عرفت بمظاهر الرق و الاستغلال.

36 - رسل، سبل الحرية، ص، 178.

شخصياً، أعتقد و بكل تواضع أن رسل يفوض نفسه ناطقاً رسمياً لقضايا المجتمع لإنساني و ما يعاني منه من محن و صعوبات بشكل يدعو إلى الريبة و الاحتراز، فحديثه عن هذه التجارب لا يلخص في النهاية إلا مظاهر القسوة و العبودية التي عرفتها المجتمعات الأوروبية بالتحديد، بدليل أنه لم يشر إلى ما له صلة بتطلعات المجتمعات الأخرى بالفعل، و لا يأتي الحديث عنها إلا حينما يحاول أن يظهر بمظهر الراعي و الحامي للقيم الإنسانية و الأخلاقية لاسيما في ظل تعرضها للاستعمار و أشنع طرق الاستغلال من طرف قادة و رموز و سياسة المجتمعات الأوروبية ذاتها.

و لا شك أن الفيلسوف البريطاني بتراند رسل كان واحداً من الذين بعثوا طاقات حيوية في علوم الرياضة لكن عقله النشط لم يخدم أبداً و لم تكبله نظريات الرياضة البائسة إلى حد ما عن تدوين ملاحظاته الجديرة بالتأمل عن تقهقر الحضارة عن غاياتها الإنسانية و تقليصها لأبعادها التي تنطوي على جوهر الرحمة و الرأفة و الشفقة، و ربما كانت أولى إضاءته لتحرير العقل من قيوده التي بدت ظاهرياً معرفية، كتاباته العميقة و المؤثرة عن التربية و المؤسسات التربوية متخذاً التفكير منطلقاً أخلاقياً و هادياً للإنسان.

لا شك أيضاً أن فلسفة رسل صدمت العالم في بداياتها حين لاح مثابراً على الإرباك الفكري و تحطيم اليقينيات، و البحث الدءوب عن نهايات مسائل الرياضيات التي تقود بدورها إلى تفكير منطقي حول ما عداها . تلك هي المعضلة التي كافح رسل في تفكيكها، و يبدو مفرطاً في عنايته بالسلمات الأخلاقية الظاهرة و تجريدتها من حوافها الماهرة التي حاكتها المجتمعات في اجترار سخيف للسطوح البراقة التي تخفي أعماقاً آسنة، ساخطاً عليها كل السخط راداً إليها إلى الإطار الشكلاني المجتمعي الذي يغفل الجوهر يحاكم الأشياء إنخداعاً بالمظهر و العبارة تشير بوضوح إلى اهتمامه الفعلي بالفعل الأخلاقي المنطلق من أعماق مجللة بقيم حقيقية و هدمه لإجتراوات المجتمع الكلامية حيال الأخلاق فيما يصفه بتمسك مستعار بقشور أخلاقية.

لعل هذا الإيمان بالفعل انعكس على موقفه الإنساني إزاء الحرب العالمية و الاستعمار و استعجب عليه لعنات الإنجليز الذين بنوا منظومتهم الأخلاقية وقتئذ على معايير التحضر و الحرية و السلام. و هذا ما يتعارض مع فلسفة الإصلاح الاجتماعي التي تحظى بالإجماع تقريبا في الأوساط العلمية، فكان جديرا أن تكون عملية الإصلاح التي باشرها رسل إزاء قيم مجتمعه البالية في نظره أن تتم بشكل تدريجي و لا تمثل كما كان الوضع مع رسل ثورة عارمة ضدها و التي حشدت له العديد من الأعداء أكثر من الأصدقاء و المتعاطفين.

و الواضح أيضا أنه لازم الثورة العلمية مخاطر عدة و تهديدات متعددة، تهدد بشكل جدي كيان العالم في إشارة إلى توظيف نتائج العلوم واستثمارها سلبا سواء في التفوق العسكري أو بغية الدعاية المغرضة المباشرة بالتوجهات السياسية و نصرة لأطروحات إيديولوجية سياسية أو اقتصادية أو فلسفية، أو استخدامها المفرط في الحياة اليومية و ما ينطوي عليه من أخطار صحية و بيئية، فكثيرا ما كانت هذه التكنولوجيات علة مرضية أو مسببة لأخطار إيكولوجية أو تهديدا صريحا من خلال استخدامها في التلويح بالقوة العسكرية، خاصة في ظل وجود اتجاهات فكرية تنادي بفصل السياسية عن الأخلاق أمثال ميكيافلي و نيتشه و هوبز⁽³⁷⁾، و هم المعروفون بفلاسفة القوة .

و مما يجعل العالم على حافة حرب كونية تتجاوز فيها الحروب التقليدية عتادا و نطاق التدمير، لكون الأسلحة الحديثة ذات دمار فتاك و شامل فالنظام الذي لا يستطيع إنقاذ الحضارة من هذه النكبة المهلكة نظام خاطئ من بعض الوجوه، و لا نستطيع أن نرجو له صلاحا ما لم يثبت لنا قدرته على درء الحروب أو تخفيف مصائبها على الأقل . على أن الحرب ليست سوى الثمرة الناضجة في شجرة الشرور العالمية".⁽³⁸⁾

³⁷ - رسل، مثل عليا سياسية ، ص 16.

³⁸ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 17

لقد تميز الاعتقاد الديني الذي تعرف عليه رسل بالغلظة و الجمود و الانغلاق، و كان قوامه الترهيب و التخويف، و يرمي إلى تقويض سلطان العقل و التفكير الحر، فهو تسليم مبني على الخرافة و الأسطورة، فيكون فيه الفرد أبعد ما يكون عن المنطق و المعقول، و يعارض ما تستدعيه طبيعة الإنسان من شروط و ضروريات بيولوجية تحفظ توازنه و تحقق سعادته، إذ يبدو أن هذه الاعتقادات لا تقر بقدرة العلم على حل العديد من المشكلات و تطويقها، فيفضل رجل الدين اللجوء إلى الأساليب البدائية لمعالجتها، ولا يقبل بالتفسير العلمي و نجاعة الأساليب العلمية بحجة أن هذه الحلول العلمية تمثل تمردا في تصوره على القيم و العادات الدينية المتوارثة، و تشكل تحديا للإرادة الإلهية و ضرورتها،

و يوثق رسل بأن " دراسة الماضي القديم، و دراسة الأجناس المتوحشة تلقيان ضوءاً على المشكلة و تدلنا على أن معتقدات القبائل و الأمم كانت في أغلبها زائفة بدرجات متفاوتة، و من العسير علينا أن نتبع تاريخ معتقداتنا في هذا العصر أو في أمتنا، و لكن ليس من اليسير أن يخالطنا شيء من الريب فيها." (39)، و من جهة أخرى، ارتبط الواقع الديني بالتقليل من فرص التفتح الفكري و النقدي و التساؤل الأنطولوجي و البحث الفلسفي القائم على مقارعة الحجة بالحجة و البينة على من ادعى .

و الملاحظ عموماً أن النظم الدينية عموماً تتميز بالتزمّت و تحث على الزهد و التقشف و تصر على التمسك بالأمر و النهي و تحذر من الانقلاب عليها و وضعها موضع تساؤل باعتبار أن ذلك بدعة و كل بدعة و خروج عن المألوف مرفوض و منبوذ. و هنا ينتفض رسل ضد هذا الوضع ليؤكد بأن " النتيجة الوحيدة التي نصل إليها من كل هذه الأمثلة أنه يجب ألا توضع أية عقبة في طريق الفكر أو التعبير عنه، أو في تقرير حقيقة ما. هذا القانون هو أساس الحياة لكل مفكر حر. ومع ذلك فإنه لن يتحقق في يوم من الأيام. بل لقد صار عبر أوروبا من أقصاها إلى أقصاها حقيقة خطيرة يتعذب بسببها المفكرون، ويقاسون من جرائمها السجن و التشريد و القتل" (40).

³⁹ - رسل، سبيل الحرية، ص، 45.

⁴⁰ - رسل، مثل عليا سياسية، ص، 45.

و يعلل مدى جدية مخاطر هذه الممارسات بأن " أشد الأخطار التي تنشأ عن طغيان صاحب العمل هي قدرته على التدخل في حياة أشخاص خارج ساعات عملهم ، فقد يفصل موظف أو عامل لأن صاحب العمل ليس من دينه و لا من حربه " ⁽⁴¹⁾. فكل هذه المعطيات دفعت برسلى إلى الشك في أسسها و الاحتجاج على أساليب تلقينها و على الثقة المفرطة في يقينها و البحث عن مرجعياتها السيكولوجية و التاريخية، فتمكن من إدراك أن الكثير منها غير مؤسس و يعتبر مدخلا للتعاسة و الشقاء.

و من هنا كانت هذه الأوضاع العقائدية دافعاً إلى صياغة موقف رسل الفلسفي على العموم و موقف السعادة الإنسانية على الخصوص في بعدها الديني، و كانت إطاراً لما قدمه رسل من مراجعات و انتقادات لموقف مجتمعه العقائدي الذي دعا إلى التحلي بروح الإذعان و الاستسلام، فتوجت جهوده بوضع تصور لكيفية استعادة دور التفكير العلمي السليم و منطق التعامل مع ما يشيع من أفكار و طقوس عقائدية و ممارسات دينية و تحديد السبل الكفيلة لبلوغها.

لا ريب أيضاً أن عرض هذه النقاط قد كشف لنا ثقل الجانب الاجتماعي و الأخلاقي في تشكيل نظرة رسل إلى علاقة العلم بالأخلاق، حيث كانت العلاقات الاجتماعية حبلية بالمشاكل و مظاهر البؤس و الشقاء منها غياب التفاهم بين أفراد الأسرة، مما ترتب عنه الانحلال الأسري بانفراط عقد الزوجية و أيضاً نتيجة انتشار الجريمة و اللاحق بمعية فشل المنظومة التربوية القائمة على تكوين أفراد عاجزين عن مقاسمة الغير و مشاركتهم في الحياة بدليل الميل إلى الانطواء و الفردانية و التمسك المفرط بالحرية و الاستقلالية. و يضاف إلى هذا، عجزهم عن التفكير بشكل متحرر من ضغط المجتمع و قيمه مما كرس معالم الشقاء على هؤلاء الأفراد، كما يستشهد رسل على حضور هذا الخناق الاجتماعي بالاعتماد على استقراء تاريخ العلماء و المفكرين، فلقد " صار جاليليو (Galilée) رجلاً مكروهاً، و صار يُهزأ به في محاضراته، و هو مصير ذاقه أينشتاين (Einstein) أيضاً في برلين. " ⁽⁴²⁾

41 - رسل، المصدر السابق، ص 21.

42 - رسل، النظرة العلمية، ص 20.

و لكن من الموضوعية أن نشير أيضاً أن تلك الظروف لم تكن كلها سواداً، فقد حملت معها أيضاً معاني السعادة و تبنت طموحات الإنسان و أماله ، خاصة من خلال تطوير مستواه الثقافي و الفكري والاعتناء به و انشغالاته و معاملته بالدرجة الأولى كفرد له كامل الحقوق و على رأسها الحق في الكرامة و حقوقه الطبيعية التي أقرتها الشرائع الإلهية و الوضعية كالحق في الحياة و الحرية و أنه غاية كل حراك اجتماعي سواء أكان سياسياً أو اقتصادياً. أما على المستوى الديني فقد تميز بالتخفيف من أثر الدين من خلال فصل الدين عن السياسية و بالتالي استبعاد عودة محاكم التفتيش و تسلط رجال الدين و هيمنة الكنيسة مجدداً، و أن مسألة الاعتقاد في النهاية، أمر شخصي خال من الإكراه و الإلزام، فيختار الفرد ما يشاء ما يبدو له يقيناً أنه عقيدة ينبغي أن تتبع.

و تعقياً على موقف رسل، ينبغي الإشارة أيضاً إلى بطلان صدق التعميمات في الانتقال من تجربة المجتمعات الغربية التي تتميز بثقافتها و تقاليدھا و إلحاقها قياساً بالمجتمعات الأخرى بها، و هذا ما يتعارض مع قاعدة أرسطية تؤكد في مجملها أن صدق الجزئيات لا يؤدي بالضرورة إلى صدق الكلّيات، و بالتالي عملية الاستدلال هنا تبدو فاسدة شكلاً و مضموناً .

فإذا كانت المجتمعات الغربية محاصرة ببعض مظاهر القسوة و التسلط طبقاً لما يقدمه لنا رسل في العديد من مؤلفاته، فإن المجتمعات الأخرى لم تعرف هذه الممارسات و التضييقات على حياة أفرادها الاجتماعية و الأخلاقية في مراحل تكوينها بالضرورة، فمصادر و مرجعيات القيم الأخلاقية كانت دوماً محل اختلاف و تمايز، و عليه فهذه العوامل لم تكن قيم راسخة و متجانسة لدى كل الأطياف الاجتماعية الإنسانية، و بناءً على ذلك لا يمكن رد انتفاضة رسل إلا على النظم الاجتماعية و الأخلاقية التي عرفت هذه الممارسات فقط .

2- العلم والعلاقات المهنية و الاقتصادية:

يتميز القرن العشرون بسيادة نموذجين اقتصاديين : النموذج الأول هو شكل من أشكال التطور الطبيعي الاقتصادي باعتباره يمثل امتدادا للنظم الاقتصادية الكلاسيكية، حيث أنه استمرارية للنظام الإقطاعي الذي ساد القرون الوسطى، و أما النموذج الثاني فهو يعكس رد فعل على النموذج السابق و يعرف بالنظام الاشتراكي أو الاقتصاد الموجه الذي يمهّد حسب دعواته لمرحلة انتقالية قبل الدخول في المرحلة الشيوعية بعد زوال ظاهرة الدولة من الحياة السياسية و الاقتصادية و هي مرحلة شبيهة بتلك التي عرفتها الإنسانية في مراحلها الابتدائية في إشارة إلى المرحلة التي اتسمت فيها الملكية بالمشاعية. حيث أن لهذا الوضع الاقتصادي و إفرازاته دور في تشكيل موقف رسل من نظرة الاقتصاديين لطبيعة العلاقة بين العلم و الأخلاق في الممارسة الاقتصادية و هذا ما يتجلى من عرض هذه النظريات الاقتصادية و ما أعقبها من نتائج .

1- التصور الرأسمالي:

هو نظام اقتصادي يسود تقريبا كافة دول العالم بعد تراجع المد الاشتراكي و تبني معظم دول أوروبا الشرقية لهذا الأسلوب الاقتصادي ماعدا بعض المتشبهين به كالصين و كوبا اللتان مازالتا وفيتين للنظرية الماركسية في الاقتصاد، و فيما يخص نشأة الطرح الرأسمالي فهو يمثل ميراث النظام الإقطاعي الذي شهد سيطرة رجال الدين و حصولهم على امتيازات اقتصادية في المجال الزراعي من خلال الارتكاز على نفوذهم الديني و الولاء الشامل بفعل نظرية التفويض الإلهي.⁽⁴³⁾

لقد كان للثورة الصناعية دور كبير في ظهور الاقتصاديات الحرة ، حيث كان من إفرازات تلك النهضة العلمية و التكنولوجية تطوير لوسائل الإنتاج في جميع مراحل التصنيع تقريبا وإمكانية الاستعانة بالتقنية في معالجة مشاكل ما بعد الإنتاج، فكان المستفيد الأكبر من هذا الحدث هم الحرفيون الذين طوروا ورشاتهم إلى مصانع عملاقة وحلت بعد ذلك الآلة محل الإنسان مما ضاعف الإنتاج كما و كيفا. و ما ساعد على هذه التطورات الاقتصادية هو إلحاح رواد و أعلام هذا النظام على الحرية الاقتصادية و فتح باب المنافسة و الاحتكام إلى قانون العرض و الطلب باعتبار أن هذه المبادئ لا غنى عنها إذا أُريد للحياة الاقتصادية أن تستقيم و للعدالة أن تعم و للسعادة و الرفاهية أن تتحقق.

⁴³ - معناه أن الملك مفوض من قبل الله.

فيؤكد آدم سميث (A. Smith).⁽⁴⁴⁾، هذا التوجه بقوله دعه يعمل أتركه يمر، رافضا بذلك التدخل من أي جهة في منحى النشاط الاقتصادي، و مبرر كل هذا أن الظواهر الاقتصادية لا تختلف عن الظواهر الطبيعية، إذ أنها تنظم نفسها بنفسها و إذا ما تدخل فيها الإنسان أحدث خللا، فالنشاط الاقتصادي نشاط طبيعي تحكمه قوانين طبيعية موضوعية، و هي تسري في الطبيعة كما تسري أيضا على الظاهرة الاقتصادية، مما يكرس النظرة الفيزيوقراطية⁽⁴⁵⁾، التي نادى بها مالتوس (Malthus)، و جون ستوارت ميل (J.S. Mill)، و التي ترتب عنها زيادة رؤوس الأموال و تركيزها في يد الأقلية، منها قانون الانتخاب الطبيعي، حيث أن البقاء للأقوى عضليا في الطبيعة و البقاء للأقوى كما و كيفا اقتصاديا.

فلا مبرر لوضع العوائق و الحدود مهما كانت غايتها و دافعها أو الحاجة إلى تحديد الأسعار و مراقبة التعاملات التجارية أو فرض معايير الجودة والإتقان، و يقرر كذلك منظرو هذا النظام أن الظاهرة الاقتصادية تخضع إلى قانون طبيعي هو الآخر مفاده أن توفر نفس الشروط يؤدي دوما إلى نفس النتائج و هذا ما يعرف بمبدأ الحتمية، ذلك أن المستوى الاقتصادي يتحرك وفق هذه الإحداثيات الطبيعية، فتوفر الإنتاج يلزم عنه بالضرورة انخفاض الأسعار والعكس صحيح، مما يعني أن قانون العرض و الطلب في النهاية امتداد لقانون يجانس ما تفسر من خلاله الظواهر الطبيعية.

أما الحرية الاقتصادية فهي الأخرى تستجيب لماهية إنسانية طبيعية فطرية أساسها الميل الإنساني الطبيعي للتمتع بالحرية و رفض أشكال المصادرة لها و حب التملك الذي يقترن بالملكية الفردية لوسائل الإنتاج، فالفرد بطبعه يميل للشراكة و يرتاب بشأنها و لا يرتاح إلا في غضون ما كان ملكا له. و لقد ترتب عن التصور الرأسمالي العديد من الايجابيات أهمها تشجيع الابتكار و الإبداع و الزيادة في الإنتاج كما و جودة و إتقان و توفير الجهد و ربح الوقت، ومع ذلك فهو لا يخلو من نقائص وسلبيات دفعت في الأخير برسول إلى ضرورة تداركها و إصلاحها.

⁴⁴ - أحد أكبر المبشرين بالطرح الاقتصادي الليبرالي.

⁴⁵ - مصطلح يعني الاحتكام إلى الآلية و التنظيم الطبيعي الصارم.

و من بين هذه المساوئ سيطرة الطبقة البرجوازية بعدما انقسم المجتمع إلى طبقتين، طبقة مُستَغلة و طبقة مُستَغلة و هذا بالاعتماد على وسائل لا أخلاقية في تحصيل الثروة و زيادة رأس المال، كالاحتكار و المضاربة و استغلال النفوذ السياسي وأيضاً انتشار البطالة بعد الاستخدام الواسع للتقنية في عملية الإنتاج، و عليه صار من الطبيعي أن تصبح هذه الرأسمالية تجسيدا لنظام إمبريالي بامتياز⁽⁴⁶⁾، يعمل على تهديد أمن العالم و استقراره. و يرفض رسل مساوئ هذا النظام داعياً إلى أن " الرأسمالية و نظام الأجور يجب اختفائهما من الوجود، فهما الوحشان التوأمان اللذان ينهشان جسد العالم العليل"⁽⁴⁷⁾،

إذا يبدو سعيه مستمراً للحصول على مكاسب اقتصادية جديدة دون النظر في طبيعة الوسائل المتبعة في تحقيق ذلك، مستخدمة قاعدة براغماتية بموجبها تقرر أن ليس لها أصدقاء دائمين و ليس لها أعداء دائمين لكن لديها مصالح دائمة، لدرجة قد تفتعل أزمات و تشن حروباً و تصطنع ذرائعاً و تُغير المشاهد مادام هذا النظام يملك كل المقومات السياسية والعسكرية والإعلامية لتنفيذ ما يرى فيه تحقيقاً لمنافعه⁽⁴⁸⁾.

و كثيراً ما شنت الدول الرأسمالية حروباً على دول مستضعفة و حملات عسكرية في بقاع مختلفة و التي كان هدفها الحفاظ على مصالحها و تأمين نطاق أوسع لشركاتها الاقتصادية الاحتكارية و كارتلاتها⁽⁴⁹⁾، التي تمثل أهم التكتلات الاقتصادية ضخامة و استثماراً في العالم، مستفيدة من شعارات سياسية مغالطة من قبيل الدعوة إلى نشر الديمقراطية و عدم احترام حقوق الإنسان أو امتلاك بالنية أو بالفعل لأسلحة محظورة دولياً، مورطة أو موظفة في ذلك منظمات إنسانية أو حقوقية تساندها في إقناع المجتمع الدولي بمشروعية تدخلها العسكري.

46 - كارل ماركس ، رأس المال ، وزارة الثقافة ، دمشق، ج1، ط2، 1971، ص ، 112.

47 - رسل ، مثل عليا سياسية ، ص ، 16 .

48 - وليام جيمس ، البراغمتية، ترجمة محمد علي العريان، دار النهضة العربية، القاهرة، 1965، ص ، 64، ص ، 65.

49 - يعني إدماج العديد من الشركات الاستثمارية في شركة اقتصادية عملاقة واحدة .

و بالفعل، فهي لا تتوانى في استنزاف ثروات مستعمراتها واستعباد شعوبها واستغلال قدراتها و إزالة معالمها الحضارية و تلويث محيطها الطبيعي من خلال إجراء التجارب العسكرية و ما تخلفه من آثار نفسية و فيزيولوجية على أهاليها قد تستمر لعقود، و لا موارد إن قلنا أن " نظامنا الحالي قد اخفق في هذه الأهداف الأربعة و إن استطعنا أن نقول في معرض الدفاع عنه أنه يحقق الغرض الأول و هو إنتاج أكبر كمية من الخيرات المادية و لكنه يحقق ذلك على أساس النظر القصير بطرق مسرفة في الجهود البشرية و في المنابع الطبيعية." (50)

إن هذا الواقع الذي أنتجته السياسات الاقتصادية الرأسمالية و معاشية تبعاته، بعث في رسل رغبة من أجل الإصلاح و تسييج آثاره السلبية من خلال محاربة أشكال الاستغلال الاقتصادي والممارسات ألا أخلاقية والدعوة إلى مقاسمة الثروة بالإنصاف وعدم اللجوء إلى أشكال القوة في الاستحواذ عليها واستنزافها ظلما وعدوانا، و وضع حد لتدخل رجال الأعمال والمال في الحياة السياسية باعتبارها مجالاً لتحقيق أهدافها و دعم الأجنداث السياسية التي تضمن مداخلها و توسيع مشاريعها الانتهازية (51).

و بذلك لا يكون هذا الواقع باعثاً على السعادة بقدر ما يمثل علة لتعاسة الملايين من البشر و يساهم في بؤسهم و شقائهم، و لا يضمن عدم تكرار هذه التجاوزات إلا حكومة عالمية قادرة على إدارة شؤون العالم بشكل عادل و تملك فيه وسائل الردع و إحقاق الحقوق (52). و لا يتم هذا إلا من خلال تقييد النشاط العلمي و اشتراط خدمة الصالح العام في استثمار نتائجه و في حدود ما تمتلكه الشعوب الأخرى من حقوق طبيعية و وضعية و ما تحتاج إليه الأجيال القادمة من استقرار و حفاظ على البيئة و تأمين شروط الحياة الطبيعية.

و زبدة القول، اعتقاد رسل أن التقدم العلمي الحديث ساهم في التقليل من استقلالية الإنسان و رغبته في إثبات ذاته و التعبير عن إرادته و مبادرته الخاصة و الكشف عن قدرته على تحدي الصعاب و العقبات، ثم يبدو الصراع في النظرة التي أوجدتها التقنية و التي جعلت صلب العملية بالنسبة للعامل و إدارة المصنع بالنسبة لأصحاب المصانع أي وجود المصانع قُل من دور العامل في ظل تقسيم العمل.

50 - رسل، مثل عليا سياسية ، ص ، 17.

51 - رمسيس عوض ، رسل المفكر السياسي ، ص ، 93.

52 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص ، 129.

و يبدو الصراع بين التكنيك و الطبيعة البشرية في الصراع الموجود بين رغبة العامل و المصلحة العامة، أي بين المصلحة الخاصة و المصلحة العامة أو بين العمال و أرباب المصانع و رؤوس المال.⁵³)، و ينبذ رسل المنافسة القائمة في ظل النظام الرأسمالي ببعده الاقتصادي، بينما لا يمانع، بل يركي المنافسة في سياق التنافس في الإبداع الفني و الاكتشاف العلمي.

و قبل الانتقال إلى تأثير العلم في الحياة الاقتصادية للمجتمعات التي اعتنقت الاشتراكية و المركزية في التسيير، يجدر بنا أن نقف موقف متأمل من هذه الحجج التي ساقها رسل لإقناعنا بمخاطر العلم و تطبيقاتها في النظم الليبرالية و ما أفرزته من مساوئ، فنعتقد أن العلم و استخداماته لم تكن سلبية بشكل مطلق على المستوى الاقتصادي، فلا ينكر دوره الايجابي أيضا إلا جاحد، فكيف نفسر مستوى التطور التقني و الإنتاجي الذي شهده العالم اليوم ؟ و كيف تمكن الإنسان من ربح الوقت و توفير الجهد في العمليات الاقتصادية؟

و كيف استطاع تجاوز مختلف التحديات و العوائق التي واجهته في بداية اتصاله مع عامله الطبيعي ؟ و لماذا لم يتحقق له ذلك في المراحل الأولى قبل الآن ؟ لا ريب أن الإجابة عن هذه التساؤلات تدفعنا إلى الاعتراف بدور العلم الايجابي في تنمية مناحي الحياة الاقتصادية و توفير متطلبات الزيادة في الإنتاج كما و كيفا، و الفضل في ذلك كان دوما يزداد بزيادة مستوى المعرفة و تطبيقاتها العملية، و عليه لا يجب إغفال أثر العلم الحاسم في إحداث التحديد و الإبداع في الميدان الاقتصادي.

⁵³ - رمسيس عوض ، المرجع السابق، ص 199.

2-النظام الاشتراكي:

لقد وقف ماركس موقف مراجعة و تحليل لتفاصيل و حيثيات الطرح الرأسمالي و نتائجه وخلص أن هذه العينة الاقتصادية لا تتماشى مع مطلب العدالة و مساعي تحقيق السعادة، فأكد ضرورة الانتصار عليها و الإطاحة بها من خلال الثورة العمالية، فيعتقد أن التصور الليبرالي يحمل بذور فئائه في ثناياه و أنه لا مناص من تلاشيه و زواله بمجرد أن يتفاهم الوضع الاقتصادي و تنتشر الطبقة لتعم أغلبية الفئات الاجتماعية و تتجمع الثروة و رأس المال في يد الأقلية بعد أن يستغل صاحب المصنع العامل و يجبره على العمل لساعات إضافية دون أن يتقاضى عليه أجراً و التي تسمى في القاموس الماركسي بفائض القيمة⁽⁵⁴⁾، تحت تهديد الطرد و هاجس البطالة و يشدد على هذه المساومة ليزداد الغني غنا و الفقير أكثر فقراً، فتصبح الأغلبية مسلوقة الحقوق و تُشكّل طبقة ما يعرف بطبقة البروليتاريا الواقعة تحت الاستغلال و الهيمنة و تعاني الاستلاب⁽⁵⁵⁾، أي ما يتعرض إليه الفرد من أوضاع خارجية عقائدية و اقتصادية و سياسية، فيفقد حرته و يصبح عبيداً للمادة⁽⁵⁶⁾،

و يظهر آليا - حسب تنبؤات ماركس - الوعي العمالي الذي يقضي بضرورة الإطاحة برؤوس البرجوازية وإعادة تأميم مكاسبهم الاقتصادية وتوزيعها مجددا على الفئات العمالية والاستفادة من عائداتها وفق تنظيم اشتراكي وبذلك سيشهد العالم تحولا اقتصاديا يتميز بظهور تنظيم اقتصادي جديد يعرف بالنظام الاشتراكي أو الاقتصاد الموجه، يبقى أن نشير أن هذا التفسير التاريخي الحتمي مهما كان يبقى مجرد قراءة تنبؤية و التي اثبت الواقع أنها لم تتحقق على أرض الواقع⁽⁵⁷⁾، التي تبعث على طرح أكثر من سؤال حول أسباب و دواعي هذا الإخفاق الاقتصادي .

⁵⁴ - Paul foulquie, **Dictionnaire de la langue philosophique** , Presse universitaire de France , 5eme édition ,1986 , paris , France. , p. 750

⁵⁵ - ماركس و أنجلز، الشيوعية العلمية ، دار الطباعة ، دمشق ، ط1، 1972 ، ص ، 110.

⁵⁶ - **Ibid.** p.19

⁵⁷ - رسل، سبل الحرية، ص ، 44.

و بعد زوال النظام الرأسمالي يتم مصادرة معالم الحياة الاقتصادية الليبرالية وإشراك مختلف الأفراد في الممارسة و النشاط الاقتصادي، حينها تنتقل الملكية الفردية إلى الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج، و تتدخل الدولة لضمان إعادة الأمور إلى جادتها و تجتهد في مراقبة تفاصيل العملية الاقتصادية داخليا و خارجيا، و الحد من الطبقة و الاستغلال بتحديد الأسعار و مساعدة الشرائح ذات الدخل المحدود من خلال دعم ضرورتها و تغطية الفارق و تقديم الخدمات الاجتماعية بشكل مجاني و محاربة الفقر و الأمية بإقرار مجانية التعليم والصحة و التدخل للحفاظ على التوازنات الاقتصادية في حالة التعرض إلى هزات اقتصادية.

بالرغم من الأهداف النبيلة التي تسعى إلى تجسيدها النظم الاشتراكية، وفي طليعتها السعادة الإنسانية من خلال إحلال العدالة الاجتماعية بين الأفراد، إلا أنها لم تهتم عمليا بكيفية تحقيقها، إذ حاولت منذ البداية فرضها بالقوة و القمع و رفضت كافة أشكال المعارضة و إصاق التهم الجاهزة بمن يجرؤ على نقدها و الدعوة للنظر في طرق تطبيقها خاصة في الفترة اللينينية و الستالينية و هذا ما يبرر فشلها الذريع في ترجمة آمال الموقنين بها نظريا على أرض الواقع فكان تراجعها مؤشراً على إخفاق كبير.

هذا ما بلغته الأنظمة الاشتراكية من تطور، و لم يكن للوعود التي قدمتها أي أثر في الواقع فبدلاً من أن تهتم بالتطور و التقدم الحضاري و تحقيق سعادة الأفراد من خلال بناء مجتمعات تسودها العدالة و الأمن و الاستقرار، فضلت هذه الأنظمة التوجه نحو الاهتمام بالاقتصاد الحربي و السباق نحو تكنولوجيا الدمار و تكريس العائدات الاقتصادية و الابتكارات العلمية لاستثمارها في دعم منظومة الدفاع و نشر وسائل الردع العسكري لمواجهة خصومهم في الغرب، و بهذا كان لهذا التوجه تأثيراً سلبياً في نشر المخاوف و التوتر على مستوى العلاقات الدولية .

من جهة أخرى، لم يرق مستوى الإنتاج إلى حد تحقيق اكتفائها الذاتي، باعتبار أن جلها تعاني من التبعية و تفتقد إلى أبسط ضروريات الحياة، فعرضت شعوبها إلى العديد من الصعوبات والمشاكل الاقتصادية على شعوبها، ناهيك عن مظاهر البيروقراطية وتأخر المشاريع الاقتصادية و نهب غلا فاتحها المالية في ظل ثقافة اللامبالاة (58)، مما جعل حياة الأفراد أكثر شقاءً بمساهمة الغرب من خلال حصاره الاقتصادي لها، وهذا ما دفع رسل إلى نقد هذه النظم و دعوة ساستها إلى مراجعة الجانب التطبيقي لفلسفتها الاقتصادية التي حادت عن الكثير من مساراتها النظرية، و في نفس الوقت إبداء عتاب شديد للهجة للغرب على حصاره الذي يتنافى مع القيم الإنسانية لشعوبها التي تمتلك حقها في العيش الكريم و التمتع هي الأخرى بالسعادة، التي تعرّف على واقعها المزري من خلال زيارته لروسيا مباشرة بعد الثورة التي أطاحت برموز روسيا القيصرية. (59)

و هكذا يتضح لنا دور الجوانب الاقتصادية في تحديد موقف رسل من الفلسفات الاقتصادية الحديثة و نظرتها لنماذج استخدام العوائد التقنية في الممارسة الاقتصادية و التي لا تهتم عموماً بعواقبها على المستوى الإنساني و الأخلاقي، إذ كان للوضع الاقتصادي السائد آنذاك إنعكاساً و خيماً على الحياة العامة للمجتمعات الإنسانية، و الذي تميز تارة بالاستغلال و الطبقية و استخدام وسائل لا مشروعة أخلاقياً في زيادة رأسمال الصناعيين و أرباب العمل من احتكار و مضاربة و استغلال للطبقة الشغيلة وإدخال التقنية و ما تبعه من ارتفاع نسبة البطالة و الاعتماد على فائض القيمة الذي يشعر العامل بالاستغراب و الاستلاب نظراً لعدم إنصافه بعد بذل مجهود لا يتقاضى عليه أجراً، و تارة أخرى في مصادرة حرية الإنسان في الاستثمار و التكسب من خلال تدخل الدولة وفرض وصايتها على الحياة الاقتصادية و قتل روح المبادرة و الابتكار ما دامت لا تهتم بقيمة الجهد المبذول و الرغبة في التميز والإبداع والتجديد.

58 - فريدريك أنجلز ، الاشتراكية بين الخيال و العلوم ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص، 84، ص، 85.

59 - رمسيس عوض ، رسل المفكر السياسي، ص ، 18.

و مع ذلك فليست هذه الأنظمة كلها سلبية، إذ أوجدت ما يبعث على التفاؤل عند رسل خاصة بعد جهود الإصلاح و التغيير التي أحدثتها على مستوى ظروف العمل و حقوق العامل الاجتماعية و النقابية، و من ثمة رفعت الكثير من الغبن على الفرد و حسنت من مستواه المعيشي و منحتة القدرة المادية للتمتع بإنتاجه الخاص و ذلك بالاستفادة من حصيلة البحوث العلمية و الرصيد الفكري و المعرفي و الثقافي المتاح. و من ناحية أخرى اهتمت الأنظمة الاشتراكية بواقع العامل و عملت على تحقيق العدالة الاجتماعية بين الأفراد و ساندت الطبقة المحرومة بإقرار مجانية الخدمات الاجتماعية كالتعليم و وسائل نشر الوعي الثقافي و الصحة و هذا في حد ذاته يمثل إنجازاً هاماً يعكس إرادة هذا النظام بتوفير السعادة للأفراد دون تمييز من خلال الاهتمام بالجانب العلمي و الأخلاقي و الحرص على تفاعلها في حياة الفرد.

يبدو أن رسل - في رأينا- ينسى أو يتناسى ما قدمته المعرفة و إنجازاتها العملية من خدمة للإنسان في المجال الاقتصادي بما في ذلك للاقتصاديات الاشتراكية، و بالتالي ساهم في رفع الغبن و الصعوبة حين مباشرة العمل و الجهد الاقتصادي، و لو أننا افترضنا أنه انطوى على سلبيات، فليس ذلك مبرراً لتحميل العلم و التقنية مسؤولية ما آل إليه الواقع الاقتصادي للمجتمعات الاشتراكية، فمن جهة، الإخفاق قد يعود إلى السياسة الاقتصادية في حد ذاتها التي اعتمدت على مبادئ لا يراعى فيها طبيعة الإنسان التي تميل إلى حب التملك و المنافسة الحرة في الإنتاج، أو ربما قد تعلق بتطلع سياسي لاستخدام العلم و تقنياته لأغراض دعائية و تجارية و التي ترتبت عنها آثار وخيمة عانى منها الأفراد على العموم سواء كانوا من النخبة و العلماء أو أفراداً عاديين لا غير.

و من هنا اعتقد أنه من الإجحاف أن نركن إلى ما قدمه رسل من تفسيرات و تبريرات حول دواعي التفكير في إعادة النظر في علاقة العلم بالمنظومة الأخلاقية و القيمية التي واكبت مسيرة المجتمعات الاشتراكية و أساليب استخدامها لتنتج العلوم المختلفة.

-المبحث الثالث: العلم في خدمة الايدولوجيا بعيدا عن الأخلاق.

1 - العلم أداة لفرض النموذج الإيديولوجي:

اهتم رسل كثيرا بطبيعة العلاقات الدولية السائدة آنذاك، و التي كانت تثير العديد من المخاوف والهواجس بفعل التوترات و أشكال السباق لامتلاك أسلحة الحرب و الدمار وبذلك العمل على تهديد الأمن و السلام العالمي، من ناحية أخرى كان الاهتمام منصباً على ما شهدته العالم من اضطهاد الشعوب القوية للشعوب الضعيفة و الذي كان نتيجة طبيعية لحملات الاستعمار التي قادتها دول تملك سلطان القوة و التسلط، إذ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وإحصائها خسائرها المادية و البشرية و في غضون انتشار المد الشيوعي بعد أن تمكنت الثورة من إزاحة الحكم القيصري في روسيا و إحلال التصور الماركسي في الحياة السياسية و الاقتصادية،

لقد دخل العالم أجواء توتر جديد عرفت بالحرب الباردة و أطرافها المعسكر الشرقي بزعامة الاتحاد السوفيتي و المعسكر الغربي تقوده أوروبا بمعية الولايات المتحدة الأمريكية، في هذه الأثناء تحول الصراع الإيديولوجي إلى صراع عسكري و سياسي من خلال الدعاية و السباق لسط النفوذ و السعي نحو التسلح و امتلاك وسائل الردع العسكري و اللجوء إلى المؤامرات و الدسائس السياسية و أنشطة التجسس، و قد ساعد التطور العلمي في رفع قدرتهما العسكرية لدرجة أن هذه التكنولوجيات أثمرت بإبداع وسائل دمار توصف بالشامل، فكثيرا ما شد العالم أنفاسه عندما أوشكت الحرب أن تندلع بينهما كما حدث في كوبا و تقسيم ألمانيا و بناء جدار برلين.

و يؤكد رسل واصفا هذا الوضع أن " للقانون و النظام فوائد هامة في علاج العلاقات الدولية ففي وقتنا الحاضر تتمتع كل دولة مستقلة بالحرية المطلقة في فعل ما تشاء إذا كانت لا ترهب الحرب، هذه الحرية، أو هذه القومية - يجب أن تتقيد بالنسبة للعلاقات الخارجية إذ أن الأوان لمنع الحرب".⁽⁶⁰⁾

⁶⁰ - رسل، سبل الحرية ، ص ، 43.

هذه الأوضاع جعلت المخاوف تتضاعف و القلق يزداد و احتمال نشوب حرب وارد و التدخل العسكري بينها وشيك، بالرغم من محاولات التهدئة من وقت إلى آخر، حينها كان لزاما على رسل اتخاذ موقف منها و التفكير في كيفية إيجاد حلول للحفاظ على السلم و الأمن الدوليين اللذان يمثلان عاملين أساسيين لتحقيق السعادة، و غيابهما يبعث على الخوف و الفزع و اليأس، لاسيما إذا كانت هذه المجتمعات مرت بتجربة الحرب تعرفت على مشاهدها المرعبة و احتفظت ذاكرتها الجماعية بالعديد من الآلام بعد فقدان الأهل والأقارب و انتشار مظاهر الخراب و الدمار.

كل هذه الحقائق كانت باعثا للدعوة إلى تحكيم العقل والحوار بدل منطق القوة و العنف التي كان رسل من بين السباقين إليها، مع الإلحاح على ضرورة مراعاة القيم الأخلاقية في الممارسة السياسية لكونها الضامن الوحيد لاستمرار السلم و الأمن الدوليين. ومن هنا يؤكد رسل على هذا المسعى بأن " هناك ما يدعونا إلى التفاؤل و الأمل في أن نتخلص من محتتنا الراهنة، و لكن يجب قبل كل شيء أن نضع حداً لأسباب الفوضى و الاضطراب التي يزخر بها عالمنا الحديث. " (61)

من جهة ثانية، لاحظ رسل أن العلاقات الدولية في رمتها قائمة على استخدام القوة و التهديد بالغزو و البحث عن الذرائع لاستهداف واستعمار الشعوب الضعيفة و التداول على استغلالها و استعبادها أملاً في الحصول على ثروتها و استنزاف خيراتها بهدف دعم اقتصاديات الدول القوية و تقوية إنتاجاتها، و هنا لم يكن للمبررات والتي تقدمها الدول الاستعمارية إلا دوراً ثانوياً حيث توظف تارة دواعي إيديولوجية من قبيل سياسة ملء الفراغ لمواجهة المد الشيوعي أو بدعوى ضرورة التدخل عسكرياً لإحلال الديمقراطية و محاربة أشكال الاستبداد و المساهمة في تحرير الشعوب المستغلة و العمل على تطويرها حضارياً و اقتصادياً، بالإضافة إلى وجود قائمة من الذرائع جاهزة للاستخدام مثل حماية الأقليات و عدم احترام حقوق الإنسان أو امتلاك أسلحة محظورة.

⁶¹ - رمسيس عوض ، رسل المفكر السياسي، ص ، 129.

هذه المبررات تمثل غطاءً لحملاتها العسكرية و في ظل عجز المجتمع الدولي لمنعها وصدّها وأحياناً بتواطؤ معها، أما جوهرها فهو اقتصادي، أي بمثابة بحث عن أسواق جديدة لمنتجاتها و على هذا الأساس لم تكن الطبقة السياسية تمنع ضد هذه المخططات الاستعمارية بحجة أن من حقها أن تحافظ على مصالحها و تقتحم و تغزو بذلك تلك الدول و تعتبرها امتداداً لها و ما يوازي ذلك من تسويق ثقافتها و تقاليدها كما حدث ذلك في دول أمريكا الوسطى و الجنوبية و دول شمال شرق آسيا كإندونيسيا و الفيتنام و العديد أيضاً من دول القارة السمراء.

و يعارض هذا التوجه في العلاقات الدولية مينا " باختصار، أننا نخوض في عصر إيمان جديد. و القنبلة الذرية لسوء الحظ أمضى و أسرع في فتكها من خشبة الإحراق (التي كانت الكنيسة تحرق عليها المهترقين في القرون الوسطى)، و لا يمكننا - إذا أردنا السلامة و الأمان، أن نسمح لها بقطع شوط أكبر. و يجب أن يدعونا الأمل في التمكن من العمل على إنشاء نظرة أكثر عقلية. " (62)

و لم يكن رسل ليقف موقفاً حيادياً إزاء هذه السياسات الاستعمارية المبنية على فلسفة نفعية و إيديولوجيا إقصائية و عنصرية و البحث عن حلول عملية لا تراعي حقوق الشعوب الأخرى في الحياة و الحرية و ما ينعكس عليها من فقر و استغلال و عنف و تهميش، بالإضافة إلى ما تخلفه من آثار مادية من خلال استنزاف خيراتها و تدني مستواها الفكري و المعرفي، بل أن الاستعمار لم ينته بتحررها، فحتى بعد طرد الاستعمار، وجدت هذه الشعوب نفسها أمام شكل آخر من جلاذيتها من بني جلدتها الذين تسلّموا السلطة بالقوة و التزوير و حظوا بالترحيب و التزكية من قبل الدول الغربية التي لم تعترض على هذه الكيفية في الوصول إلى دفة الحكم ما دام هؤلاء القادة العملاء يستجيبون لمصالحهم و يحافظون على امتيازاتهم بكل أمانة، و بالتالي مكث الاستعمار و الهيمنة حتى بعد ثورات التحرير و إعلان الاستقلال.

⁶² -رئيس عوض، المرجع السابق، ص 108.

و هذه الأحداث، هي الأخرى كان لها تأثير في الدفع برسول إلى النظر في مشروعية هذه السياسات المعتمدة من قبل الدول الغربية و التساؤل حول المجتمع المثالي الذي يمكن أن يتيح لكل الأفراد التمتع بالسعادة و الاطمئنان بتقرير العدالة و الاحترام بين شعوب العالم و توزيع ثرواته عدلا بينها، فوضع تصور الحكومة العالمية التي تكون قوة ردع و نظام و تسمح بتطبيق القانون بشكل صارم دون ظلم أو تعسف، كما كانت هذه الأوضاع داعية لنصرة الشعوب المستعمرة و مساندة حركاتها التحررية و تنظيم مسيرات حاشدة لكشف ما تتعرض له من قمع و استغلال ومطالبة القوات الغازية بالانسحاب منها.

و إذا ما أمعنا النظر في جملة المبررات التي قد تساق لتبرير فلسفة رسل الأخلاقية و علاقتها بالعلم و تطبيقاته، فمن الطبيعي أن نتحفظ على بعض التعميمات و التقارير التي تضمنها هذا المبحث، إذ يلاحظ أن العلاقات الدولية لم تكن دوما مثيرة للهواجس و المخاوف و أشكال القلق و التوتر إلا ما كان يسوق إعلاميا أنه كذلك من قبيل التهويل و التحريض لتحقيق أهداف إيديولوجية و سياسية مقصودة ،

فالعلاقة بين الشرق و الغرب في رأينا - بالاعتماد على العديد من الشواهد التاريخية - شهدت جهودا سياسية و اقتصادية و إنسانية من أجل احتواء الاختلاف الإيديولوجي و البحث عن أساليب التقارب بينهما لاسيما من خلال إحلال التعاون العلمي و الاقتصادي و الإصرار على التحلي بالحكمة و الحوار في ردم بؤر التوتر و الصراع و تفضيل اللجوء إلى القنوات الدبلوماسية في معالجة كل ما يعيق إذابة الجليد بينهما و تجاوز تهديدات الحرب بمحاذاة المناطق ذات مخاطر المواجهة و استخدام القوة العسكرية.

و من هنا فإن تهيئة هذه المعطيات يكشف عن الانتقال إلى مراحل جديدة في العلاقات الدولية لاسيما بعد نهاية الحرب الباردة و انهيار دول المعسكر الشرقي، و فرض منطق و ثقافة التعايش السلمي بينهما و ما تلاهما من إبرام العديد من الاتفاقيات من أجل الحد من انتشار الأسلحة و نزعها و السعي لرفع مستوى التعاون العملي و الثقافي و تماشيا مع مقتضيات القيم الأخلاقية و الإنسانية.

2- العلم أداة للدعاية الفكرية والإعلامية:

اتسمت الظروف الفكرية والإيديولوجية في البيئة الانجليزية بسيطرة الفلسفة التجريبية التي تعتمد في أحكامها على ما تقرره التجربة من حقائق فحسب، فتبع ذلك منح كامل الثقة في العلم و قدرته على حل كافة المعضلات و من ثمة كان القرن العشرين عصر العلم بامتياز، فصارت الحياة خاضعة في معظم جوانبها إلى ما يقرره العلم باعتباره الوسيلة المثلى لفهم الطبيعة وتذليل صعوباتها وتجاوز عوائقها، إذا اعتمدت كلية على الابتكارات والاختراعات التقنية وأعجبت بها أيما إعجاب دون النظر إلى ما تحمله من أخطار و مساوئ سواء أكانت بيئية أو صحية، فبين لنا رسل مدى خطورة الايدولوجيا قائلا: " نحن نجتاز الآن للمرة الثانية عهدا من الحروب الدينية، و لكن اسم الدين الجديد يعرف بالايولوجيا. " (63)

و يلاحظ عموماً أيضاً نزوع المجتمعات الانجلوساكسونية (64) إلى الجانب العملي، و استخدام كل الوسائل من أجل تحقيق الغايات المنشودة مما جعلها لا تهتم بما هو أخلاقي، فاندفعت إلى البحث عن مصادر الثروة و المال في كل مكان حتى و إن اقتضى ذلك شن الحرب و تجهيز الجيوش و تسييرها لإحكام سيطرتها وتحصيل منافعها، إذا يقدم لنا رسل صورة عن هذا التوجه بالقول: " و كذلك نجد النضال الاقتصادي قد أعمى الجميع حتى أنهم ليناضلون في سبيل الاستحواذ على ما يحق لهم وما لا يحق، والواقع أن الخيرات المادية هي التي تسيطر على نظرتنا الخارجية معطين بذلك دوافع الإنشاء الكريمة. " (65).

في نفس الوقت، سيطرت على أفراد هذه المجتمعات فكرة الحرية والاستقلالية و الفردانية فنادت اتجاهات بتحرير الإنسان واحترام حرياته وخصوصياته و إعطائه كل الحق في التمتع بحريته مما ترتب عن هذه الأفكار تدهور في العلاقات الأسرية و الاجتماعية و انتشار الآفات المختلفة كالطلاق و جمود العلاقات الأسرية والشعور بالعزلة و الانطواء مما دفع رسل إلى مراجعة هذه المنظومة الفكرية و تحديد علاقة الفرد بوسطه الأسرى و الاجتماعي .

⁶³ - رمسيس عوض ، رسل المفكر السياسي، ص ، 108 .

⁶⁴ - المجتمعات التي تتحدث الانجليزية في إشارة إلى انكلترا و الولايات المتحدة الأمريكية .

⁶⁵ - رسل، مثل عليا سياسية، ص ، 16 .

أما خارج انكلترا فكانت الأوضاع الفكرية تميل إلى غلبة إيديولوجيات الاستبداد و العنصرية و ظهور أنظمة سياسية تجسد نظريات عرقية قائمة على تقسيم الأجناس إلى أصناف حسب قدرتها على الحفاظ على نقاء عرقها و عدم التعرض إلى الاختلاط و التهجين و هو ما يعرف بنظرية الدم⁽⁶⁶⁾، و على هذا الأساس شرعت هي الأخرى في استعباد الشعوب بحجة أنها محدودة في قدرتها على الإبداع و الابتكار لذا وجدت لخدمة الأجناس الراقية و الآرية على الخصوص.

و الأكيد أن التاريخ الإنساني شاهد على هذه الأحداث التي أطرتها إيديولوجيات و أفكار عنصرية و التي تحولت فيما بعد إلى أنظمة قائمة على القوة و القمع و الانفراد بالسلطة كما هو الحال في ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية و اليابان العسكرية فساهمت بذلك في إشعال فتيل الحرب العالمية الثانية. و قد غذتها أيضا فلسفات تدعو إلى فصل الأخلاق عن السياسية بدليل أن المفاهيم الأخلاقية تعبر عن الضعف و الوهن و أن القرار السياسي الناجع قد يستدعي اتخاذ موقف لا يتماشى دائما و حتما مع الأخلاق، و أن الحاكم إذا ما تحلى بالأخلاق سيكون لا شك في موقف ضعف و بالتالي يكون محل أطماع من الداخل و الخارج، مما يعرض أمن الدولة و وحدتها إلى الخطر فيكفي التظاهر بالأخلاق دون الحاجة إلى إعمالها عمليا في الحياة السياسية و هذا ما يمثل فصلا جديدا في النفاق السياسي.

و يكشف لنا مخاطر استخدام القوة بالقول بأن "حب القوة هو العامل المسيطر على الكثيرين من السياسيين و هو أيضا العلة الرئيسية في قيام الحروب".⁽⁶⁷⁾ و من أهم مميزات القرن العشرين كذلك و التي أطرت موقف رسل من هذا الطرح الاخلاقي هيمنة الفلسفة البراغماتية التي اعتمدت على أخلاق اللذة التي وضع أسسها أبيقور (Epicure) و أرسطيب (Aristippe) و التي طورتها الفلسفة الانجليزية فيما بعد على يد جيرمي بنتام (J. Bentham) لتنتهي في زيتها الحالي مع نفعية جون ديوي (J. Dewey) و شارل بيرس (C. Pearce) و وليام جيمس تحت مفهوم الأدوات و الذرائعية التي هي مجرد تسميات للبراغماتية الراهنة، و هي فلسفة تهتم أساساً بالنجاح العملي، فالفكرة الصائبة هي التي تحقق منفعة في الواقع.

66 - نظرية تروج للتفاوت الطبيعي بين الأجناس، أن الجنس الآري هو أرقى الأجناس باعتبار أنها لم تتعرض للاختلاط و التهجين.

67 - رسل ، مثل عليا سياسية ، ص ، 34.

و من هنا مهدت لطلب اللذات و المنافع باعتبارها معيارا للسلوك الأخلاقي فالخير في رأيهم ما يحقق اللذة و الشر ما يبعث على الألم و النفور، و أكبر تحول كان عندما اتسع نطاق هذه المفاهيم لتنتقل إلى ممارسات سياسية تهدف إلى طلب المنافع على حساب الغير و الطمع في ثروات الأمم الفاقدة لعناصر القوة و الدفاع عن نفسها، فعانت الكثير من الظلم و الاستغلال فيعمل رسل هذه الظروف المؤلمة بأنه " ليس لنا أن نقول أن نظامنا الاقتصادي أكثر نجاحا في تحقيق الأغراض الثلاثة التي يجب أن يهدف إليها، فليس هناك نظام سافر صريح يشجع الغرائز الوحشية كهذا النظام. و يسمح بالظلم الاقتصادي و إفساح مجال عظيم لطغيان صاحب العمل" (68)، و من ثمة اضطر رسل إلى التعبير عن موقف خاص يعارض هذا التوجه الامبريالي و يقف إلى صف الشعوب المظلومة، كما أكد على تحفظه على نتائج العلم و التقنية، أنها تتضمن العديد من النقائص و العيوب و تحمل في طياتها مزيجا من المخاطر و أشكال التهديد و الضرر.

لقد تبين لنا مدى تأثير العلاقات الدولية في تحديد منحى موقف رسل من ثنائية العلم و الأخلاق، حيث كان لها تأثير مهم في نسج نظريته إلى السعادة فيما بعد من خلال التعبير عن تدمره من هذا الواقع المؤلم الذي جعل الإنسان يفتقد إلى الأمان و الاطمئنان بعد أن أصبح الوضع جد متأزم و التهديد مستمر، فلم يعد الفرد يأمن على حياته و بقائه و قد ساهمت بعض الأفكار و القناعات المتطرفة في الدفع بهذا الواقع إلى مستوى تراجع فيه الشعور بالسعادة و الأمان بشكل ملحوظ بعدما ساد القلق و الخوف من الإعلان عن حربية كونية جديدة و هو لم ينهض بعد من مخلفات الحرب العالمية الثانية.

و رغم هذا، فإنه من الإجحاف أن نعتقد بدورها السليبي فقط، فلا يمكن إنكار ما كان لها من لمسة في رسم التفاؤل على نظرة رسل للسعادة في ظل وجود منظمات إنسانية مساندة لحقوق الشعوب في تقرير مصيرها و وجود هيئات أممية تحاول ضمان الأمن و الاستقرار و تطبيق القانون على كافة المجتمعات الإنسانية و الاعتراف بوجود أفكار ساهمت بشكل واضح على تقدم الفرد و تقديم خدمات جليلة في حل المشكلات التي واجهته مثل النزعة العلمية وجهود نزع السلاح و مساعدة الشعوب التي تعاني من مشاكل اقتصادية تنموية و تربية كما هو الحال في إفريقيا و آسيا.

⁶⁸ - رسل ، المصدر السابق ، ص ، 18.

و فيما يتعلق بالعلم فإنه يعرف بأنه وجه ذو حدين و بالتالي لا يمكن النظر إليه فقط نظرة سلبية، إذ ساهم في تطوير الإنسانية وإمدادها بالوسائل التي مكنتها من التغلب على الطبيعة و تقويض تحدياتها فمجرد إجراء مقارنة بين الحالة البدائية التي عرفها الإنسان في بداية اتصاله مع العالم الخارجي و ما استطاع إنجازه من تطور و ازدهار في التغلب على الطبيعة و ترويضها لصالحه، ينم عن الدور الايجابي للعلم، إذ يعتبر العلم وسيلة للتحرر و التخلص من الحتميات التي تحد النشاط الإنساني و تطبعه بالإكراه والإلزام، فيكفي أنه تمكن من إبداع وسائل ساعدته على التكيف أفضل مع الوسط الطبيعي، فلم يكن بالإمكان تحقيق حلم الطيران إلا باكتشاف حزمة من القوانين الفيزيائية و تصور شكل مناسب للجسم الطائر، و لم يكن ممكنا قهر العديد من الأمراض الفتاكة لولا جهود علماء مخلصين كرسوا جهودهم للبحث عن علاج مناسب لها .

إن هذا العرض ممكننا من الاطلاع على طبيعة العوامل السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الأخلاقية التي ساقطت موقف رسل فيما يتعلق بعلاقة العلم بالأخلاق و التي أبانت أن هذه العوامل كان لها تأثير هام في إثارة الحس الفلسفي لدى رسل و البحث عن الأسباب التي تجعل من العلم أداة و شرط يعيد للإنسان الأمل و يمدده بالسعادة و البهجة على أن يستجيب للمقتضيات الأخلاقية و يراعي لوازم الخير و دواعيه و أن تكون غايته القصوى خدمة الفرد و الاستجابة لطموحاته و أماله.

و يجب الإشارة إلى أن موقفه يجمع بين التفاؤل والتشاؤم مما يعني أن الواقع المعاش لا يحملنا دوما على اليأس و الشقاء و أنه بالإمكان أن نجد في عالمنا هذا شيئا يبعث فعلا على القول بأن المجتمعات الراهنة استطاعت أن تتجاوز أحكامها السابقة وتصحح نظرتها التقليدية القاصرة و الضيقة للعلم و التكنيك في علاقتهما التي يبدو أنها أكثر حميمية بالأخلاق، و هذا ما قادها نوعا ما إلى حالة من الرضا و الاطمئنان، مما يعني أن هذه الظروف التي ذكرناها ذات تأثير نسبي، فأحيانا كانت باعثة على القنوط و القلق و الشقاء و أحيانا أخرى دافعة إلى ما يشعرونا بالميل إلى البحث عن ما هو جميل و ما يعقبه من شغف و استمتاع فنكون حينها أقرب إلى السعادة و البهجة و السرور.

الفصل الثاني
علاقة العلم بالأخلاق

المبحث الأول : أهمية العلم في تحصيل الأخلاق عند رسل.

1- دور العلم في تحصيل الأخلاق تربية و تهاديا:

إذا كان رسل يبدأ طرحه في الدفاع عن أهمية العلم في تصحيح المسارات الاعتقادية بتقديم تعريف للعلم أولا و الذي يحدد معناه الاصطلاحي بأنه محاولة مبنية على الملاحظة من أجل اكتشاف الحقائق و القوانين التي تربط الحقائق بعضها ببعض، أي أن العلم هو سعي لكشف العلاقات الثابتة بين الظواهر و التعبير عنها تعبيرا رمزيا رياضيا بإتباع خطوات النهج الاستقرائي التجريبي، " فالعلم محاولة عن طرق الملاحظة و أعمال العقل القائم على هذه الملاحظة لاكتشاف الحقائق الخاصة بالعالم ثم اكتشاف القوانين التي تربط الحقائق بعضها ببعض، و العلم في الحالات التي تصادف حسن الحظ يجعل من الممكن التنبؤ بالمستقبل.

و من ثمة كان التكنيك العلمي يرتبط بهذا الوجه النظري، أي بمعنى أن العلم يهدف إلى معرفة وقوع الظواهر قبل حدوثها و الأخذ بعين الاعتبار أن هذا لا يتحقق إلا بشكل نسبي، كما أن التكنيك ما هو في نظره إلا إسقاط الجانب النظري على المستوى الواقعي، فإنه ينتقل بنا لاحقا إلى الكشف عن طابع الصراع و الجدال القائم بين العلم والأخلاق لاسيما في بعده الديني، فإذا سلمنا بأن هدف العلم هو توفير الراحة ووسائل الترف والتي كان من الاستحالة تحقيقها من قبل أو على الأقل كانت مكلفة و باهضة الثمن في فترة عصر ما قبل العلم، فمن الضروري التأكيد مبدئيا في نظر رسل على إمكانية تعايش الدين مع العلم إذا لم يتورط في أية تأكيدات يمكن للعلم أن يفندها.

و عليه فالعقائد هي مصدر الصراع الفكري بين الدين و العلم و الذي يظهر من خلال معارضة الدين للعلم الذي يتجلى بالخصوص في مواقف الكنيسة التي تغذيها تقارير النصوص الدينية و ما لها من صلة أيضا مع النظام الأخلاقي، حيث أن المشككين في الدين يضعفون سلطة الكنيسة و رجالها و يمثلون تهديدات لمصالحها و ما يصاحب ذلك من تدمير للنظام الأخلاقي الذي عادة ما يستنهل من العقيدة، و من ثمة يخشى رجال الدين الأفكار العلمية التي يتبناها رجال العلم و يدافعون عنها حتى الحرق أو التكفير.⁽⁶⁹⁾

⁶⁹ - رسل ، الدين و العلم ، دار الهلال، القاهرة، 1977. ص 3-4-5.

و تتجلى جدلية العلم و الأخلاق بوضوح بتتبع أحداث الماضي و الحاضر، إذ ينهي رسل إلى علمنا وجود نوعين من الصراع من خلال استقرار تاريخ العالم المسيحي، أولهما تأكيدات العقائد المسيحية لبعض الحقائق التي تدرج في الميدان العلمي، و حالما يبطل العلم هذه الدعاوي عبر الملاحظة العلمية ، فإنه ذلك يسبب صعوبات و خلافات و مشاكل مع من يعتقد بمضمون النصوص الدينية لكونها تحاط بالقداسة و التعظيم، فهي وحي إلهي مقدس. إن الصراع بين الدين و العلم يأتي في ظل دحض العلم لبعض المسلمات المسيحية أو بعض المذاهب الفلسفية التي تؤيد و تعم الفكر الديني الأرثوذكسي لاسيما لفلسفة أرسطو، فمن الطبيعي أن يزداد الصراع كلما تطرق العلم للقضايا الحيوية من تعاليم المسيحية.⁽⁷⁰⁾

و يبسط لنا رسل كل هذا بالقول بأن الصراع بين الأخلاق و العلم في شقه الديني بأنه يفسر بغياب معقولة النظام الفكري السائد و وهن المبررات التي تؤسس عليها أحكام الكنيسة، إذ أنها تعتمد على أحكام تفتقد إلى التبرير المنطقي المقنع، فالتصور الكنيسي للحقائق مبني على ما يفرضه منطق الكتاب المقدس و بالاعتماد على أشكال من التبريرات المتداولة في النصوص الشرعية و التي تفتقر - حسب رسل - إلى الحاجة على اليقين و إلى سلامة الاستدلال بالقبول بها في مجملها حتى و إن وجدت حقائق تجريبية لا تؤكد تأكيدات مضمون النص الديني و الحقائق الواردة فيه،

و يستشهد رسل على هذا من خلال ثبات الأرض أنها لا تدور التي أكد عليها الكتاب المقدس بشكل محكم، فإن رفض هذه الحقيقة و الاحتجاج عليها و الدعوة إلى المرافعة على حقيقة دوران الأرض حسب رسل، يترتب عنها إسقاط العديد من المفاهيم التي تضمنتها النصوص الدينية، بمعنى أن الخوف من التناقض الداخلي يدفع برموز رجال الدين و كل من يتخندق معها إلى رفض كل حقيقة تتعارض مع منطوق النص حتى و لو شهدت بها التجربة و الحس المشترك.

⁷⁰ رسل، المصدر السابق ، ص ، 06-05 .

من جهة ثانية، يكشف لنا أن المنهج العلمي يختلف كلية مع الأسلوب المستخدم في لاهوت القرون الوسطى، حيث أن هذا المنهج يرفض تعميم المنطلقات و المبادئ العامة المستنبطة من الحقائق الفردية أو الخاصة، أي لا يقبل التعميم حين الانتقال من العام إلى الخاص بحجة أن ما يصدق على الجزء لا يصدق على الكل بالضرورة في عملية الاستقراء التجريبي، فمن الممكن خطأ المبادئ العامة و عليه فإن الاستدلال العقلي القائم عليها قد يكون هو الآخر خاطئا و هذا تأكيد مرة أخرى على نسبة الحقائق التجريبية.⁽⁷¹⁾ و في نفس السياق، يعتقد رسل أن العلم لا يبدأ بالفروض العريضة، بل بالحقائق الفردية التي يكتشفها بالملاحظة و التجربة المخبرية، و عليه فالعلم لا يقبل هذه المنطلقات و القواعد العامة على أساس أنها حقائق مطلقة و لكن يأخذها مأخذ الافتراض لا غير، و مجرد أفكار تشكل نقطة انطلاق لمشروع بحث علمي، مؤكداً بطبيعة الحال على إمكانية وجود ظواهر أخرى ليست بالضرورة قابلة للملاحظة و التجريب و تندرج حينئذ في الإطار النسبي و الكيفي، ثم ينتقل العلم من الافتراض كالعادة إلى مرحلة و ضع هذه الفروض العلمية على المحك بإخضاعها لمراحل الاستدلال التجريبي، فيتم تزكية الفرض العلمي أو استبعاده و البحث عن فرض علمي جديد.

و في ذات السياق، يخبرنا رسل أن العلم يعتمد على المدركات العقلية و الانطباعات الحسية و عليه فمن الضروري الاعتماد في المجال العلمي على التجربة الحسية و طرق الاستنتاج العقلي، فكثيرا ما تكون أحكامنا خاطئة إذا ما أسست على النشاط الذهني الصرف و أهملت التحقق منها في الواقع و بالتالي يتأكد أن رسل يرفض استبعاد الفروض العلمية بحجة أنها مضرّة بالعلم.⁽⁷²⁾

و من هنا كانت أيضاً الفروض العلمية نسبية و ترجيحية في حقيقتها، و لا يمكن الحكم بصحتها إلا بعد استقراء الظواهر و معاينة الحالات الجزئية و تعميم نتائج الاستدلال، و هو ما يصطلح عليه بالقانون العلمي، و التي كانت بدايتها فروضا علمية و تحولت بعد استقراء جزئي أو تام لقانون علمي بغية التنبؤ بالظواهر الطبيعية و إتاحة الفرصة للإنسان من أجل التكيف بشكل أفضل مع وسطه الطبيعي.

⁷¹ - رسل ، المصدر السابق ، ص 09-08-07 .

⁷² Russell – *The Analysis of Mind*. . p. 162-163-164-167.

و من هذا المنطلق يبدو الفرق جليا بين العلم و الدين، فالمعتقد يزعم أنه يحمل حقائق خالدة و يقينية أما النظرية العلمية غير نهائية و لا تعدو أن تكون نسبية و قابلة للتعديل و التغيير بتقدم و تغير وسائل البحث العلمي التي تكشف عن حقائق قد تتناقض مع حقائق المعتقد، فحينها يقع الصدام بين أنصار العلم و أرباب المعتقد و معتنقيه، فيؤكد رسل هذه الحقيقة أن الاختلاف الموجود بين العلم و الدين يكمن في اتخاذ المبادئ العامة نقطة البداية أما العلم فيعتبرها نتائج للقدرات و الفروض العلمية المؤكدة بفعل سلطة التجريب و الاستقراء.

إن النظرية العلمية تدرك وفق رسل عجزها عن إدراك المطلق و أن أسلوبها المنطقي جد محدود في استنتاجاته و لا يمكنه أن يصل إلى إثباتات نهائية، ما دام أن التعديل و التغيير لا يمثل سوى محاولة لإضفاء الدقة في النتائج دون نفي صلاحية النظريات الكلاسيكية مع التأكيد على طابعها الاحتمالي هي الأخرى، و الإقرار في ذات الوقت بمدى صلاحيتها بتأكيد من استخدام قوانينها العلمية و استثمارها في الواقع التقني.⁽⁷³⁾

من جهة أخرى، يذكرنا رسل بأن العلم لا يهتم بالبحث عن الحقيقة المطلقة و لا يشجع على البحث عنها، و ما اهتمامه إلا بالحقيقة التقنية القائمة على نظرية علمية تتوج لا حقا بإسقاطها في الابتكارات العلمية و التنبؤ بمستقبل الظواهر العيانية، و عليه يكون مقياس الحقيقة التقنية متمثلا في قدرتها على تمكين الباحث من ذلك، فكلما مكنتنا النظريات العلمية من ذلك، كلما كانت أكثر صدقا و يقينا، و من هنا تتحول المعرفة العلمية إلى أداة عملية للسيطرة على المادة و معالجتها و التحكم فيها.⁽⁷⁴⁾

و يزعم رسل أنه بالرغم من تحديد مواصفات المعرفة العلمية و ما يتعلق منها بالمنهج العلمي، فإن رواد العلم لم يكونوا حريصين على الالتزام و التحلي بهذه الصفات التي تستوجبها الروح العلمية، فمنهم من كان ينظر إلى الحقيقة بمنظار المطلق مثلهم في ذلك مثل رجال الدين و اللاهوت كما يبدو ذلك واضحا في الفرق

⁷³ - رسل ، المصدر السابق ، ص 09-10 .

⁷⁴ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 10-11 .

بين نظرة العصر الوسيط و العلم الحديث، فكان الكتاب المقدس و تعاليم أرسطو و مسلمات العقيدة المرجعية الوحيدة، و هي بمثابة حقائق لا تقبل النقض أو النقد بحكم أنها تملك إجابة على كل سؤال، و لم تحتكم إلى الملاحظة في التعامل مع الواقع بقدر اعتمادها على الاستنباط الأرسطي و نصوص الكتاب المقدس، فكان من الطبيعي أن يقوم الصراع و الجدل بين توجه العلم و مقتضياته و ثوابت النص الديني و قداسة حقائقه، فهو صراع بين مرجعية السلف و بين أسلوب العلم و اقتضاء الملاحظة في إقرار الحقائق، فلم يطالب العلماء بالاعتقاد في الافتراضات بناء على سلطة عليا مستلهمة و ذات قدسية واجب الاعتقاد فيها مؤكدة على صحتها، بل على النقيض من ذلك، وفق شواهد الحواس و المذاهب التي تحث على وجوب اعتماد الحقائق الواضحة و الجلية بجلاء من الملاحظة العلمية و الاعتبار التجريبي (75).

كما يعتقد أن اكتساح الملاحظة لمجالات المعرفة و اشتراطها كقرينة للتعرف على الحقائق و إثبات صدقها، اضطر الدين تدريجياً على تغيير العديد من مسلماته، بالإضافة إلى أن علاقة العلم بالدين ليست قائمة كلية على المعارضة لاسيما إذا كان هدف الدين هو إضفاء الشعور الإنساني و الاهتمام بواقع البشرية، فلا يستطيع العلم إنكار ذلك و يقر بعدم قدرته على الخوض فيه و الذي يتواجد خارج نطاق العلم و ميدان بحثه، إلا أن الكثير من المفكرين مازالوا يعتقدون بالوجه السلبي للدين بحجة ما يفرضه من مخاوف و ما يسلم به من افتراضات و التي لا تعكس الحقيقة على الدوام. (76)

و مازال عدد قليل من العلماء يتصور أن العلم هو الاستيعاب، و ما زال منهم من يتفاخر في مجالسه باتساع معلوماته و تشعب معارفه، و يستعرض على الملأ قوة ذاكرته فيبهر الحاضرين بتلك الكمية الهائلة من المعلومات التي يضمها ذهنه، و يثبت لهم أنه " موسوعة متحركة " قادر على استعادة و استظهار قدرة غير عادية من الحوادث و الوقائع. و لكن هذا كله لا يعدو أن يكون عملية استعراضية جوفاء، بل أن ملء

75 - رسل ، المصدر السابق ، ص 11-12 .

76 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 12 .

الذهن بالمعلومات المكدسة كثيراً ما يكون على حساب قدرة هذا الذهن على الإبداع . و كأن التكديس و الحشو الذي امتلأ به الذهن يمنعه من الحركة الطليقة، و يخلق لديه نزوعاً إلى ترديد ما سبق له أن قرأه أو سمعه، و هو نزوع مضاد لكل إبداع.

إن الذهن المزدحم بالمعلومات، المنشغل دائماً بما يأتيه من المصادر الأخرى، لا تعود لديه قدرة أو طاقة على كشف الجديد، بل يجد متعة كبرى في إفراغ محتوياته أمام الناس في كل مناسبة، و هو عمل يبهر البعض، و لكنه لا يدل على أصالة و ابتكار. و هكذا يبدو أن هناك تناسباً عكسياً بين استخدام المرء لذاكرته و استخدامه لملكاته الإبداعية، و هذا التناسب العكسي يسير في عصر العقول الالكترونية التي تتولى عن الإنسان أعمال الذاكرة الآلية، في صالح ملكات الإبداع بغير حدود.⁽⁷⁷⁾

و يبدو من المستحيل تصحيح هذا الوضع في بلادنا إلا بإعادة النظر في بناء منظوماتنا التعليمية التي تعتمد اعتماداً يكاد يكون تاماً على تنمية الحفظ و استيعاب المعلومات، فنحن لا نحتاج إلى هذه الملكة – في عصر العقول الالكترونية – إلا احتمالاً ضئيلاً، و عليه فههدف المنظومة التربوية عند رسل يجب أن تتحول من تعهد ملكة الذاكرة و تنميتها و حشوها بالمعارف، إلى رعاية الملكات الإبداعية و الابتكارية و القدرة على مواجهة المواقف الجديدة غير المتوقعة بذكاء و حسن تصرف و هو تحول علينا مواجهته عاجلاً أم آجلاً ما دمنا نعيش عصر السرعة و الحواسيب.

و يضيف رسل أنه حسبنا أن نقارن بين أسلوب الحياة في مثل هذه الأيام منذ مائة عام و أسلوب حياتنا الحالي، لكي نفتنع بأنه لن نفهم عالمنا هذا إلا في ضوء التقدم العلمي الذي نعيش فيه و نتمتع بإنجازاته دون أن نشعر به، فالعلم لم يعد ظاهرة هامشية على الإطلاق، إذ صار يكتسب أبعاداً اجتماعية تزداد أهمية يوماً بعد يوم، فكل لحظة تجعل الإنسان على قناعة بأن مصيره أكان يسير نحو الأفضل أو الأسوأ صار مرتبطاً بالعلم.⁽⁷⁸⁾

⁷⁷ ، فؤاد زكريا ، التفكير العلمي ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد 3 ، الكويت ، 1978 ص 157.

⁷⁸ - فؤاد زكريا ، المرجع نفسه ، ص 162.

لقد مكن العلم و التقنية في تصور رسل على الصعيد التعليمي من تحقيق نتائج إيجابية و تتجلى من خلال الانتشار الواسع للتعليم، و التعليم العام الذي انتشر جليا في أمريكا، بل أننا نعرث حتى على التعليم المجاني في المستويات الجامعية، فهو لا يقتصر فقط على مستويات تعليمية بعينها، بل هناك انتشار معرفي علمي على مستوى الأوساط الشعبية، إذ يرى رسل بأن المناخ التعليمي الذي ميزه تكافؤ الفرص، فتح المجال أمام الأفراد لنقل إمكانياتهم و إسقاطها واقعيا.

و في هذا تحسن ملحوظ سواء في انكلترا أو في أمريكا، فهذا الجو ساعد على استثمار المواهب و تفجير الطاقات و القدرة على الإبداع و الابتكار من خلال توفير الشروط الذاتية و الموضوعية للمبدع خلافا لما كان سائداً في الأزمنة السابقة، و لا يحول بين انتشار التعليم المعتمد على التقنية إلا خطر الحرب، " فأخيرا، هناك سعادة متفشية بين جموع أكثر لا من أي زمن سابق و إذا أفلحنا في التخلص من خطر الحرب فإن هذا التحسن سيكون أكبر مما هو عليه بكثير". (79)

و يقرر أن القدرة على الإبداع و الإسهام في حقل العلم و المعرفة تقتضي نظاما تربويا كفيلا بتعليم النشء عادات فكرية متميزة تمكنهم من الابتكار و الإبداع، و أن توكل مهمة التربية إلى رجال أكفاء يكون باستطاعتهم غرس هذه العادات و تعليمها و تلقينها، و هذه الصفات موجودة عند الكثير من المبدعين و المبتكرين أمثال فارادي و هرتز و ماكس وال، و التي من بينها حب المعرفة و الاستمرار في البحث و التضحية من أجلها و القدرة على النقد و التمحيص و التشكيك في صدق المعارف و يقينيتها. (80)، و هذه الصفات و تمكين المتعلمين منها هو ما يجعل المجتمع قادراً على توليد أفكار جديدة و تقديم ابتكارات علمية و تقنية في المستقبل. (81)

⁷⁹ رسل ، أثر العلم في المجتمع ، ت ، صباح الصديق الدمولوجي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008. ص 123 .

⁸⁰ - Russell – **Mysticism and Logic and Other Essays** .Classic series edition, London, 2006 .p 20-21.

⁸¹ -- Russell - **Ibid** . p 21.

و دوماً في الشق التربوي، يعتقد رسل أيضاً أن التربية لا تعني فقط ما يكتسبه المتعلم في المدرسة، بل هي مبنية على التجربة الخاصة و ما يتم صقله فيه من طباع و قدرات، وبالتالي فالتربية لا تعني تعلم المعارف الستاتيكية الكلاسيكية، بل تستدعي الاطلاع عليها و العمل على تجاوزها باستحداث معارف جديدة تطبق في مجال العلوم التطبيقية⁽⁸²⁾.

و يعيد رسل إلى الأذهان أن التقدم العلمي بحاجة إلى الاعتماد على الأساليب التربوية الراقية و من أهمها الإقرار بوجود فروقات فردية بين الأفراد في إمكانياتهم و قدراتهم ، و ليس المناداة بنظرية المساواة التي تقتل روح الإبداع و التجديد⁽⁸³⁾

من جهة ثانية، يرى أن المعرفة لا ترتبط بتحقيق منفعة مادية فقط، بل تحتاج إلى معرفة تكون أهدافها أخلاقية أيضاً، إذ يزعم أن التقنية و العلوم التطبيقية هي عنصر أساسي في التربية، " و لا مناص من أن تكون العلوم التطبيقية العنصر الأساسي في مثل هذه التربية، فبدون الطبيعية و علم وظائف الأعضاء و علم النفس لا نستطيع بناء العالم الجديد، و لكننا نستطيع بناءه بدون اللاتينية و اليونانية، و بدون دانتي و شكسبير، و بدون باخ و موزارت . تلك هي الحجة العظمى للتربية النفعية، قد عبرت عنها بقوة لأني أحسها بقوة"⁽⁸⁴⁾، بدون أن يعني هذا القول ضرورة مقاطعة الفنون و ممارستها.⁽⁸⁵⁾ ،

و هنا يؤكد بالخصوص على أهمية علم النفس في الجانب التربوي بعدما أكد أهميته في الجانب الصناعي و علم النفس العيادي.⁽⁸⁶⁾، و يرافع رسل أن للرغبة تأثير كبير في المعرفة و تمثل دافعا لطلب المزيد، و تشعر الفرد بالمتعة و السرور بمجرد بلوغ الغاية و الرضا عن تحقيق المبتغى، و في ذات الوقت، تمثل خطورة كبيرة إذ كانت تتعلق بالمعتقدات التي ترسخ برغبة من الفرد و ميل فإنها نحوها، و بالتالي يرفض كل محاولة تغييرها أو لاجتئامها⁽⁸⁷⁾. معنى أن البحث العلمي يقوم أساساً على حب المعرفة و الفضول و من خلالهما يمكن للباحث أن يتغلب على الصعوبات و العوائق الاستمولوجية التي تعترض سبيله و يستطيع بموجبهما تقويضها و تجاوزها.

⁸² - Russell -Ibid - . p 22.

⁸³ - رسل ، في التربية ، ترجمة سمير عبده . منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 20.

⁸⁴ - رسل ، المصدر السابق ، ص 21.

⁸⁵ - - رسل ، المصدر نفسه ، ص 26.

⁸⁶ - - رسل ، المصدر نفسه، ص 29.

⁸⁷ - Russell – Ibid . . p 53.

لا حرم في رأينا من استخدام محصلة و نتائج علوم التربية في بناء الأجيال المقبلة لما تقدمه من امتيازات تقنية و معرفية كفيلا يجعل الفرد قادراً على مواجهة تحديات المستقبل إلا أن وضع النظم التربوية تحت نظريات فلسفية و أخلاقية و تجنيد التقنية لتحقيقها على أرض الواقع، يمكن الاعتراض عليها، فنظرية المساواة بمفهومها المطلق و كذا التفاوت المطلق تنم على وجود نية مسبقة لإعطاء فرص إضافية للبعض بحجة عنصر التميز لديهم أو لتغطية ضعف البعض بحكم المساواة و تكافؤ الفرض دون استثناء، فالاحتراز هنا مطلوب و بعد النظر مقصود.

و يزعم رسل أن هناك اختلاف في دور العلم على المستوى الأخلاقي، إذ اعتقد الفلاسفة الانجليز أن العلم قد أعطى البرهان على وجود الله و هو الذي قضى بقوانين الطبيعة التي اكتشفها العلماء الانجليز باعتبار أن الإنسان كان مركز الكون و أن غاية وجود الله ذات صلة بالجنس البشري، أما الفلاسفة الفرنسيون المتطرفون، و نتيجة خلافهم مع الكنيسة، فإنهم لم يعترفوا بأن القوانين الطبيعية تحتاج إلى منزل الشرائع، و بينوا أن القوانين الطبيعية تستطيع توضيح و تفسير سلوكية الإنسان، و بذلك كان موقفهم ماديا و ناكرا للمشيئة الحرة و رفعوا بذلك فكرة الغائية عن الكون و أن ليس للإنسان وجوداً عرضياً بالنظر إلى هذا الكون.

و بالتنقيب في فلسفة رسل، سنلاحظ أنه يضعنا أمام النظرة الجديدة للعلم، فقد ارتبطت أكثر بالجانب العملي و من خلال الممارسة كما يتبناها العديد من الفلاسفة المحدثين أمثال كارل ماركس، فاعتبر أنه لا يجب الاهتمام فقط بما هو نظري، بل يجب أن يكون الاهتمام بالشق العملي، فالكثير من الفلاسفة فسروا العالم بطرق شتى، لكن المهمة الحقيقية حسب ماركس تكمن في التغيير بالدرجة الأولى. و هذا التصور يلاحظ أيضا عند رواد الفلسفة النفعية (البراغماتية)، نذكر منهم جون ديوي الذي يقر بالطابع العملي للمعرفة و مقياس الوضوح فيها يوجز فيما تقدمه لما أفكارنا من نتائج ملموسة في الواقع العملي، فتمسك الفلسفة البراغماتية حسب رسل بالجانب العملي للعلم كهدف جوهرى يجعل منها فلسفة تحتكم إلى المنفعة كأساس لإثبات صحة الأفكار المتداولة على المستوى النظري.

و بالتالي تكمن أهمية الأفكار العلمية في النهاية في ما يعقبها من نتائج نفعية في الواقع و ليس بقدر ما تحقّقه من إنجازات على المستوى التجريدي أو الميتافيزيقي و أيضا يترتب عنها أن الحقيقة العلمية لا تعدو أن تكون نسبية و متغيرة و ما تقتضيه من احتمال و افتراض بشأن النظريات العلمية، فيقدم لنا رسل مثال على ذلك بالاعتماد على أهم سؤال يطرح عن الكهرباء المتمثل فقط في كيف تعمل؟ و كيف تكون مفيدة لأجلنا، ذلك يمنحنا حسب رسل سيطرة و قوة و كلها تعبر عن نتائج التقنية، فيكون بذلك العلم قوة (Knowledge is Power).⁽⁸⁸⁾

و أهم مبرر - حسب رسل - لارتباط العلم بالمنفعة، هو الطبيعة الإنسانية التي فيها نزوع طبيعي لطلب المنفعة و اللذة مهما كانت مستوياتها و طبيعتها سواء كانت جمالية أو تأملية أو عاطفية، و يبقى حسب رسل أنه كما يقول ماركس، ليس المهم هو فهم العالم، لكن المهم هو تغييره، " فالنظريات التقليدية للمعرفة وضعت من قبل رجال أحبوا الأمل، إنه ذوق رهباني تبعا لوجهة نظر من كرسوا أنفسهم للآلة، فالآلة تزيد في قوة الإنسان بدرجة كبيرة، هذا هو مظهر العلم الذي يجتذب عليه المفتونون بالقوة، و إذا كانت القوة هي كل ما تريده من العلم، فالنظرية البراغماتية تعطيك ما تريده بالضبط بدون أي إضافات لا تراها ذات علاقة، و هي تعطيك حتى أكثر مما توقعت".⁽⁸⁹⁾

لقد أكد ماركس في كتاباته المتأخرة سنة 1907 أن الفلسفة البراغماتية هي ملازمة للقوة، و من خلال هذه القوة يمكن ضمان السلام و الأمن العالميين، و هذا ما لا يتفق معه رسل الذي يزعم أن القوة ليست حلاً و سبيلاً ناجعاً لفض النزاعات و الخلافات بين المجتمعات الإنسانية،" لذا سيكون القول بأن القوة تحسم النزاع قول مضلل، و بدون أن تضيف أن القوة تعتمد على العدالة"⁽⁹⁰⁾، فالبراغماتية باعتبارها فلسفة قوة - حسب رسل - ستؤول إلى القوة و العنف و إن كانت قد بدأت بالحرية و التسامح بنفس الكيفية التي تتخذها الديمقراطية كمبرر للاستعمار و الاستغلال بدعوى نشر الديمقراطية.

⁸⁸ رسل، أثر العلم في المجتمع، ص 114 - 115 .

⁸⁹ رسل، المصدر نفسه، ص 116-117 .

⁹⁰ - رسل، المصدر نفسه، ص 116-117 .

و يرفض رسل فكرة البراغماتية إذن لما يتبعها من آثار سلبية قد تؤدي إلى إفلاس إنساني و منظومته القيمية، " فلمن لا يجدون للإنسان غاية ملائمة لعبادتهم، سيظهر العالم البراغماتي ضيقاً و تافهاً، يحرم الحياة من كل ما يعطيها من القيم و يجعل الإنسان نفسه أصغر بحرمانه من الكون الذي يتأمل فيه العظمة و السماء".⁽⁹¹⁾

و تبدو فكرة تغيير العالم في اعتقادنا حاملة في طياتها أبعاداً نفعية و تهدف بالدرجة الأولى إلى تغيير الطبيعة من حالتها اللانافعة إلى حالة نافعة و هذا ما يتقاطع أيضاً مع العديد من آراء العديد من الفلاسفة حيث يحدد أوغست كونت مفهوم الشغل بقوله التغيير النافع للمحيط و مع ذلك من حقنا أن نتساءل حول جدوى التغيير إذا كان الهدف منه تحقيق المنفعة بمفهومها الضيق، فمن الضروري إذن تقييد هذه المنفعة، فكيف يكون التغيير إيجابياً في ظل التضحية بمصالح عدد أكبر من الأفراد في سبيل استهداف مصالح القلة منهم و ما تنطوي عليه من عواقب و أضرار؟

على صعيد آخر، يعتقد رسل أن التطور العلمي و الفكري و إبداء الآراء بمنهجية علمية يقتضي عدم فرض الوصاية و التقييد العام، إذ " أن عالم التفكير و إبداء الرأي لا تقوم له قائمة مع التقييد العام، بل يجب أن يكون عالماً حراً طليقاً على قدر الإمكان يمرح فيه الذين يعملون ما اعتقد غيرهم، فالحكومة عادة في فرضها التعليم على كل طفل و لكنها ليست عادلة و لا محقة في فرض نظام التعليم بشرط ألا تنتج غير عقليات واحدة و آلات صماء".⁽⁹²⁾

كما يرى أيضاً أن الإبداع العلمي يقتضي وجود مواهب و استعدادات داخلية و توجيه الفرد وفق اهتماماته و مواهبه، و التي تكشف عنها أساليب التعليم و الفرص المهيأة و تقديم حوافز و تشجيعات للأفراد تساعدهم على المثابرة و المواظبة. و هذا ما لا تساعد عليه النظم التربوية الحالية في نظر رسل، فالعلم في النهاية هو تعبير عن الدوافع الإبداعية و التي تمثل جملة الاستعدادات و القابليات التي يملكها المبدع بشكل قبلي.

⁹¹ رسل ، المصدر السابق ، ص 118-119.

⁹² - رسل ، مثل عليا سياسية ، ص 47 .

مع الإشارة هنا إلى أن الحرية التي يشترطها رسل لا تعني إطلاق العنان لرغبة الفرد و ميوله، بل يبحث على أن تكون هذه الحرية بضوابط و معايير تحددها سلفا سلطة القانون، أي أنها ليست الحرية التي تؤدي إلى الفوضى و الظلم و أن يتصرف الأفراد بكيفية تستجيب لأهوائهم و ميولهم، على النقيض من ذلك، يقصد رسل هنا بالحرية ما كان منها مقيدا بروح القانون و السلطة التي تكون وظيفتها كبت القوة و التقليل من استغلاله.⁽⁹³⁾، و يباشر رسل أيضا التأكيد أن الدوافع الإبداعية لها أهمية بالغة في حياة المجتمع للفرد المبدع و مجتمعه و أن يسعى المجتمع إلى إسعاد كافة أفرادها، و بالتالي لا يجب أن توضع قوانين مجحفة في حقهم، و عليه " يجب أن يتحرر الجانب الإبداعي في كل فرد تحررا مطلقا من القيد العام كي يظل سليما و قويا و عظيما، كما أن وظيفة الدولة اتجاه هذا الجانب من حياة الأفراد تنحصر في العمل على إمدادهم بالفرص و المسارب اللازمة." ⁽⁹⁴⁾.

كما يوجه رسل عنايتنا إلى أنه من الواجب التحكم في حياة العظماء و العباقرة و المفكرين إذا ما كانت رغباتهم و ميولهم وحشية، أما إذا لم تكن كذلك، فعلى حينئذ أن نعمل كل ما في وسعنا لكي نجعل منهم أكثر عظمة و قوة ، و أن نجعل كلاً منهم يفكر بالأسلوب الذي يعبر عن شخصيته، " فكل اعتراض يوجه إلى حرية الفكر أو يحقر من المعرفة ، يجب أن يتلاشى من الوجود بطبيعة الحال." ⁽⁹⁵⁾

و اقتنع رسل أنه إذا كان للشخص نوايا حسنة و تفكيره سديدا فإن ذلك سيزيد من مقدار الطيبة و الحسن و الجمال الموجودة في العالم، بل لن يمنع الآخرين من الاستفادة منه و يساعدهم على غرسها فيهم، و من هنا يرى أن الطاقات الفكرية و الروحية لا يملكها شخص معين دون الآخر، فبإمكان الآخرين معرفتها أيضاً و قد يساعدهم على هذه المعرفة، فيؤكد رسل وجود دوافع إبداعية في الإنسان تهدف إلى إيجاد نوع من المنافع المشتركة بين الناس و لا تكون ملكا لأحد، بخلاف وجود دوافع تملكية ترمي إلى الاستحواذ و الكسب الفردي الذي لا يقبل المشاركة و المقاسمة و التي لها آثار سلبية على العالم.

⁹³ - رسل ، المصدر السابق ، ص 49-52 .

⁹⁴ - رسل ، المصدر نفسه ،الصفحة نفسها.

⁹⁵ - رسل ، المصدر نفسه ص 53 .

و في اعتقاده أن " مما يزيد الأمر سوءاً أن العادة التي تتكون لدى الإنسان من التفكير في هذه الأمور عادة بشعة لأنها تقود إلى المنافسة و الحسد و السيطرة و غيرها من الشرور التي تملأ العالم ".⁽⁹⁶⁾، و يواصل في هذا السياق بأن " العالم الذي اخترع اختراعاً ما قد ينهش الحسد قلبه إذا اخترع عالم آخر اختراعاً غيره ينافسه ، فلو وجد عالم دواء للسرطان، و وجد عالم آخر دواء للسلس فإن كل منهما تأخذه هزة من الفرح لو ظهر أن اكتشاف العالم الأخر كان مخطئاً، هذا بدلاً من أن يأسف على آلام المرضى التي كان من الممكن تلاشيها.⁽⁹⁷⁾

و للحديث عن أثر العلم، فإن الملاحظ أن فلسفة رسل تنهض على تمجيد التشكيك في شتى مجالات الفكر، حيث يدافع في أكثر من مرة على الشك العقلي، حيث يؤكد أنه من غير المرغوب فيه أن نؤمن بقضية إذا لم ينهض الدليل على افتراض صحتها ، فحسب رسل أن رأي الخبراء لا يعني بالضرورة صحة هذا الرأي، مثال ذلك رفضهم لبعض النظريات كـنظرية اينشتاين حول الجاذبية⁽⁹⁸⁾. و تتلخص مبادئ رسل في الشك فيما يلي، عندما يتفق رأي الخبراء، فإنه لا يمكن الاعتقاد بيقينية الرأي المضاد، و عندما لا يتفقون على رأي فإنه لا يمكن لغير الخبراء اعتبار أي رأي أمراً أكيداً و عندما يرى جميع الخبراء أنه ليس هناك أسس كافية للاعتقاد بصحة رأي اعتقاداً إيجابياً، فيجدر بالرجل العادي أن يحجم على إصدار أحكامه.⁽⁹⁹⁾

و آمن رسل أن الفكر الضيق يعني عدم القبول بمسلمات المعتقدات الدينية، أما الفكر الحر بمعناه الأوسع هو التخلص من العقاب و التضيق اللذان تفرضهما القوانين لاعتبارات عقائدية و دينية.⁽¹⁰⁰⁾، حيث يقرر أن الفكر الحر هو القادر على التنافس الحر مع غيره من المعتقدات، أي عندما تستطيع سائر المعتقدات أن تشرح وجهة نظرها بحيث لا يصاحب الإيمان فوائد أو أضرار من الناحية القانونية أو المالية. فالأصل عند رسل أيضاً أن العلم لا ينهض على المطلقات، بل تتمثل روحه الحققة في مبدأ التشكيك العقلي الذي يدخل في اعتباره دوماً احتمالات الخطأ و الصواب .

⁹⁶ - رسل ، المصدر السابق، ص 03

⁹⁷ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 04-05-06 .

⁹⁸ - رمسيس عوض ، رسل المفكر السياسي، ص 213.

⁹⁹ - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 214.

¹⁰⁰ - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 218-219.

و يزعم أن ما يجعل الإنسان يستمسك بمعتقدات لا عقلية لا ينهض الدليل على صحتها هي أسباب ثلاثة، هي التعليم و الدعاية و الضغط الاقتصادي (101)، في حين أن محاربة هذه الآفات و تحقيق الأهداف التربوية من وجهة نظر رسل لا يتحسد إلا بالجمع بين التوجه الرأسمالي و الاشتراكي، فالمستوى الفكري الليبرالي ضروري من حيث إيمانه بجرية الفكر و الرأي و حرية الفرد، و هو قبل كل شيء أيضا اشتراكي على المستوى الاقتصادي و الاجتماعي و السياسي باعتبارها تغطي متطلبات الفرد الأساسية و تمثل شروطا لجعله يتمتع بالحرية الفكرية.

و من ثمة ينصح رسل بأنه لا يجب الاتكال على الدولة أو الكنيسة أو العلم أو الأدب في تعليم الناشئة تربية صحيحة، فكل هؤلاء يسعون إلى غرس روح التوسع القومية و نظام الحكم السائد أو المدرسة أو العائلة بشكل تنافس مرضي (102)، و للحرية في التعليم لدى رسل نواحي عدة منها حرية الإنسان في أن يتعلم أو يمتنع عن التعليم و حرية اختيار ما يتعلمه، و حرته في أن يعتنق ما يشاء من الآراء مع فرض بعض القيود في المراحل الأولى من عمر الإنسان و هو ما يعرف بإلزامية التعليم، حتى يصل إلى مرحلة النضج (103)

و يرى هذا المفكر أن تلقين مذهب واحد باعتباره يقينا لا يقبل النقاش مفسدة للنشء و أخلاقهم الفردية و مفسدة للمجتمع على حد السواء، لأنها تؤدي إلى سلسلة من الأحقاد و الافتراءات و الأكاذيب تفعم القلوب بالعداوة و تشحنها بالبغضاء التي تؤدي إلى الحرب و الدمار (104)، فيجب أن يعامل التلاميذ لا مجرد وسائل لتحقيق غايات، بل كأفراد لهم حقوقهم الخاصة و شخصيتهم الخاصة بهم، لا مجرد قطعة شطرنج أو جندي في كتيبة أو مواطن في دولة. وعلى هذا الأساس يؤكد أن تبجيل الشخصية الإنسانية هو بداية الحكمة في كل مسألة اجتماعية و في التعليم قبل كل شيء و فوق كل شيء (105)

و يشرح رسل مبيناً أن إدراك الآثار السلبية لاستعمال العنف و القهر يجعل هؤلاء يسهرون على احترام حرية الآخرين و لن يفكروا في إجماعها و يقابلونها بنوع من العطف باعتبار أن كل فرد سيسعى ليظهر بمظهر

101 - رمسيس عوض، المرجع السابق، ص 222.

102 - رمسيس عوض، المرجع نفسه، ص 235-236.

103 - رمسيس عوض، المرجع نفسه، ص 236.

104 - رمسيس عوض، المرجع نفسه، ص 237.

105 - رمسيس عوض، المرجع نفسه، ص 238.

الفضيلة و ما يقتضيه من خصال و صفات حميدة أهمها القبول بالاختلاف و الرأي الآخر، بمعنى ضرورة الحرص على الاحترام و التقدير.⁽¹⁰⁶⁾

إن موقف رسل من التربية أساسه ما كان يعانيه من أساليب التربية في صباه و التي تتصف بالتزمت و الغلاظة و الذي كان يشبهه بنظام اسبرطة في أيام الإغريق، و هو نظام عرف تاريخيا بقسوته و فظاعته و حرصه على النظام، مثال ذلك وجوب الاستحمام بالماء البارد و التمرين اليومي على البيانو في حجرة باردة كل صباح لمدة نصف ساعة و الاشتراك في موعد لا يتغير لإقامة الصلاة، و كان الاعتقاد بأن مثل هذه الخشونة تصنع الرجال الذين يعتد بهم و هو ما اعترض عليه رسل من ممارسات قائمة في رأيه على التقشف و الروع و التزمت و تحريم تناول بعض الأطعمة بدعوى التقشف و الزهد.⁽¹⁰⁷⁾

إننا نعتقد و نأمل أن يشاركنا البعض فيما نقول، أن استخدام العلم و الوسائل التكنولوجية في الشأن التربوي قد يوظف لتحقيق مطالب لا تتفق بالضرورة مع القيم الأخلاقية الحقة كما هو واقع التربية اليوم في ظل استخدام الوسائط الاجتماعية و تقنيات التواصل الاجتماعي التي كان لها انعكاسا سلبيا و وخيما على المستوى الأخلاقي و الاجتماعي، وبالتالي تقلل من إمكانيات الأفراد و استثمار قدراتهم الخاصة طبعاً باستغلال التقنية و تطبيقاتها العملية، و من هنا علينا ألا نتفاءل بشكل مفرط بما تتلقفه بعض الألسنة و ترددها بعض الأصوات حول ما يقدمه العلم من حلول على المستوى التربوي.

إن ثورة رسل على التقاليد و القواعد الأخلاقية السائدة في المجتمع الفيكتوري كانت متصلة بظروف نشأة رسل الأولى و تمثل رد فعل لها. فقد تمرد بفكره على البيئة التي شب في أحضانها و دمغها بحكمه القاسي عليها بأنها بيئة تشجع نوعاً مريضاً من الأخلاق إلى الحد الذي يصل فيه التشجيع إلى إصابة الشلل و الذكاء⁽¹⁰⁸⁾. و تظهر الأدلة على أن رسل كان يهتم بالاستدلال العقلي في قبول الرأي أو رفضه ، فعندما كان يتعلم الرياضة على يد أخيه علمه التعريفات فاستوعبها سريعاً، و لكن عندما انتقل إلى البديهييات طلب منه أخوه أن يسلم بصحتها دون برهان و استاء من ذلك و قال مخاطباً أخاه: " لكن لماذا ينبغي علي أن أعترف بهذه الأشياء إذا لم يكن من المستطاع إثباتها." ⁽¹⁰⁹⁾

¹⁰⁶ - رسل ن، مثل عليا سياسية ، ص 06-07 .

¹⁰⁷ - رمسيس عوض ، برتراند رسل الإنسان ، الدار القومية للطباعة و النشر ، القاهرة ، 1984، ص 11.

¹⁰⁸ - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 12.

¹⁰⁹ - رمسيس عوض ، المرجع نفسه، ص 14.

لقد أسس رسل فلسفته على العقل و تمجيد التشكيك فيما لا يستطيع عقل الإنسان إثباته أو البرهنة عليه، بما فيها المعتقدات الأخلاقية و الدينية، و حرص رسل على الأمانة الفكرية مهما كلفت من ثمن و الإيمان بأن التشكيك و القلق الفكري الذي يأتي في أعقابه كنتيجة لانعدام المعرفة اليقينية ينطوي على شجاعة و فضيلة أخلاقية⁽¹¹⁰⁾. فهنالك العديد من الصعوبات التي تواجه الأسرة في إيلاء عناية كافية بعدد كبير من الأبناء و أن توجههم نفسيا و تؤهلهم حياة ناجحة في المستقبل بطبيعة الحال، فإن هذه الصعوبة تتضاعف إذا كان المستوى الاقتصادي لهذه الأسر هابطا، و في المستويات الاقتصادية المرتفعة لا تخلو هذه الصعوبات.

و هكذا استطاع العلم أن يقدم حلولاً ناجحة إلى حد ما لمواجهة هذه التحديات، منها إمكانية التحكم في الإنجاب دون صعوبة مع الإقرار بوجود معارضة من قبل الأوساط الدينية و نفسية و اجتماعية و التي تفرض إجبار الناس بسلطة القانون من إجبار الناس على التوقف على تحديد النسل عند حدود معينة خاصة في البلاد العربية، يبقى أنه من الواجب تغيير هذه الذهنيات ، فالتغيير يساعد على تحصيل أكبر قدر من الحرية كما هو الحال في إشارات المرور. و ما يترتب عنها من نظام و أمان و غيابها و ما تطرحه من فوضى و تكديس في حركة المرور، أي ضرورة الانتقال من حال الحرية العشوائية أو المتخبطة السائدة في البداية إلى نوع من التنظيم أو التقييد الذي يحقق لنا مزيد من الحرية.⁽¹¹¹⁾

و لا يختلف اثنان إزاء ما ساهم به العلم من تنوير العقول و تهذيب النفوس و النأي بها عن أساليب التربية التقليدية التي تمجد الإتياع و تدعو إلى التقليد و الإيمان بخطورة الجدل و السؤال، لكننا نتساءل إن كان العلم و ما يتضمنه من إرشادات و توجيهات، و التي يفترض أن تحرر الفكر و تساعد على الإبداع، تنطوي فقط على ما هو إيجابي، فكيف نفسر استخدام هذه الأساليب العلمية و تقنيات الصوت و الصورة لتدمير هوية بعض المجتمعات و استدراج بعض الأفراد فكريا و ثقافيا لتحقيق أهداف نفعية و استدمارية و تفكيكية، بل تكرر حتى الفكر الأسطوري الذي تجاوز في مداه أساطير العصور البائدة.

¹¹⁰ - رمسيس عوض ، المرجع السابق ، ص 15.

¹¹¹ - فؤاد زكريا ، التفكير العلمي ، ص 171.

و عليه يجب الاحتراز من منطق التعميم و التسليم بمقدمات لا يزيكها الواقع و لا تساندها قائمة أهداف بعض الكيانات السياسية محاولة الترويج لصورة الإنسان البطل الذي لا يهزم تارة، و تارة حامى حمى الأخلاق و القيم و محررة للفكر من الوصاية و الأخذة بيده نحو الحرية و الديمقراطية، و هي في ذات الوقت تمارس الرقابة و التنصت على شعوب أخرى و ترغمها على تقمص هويتها و ثقافتها عنوة، من خلال الغزو الثقافي و حملات التبشير أحياناً، و أحياناً أخرى عبر التعميم الإعلامي و توجيهه الذي لم يسلم منه حتى مواطنها.

2- دور العلم في مراجعة الموروث و نقده:

سنعرض في الصفحات التالية بعض الصراعات التي نشبت بين علماء اللاهوت و رجال العلم خلال الأربعة قرون الماضية، و سنحاول تقييم أثر العلم في يومنا هذا و نبين كيف كان النصر حليف العلم في كل مرة اختلف معها مع اللاهوت و نكشف في ثنايا هذا الفصل أيضاً عن أساليب العلم التي مكنت من التخفيف من معاناة البشر و بلائهم، و في نفس الوقت الوقوف على ما مارسه اللاهوت من وحشية طبيعية اتجاه الإنسان و تشجيعها على النمو و الاستعلاء، و نسلط الضوء على مزايا انتشار العلم في الانتفاضة على الموروث و من ثمة تصحيح مسار الفكر الإنساني معرفياً و منهجياً.

و في كل الأحوال، هناك تجديد في النظر إلى اللاهوت و يرجع ذلك إلى سببين أولهما أن التقنية العلمية أصبحت أكثر أهمية في نتائجها من المزاج العقلي العلمي الذي اتصف به العلماء و ثانياً ظهور أديان جديدة حلت محل الأديان التقليدية لا ترتكب نفس الأخطاء السابقة. إن المزاج العقلي يتميز بالحرص و الحذر، فهو لا يقطع بشيء و يخطو إلى الإمام خطوة بخطوة و هو لا يزعم معرفة الحقيقية بأكملها أو حتى يتخيل أن أفضل ما يتوصل إليه من معرفة هو الصائب صواباً كاملاً، و هو يعرف إن كان مذهب يحتاج إلى التعديلات السريعة أو اللاحقة و أن التعديل اللازم يتطلب حرية الاستقصاء و النقاش.

و يتجلى الصراع بين الدين و العلم وفق رسل من خلال استقراء تاريخ العلم، و بالتحديد من خلال موقف الدين من نظرية كوبرنيكوس التي لا شك أنها تمثل ثورة على نظرية بطليموس الراسخة و التي اعتقد بموجبها الكثير أن الأرض تستقر في مركز الكون، في ذات الوقت أن الشمس و الكواكب و نظام النجوم الثابتة تدور حولها، كل في فلكه الخاص، أما نظرية كوبرنيكوس على خلاف ذلك، تؤكد أن الأرض غير ثابتة في مكانها و لها حركتان، حول محورها و حول الشمس مرة كل عام، حقيقة لم يصل إليه العلم إلا في القرن السادس عشر.⁽¹¹²⁾

إن هذه الحقائق تشكل سبباً للصراع بين العلم و الدين، انتهى إلى اتهام من حمل هذه الأفكار العلمية بالكفر و الهرطقة أمثال أرسيتاكوس من ساموس في القرن الثالث عشر ق.م، و جاليليو لاحقاً⁽¹¹³⁾، فلقد قام بطليموس بنيد فكرة أرسيتاكوس و أعاد فكرة مركزية الأرض للكون و ظل هذا الرأي هو السائد حتى طوال العصور الوسطى كاعتقاد لا يقبل الشك و لا النقض .

و لقد كان لنظرية كوبرنيكوس و ظهورها تأثير هام في التطور العلمي على الرغم من وجود العديد من الأخطاء و العيوب الحسابية و الافتراضية التي تداركها فيما بعد الفلكي كبلر، حيث ساهمت في نتائج إسحاق نيوتن المعممة لاحقاً، و من هنا صاحب ظهور نظرية كوبرنيكوس عدة انتقادات من قبل رجال الاكليروس (البابوية) ، فقال بشأها لوثر: "إن الناس يستمعون إلى فلكي نصاب يحاول أن يبين أن الأرض هي التي تدور و ليس السماوات و الجلد و الشمس و القمر، و يتعين على كل راغب في إظهار ذكائه أن يستحدث نظاماً جديداً يدعي بطبيعة الحال أنه أفضل ما استُحدث من نُظم. هذا الأفيون يريد أن يغير وجه عالم الفلك تماماً. و لكن الكتاب المقدس يخبرنا أن هوشع⁽¹¹⁴⁾، أمر الشمس و ليس الأرض أن تقف في مكانها⁽¹¹⁵⁾

¹¹² - ، رسل ، الدين و العلم، ص 14 -

¹¹³ رسل ، المصدر السابق ، ص 15 .

¹¹⁴ أحد أنبياء بني إسرائيل ، ورد اسمه في الكتب المقدسة. هو نبي من الأنبياء ، يظن أن فترة نبواته دامت حوالي أربعين سنة، في القرن الثامن قبل الميلاد و المعروف في القرآن باليسع.

¹¹⁵ - رسل ، الدين و العلم ، ص 17

و لا شك أن موقف الاكليروس و تمسكه - حسب رسل - بمركزية الأرض يأتي في سياق إبراز أهمية الإنسان بالدرجة الأولى، و أن كل العوالم الفلكية التي تدور حول الأرض وجدت من أجل الإنسان. بمعنى أن موقفهم الراض لدوران الأرض يعضد بشكل مباشر فكرة أن الإنسان هو الغاية القصوى لوجود الكون⁽¹¹⁶⁾. إذ يكشف العلم في اعتقاد رسل حقائق لم تكن لتقبل في الأوساط الدينية أهمها، أن الأرض تدور و أن الكون و النجوم أكبر من أن تكون في حجم الأرض، و أدت هذه الاكتشافات الفلكية إلى اتساع الهوة بين العلم و الدين، فكان أن أتهم الكثير من الفلكيين بالهرطقة أمثال **جيوردانو برونو**، بحجة أن هذا التفسير يعصف بغائية الكون و أنه لم يوجد على الإطلاق لخدمة الإنسان الذي ما فتئ رجال الدين يعتقدون بأنه غاية الكون و كل ما هو موجود.⁽¹¹⁷⁾

و يشير رسل أيضا إلى أن الاكتشافات العلمية و ما يسبقها من افتراضات و مسلمات علمية ليست من محض المصادفة بل يتقدمها خيال علمي بناء و يلازمها بحث و صبر طويل، و تقتضي بالرغم من أنها تبدو في البداية مضحكة و موضع سخرية و عدم القبول بها كفكرة في وقت سابق على سبيل الذكر قوانين **كبلر** و حسابات **جاليليو** الفلكية، و التي كان لها أثر أكبر فيما بعد على دراسات و تخمينات **نيوتن** العلمية و التي كللت باكتشاف الجاذبية مستفيدا من جهود **جاليليو** المساهم بشكل ملحوظ في ميدان الفلك و الميكانيكا الذي جمع بينهما و قدرته على تكميم نتائجه.

لقد انتهى **جاليليو** إلى أهم قانون مؤداها أن الجسم في حال حركة إذا ترك و شأنه لا يتوقف عن الحركة، أي أن الظروف ليست هي السبب في حركة الأجسام بل في تغيير حركتها سواء في الاتجاه أو السرعة أو في كليهما و الذي يصطلح عليه بالتسارع (Accélération)⁽¹¹⁸⁾. و من هنا استطاع **جاليليو** تغيير مبادئ السقوط للأجسام مخالفا رأي **أرسطو** حين أكد أن الأجسام في الفراغ تكون لها نفس السرعة في السقوط تقريبا بغض النظر على حجمها أو وزنها، أما أثناء سقوط الجسم فإن سرعته تزداد في الفراغ بدون نحو 22 قدماً في الثانية .

¹¹⁶ رسل ، المصدر السابق ، ص 17-18 .

¹¹⁷ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 19 .

¹¹⁸ - رسل ، المصدر نفسه، ص 24 - 26-27 ..

و يبين لنا رسل دور جاليليو في صياغة شروط المعرفة العلمية و بنائها، حيث أكد ما للتجريب من أهمية و مكانة الاختبارات في التحقق من صحة الفروض العلمية بخلاف من كان يعتقد أن الحقيقة موجودة في بطون الكتب و ليس في إجراء التجارب، وعليه نخلص إلى طبيعة المنهج المعتمد من قبل جاليليو القائم على التجريب في استنباط القوانين العلمية الواجب التعبير عنها تعبيراً رياضياً رمزياً و عدداً. و ما يدفعنا إلى قول هذا، في نظر رسل، هو مثل هذه المقولات التي تبدو في وقتنا الراهنة طبيعية بلا وقف و لا توقف و لكنها في زمان جاليليو كانت تتطلب النبوغ و العبقرية.

بالإضافة إلى ذلك، لم يكن من اليسير إجراء التجارب زيادة على ما كان للتلسكوب من دور في جلب المشاكل و المخاطر. و الأصعب من ذلك هو وقع تلك الاكتشافات في الأوساط الدينية باعتبار معارضتها لمضمون الكتاب المقدس و إشاراته، إذ كان أتباع أرسطو يزعمون أن أقمار المشتري وهم و خرافة و بالتالي رفضوا بشكل قاطع كل دعوة لاستخدام المنظار الفلكي، الذي مكن من اكتشاف حقائق و أشياء فظيعة روعت رجال اللاهوت منها اكتشاف وجوه كوكب الزهرة و وجوه القمر و اكتشاف جاليليو أن القمر به جبال و هو ما لم يصدق من قبل الناس و أن الشمس تحمل بقع، فُسر بأنه إظهار لما يشوب عمل الخالق من عيوب و شوائب، مما دفع بهم إلى منع تدريس هذه الحقائق في الجامعات الكاثوليكية.⁽¹¹⁹⁾

و يسترسل كذلك في الكشف عن طبيعة الجدل و الصراع بين الدين و العلم من خلال ما ترتب عن الاكتشافات العلمية و الحقائق العلمية، حيث رفضت الهندسة بدعوى أنها رجس من الشيطان و أنه ينبغي استبعاد علماء الرياضيات بحكم أنهم مؤلفي الهرطقات و أن المذهب الفلكي الجديد الذي من رواده كبلر و جاليليو، من شأنه أن يمنع الإيمان بفكرة تجسيد المسيح و هذا ما جعل محاكم التفتيش تولي أهمية لعلم الفلك و علمائه مؤكدة على حقيقتين أساسيتين أولها، أنه من السخف و من الهرطقة القول بدوران الأرض و أن الشمس هي المركز نتيجة تعارض ذلك مع المعتقد الديني العام و ثانياً، متوعدة القائل بذلك بالمتابعة و القصاص.

¹¹⁹ - رسل ، المصدر السابق، ص 28-29-30 .

و بناءً على تعليمات البابا قامت الكنيسة بحظر كل الكتب المنادية بدوران الأرض، فتم إدانة مؤلفات كوبرنيكوس، و أعقبه تضيق على آراء جاليليو لوقت طويل و باشر البابويين بالموازاة مع ذلك إقبار فكرة دوران الأرض بدعوى أنها منافية للنصوص الدينية.⁽¹²⁰⁾

لكن هل يعتمد الدين على الخوف دائماً كما يقدمه لنا رسل؟ أكاد أجزم بأنه موقف يقوم على تعميم غير مشروع، فلا يعتمد الدين على الخوف فقط فالخوف شعور إنساني لا يمكن إنكاره و لكن الإسلام مثلاً يقرر أن العاطفة الدينية الأساسية هي الحب و الحب بدوره ينتج عنه شيئين الخوف و الرجاء و لا يمكن أن يكون الشعور الديني صحيحاً وفعالاً إلا بتوفر الثلاثة الذين ينتج عنهم غيرهم من المشاعر كالتوكل و الرغبة مثلاً و لا يمكن أن يمارس الإنسان حياته إلا بوجود هذه المشاعر فهي من صميم طبيعته، فرسل نفسه لا يمكنه الزعم أنه يخلو من مشاعر الخوف على زوجته و على وظيفته و على آرائه و تصوراته الخوف على نفسه.

و هكذا فالزعم أن العقيدة الدينية بوجه عام تقوم على الخوف زعم باطل، بل هي تقوم أساساً على الحب ثم يخاف الإنسان من فوات ما يحب و نزول ما يكره و لكن رغم ذلك فالله لم يخلق الخوف ليلوى به أعناق العباد لتحقيق الإيمان و إلا لكان رسل من كبار المؤمنين، و لكنه رأى في مسألة نار الجحيم تهديداً وتخويفاً و هو ذات الأسلوب الذي استخدمه رسل مع تلامذته، فمن يقصر يستحق الرسوب.

و بهذا يستخدم رسل الخوف ومفهوم العقاب ليحرك من لا تحركه عواطف أخرى بصورة ظاهرة، وعند التحليل سنجد أن هذا الأسلوب يعتمد على الحب و أن رسل يجب أن ينجح تلامذته، لهذا فهو يفعل هذا لمصلحتهم و هم يحبون أنفسهم و لا يرغبون في تحصيل الألم، فلذا يعملون ليتجنبوا الألم الذي هددهم به رسل، والله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً عندما يطلب من عبده أن يكون خيراً لمصلحته و يخبره أن الألم هو ما ينتظره، إن لم ينقذ نفسه من الشر. فلهذا أرى أن رسل يباليغ ويهدد المؤمنين بأنهم يخافون، لهذا يؤمنون، و بهذا هو يخيفهم من الخوف نفسه و يبعث رسالة ضمنية بأنكم تهدرون حياتكم لأنكم تعتقدون بإله، و هو بذلك يخيفهم مرة أخرى من ضياع حياتهم.

¹²⁰ رسل، المصدر السابق، ص 33.

من جهة ثانية، يشار إلى أن **جاليليو** انتهى عن القول بالإيمان بالأفكار العلمية التي كان يدعو إليها تحت تهديد السلطة البابوية التي أمرته بالتوبة و الاستغفار، فتلا **جاليليو** أمام الملأ و هو جاث على ركبتيه صيغة مطولة أعدتها محكمة التفتيش جاء فيها حسب **رسل**: " إني أنبذ و ألعن و أمقت الأخطاء و الهرطقات المنسوبة إليّ و أقسم أنني في المستقبل لن أقول أو أؤكد أبداً شفاهة أو كتابة أي شيء قد يدعو إلى إثارة الشكوك المماثلة حول شخصي " (121). و بذلك ساهمت محاكم التفتيش بتقديم خدمة جلييلة للحفاظ على رواسب الفكر المسيحي كقناعة اعتقدت بضرورة الدفاع عنها. فمثال **جاليليو** يوشك أن يرسم لنا صورة مصغرة عن طبيعة الصراع و الجدل بين أنصار العلم و الفكر الحر و أنصار التزمت و التطرف الديني ، فقد أرغم **جاليليو** في **نظر رسل**، و في عصره على النطق بشهادة زور و فرضت عليه الكنيسة منطلق العزلة و السكوت.(122).

و لقد ظلت الكنيسة في اعتقاد **رسل** على مدار مائتي عام تعارض بشراسة و بشدة نظرية اقتنع الكثير من العلماء ذوي كفاءة و إلمام بسلامتها، إذ أصاب ديكارت هلع عند سماعه خبر محاكمة **جاليليو** عام 1616، ففر هاربا هو الآخر إلى هولندا على رغم من مطالبة رجال اللاهوت بتسليط العقوبة عليه هناك لولا رفض الحكومة الهولندية متابعته قضائيا آنذاك بدافع التسامح الديني من قبل البروتستانت الذين لم يكونوا أشد عدائية اتجاه المواقف العلمية بحكم أن ذلك يمثل في رأيهم قناعة و رأي شخصي لا يلزم إلا صاحبه. و الأهم من ذلك، رؤية **رسل** أن سلطة الكهنة مازالت ماثلة إلى وقت ليس بالبعيد، حيث يدعو رجال الدين إلى ضرورة البحث عن الحقيقة في ثنايا الكتب المقدسة و نبذ كل النظريات العلمية بما فيها نظرية **كوبرنيكوس** و **جاليليو** و **نيوتن** و من اقتدى بهم من التابعين و يزعم أن احتجاجاتهم تثير الشفقة و الرثاء.

121 - رسل ، المصدر السابق ، ص 34 .

122 رسل ، المصدر نفسه ، ص 35 .

و من المتداول أن نظريات علم الفلك التي نادى بها كوبرنيكوس على الرغم من نسبة نتائجها، فإنها تشكل خطوة أساسية و مهمة، نظرية أسهمت بشكل فعال في تطوير المعرفة العلمية بوجه عام و علم الفلك بشكل خاص. و مع ذلك يذكرنا بما حققه الكهنوت من نصر على صفوة العلماء في وقت مضى فإنهم لا يكتفوا بتلك الانتصارات، بل واصلوا حملاتهم و دعاواهم الظلامية و دعواتهم للوقوف في وجه العلم، كموقفهم المعارض لموضوع المذنبات الذي اثبت أنها ليست على صلة بالدين و لا تحمل في طياتها أخبار الغد و لا طلائع المستقبل¹²³

فالملاحظ أن العصور الوسطى لم تؤمن بالنسبة لرسول بسيادة القوانين الطبيعية مثلما هو الحال الآن، فاعتقد الكثير من رواد الكنائس و مريدي المدارس السكولائية أن بعض الأشياء تقع بشكل مطرد لا تغيير فيه على الإطلاق، و أما أشياء أخرى فهي علامات و نذر تشير إلى أحداث آتية و تفسر بأنها دعوة للناس كي يتوبوا عن خطاياهم و التعجيل للتحلل من آثامهم و العدول عن ما يقترف من سيئات. و كان من الصعب على العقل البشري أن يستسيغ القوانين التي تتحكم في الكون و أن يعلل الأحداث تعليلاً سببياً و حتمياً، بمعنى أن لكل ظاهرة سبب و أن توفر نفس الأسباب و الشروط يؤدي بالضرورة إلى نفس النتائج، و هي المبادئ الأساسية التي يقوم عليها الآن العلم الحديث، و وجوب اعتبار القوانين العلمية نسبية ممكنة التعديل و التغيير.

و أهم عائق ابستمولوجي حال دون تقدم العلم في العصر الوسيط حسب رسل هو إيمانه بوجود علل لاهوتية و ميتافيزيقية تحدث الظواهر و أن وقوعها وثيق الصلة بالإرادة الإلهية، و بالتالي كان من الطبيعي أن يكون العقل الوسيط عاجزاً عن إدراك الحقائق العلمية بشكل موضوعي و وضعي كما تقتضيه خصائص المعرفة العلمية و موجبات الروح النقدية.

¹²³ - رسل ، المصدر السابق ، ص 35-36-37 .

و بالمناسبة فإننا لا نشكك في موضوعية الحقائق و الأدلة و القرائن التي ساقها رسل للتدليل على طبيعة الجدل و التنافر بين العلم و الدين و التي اقتبسها من وقائع القرون الوسطى و ما شهدته من ممارسات و انتهاكات ضد رجال العلم باسم تعاليم الدين المسيحي و أوامر القساوسة و الكهنة، إلا أن المؤكد في رأينا أن هذه الحيشيات أطرهما ظروف معرفية و ابستمولوجية مميزة، و في سياق زمكاني محدد قد لا يصدق على كافة النماذج الاعتقادية و الدينية الممكنة.

و كذلك هو الحال بالنسبة للنظام الطبيعي، إذ تميز في منظور العقل الوسيط بالثبات و هو ما فسح المجال للخرافة و الأساطير و ساهم في انتشار الفزع و الخزعبلات لاسيما بحلول ظاهرة الكسوف و الخسوف، فالناس اعتادوا على رؤية الحدوث الستاتيكي للظواهر في الكون، و من هنا ذهب الأقدمون إلى أن كل شيء يعلو الغلاف الجوي للأرض مخلوق على ما هو عليه، بل و على أكمل صورة للأبد و عليه فالنمو و الفساد صفتان ملازمتان للأرض وحدها فقط، و هذا الاستثناء يمثل جزء من العقاب الذي حل بآدم و حواء بسبب ما قترا فاه من معصية و إثم، فأكدوا أن الشهب و المذنبات العابرة لا بد و أن تكون تحت القمر و داخل غلاف الأرض، فاجتمع الصواب و الخطأ في رأيهم، فالأمر صحيح بالنسبة للشهب و كل الخطأ للمذنبات، حيث اعتبرها رجال اللاهوت نذير شؤم تطيروا بها لحلول المصائب و الكوارث⁽¹²⁴⁾ إن ما عاناه رجالات العلم في البقاع التي تمكنت منها العقيدة المسيحية لا يصدق حتما على علماء الإسلام و موقف أئمة و دعائه من العلم باعتبار أن الشريعة الإسلامية تدعونا إلى طلب العلم و استخدام النظر العقلي و الاحتكام إلى العقل و المنطق السليم و إتباع الحكمة و الموعدة الحسنة في الدعوة إلى الحق و الاعتماد على المحاجة و القياس في تمحيص الآراء و الدفاع عنها. وبالتالي لا يجب أخذ موقف رسل من الدين محمل التنزيه و التعميم.

¹²⁴ رسل ، المصدر السابق ، ص 38-39-40

و لم يتم تقويض هذه الاعتقادات إلا بمجيء دورفيل (d'Urville Dumont) و هالي (HALLEY) و نيوتن (NEWTON)، ومن ثمة عَبر رجال الدين رأيهم معلنين أن النذر وثيقة الصلة بالزلازل و البراكين فقط و ليست مرافقة للمذنبات، فأدرج هذه الرأي أخيراً ضمن حقائق العلم التي لا اعتراض عليها في الأوساط الاكليروسية، مع و جود مساعي لعلم البيولوجيا للتخلص من هذه الآراء الجامدة الموروثة من العصور الظلامية، فحتى الزلازل و البراكين لا تمت بالنذر بصلة، بل هي ظواهر مستقلة على الوجود الإنساني في حدوثها و لا مبرر لربطها بما سيؤول إليها المستقبل من وقائع و أحداث. (125).

و لقد ارتبط تفكير تفسير الكون حسب رسل مع التفسير المفاجئ من قبل الله ثم أعقبه وضع القوانين الطبيعية التي تجري على مجراها الظواهر مما فيه استبعاد صريح لفكرة التطور، فيعتقد رسل أن فكرة القانون ارتبطت مبدئياً و تاريخياً بالاستقرار السياسي و الإيمان بانقضاء عصر الثورات و تواصلت في العصر الحديث بالتغيير في المفاهيم خاصة بظهور نظريات جديدة في علم الفلك وضعها كانط (Kant)، و التي لا تتعارض في كليتها مع حقائق علم الفلك المعاصر،

إن تلك النظريات الجديدة وقفت على تقسيم العالم إلى أجرام سماوية و تحديد أبعادها بالتقريب و انتهت بالتأكيد على أن العالم المادي لا نهاية له حسب كانط و هو ما أرسا لبنات نظرية التطور و إحلال إمكانية تغير المادة و تكاثرها و بذلك رفض مباشر لفكرة الخلق المفاجئ، فكان التطور العلمي ينم عن تطور تدريجي يواجه في كل مرة رجال اللاهوت التي رفضت تطور الأجرام السماوية، و لم ترفض نظريات علم الفلك فحسب بل طال اعتراضها المجال البيولوجي و لم يتراجع رجال الدين عن هذه الأفكار تدريجياً إلا بالاعتماد على الأدلة التي أبانتها الصخور المترسبة و بقايا الأجسام البركانية بعدما كانت نظرة الأولين تفسرها بمختلف التحولات الناجمة عن الطوفان و العديد من التعليلات الكهنوتية. (126)

125 - رسل ، المصدر السابق ، ص 42-43..

126 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 49-51-52-53-54 .

و يتضح الصراع بين الدين و العلم عند رسل بشكل صريح في سياق الجدل الفكري بين الاتجاهات و المدارس الفكرية المختلفة و التي بادرت بتقديم تفسيرات لكيفية حدوث الظواهر الطبيعية و التضاريس المختلفة للأرض، و لم تعجب هذه التفسيرات رجال الدين لكون أسبابها ثانوية تخرج عن الإرادة الإلهية و هو ما يجعلها قابلة للدمار و الفناء مع مرور الوقت. و قد يشهد في ثنايا ذلك ميلاد جبال و أودية جديدة مماثلة، و هذا ما أدانته الأرثوذكسية الدينية بدعوى أنه يتعارض مع قدرة الله على الخلق المطلقة .

لقد دفع ذلك أصحاب هذا الرأي بالعدول عنها تجنباً للمواجهة مع الكنيسة، فيقول العالم **بيفون (Biffon)** " أعلن أنه لم يكن لدي نية لمعارضة نصوص الكتاب المقدس و أيؤمن إيماناً راسخاً بكل ماجاء فيه عن خلق العالم وفقاً لترتيبه الزمني و ما احتوته من حقائق، و أي أنبذ كل شيء في كتابي يتعلق بتكوين الأرض كما انبذ بوجه عام كل ما قد يتناقض مع قصة موسى".⁽¹²⁷⁾.

و سارع هذا العالم الفذ إلى تنفيذ كل التهم عن نفسه حتى لا يتعارض و يجادل جامعة السربون (Sorbon) المتشعبة بأصول العقيدة المسيحية الكاثوليكية. و التي يصعب تصديق درجة عدائها ضد القائلين بنظريات علمية تناقض سفر التكوين في الكتاب المقدس، و برغم ما بذله العلماء و الفلاسفة من جهد للتقليل من تدخل الكنيسة، و ذلك من خلال إضعاف أسس العقيدة المسيحية ، و الذي مهد فيما بعد لقيام الثورة الفرنسية التي نشرت في رجال الكهنوت الذعر إزاء مساعي التجديد و ما يطبعها من تهديد لمصالحهم.⁽¹²⁸⁾

هذا و يتخذ الصراع حسب رسل شكلاً منافياً للقيم الأخلاقية و أساسه دوماً التعارض الموجود بين العلم و الدين و حقائق الكتاب المقدس و التي تجلت من خلال تمسك رجال الدين بحقائق الخلق و التكوين و النشأة و كيفية انقراض بعض الأنواع الحيوانية، معتقدين أن بعض الكائنات الحية لا يطرأ عليها التغيير و أن كل منها جاء نتيجة فعل منفصل من أفعال الله، فبدأ من الصعب القبول و التوفيق بين نتائج علم البيولوجيا و بين تفسيرات الكتاب المقدس، لاسيما في ظل اكتشاف العالم الجديد و الذي أدى إلى العثور على حيوانات ليست موجودة في العالم الأوسط و هو ما كان باعثاً على الحيرة في تفسير وجودها، حتى أن

127 - رسل ، المصدر السابق، ص 55-56 .

128 - رسل ن المصدر نفسه ، ص 58 .

بعض رجال الدين أمثال أوغسطين لم يستطيع تفسير غائية وجود الذباب، فاجتهد لوثر بقوله أنه من خلق الشيطان ليشتت الانتباه⁽¹²⁹⁾.

و من هنا تمكنت البيولوجيا أن تؤجج الصراع بين الموقف العلمي و نظيره العقائدي بخصوص الأنواع الحيوانية و أصلها و التي تحصى بالملايين، فكان نقطة الخلاف حول وجودها، فعلى سبيل المثال يعتقد الرأي العلمي أن عددها لم يكن لتحمله سفينة نوح عليه السلام، فلو أن زوجا من هذه الأنواع كان على متنها لضاقت السفينة بهم و لتعذر تحديد أسمائها ، و عليه حامت الشكوك مجدداً على مضمون النص فيما يتعلق بالخلق و التطور، إذ وجد رجال الدين صعوبة في تقديم تبريرات علمية و عقلية مقبولة طوال القرن 19، و ذكى نشر كتاب أصل الأنواع لداروين سنة 1859 ذلك الارتباب، فبات كتاب أصل الأنواع بمثابة مستودع للافتراضات الفظيعة فوصفوه بمؤلف شيطاني في رأيهم من وجهة نظر رسل⁽¹³⁰⁾.

و هنا يقرر رسل أن المذهب البيولوجي الذي يؤكد على فكرة التطور لدى الحيوان و النبات التدريجي و الذي تحقق عن طريق الأصل و التنوع يضم ثلاث اتجاهات، أولها يعتقد أن أشكال الحياة الأولى هي الأقدم عمرا ثم ظهرت بعدها الكائنات ذات التركيب المعقد لاحقا، و ثانيهما يزعم أن فكرة التطور الذي يعنى كمصطلح أن الأشكال اللاحقة و الأكثر تنظيما لم تظهر إلى الوجود من تلقاء نفسها بل تمت و خرجت من الأشكال السابقة عليها من خلال سلسلة من التحولات و التبدلات، و ثالث الاعتقاد و هو في طور البحث و الانجاز يتبنى فكرة مفادها أن أسباب التنوع و الاستمرار لبعض الأنواع الحيوانية قد تم على حساب أنواع حيوانية أخرى. و لكن تبقى نظرية التطور ذات أهمية تاريخية و التي حدد من خلالها داروين آلية التطور و هي ما تعرف بالانتخاب الطبيعي - **La sélection naturelle** - أو ما يعرف بالبقاء للأقوى - **La loi du plus fort** - و التي قدمت إجابات على العديد من أسئلة العلم الحديث⁽¹³¹⁾.

بالإضافة إلى ذلك ، ينهي رسل إلى علمنا أن اللاهوتيين كانوا على دراية بعواقب التجديد بوضوح، و لهذا اعترضوا على الداروينية بقولهم أن الإنسان يملك روحا خالدة لا تملكها القردة و أن الله عز وجل كرم الإنسان بالإحساس بالخطأ و الصواب (الإدراك - **Perception**)، بينما لا نجد ذلك عند القردة، ثم

¹²⁹ رسل ، المصدر السابق ، ص 59-60 .

¹³⁰ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 61-62 .

¹³¹ رسل ، المصدر نفسه ، ص 65-66 . 67 .

إذا كان الإنسان سليل القردة، فما هي هذه اللحظة التي اكتسبت فيها فجأة تلك الخصائص التي لا تتجلى بشكل جلي إلا في الإنسان، و في السنة الموالية لنشر كتاب أصل الأنواع، اجتمعت الجمعية البريطانية عام 1860 لترفض ما جاء به داروين من حقائق، فقال أحد رجال الدين (وازيد) مهاجماً الداروينية صارخاً: " إن مبدأ الانتخاب الطبيعي يتناقى تماماً مع كلمة الله . " (132)، و وصفه البعض الآخر بقوله أن داروين هو الرسول الذي يدعو إلى عبادة القذارة" (133).

و لا يستبعد رسل وجود عدة اعتراضات على موقف البابوية الرافض لنظرية الانتخاب الطبيعي و عدم قبولهم للرأي العلمي بدعوى معارضتها لمحتوى النص الديني، فموقفهم هذا حسب رسل يناقض التوجه العلمي، فيذكرنا أن العلم و التطور هو قانون يحكم العالم و دليله في ذلك جملة الانتصارات العلمية و التقنية و الفكرية التي غيرت وجه العالم، فيتمسك بهذا مدعياً " أنه يمكننا الوثوق بأن العلم و المهارة و اختراع الآلات سوف يخلق إلى الأبد المزيد من التقدم." (134)،

و يواصل رسل في نفس السياق مؤكداً بأن تلك القوانين لا تسير دوماً في الاتجاه الايجابي، إذ أن نفس القوانين التي تسبب النمو، تسبب التآكل و الموت أيضاً، إذ سيأتي يوم ما في المستقبل تبرد الشمس و تتوقف الحياة على الأرض، و بذلك تكون هذه العصور التي عرفت التقدم و التطور مجرد حقبة تتوسط حقب كانت الحرارة مميتة و البرودة قاتلة خاصة مع فقدان الطاقة، و عليه لا يمكننا في الوقت الحالي أن نجعل من التطور فلسفة تقود إلى التفاؤل بمستقبل الكون(135).

من جهة ثانية، يؤكد رسل أن حال القوانين التي نصل إليها، تكون ليست بأكثر من كشف لبعض الفرص النظرية. و هناك - كما تعرفون - قانوناً ينص على أنكم لو رميتم نردين فستحصلون على الرقم ستة مرتين بمعدل مرة واحدة في كل ستة و ثلاثين رمية، و نحن لا نستطيع اعتبار هذا دليلاً على أن رمي النرد هو شيء تم التحكم به من قبل الرامي . وعلى النقيض، إذا كان رقمي ستة يأتيان في كل مرة نرمي بها النردين، فنسقول حينها أنه بالفعل كان هناك ثمة تصميم من قبل الرامي عن عمد، مما يؤيد فرضية أن قوانين الطبيعة هي على هذا النحو في معظمها. إنها معدلات إحصائية تنبثق عنها قوانين الصدفة، و هذا ما يجعل من مسألة القانون الطبيعي أقل إدهاشاً لنا مما كنا نتخيله عنها في السابق.

132 - رسل، المصدر السابق ، ص 72

133 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 72-73 .

134 - رسل ، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

135 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 75-76 .

و تتلخص شبهة بوتراند رسل أن الصدفة وحدها هي التي جلبت لنا هذه القوانين و ليس ثمة تنظيم إلهي في الأمر أو خلق إلهي إنما كلها احتمالات و صدف نتج عنها الكون بما فيه و هذا حقا أمر عجيب كيف يمكن أن تتسلسل الصدفة و الاحتمالات إلى مالا نهاية له، إن هذه الصدفة لا يمكن تفسير الكون عن طريقها، و لنفرض أنها نجحت في ذلك و هو شيء مستحيل كيف يقبل العقل أن الصدفة وحدها ما تزال منذ ملايين السنين تعمل بكل هذه الروعة، و لتأمل الآن في أمر هذا الكون فلو كان كل هذا بالصدفة و الاتفاق، فكم من الزمان استغرق تكوينه بناء على قانون الصدفة الرياضي؟

و يغزو الصراع بين العلم و صلابة الأفكار و المعتقدات الراسخة أيضا مجال البيولوجيا، حيث أن الأجسام الحية تتركب من (خلايا حية) وهذه (الخلية) مركب صغير جدا و معقد غاية التعقيد، و هي تدرس تحت علم خاص يسمى (علم الخلايا **Cytology**) ومن الأجزاء التي تحتوى عليها هذه الخلايا: البروتين وهو مركب كيميائي من خمسة عناصر هي الكربون والهيدروجين والنيتروجين و الأوكسجين والكبريت. و يشمل الجزيء البروتيني الواحد أربعين ألفا من ذرات هذه العناصر! و في الكون أكثر من مائة عنصر كيميائي كلها منتشرة في أرجائه، فأية نسبة في تركيب هذه العناصر يمكن أن تكون في صالح قانون (الصدفة)؟

يمكن أن تتركب خمسة عناصر - من هذا العدد الكبير- لإيجاد (الجزيء البروتيني) بصدفة و اتفاق محض؟! ! إننا نستطيع أن نستخرج من قانون الصدفة الرياضي ذلك القدر الهائل من (المادة) الذي سنحتاجه لنحدث فيه الحركة اللازمة على الدوام؛ كما نستطيع أن نتصور شيئا عن المدة السحيقة التي سوف تستغرقها هذه العملية.⁽¹³⁶⁾

لقد حاول رياضي سويسري شهير هو الأستاذ (تشارلز يوجين جواي) أن يستخرج هذه المدة بطريقة رياضية. فانتهى في أبحاثه إلى أن (الإمكان المحض) في وقوع الحادث الإتفاقي - الذي من شأنه أن يؤدي إلى خلق كون إذا ما توفرت المادة - هو واحد على 10/60 (أي 10×10 مائة و ستين مرة). وبعبارة أخرى " نضيف مائة و ستين صفرا إلى جانب عشرة! ! و هو عدد هائل وصفه في اللغة.

¹³⁶ - <http://www.alzakera.eu/music/vetenskap/Biologia/bio-0136.htm>

إن إمكان حدوث الجزيء البروتيني عن (صدفة) يتطلب مادة يزيد مقدارها بليون مرة عن المادة الموجودة الآن في سائر الكون، حتى يمكن تحريكها و ضخها، و أما المدة التي يمكن ظهور نتيجة ناجحة لهذه العملية فهي أكثر من 10/243 سنة!، إن جزيء البروتين يتكون من (سلاسل) طويلة من الأحماض الأمينية Amino-Acids⁽¹³⁷⁾.

و أخطر ما في هذه العملية هو الطريقة التي تختلط بها هذه السلاسل بعضها مع بعض فإنها لو اجتمعت في صورة غير صحيحة صارت سما قاتلا، بدل أن تصبح موجدة للحياة. لقد توصل البروفيسور ج. ب. ليتز G.B.Leathes إلى أنه لا يمكن تجميع هذه السلاسل فيما يقرب من 10/48 صورة وطريقة. وهو يقول: " إنه من المستحيل تماما أن تجتمع هذه السلاسل - بمحض الصدفة - في صورة مخصوصة من هذه الصور التي لا حصر لها، حتى يوجد الجزيء البروتيني الذي يحتوى أربعين ألفا من أجزاء العناصر الخمسة التي سبق ذكرها.

و لا بد أن يكون واضحا أن القول بالإمكان في قانون الصدفة الرياضي لا يعنى أنه لا بد من وقوع الحادث الذي نتظره، بعد تمام العمليات السابق ذكرها، في تلك المدة السحيقة؛ و إنما معناه أن حدوثه في تلك المدة محتمل لا بالضرورة، فمن الممكن على الجانب الآخر من المسألة ألا يحدث شيء ما بعد تسلسل العملية إلى الأبد! فهل يمكن تفسير نشوء الكون وفق هذا الفرض المستحيل.

و وفق قانون الصدفة، نحن بحاجة إلى أضعاف مضاعفة من الزمن المعروف للكون، ثم لماذا تحدف الصدفة دائما لإنتاج شيء ذي بال ولماذا نتوقع دائما أن الصدفة تسير إلى صالحنا لماذا لا تأتي صدفة أخرى تطيح بكل ما تم تكوينه قبل هذا، إنه من المثير للسخرية أن يعتقد الإنسان أن كونه يتكون من بلايين الصدف لهذا لا يمكنني أن اعتقد أن ما يقوله رسل يشكل قيمة علمية ومنطقية .

إن فرضية التصميم تقتضي أن كل شيء في هذا العالم تم تصميمه من أجل أن نعيش وفقاً له ، و لو أن العالم اختلف قليلاً عن صورته الحالية لما استطعنا أن نعيش فيه. هذه هي جدلية التصميم، إنها تكتسي بحلة من الفضول، ولنفترض فرضاً، أن ثمة أرانب تملك ذيولاً بيضاء كي يسهل علينا اصطيادها، لا أعرف كيف ستتصرف الأرانب وفق هذا النظام ؟ إنه أمر يبعث على السخرية. لا بد أنكم تعرفون نكتة فولتير، وهو أن الأنف موجود من أجل الرؤية !

إن هذا النوع من الآراء لم يتحول فقط إلى علامة من علامات القرن الثامن عشر، لأنه منذ مجيء داروين بدأنا نفهم بشكل أوضح لماذا تتكيف الكائنات الحية مع بيئاتها. وهذا يعني أن البيئة ليست هي من تكيف نفسها من أجل الكائنات، لأن الكائن هو من يكيف نفسه و ينمو مرتبطاً بظروف بيئته، وهذه هي قاعدة التكيف البيئي، و لا يوجد أي دليل على التصميم فيها. (138)

و عندما نلقي نظرة على فرضية التصميم، ستجدونها الأكثر جذباً لانتباه الناس حيث يؤمنون بها و تكسو عيونهم و تشرح لهم هذا العالم، و بكل تفاصيل هذه الفرضية، بكل زللها و خللها، ستجدونها الأكثر صموداً وشمولية بين الناس لآلاف السنين. إنني بصدق لا أؤمن بهذا. و إذا كنتم متأكدين من أن الله يحيط بهذا الكون و يبدعه و يحاول تحميله لملايين السنين، فلماذا لم ينبجأ أفضل من جماعة كوكو كلاكس كلان(139)، أو الفاشيون، أو السير وينستون تشرشل ؟ حقاً إنني لا أشعر بأي جمال في هذا ، خصوصاً حين يتقدم أحدهم و يقول لي: " أنظر أي كائن رائع هو أنا، أنا أفضل كائن في الوجود على الإطلاق. " حقاً إنني لا أجد أي شيء مبهر عن جمال هذه الأشياء.

138 - Ibid.

139 - هو اسم يطلق على عدد من المنظمات الأخوية في الولايات المتحدة الأمريكية أول ظهور أو تشكل للكلاكان كان في عام 1866 حيث تأسست من قبل المحاربين القدامى في الجيش الكونفدرالي وكانت مهمة هذه المنظمة مقاومة إعادة التأسيس ومعارضة تحرير العبيد التي حدثت عقب الحرب الأهلية الأمريكية

فضلاً عن ذلك، إذا قبلتم بالقوانين العلمية المعهودة، فيجب أن تدركوا أن الحياة على سطح هذا الكوكب هي عرضة للموت بشكل حتمي. إن الحياة ومضة في قعرٍ سحيق، أو طور من أطوار الاضمحلال في النظام الشمسي، و يستند رسل هنا إلى نظرية داروين (النشوء والارتقاء) فنحن في نهاية المطاف من تكيف مع البيئة و لم تصمم البيئة لتناسبنا، بل نحن من تم تصميمه وفق التطور ليكون مناسباً للحياة هنا و لكن نظرية دارون مازالت حتى الآن نظرية لا يمكن التأكد من صحتها كلياً أو جزئياً، بل أن أنواع الاعتراضات عليها قوية جداً بحيث لا يمكن تجاهلها.

ضف إلى ذلك أن دارون نفسه يعترف في أحد رسائله أنه لا يملك الأدلة لإثبات النظرية، فيكون تشغيب رسل بالنظرية على قضية التصميم محض تحكم لا غير و لكن مجرد اعتراف رسل بالتصميم يدحض كل اعتراضه فهذا الكون مصمم ليناسب الحياة أو لتناسبه الحياة و هنا يظهر سؤال، " إذا كان التصميم حقيقة ثابتة ألا يدل هذا على حكمة قدرته بهذا الشكل و لماذا لم نجد حياة على الكواكب الأخرى التي عرفناها حتى الآن رغم أن التصميم مختلف، فمن المنطقي أن حياة ما توافق هذا التصميم المختلف لا بد أن تكون موجودة، لكنها مع الأسف ليست موجودة.

ثم أي تلاعب بالألفاظ يجرنا إليه رسل؟، ما الفارق أن تكون الحياة صنعت لنا لتناسبنا أو صنعنا نحن لها لتناسبها إن هناك في النهاية مناسبة و لولا وجود هذه المناسبة لما أمكننا التواجد، فلولا أن هذه الحياة(التصميم) مناسبة للأحياء لما وجدت الحياة و سيعود السؤال حينئذ (عن براعة التصميم)، إن نظريات مستر رسل تعترف بالصدفة في التصميم ثم بالصدفة في تكوين الخلية ثم بالصدفة في تطورها إن كان ثمة تطور ثم باستمرار الصدف إلى ما لانهاية.

و لكن لا يمكن لرسل أن يعترف أن نظرية دارون جاءت بالصدفة فهي حصيلة تفكير و عمل دعوب، كما أن نظريات رسل لم تأت بالصدفة و إن جاز لنا استخدام قياس رسل في قانون المسبب، فسنقول إذا كانت القاعدة هي الصدفة فلما لم تكن نظرياتكم هي أيضاً صدفة؟ لأن هذه هي القاعدة التي لا يجب أن يخرج شيء عنها، و هنا سيفرق رسل بين عمل الإنسان الواع و بين عمل الطبيعة العمياء فعمل الإنسان الواعي منسق ليؤدي إلى هدف و نتيجة. و هنا سنطلب من رسل أن يعترف بأن التصميم تقوده قوة واعية لأنه أيضاً يؤدي إلى هدف و نتيجة.

لقد كانت هذه بعض الردود و الانتقادات التي وضعنا من خلالها مقولة الصدفة التي تبناها رسل على المحك، و تبين لنا أن هذا الطرح لا يستند بالمرّة إلى دليل مقنع و لا يمثل في رأينا إلا مدخلا للتشويش على العقائد. و نشير هنا أيضاً أنه من الواجب التحفظ مرة أخرى على القرارات التي تضمنها موقف رسل بشأن دور الداروينية في تفويض سلطة رجال الدين و البابوية بصفة عامة. إذ أن رسل من جهة يدعوننا إلى عدم القبول بالأفكار القائمة على الافتراض في غياب دليل مقنع يثبتها.

و من جهة ثانية يؤمن بفعالية نظرية علمية تستند إلى التسليم و الترجيح، بل يلزمنا بعدم إصدار أي حكم حول قضية علمية محل خلاف بين الخبراء و الباحثين، يضاف إلى هذا أن رسل يدعوننا إلى احترام الشعور العام في إبداء الرأي و عدم المساس بالحريات الخاصة و الحقوق الطبيعية و من ناحية أخرى يزج بنا إلى تبني آراء علمية لا تنهض على دليل قاطع و حجة دامغة على غرار الترويج لفكرة أن أصل الإنسان الأول هو القرد.⁽¹⁴⁰⁾

إن النظريات العلمية في فلسفة رسل التي تناقض في دلالتها حقائق الدين التقليدي شكلت نموذجاً للصراع بين العلم و المعتقد، خاصة نظرية التطور الداروينية و التي اتخذت أبعاداً اقتصادية فيما بعد، باعتبارها آلية لضمان استقرار عدد الأنواع و توازن الحياة إذ نجد تنافساً داخل كل نوع و بين الأنواع المختلفة و هذا التنافس المستمر ينتهي بموت الجانب المنهزم، و هو ما يمكن إسقاطه أيضاً مع مالتوس على السكان لتحقيق التوازن و الاستقرار.

إن أهمية نظرية داروين تكمن في توجيه ضربة قاسية إلى علم اللاهوت مثل ما فعل كوبرنيكوس، ذلك أن الداروينية لم تجعل من الضروري التخلي عن الاعتقاد بثبات الأنواع و التخلي عن فكرة إتيان الله بأفعال الخلق المنفصلة التي يصر عليها الكتاب المقدس، بل أنه جعل من الضروري افتراض انقضاء حقبة سحيقة منذ بداية الحياة و التي شهدت لاحقاً تطوراً تدريجياً نتاج الانتخاب الطبيعي، و الأكثر من ذلك أن علماء التطور تجرؤوا و أكدوا أن الإنسان ينحدر من الحيوانات الأدنى، و هذا ما كان له وقع حاد و كبير و قُبل بردة فعل شرسة في الأوساط الدينية⁽¹⁴¹⁾

140 - - Ibid

141 ، رسل ، الدين و العلم ، 70-71 .

لقد تم حظر تدريس نظرية التطور باعتبار أنها تتعارض مع كلمة الله خاصة في ولاية تينيسي بالولايات المتحدة الأمريكية، فيرى رسل أن تقدم العلم في القرن التاسع عشر يعزى إلى افتقار المدافعين عن النظرة التقدمية إلى المنطق و هو ما مكن هؤلاء على اعتياد التغيير و قبول التغييرات المتتالية، فمجرد أن تبدو النتائج منطقية يصدم الناس و عاداتهم و يرفضون التجديد و مع ذلك لا يظهرون مقاومة في طريق التقدم إذ يؤكد رسل هذه الحقيقة " بأن عظماء القرن التاسع عشر لم يكونوا ثوريين في مجال الفكر أو السياسة، و لكنهم كانوا على استعداد للدفاع عن الإصلاح عندما أصبحت الحاجة إلى الإصلاح واضحة، و هذا المزاج الحذر في استحداث التجديدات جعل القرن التاسع عشر يتميز بالسرعة الفائقة في إحراز التقدم"⁽¹⁴²⁾.

في سياق آخر، يؤكد رسل أن تأخر علم البيولوجيا بالمقارنة مع تقدم العديد من العلوم في تلك الفترة إنما يفسر حسب الكثير بعداء الكنيسة للتشريح و اتهام بعض المحاولين لدراسة الجسم البشري خاصة العالم أندرياس فيزاليوس (Vésalius)⁽¹⁴³⁾ الذي لم تتوصل نتائجه لإثبات ما تدعيه الكنيسة بشأن ذلك، ليتهم بتواطؤ بعض أعدائه بالقتل أثناء أداء لعمله، و لم تستطيع نخبة البيولوجيين من تجاوز تلك العقبات إلا تدريجياً، فسلكت الطرق العلمية و اعتمدت على الفحص و التمهيص و بالاستناد على ما أفضت إليه نتائج سابقهم من الأطباء و الباحثين في ميدان الظواهر الحية، و الانكباب على دراسة مؤلفاتهم. فتوسعت مجالات البحث العلمي من التشريح إلى دراسة وظائف الأعضاء خاصة مع العالم البيولوجي هارفي (1578-1657)، الذي كان له الفضل في اكتشاف الدورة الدموية.

أما واقع التعليم الطبي حسب رسل لم يكن على أحسن حال، إذ شهد العديد من المضايقات و الملاحقات من قبل محاكم التفتيش، ماعدا بعض البلاد البروتستانتية التي تشبعت آنذاك بالفكر الليبرالي، التي اعتقدت آنذاك أيضا بالثقافة الليبرالية و التي انعكست في مجال الطب و البحوث البيولوجية بخلاف الجامعات الاسبانية التي منعت تدريس الدورة الدموية حتى نهاية القرن الثامن عشر بما فيها علم التشريح أيضا⁽¹⁴⁴⁾

¹⁴² رسل، المصدر السابق، ص 72.

¹⁴³ - أندرياس فيزاليوس هو عالم تشريح وطبيب جراح فلنمكي (بلجيكي 31) (ديسمبر 15 - 1514 أكتوبر 1564) ويعتبر أبا التشريح الحديث، "وهو مؤسس علم التشريح البشري الحديث"

¹⁴⁴ - رسل، المصدر السابق، ص 100.

و يضيف رسل أن أثر التحيزات اللاهوتية القديمة استمرت في الظهور كلما كانت أمام اكتشافات علمية جديدة في مجال طب، و الدليل على هذا اعتراض جامعة السربون ضد عملية التلقيح، إذا اعتقد قساوسة الكنيسة أن جروح و قروح أيوب عليه السلام ترجع إلى تلقيح الشيطان له، ففي بيان مشترك للقساوسة الاسكتلنديين جاء فيه أن التلقيح يعتبر " محاولة لإصابة حكم الله و تقديره بالارتباك.

و لم ينتهوا من موقفهم هذا إلا بعدما لاحظوا انخفاض معدلات الوفيات، فتغيرت وجهة نظرهم اتجاه عملية التلقيح و لاسيما مع إصابة الناس بالذعر تزامنا مع انتشار الأمراض الفتاكة ، حيث قبلت الأسرة الملكية عام 1768 تلقيحها هي و أفراد أسرتها الملكية ضد مرض الجدري، و لم تقبل الكنيسة في غضون ذلك بعملية التطعيم الذي فجر جدلا حادا في الأوساط الدينية و اعتبروه عملا ينطوي على تحدي السماء، بل يمثل ابعث من ذلك تحديا للإرادة الإلهية في اعتقاد الكاثوليك، فمثال معارضة حملات التطعيم التي عرفتها مدينة مونريال (**Montréal**) الكندية يشهد على ذلك فيقول أحد قساوسة الكاثوليك: "إذا كنا قد ابتلينا بمرض الجدري فإن ذلك يرجع إلى ما مارسناه من عريضة في الشتاء الماضي." (145)

لقد فضل رجال الدين في نظر رسل الابتهاالات و التمارين الروحية و التصدي إلى التطعيم و قاموا بإقامة مواكب عظيمة و مناشدة العذراء مريم بكل وقار أن تخفف عنهم البلاء، و اعترضت أيضا الكنيسة استخدام التخدير الذي بإمكانه أن يخفف من معاناة الإنسانية، إذ اقترح جيمس يونغ سيمبسون (146)، استغلاله في حالات الولادة، إلا أن رجال الدين اعترضوا بشدة و ذكروه بأن الله قال لحواء في الإصحاح الثالث، الآية 16 من سفر التكوين: " بالوجع تلدين أولادك"، فكيف يتحقق في رأي رجال الدين ذلك إذا كانت المرأة تضع مولودها وهي تحت تأثير الكلورفورم؟

و لم تبدي الكنيسة موافقتها على استخدامه إلا للرجال، و هنا يعطف بنا رسل إلى الحديث عن رغبة شاعت في القرون الوسطى تتمثل في انتشار ميل طبيعي في الأوساط الدينية يتجلى من خلال تلذذ هؤلاء بتعذيب المرأة و يتمسكون بأي قاعدة و سند لاهوتي أو أخلاقي يفرض عليهن واجب الصبر و تحمل الآلام حتى و إن كان هناك ما يبرر و ما يسمح بتحاشيه .

¹⁴⁵ رسل ، المصدر السابق ، ص 100-101-102 .

¹⁴⁶ - طبيب أمراض نساء أسكتلندي ، أول من استعمل الكلورفورم للتخدير أثناء عملية ولادة ، اكتشفه من خلال دراسة واسعة النطاق للمركبات العضوية فاعلية الكلورفورم في 4 نوفمبر 1847.

و يقرر رسل أن ذلك ضرر جسيم ألحقه رجال الدين بالإنسانية فأخلقوا ما ليس بالأخلاق و برروا من الممارسات ما ليس بمبرر، فكانوا في أخلاقهم أقرب إلى الجاهلية الأولى و طقوس الحضارات البائدة التي تعادي العقل و المنطق و تحظر التفكير المبني على الأسس العلمية، ذلك " أن الضرر الذي ألحقه اللاهوت لا يتلخص فقط في خلق نوازع القسوة بل أيضا في إضفاء الشرعية على التظاهر بالأخلاق السامية و إضفاء ما يبدو أنه قداسة على ممارسات ترجع إلى عصور أكثر جهلا و بربرية " (147).

و يستحضر أن مجال الطب كذلك لم يسلم هو الآخر من النظرة الدينية في بداية نشأته إذ اعتقد أن الأمراض بمثابة عقاب ينزله الله بعد ارتكاب المعاصي، و منهم من كان ينسبها إلى الشياطين، أما طريقة الشفاء فكانت تتم من خلال شفاعاة القديسين أو عن طريق الصلاة و الحج إلى بيت المقدس أو عن طريق طرد الشياطين و الأرواح النجسة، و قد كانت هذه الأفكار مستوحاة من توصيات أو دلالات النص الديني، إذ روج لها العديد من القساوسة و رجال الدين أمثال أوغسطين الذي اعتقد أن كافة الأمراض و الأوبئة و العلل التي تصيب المسيحيين ترجع إلى الشياطين.(148)

ثم ينتقل بنا رسل إلى تلك الفترة، فيكشف لنا أن تسلسل الآراء الدينية إلى ذهنيات الناس استمر حتى العصور الوسطى، حيث اعتقد الناس بفاعلية بقايا القديسين و بقايا عظامهم - (**Ossements**)، أو بقايا عظام الماعز، و أن فاعليتها هي أكثر نجاعة من كل أشكال التداوي. و لا عجب أن البعض من الوصفات بالمصادفة كان ناجعا فعلا، بحكم أن الاعتقاد في الدواء هو علة الشفاء. و بالرغم من هذا يستنكر رسل هذا التعميم على أساس المعجزات و الأساليب البدائية التي تبدو نسبية في آثارها، فمن الأمراض أحيانا ما يستدعي حلا علميا و تدخل علم الأمراض (**Pathologie**)، فمن الدجل ما أمات، و من الخرافة ما لم يجد نفعاً ، فيدعوننا إلى عدم الأخذ بالمعجزات مآخذ الجد.

¹⁴⁷ رسل ، المصدر السابق ، ص 103 .

¹⁴⁸ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 77-79 .

و غالبا ما كان يعتقد الناس في معجزات القديسين في تغيير مجرى الأحداث و الكشف عن قدراتهم المتميزة، فينسبوا إليهم ذلك و نالوا بذلك شرف صانعي المعجزات بتزكية من سلطة البابوية كما هو الحال لأكسافير فرانسيس (Xavier François) و هو مبشر مسيحي عاش في الهند الصينية و اليابان.⁽¹⁴⁹⁾ و من هنا يدعونا رسل إلى عدم الوثوق بتاريخ المعجزات في ظل ندرة الوثائق و المستندات، فقد يكون مبالغا فيها لدرجة أن بعض الحكايات تتداول إمكانية الشفاء عن طريق المعجزة من قبل بعض ملوك البروتستانت بمجرد اللمس، فالملك القديس تشارلز الثاني شفا وحده عن طريق اللمس ما يناهز مائة ألف شخص و هي قدرة على الشفاء تتجاوز قدرة أمهر الجراحين، و لم يقتصر ذلك على تشارلز الثاني ، بل طالت هذه القدرة المعجزة كل من وليام الثالث و الملكة آن - (Queen Anne) - من خلال وجود كتاب الصلاة التي تحمل قداس خاص يقام في مناسبات يمارس فيها الملك قدراته الاعجازية على الشفاء.⁽¹⁵⁰⁾

و يلي هذا أن اعتبرت كافة الأمراض و الأوبئة نتيجة الشياطين و التي انتشرت بكثرة في القرون الوسطى و أحيانا أخرى كانت تعزى إلى غضب الله، و لم يكن هناك من ملجأ إلا التقرب بالقربان و تقديم الهدايا للكنيسة تفاديا لغضب الله، مما ساعد على انتشار الممارسات و الطقوس الخرافية و التفسيرات الميتافيزيقية بدل تقديم تبريرات علمية موضوعية و تخضع للمنطق و الاستدلال العقلي.⁽¹⁵¹⁾ و يقدم لنا رسل أمثلة على بعض المعتقدات الوسيطية، حيث ظن البعض أن تجنب غضب الآلهة قد يكون بقتل اليهود كما هو الحال في ألمانيا و مدنها الكبرى و الفرنسية المحاذية كمدينة ستراسبورغ - Strasbourg - ، إذ تم قتل ثلاثة آلاف يهودي في ارفورت الألمانية - Erfurt - و اثني عشر ألف يهودي بإقليم بافاريا - Bavaria - Bayern - و حرق ألفين آخرين في مدينة ستراسبورغ ، مع وجود معارضة محتشمة من قبل البابا إزاء هذه الإبادة الجماعية.

¹⁴⁹ رسل ، المصدر السابق ، ص 80 .

¹⁵⁰ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 81-82

¹⁵¹ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 82

و يزعم رسل أيضا أن مقاومة الأمراض لم يكن فقط بالاستعانة بالخزعبلات و الطرق السحرية، و لكن بالوقوف كذلك أمام الوسائل العلمية و التصدي للأبحاث العلمية في مجال الطب التي كان يجربها أبرز اليهود فاتهموا حينذاك بالسحر و أظهروا أيضا العداء لعلم التشريح الذي كان يعتبر غير مقبول لوقوفه في سبيل بعث الأجسام من الموت و أن الكنيسة كانت تمت إراقة الدماء و التنكيل و التشويه بالجثة المحاطة بالقداسة، لم يسمح بعمليات التشريح إلا بحلول منتصف القرن السادس عشر، حيث دعا الباب بيوس الخامس (Pieux 5) إلى تجديد المراسيم السابقة و من ثمة أمكن لعلماء التشريح بعد مضي ثلاثة أيام من استدعاء القس للعلاج.⁽¹⁵²⁾

و لم يُسْتَشَرَ على حد تصور رسل ميدان العلوم المتصلة بالاضطرابات العقلية و الأمراض النفسية من الخزعبلات و سيطرة السحر و الطرق و الأساليب الخرافية و خاصة حالات ما يعرف بالجنون الذي كان يعلل بالمس من الشيطان في رأي غالبية رجال الكنيسة، و يقتضي العلاج حسبهم بضرورة طرد الأرواح الشريرة أو لمس اثر من آثار أولياء الله الصالحين أو عن طريق قديس يأمر الشياطين بالخروج ، و ربما كانت الحاجة في ذلك إلى السحر أو حتى استعمال التعذيب في طردها و إذلال إحساسها بالتفوق، و قد يستند في التخلص منها بالروائح الكريهة التي تبعث على الاشمئزاز، و غالبا ما كانت المعالجة المريض تتم بالجلد بالسياط و ما يعنيه من شعور بالألم إذا ما رفض الشيطان أن يتركه، أما مهمة استخدام السيات فكانت توكل إلى السجنان المتوحشين الذين يسومون المجانين أبشع صور التعذيب و التنكيل، بالإضافة إلى منع المعتل من النوم و إلحاق العقاب به.⁽¹⁵³⁾

و لا يفوت رسل فرصة الحديث عن واقع العلم في عصور ما قبل العلم و ما كابده العديد من العلماء لتجاوز العوائق الاستمولوجية التي يفرضها منطق رجال الدين ، ليميز بين السحر و الدين، فيعبر عن الفرق بينهما بالقول أنه " عندما نتحدث عن السحر فإنني أعني به مجموعة العمليات التي يستخدم فيها الإنسان الطقوس التي يعتمد في أثرها على ما يملكه هذا الإنسان من قوة أو على القوى التي يعتقد أنها كامنة

¹⁵² رسل ، المصدر السابق ، ص 83-84 .

¹⁵³ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 84-85 .

في أشياء و عمليات معينة تستخدم في هذه الطقوس أو في الصفات و الخصائص التي تتسم بها الأشياء و العمليات التي تعتمد في مفهومها على إرادة قوى يلجأ إليها الإنسان و يسعى إلى إدخالها عن طريق طقوس الابتهاال إليها و محاولة استرضائها (154)،

و من هذا المنطلق ، يؤكد لنا رسل أن هذا التعريف جامع و مانع طالما أن هناك أناس يعتقدون بالقوة الغريبة الموجودة في الأشياء غير الحية كالحجارة المقدسة و الأرواح غير الإنسانية و هذا ما كان يروج له في القرون الوسطى مثل حجر الفيلسوف و إكسير الحياة. و هي كلها أساليب أقرب إلى السحر منها إلى الدين، فيلاحظ الاختلاف بينهما، و حتى في السحر ذاته الذي ينطوى على الاختلاف، فهنالك من السحر ما كان يعتمد على الطرق العلمية كما هو الحال عند البحث عن إكسير الحياة و هذا يختلف عن السحر في بعده السلبي الذي اهتم بالتمييز بين القوة الخيرة و الشريرة، ووجه السلب فيه هو اهتمامها بطرق التحالف مع الشيطان شأنه في ذلك شأن الشعوذة. (155)

و من جهة أخرى، يتحدث رسل عن مكانة السحر في العصور الوسطى و موقف الكنيسة منه بالقول بأنه كان محل تجريم و تحريم و عقاب و حرق، خاصة من الممارسات له من النساء لما يُكنهن من حقد و شرور اتجاه الغير، و كان يعتقد أيضاً أنه سبب في سوء الأحوال الجوية و الأعاصير و الزوابع و البرد و الصواعق و الرعد و البرق، فكان من الطبيعي عدم الإيمان بالسحر و الشياطين التي كانت ميزة الفلسفة المشككة في القرن التاسع عشر و بالتالي كانت الساحرات توصف بالكفر و الإلحاد. (156)

و يستطرد رسل في هذا السياق بالتأكيد على أن العقول العلمية لم تكن شغوفة بالخزعبلات الشائعة، ففضلوا الانصراف إلى التأمل في أمور جدية و في ذلك أيضاً تحاشيا لعداوة الاكليروس، بل حتى المهتمين بقضايا العلم لم يسلموا من ضغوطات جلادي الكنيسة التي اعترضت مثلاً على محاولة تقنين ظاهري البرق

154 - رسل ، المصدر السابق ، ص 87.

155 رسل ، المصدر نفسه ، ص 88 .

156 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 90-91-92

و الرعد بحجة أن ذلك الفعل من صميم الإرادة الإلهية التي اختصت به و بكل شيء في الكون مثلما هو الحال لرفضها استخدام مانعات الصواعق التي سبب استخدامها- في اعتقاد بعض رجال - اللاهوت - بحدوث زلزال ماساشوست الأمريكية، و لم يتم الإطاحة بالسحر إلا بعدما تمكن العقل البشري من تقويض الاعتقاد بتدخل المعجزات في سير الطبيعة.⁽¹⁵⁷⁾

و يستنكر رسل مواقف الكنيسة العدائية و المتصلبة من العلم و إنجازاته و ابتكاراته و التي تستمر حتى قرننا هذا إذ ما زالت تبدي معارضة اتجاه تحديد النسل، إذ ينادى **كوندرسيه** إلى تحديد النسل للحد من زيادة السكان و ذلك بالاعتماد على الطرق (المصطنعة)، و هذا ما لم تقبل به الكنيسة بخلاف **مالتوس** الذي كان يدعو إلى تحديد النسل بالتعفف و الورع **Pietism** ⁽¹⁵⁸⁾، والإجهاض الذي تتضمنها خطابات البابا إلى الأساقفة و التي مؤداها "أن الذين يمارسون تحديد النسل، أنهم يرتكبون خطيئة ضد الطبيعة كما يرتكبون فعلا مخجلا و شريرا في جوهره" ⁽¹⁵⁹⁾، مصنفا هذا العمل بالجريمة النكراء و أن الله ينظر إليها بأكبر قدر من المقت و الكراهية، و أنه أحيانا عاقب مرتكبها بالموت.

و ترفض البابوية و الكهنوتية - حسب رسل - كافة المبررات الاقتصادية و الإنسانية و الأخلاقية التي تسمح بتحديد النسل و الإجهاض. إذ يشير أحد القساوسة بقوله: "ما من سبب على الإطلاق يبرر قتل الأبرياء بطريقة مباشرة، سواء كان هذا القتل من نصيب الأم أو الطفل فإنه ضد تعاليم الله و قانون الطبيعة الناهي عن القتل، بل يؤكد أن الأطباء الشرفاء يسعون فعلا لحماية حياة كل من الأم و الطفل و الحفاظ عليها، أما الذين يتصرفون بدون شرف المهنة فيمارسون الطب تحت شعار ممارسة الطب أو دفاعا عن أهداف إنسانية و هم في النهاية يتسببون في وفاة الأم أو وليدها." ⁽¹⁶⁰⁾

157 - رسل ، المصدر السابق، ص 96 ، 97 .

158 - رسل ، **حكمة الغرب** ، ج 2 ، سلسلة عالم المعرفة، ت **فؤاد زكريا** ، بيروت، 1978. ص 164 .

159 - رسل ، **العلم و الدين** . ص 104.

160 - رسل ، **المصدر نفسه** ، الصفحة نفسها.

و ما يبرر رفض رجال الدين للإجهاض كما يحلل رسل هو اعتقادهم أن النصوص المقدسة تنطبق على الجنين الإنساني حتى في مراحلها الأولى بحجة أن له روح. و هذه مقدمات يترتب عنها نتائج لا تتفق مطلقا مع قناعة العلم الحديث، فحالات الموت لا يتوقعها الطبيب سلفا و لا يستطيع التأكد من حدوث الوفاة مسبقا، كما أن حياة الأم قد تنقذ بأعجوبة، و هذا ينطوي على أشكال التعميم المضرة و التي تقلل من تقدم المعرفة العلمية و تطورها⁽¹⁶¹⁾.

لقد استطاع العلم أن ينتصر في معظم المعارك التي خاضها ضد الاكليروس و محاولة رجال الدين التدخل في الطب بافتراض وجود مشكلات أخلاقية، فتمكن من صد هجماته و إفحام مبرراته و إجباره على التراجع بما حققه من نتائج نفعية و عملية في الواقع الإنساني من تخفيف للألم و توفير وسائل النظافة و الصحة، فيؤكد رسل هذه الانجازات على أنه " ليس هناك الآن من يعتقد أن من الكفر تجنب الأوبئة و تجنب انتشار العدوى عن طريق مراعاة النظافة و قواعد الصحة العامة.

و هنا بالتحديد نلمس أثر العلم في تغيير الممارسات التقليدية التي كانت وبالا على البشرية جمعاء، رغم أن بعض الناس لا يزالون حتى الآن يعتقدون أن الله هو الذي يرسل الأمراض، فإنهم لا يرون نتيجة هذا لهذا الاعتقاد بأنه من الكفر محاولة تجنب هذه الأمراض"⁽¹⁶²⁾، و يشير إلى نفس الانطباع " بأن التحسن في صحة الإنسان و إطالة عمره الناجمين عن مراعاة قواعد عامة هي ابرز خصائص العصر الذي نعيشه و من أكثرها مدعاة للإعجاب و حتى و لو أن العلم لم يفعل أكثر من هذا لسعادة الإنسان، فإنه يكفينا كي نشعر نحوه وبالامتنان و سوف يجد الذين يؤمنون بفائدة المذاهب اللاهوتية صعوبة في إبراز أية مزايا مماثلة يمكن أن يكونوا قد قدموها من ناحيتهم إلى الجنس البشري " .⁽¹⁶³⁾

¹⁶¹ - رسل ، المصدر السابق، ص 104 - 105 .

¹⁶² - رسل ، المصدر نفسه ، ص 105.

¹⁶³ - رسل ، المصدر نفسه ، 106 .

من خلال العرض ، يكشف لنا رسل أن العلم وهب للإنسان نعمة هائلة في التقدم الطبي، و يتجلى ذلك من خلال التطعيم، خاصة مع بداية القرن التاسع عشر بعدما توقع الناس هلاك أطفالهم قبل سن البلوغ و ساهم أيضا التخدير في رفع المعاناة على الكثير من الناس، كما ساعد العلم على تجاوز حالات الفوضى التي كانت تعم أرجاء انكلترا خاصة في ما تروي قصص عدة بتاريخ القرن الثامن عشر. و ذاك كله ، كان نتيجة استحداث أجهزة أمنية و تجهيزها بأدوات ووسائل مراقبة المجرمين و تتبع أعمالهم الإجرامية بعدما كانت الشوارع مظلمة و انتشار قطاع الطرق ، فبعد الإضاءة و التلفزيون و طبع الأصابع و علم النفس الجريمة و العقاب لم يعد الوضع الممحي ممكنا ، و هذه كلها أوجه للتقدم العلمي و التقني لرسل، الذي مكن الشرطة من التدخل بمعية مصالح الأمن، هذه ما لم تكن تصدقها ذهنية القرون الوسطى.⁽¹⁶⁴⁾

و يبرهن رسل أن ما يجعل التقنية وسيلة سلام و سعادة و ذلك من خلال القبول بالتفكير العلمي و المناهج العلمية الحديثة في التعامل مع الوقائع المختلفة بعيدا عن الخرافة و الوهم و الدجل، " فإذا كان ابنك مريضا و كنت أبا ذا وجدان فستقبل التشخيص الطبي مهما كان مشكوكا فيه و مثبطا للهمة، أما إذا تقبلت الرأي المبهج لأحد الدجالين ثم توفي ولدك نتيجة ذلك، فإن حسن ظنك بالرجال لن يكون شفيعا لاعتقادك بهذا الدجال ".⁽¹⁶⁵⁾

أما في مجال الطبيعيات فيتوقف رسل عند أهمية مذهب الجبر و أثره في الفيزياء و علوم الكيمياء و علم الأحياء باعتباره يسلم بوجود أسباب موضوعية للظاهرة و الفعل، كما أن اكتشاف قوانين النسبية هي جوهر العلم و الذي يعد أساس مبدأ الحتمية، و بهذا يعكف العلماء على البحث عن هذه القوانين ، و أي مجال يخلو من الحديث عن السببية يعتبر مجالا لا رابطة بينه و بين العلم مع ضرورة اعتبار هذه القوانين نسبية و ليست كقيلة بتقديم التنبؤات بشكل مطلق.

¹⁶⁴ - رسل ، أثر العلم في المجتمع ، ص 123 ..

¹⁶⁵ رسل ، المصدر نفسه ، ص 124 .

و لعل هذا ما يتعارض مع مذهب الجبرية - حسب رسل - معتقدا بأن القدرة على التنبؤ هي قدرة مطلقة، فالمعرفة نسبية بحكم نسبية الوسائل المعرفية و أدوات البحث العلمي و بالتالي تجعل من الصعوبة في الوقت الراهن منحنا القدرة على توقع الوقائع العلمية بشكل مطلق.⁽¹⁶⁶⁾

و من هنا يسلم رسل أن مذهب الجبر لا بد و أن يكون مذهبا افتراضيا خاصة في ظل اكتشاف حقائق الذرة في الفيزياء الكوانتية التي أيدت مع هايزنبرغ و إدنجتون وجود عالم مايكرو فيزيائي يخضع إلى الفوضى و اللانظام و بالتالي توفر نفس الشروط لا يؤدي بالضرورة إلى نفس النتائج و هو ما يصطلح عليه بمبدأ الاحتمية، فما يجعل التنبؤ المطلق مستبعدا هو حركة عناصر الذرة التي تختار مسالك من عدة إمكانيات بنسب معينة و هو ما يجعل مراقبة نظام الظواهر الكبرى تبدو مستعصية نسبياً.

في ذات الوقت لا تعدو قوانين العالم الأصغر إحصائية احتمالية فقط. و من هنا يرى رسل أنه على رجل العلم أن يفترض صحة مذهب الجبر و لكن من الناحية العلمية هو ليس مضطرا إلى تأكيد وجود قوانين نسبية إلا في حالة عثوره على هذه القوانين بالفعل . و لا يجب عليه أيضا أن يؤكد وجود منطقة ليس لقوانين السببية فيها أي عامل و هذا استبعاد فكرة حرية الإرادة.⁽¹⁶⁷⁾

لقد ظهرت إلى الوجود التقنية العلمية المستمدة من العلم النظري، و هذه التقنية العلمية لا تتميز بما تتميز به النظرية من امتناع عن اتخاذ رأي قاطع، فلقد أحدثت النظرية النسبية و النظرية الكمية ثورة في القرن الحالي، و أن جميع المخترعات القائمة على الفيزياء القديمة لا تزال باعثة على الرضا عنها من خلال تطبيق أبحاث العديد من العلماء دون أن تمنى بالفشل، و هكذا أصبح مزاج الخبراء مزاجا عقليا يكمن بالإحساس بالقوة و اللذة القائمة على استخدام المادة البشرية نفسها في إشارة إلى خبراء الشركات و الحكومات و هو ما يتعارض مع المزاج العقلي العلمي.

¹⁶⁶ - رسل ، الدين و العلم ، ص 144-145-147 .

¹⁶⁷ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 162-163-166-167 .

إن الحرب بين العلم و اللاهوت كادت أن تنتهي و مع ذلك هذا لم يمنع اندلاع مناوشات بين الحين و الآخر في المناطق الواقعة بينهما، على الرغم من اعتراف أتباع الديانات بأن المسيحية تطهت من الرغبة في اضطهاد المخالفين لها و الإقبال على القيم الأخلاقية السمحاء و الاعتراض على الحرب، لقد أعقبت هذه الإصلاحات ظهور عقائد أكثر رغبة في الاضطهاد و الاستعداد للاعتراض على العلم كما هو الحال في ألمانيا النازية أو مادية الاتحاد السوفيتي. و هذا يترتب عنه أشكال من العقوبة لا تقل وحشية على وحشية محاكم التفتيش، إذ أن اضطهاد المثقفين في ألمانيا و روسيا فاق في قسوته أي اضطهاد مارسته الكنيسة خلال المائتي و الخمسين عاماً الماضية.

إننا لا نستطيع إنكار أن العلم أسهم في تصاعد الإحساس بالقوة و الغرور و نلاحظ أيضا الآثار المباشرة الناجمة على التقنية العلمية و التي لم تكن مفيدة بشكل كلي إذ زادت من حجم السكان الذين بالإمكان تحويلهم من صناعة السلام إلى صناعة حرب وإنتاج ذخيرة ، فضلا عن هذا جعلت العالم من الصعب للغاية على النظام الاقتصادي القديم القائم على الندرة الإنتاجية أن يؤدي عمله و ذلك بسبب زيادتها لإنتاجية العامل، كما أنها تسببت في اهتزاز موازين الحضارات القديمة عن طريق الآثار المترتبة على الأفكار الجديدة، فدفعت الصين إلى الابتلاء بالفوضى و اليابان بالاقتداء بالغرب في اتباع سياسة استعمارية لا ترحم.

بالإضافة إلى ذلك ، فإنها هي التي دفعت روسيا إلى أن تحاول بعنف الحفاظ على إقامة نظام اقتصادي جديد و ألمانيا أن تحاول بعنف الحفاظ على نظام اقتصادي قديم و جميع هذه الشرور التي يعاني منها زماننا ترجع، و يعتقد رسل في نفس السياق أن النظرة الليبرالية لا تتلخص في ماهية الآراء التي تعتنق، و لكن في كيفية اعتناقها ، فبدلا من التسليم بها تسليما قاطعا، يحسن اعتناقها بصورة تقديرية تخضع لاحتمال الخطأ و الصواب مع الإدراك بأن التوصل إلى دليل جديد قد يؤدي في أية لحظة إلى نبذها. إن هذا الأسلوب هو الأسلوب المتبع في اعتناق الآراء في العلم. (168)

168 - رمسيس عوض ، رسل مفكر سياسي ، ص 106.

و اعتبارا من هنا، يرى رسل أن التجربة هي السبيل السليم لدراسة القضايا التجريبية، إذ أن العلم تجريبي و يحتكم إلى التجربة و لا يقطع بشيء و هو إرث حملتها التجريبي مع **لوك** الذي يعتبر المؤسس الأول للمذهب التجريبي. الذي فصل نظرية المعرفة القائمة على الملاحظة و التجربة. و المبشر بفكرة التسامح الديني.¹⁶⁹) إلى حد ما إلى القضية العلمية و بالتالي ترجع إلى العلم. إن الخطر الذي يهدد الحرية الفكرية أكبر في يومنا الراهن مما كان عليه منذ 1660، و لكن هذا الخطر لم يعد يأتي الآن من الكنائس، بل من الحكومات التي كامن مخاطر الفوضى و الاضطراب الحديثة التي تواجهها سببا في أن تأخذ عن السلطات الكهنوتية السالفة قدسيتها .

و من الواضح أن واجب رجال العلم و كل الذين يُقدرون المعرفة العلمية، يقتضي منهم الاحتجاج ضد أشكال الاضطهاد الجديدة أكثر من تهنئهم لأنفسهم و رضاهم عنها بسبب اندثار أشكال الاضطهاد القديمة. إن إعجابنا بالأنظمة الحالية لا يجب أن يتعارض مع الاعتراف بأخطائها أو رفضها لنقد أفكارها الجامدة لأنها ببساطة ستصبح عائقا أمام اكتشاف معارف جديدة و لا يدعونا ذلك إلى إنصافها في نظرتها لبعض المبادئ الإنسانية.

¹⁶⁹ - رمسيس عوض ، المرجع السابق ، ص 112.

المبحث الثاني : أثر العلم و الأخلاق في بناء المجتمع العلمي و الإنساني.

1- العلم و الأخلاق و تطور مجتمع المعرفة :

يكشف لنا رسل أثر العلم و الأخلاق في بناء و تطوير مجتمع المعرفة من خلال ما أحدثه من تغيير شامل في النظم الاجتماعية التقليدية، فالرغبة في إقامة نظام اجتماعي معين دون سائر النظم الأخرى ترجع إلى بواعث سيكولوجية محددة و دوافع مستقرة في اللاشعور، كما تستند إلى مزاج الإنسان الفردي. فكثير من المواقف الاجتماعية تقوم على الخطأ في نظر رسل، من أهمها شيوعاً، النظرة الاجتماعية المبنية على التحيزات المتوارثة ذات الصلة بالمعتقدات الراسخة التي توارثتها تلك المجتمعات جيلاً بعد جيل، " فمن الواضح الآن أن التربية الخلقية و العاطفية لم تزل تجري في اتجاهات خاطئة، و أنها قد أحدثت سوء تكيف، الذي هو مصدر الغش و الجبن والغباء و ما إليها من الخصائص العقلية التعيسة." (170)

و تتجلى بشكل واضح في التمسك بالتوجه الديني و الأسرة والملكية الفردية بالرغم من تأثير التقدم الصناعي على ضرورة التخلي عن البعض منها، بحيث أن الناس لم يعودوا يخضعون لسيطرة الدين و العائلة مثلما كانوا يخضعون لها في الماضي، " فالحب و الأبوة و المتعة و الجمال كلها أقل شأنًا عند رجل الصناعة الحديث مما كانت عند أعيان الزمن القديم، فالتحكيم و الاستغلال هما أكبر شاغل لدى رجال الصناعة العلمية الحديثة " (171) ،

و يرى رسل أن هناك عامل آخر يؤثر في أحكام الناس الغريزية اتجاه النظام الاجتماعي القائم فعلاً، أو الذين يلمون بإقامته، و يتلخص في ما إذا كان النظام الاجتماعي سيوفر لهم مستقبلاً ما يتفق مع ما يرونه في أنفسهم من استعدادات و قدرات، بشكل يمكنهم من لعب دور إيجابي في سياق ذلك النظام المفترض، بمعنى إقامة نظام اجتماعي يمكنه من إطلاق العنان لطبيعته الآمرة و الناهية.

و إذا كان العلم و الأخلاق يسعيان في تطور جذلي إلى بناء مجتمع المعرفة في اعتقاد رسل، فالملاحظ حسب ما يبدو لنا أن المجتمعات الإنسانية و الراقية على وجه الخصوص لم تتمكن بعد من الوصول إلى هذا

170 - رسل، النظرة العلمية، ص ، 168.

171 - رسل، المصدر نفسه ، ص ، 138.

المستوى و تطبيق هذا الحصاد المعرفي عمليا بدليل ما تقوم به من بعض الممارسات و الطقوس و الانحرافات الفكرية و التي مازالت متمكنة منها لحد الآن، فلم تتخلص من نظرتها المعادية للأخر و تسمح لنفسها بصفة استشرافية من استنزاف لخبراته و التقليل من إنسانيته و عقيدته و مصادرة حقوقه طبيعية أو وضعية كانت، أما على المستوى الضيق و نعني به الأسرة بالتحديد، فتبدو أكثر تفويضا لاندفاعاتها الفردية و تمسكا برغباتها الخاصة العاجلة فصارت بذلك منحلة و مهترئة في أوصالها و قواعدها فحالتها اليوم أقرب إلى البدائية من المدنية و " قيمها الحضارية " باتت قاب قوسين أو أدنى من البربرية و مزاج الشعوب المتوحشة، و من هنا فتحقيق المجتمع العلمي و تمثله كقناعة تتجلى في حياة الفرد قولا و سلوكا.

و هكذا يعيب رسل على بعض محاولات الإصلاح الاجتماعي التي يقودها بعض المصلحين والثوريين على النظم الاجتماعية السائدة، ذلك أن البعض من هؤلاء الفاعلين تحركهم الكراهية للظالمين أكثر مما يحركهم الحب للمظلومين، و مثل هؤلاء أشباه المصلحين يسعون للانتقام والتشفي من أعدائهم بعيدا عن السعي إلى رفع المظالم عن أصدقائهم، و هذه الطباع تجد متنفسا لها في الوطنية و الروح العسكرية. في هذا السياق، يرى أن التركيب النفسي و الجهاز الفكري لدى الإنسان الحديث لا يختلف في شيء من الناحية البيولوجية عن نظيرهما لدى الإنسان البدائي.

و هذه الحقيقة البيولوجية تلقي الكثير من الضوء على سلوك الإنسان الحديث، فلو نظرنا إلى هذا السلوك الحديث لوجدناه أنه مردود إلى التركيبة الهمجية التي ورثناها عن الإنسان الأول، وما العداوات الحالية أساساً إلا استمرار لاشعوري لثنائية نفسية الرجل البدائي القديمة التي كانت تدفعه إلى التآخي و التعاون مع أفراد قبيلته، و تدعوه إلى كراهية القبائل الأخرى و الحقد عليها، يضاف إلى ذلك أن الإحساس - الذي لا يكاد يكون لاشعوريا- بوحدة المنفعة و المصلحة الجماعية يبدد الحقد والبغض في المجتمعات الحديثة، و لهذه الاعتبارات يعتقد رسل أن ممارسة الحياة وفق هذه المبادئ الفردية، يؤول إلى جعل النظام الاجتماعي أكثر تعاسة و قلقا، و يفقد تلك الحياة سعادتها و بهجتها.

و من هنا كان رسل ساعيا إلى الأفضل و معلقا آمالاً عظمى على طرق و أساليب التربية الاجتماعية، و يفترض أنه " لو أمكننا التأثير في الفئة المتمدنية (المتحضرة) من البشر، بحيث تنمو لديهم الرغبة في إسعاد أنفسهم أكثر من الرغبة في إلحاق الأذى بالغير، و إذا أمكن إقناعهم بأن يوجهوا جهودهم للبناء لتحقيق الإصلاحات التي تعم فائدتها العالم كله، بدلا من العمل الهدام الذي يرمي إلى منع الطبقات أو الشعوب الأخرى من أن يلحقوا بهم في أي مضمار، لأمكن خلال جيل واحد إصلاح النظام الذي يتم على أساسه العمل كله إصلاحا يشمل الأسس و التفاصيل." (172)

و من جهة أخرى، يرى رسل أن المجتمع في تقدمه بحاجة إلى بعض الأفراد الذين يخرجون عن الأنماط السلوكية العامة، فكل نهضة تقريبا سواء كانت فنية أو أخلاقية أو فكرية تعتمد على مثل هؤلاء الأفراد و الذين يصبحون عاملا حاسما في التقدم من البربرية إلى التمدن، غير أن في المجتمعات الحديثة البالغة التنظيم تتجه دائما لتعطيل نمو النشاط الفردي، فيؤكد ذلك بقوله: " تحتاج الهيئة الاجتماعية في نجاحها، إلى عدد من الأفراد الذين لا يتفقون كليا مع النموذج العام، لقد اعتمد كل تقدم من فني و خلقي و عقلي فعليا، على مثل هؤلاء الأفراد الذين كانوا عاملا حاسما في الانتقال من البربرية إلى المدنية." (173)

و الملفت للانتباه أن رسل تفتن إلى أن هذه المبادرة الفردية المتمردة اجتماعيا، فعلى النقيض من ذلك، قد تتحول في ذات الوقت إلى قوة إجرامية هدامة إذا لم تخضع لنوع من السلطة، ومن هنا تتضح معالم المشكلة حسب رسل بوضوح، فالتحدي الذي يواجه المجتمع الحديث في كيفية التعامل الأنسب مع هذا الوضع و طريقة الحفاظ على التوازن بين النظام العام و مكسب الحرية الفردية، فالتفريط في الحرية يؤدي إلى النمطية و الإفراط فيها ينتهي إلى الفوضى.

أما بشأن التعليم، فيجزم رسل أنه لا يمكن إصلاح النظام التعليمي إصلاحا حقا بدون إجراء تغيير شامل في الأوضاع الاقتصادية القائمة، فالإصلاح الاجتماعي لا يتحقق في نظره إلا بوجود منظومة تعليمية

172 - رسل، سبل الحرية، ص، 193، ص، 194.

173 - رسل، السلطة و الفرد، ترجمة شاهر الحمود، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت 1961 ص 62.

و تربوية متميزة، و التي تساهم في تأهيل الفرد ومساعدته على امتلاك أدوات التكيف و أساليب التعايش مع الغير، فيجسد بذلك طموح السعادة و الاطمئنان. فقد يثبت بمثل هذه الوسائل أنه أنجع علاج لأمراضنا، و قد يجعل من أحفادنا طلائع المجتمع الجديد.⁽¹⁷⁴⁾ ، و لا مواربة حين القول أن التعليم قادر على تشكيل الآراء و الميل إلى تقدير الفن أكثر من تقدير المال و الثروة كما كانت الحال في أيام عصر النهضة الأوروبية، و ترقية ملكات الإبداع و الخلق في الناشئة.⁽¹⁷⁵⁾

و ما يحول بين الفرد وسعادته اجتماعياً، فهي مشكلة يواجهها التعليم بالدرجة الأولى في عصر طبع بطابع التصنيع و التقنية، فالإشكال يبحث في حدود الجمع بين التطابق في الفكر و السلوك و التنظيم الواسع الذين تفرضهما ظاهرة التصنيع و بُعدها المادي، و بين الفردية والتلقائية اللتين يسعى إلى تحقيقهما الإنسان في بعدهما الروحي.

فلا بد في نظر رسل أن يكون التعليم مبدئياً، إلزامياً وعلى نفقة الدولة و توجهه بما تراه صالحاً، كمشروع مجتمع يستجيب لمتطلبات الحياة الاجتماعية والفردية الحديثة، غير أن واقع التعليم في الوقت الراهن لا يلتزم بهذه المسلمات، فنجد لدى رسل كلا التعليمين الخاص و العام تشوبهما عيوب عديدة، فتعليم الدولة يتسم بعيوب العالم الحديث المتمثلة في القومية و تمجيد التنافس و النجاح و عبادة الآلية و الشاء على التطابق و التشابه و احتقار الفردية، " فمن أجلها كان يضحى بتقوية الذهن الناضج، لأن الذهن الناضج قد يحدث الشك، وكان يضحى بالعطف لأنه قد يتعارض مع حكم الأجناس أو الطبقات (المنحطة)، و كانت الرحمة تضحى من أجل الصلابة، و الخيال من أجل العزم، و لو كانت الدنيا غير متغيرة لأمكن أن تكون النتيجة أرستقراطية دائمة، لها من المحاسن و المساوى ما كان لأهل اسبرطة."⁽¹⁷⁶⁾

¹⁷⁴ -ول دورانت ، قصة الفلسفة ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ط 6 ، 1988 ، ص ، 593 .

¹⁷⁵ - ول دورانت ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

¹⁷⁶ - رسل ، في التربية ، ص 42 ، 43 .

و لم يتوقف الأمر عند هذين النوعين من التعليم، بل حتى التعليم الذي مارسته الهيئات الدينية الكاثوليكية لم يكن أفضل حالا فهو يهدف إلى خلق الخضوع إلى السلطة وغرس الإيمان بالهراء في اعتقاد رسل، عن طريق التكرار و أثره المغناطيسي في مطلع حياة الإنسان، فإصلاح شأن التعليم في تصوره لا يكون ممكنا إلا إذا تمتع المعلم بالحرية التامة في إبداء ما يعتنقه من آراء دون أن يتعرض إلى الطرد أو التشريد بسببها، ما عدا في حالة إثبات عدم الكفاءة وصلاحيته للعمل، مع ضرورة التأكد من ذلك حتى لا يكون هذا الاتهام ذريعة يقصد منها التخلص من المعلم و آرائه التي لا تتماشى مع النهج العام للسلطة السياسية الحاكمة⁽¹⁷⁷⁾، ففي ثنايا هذا الاقتباس يؤكد لنا هذه المطالب التربوية بالتحديد، " فأما السلطة التي تقوم على الإقناع و التعليم و هداية الناس إلى الحكمة و إدراك إمكانات جديدة للسعادة، هذا النوع من السلطة الذي يمكن أن يكون كله خيرا " .⁽¹⁷⁸⁾

و من هنا يعترض رسل على التعليم الذي توفره الدولة لأنه ينهض على القومية وليس على العالمية، كما أنه يتغافل الفرد بكل طاقاته و إمكانياته كما لو كانت للدولة مصلحة مستقلة عن مصالح الأفراد، فالمسلم به في نظر رسل أن الفرد هو غاية كل وضع اجتماعي، لا وسيلته ، فيدافع عن هذا الطرح بالقول: " و في هذا عندما أصرح أن التلاميذ يجب أن يعتبروا غايات لا وسائل، قد يعترض علي أن كل إنسان هو أهم كوسيلة منه كغاية"⁽¹⁷⁹⁾، و بالتالي يبدو أن ما تقدمه الدولة من أساليب تعليمية لا يكشف عن هذا الاعتقاد مطلقا، فهي تسعى إلى تكوين مواطنين صالحين، لا أفراد صالحين والفرق بينهما واضح، فالمواطن الصالح عادة يفتقد إلى الإنسانية الصالحة.فهو أكثر وفاءا لمقولات النظام السياسي ، بشكل يخلو تماما من التفكير و الوعي و الحرية.

177 - رمسيس عوض ، رسل المفكر السياسي، ص ، 44.

178 - رسل، في سبيل الحرية، ص ، 167.

179 - رسل ، في التربية ، ص ، 44.

لا شك أن هذه المنهجية في التعامل مع حالة التواضع المفرط، تحيلنا إلى استخلاص دور هذا الأسلوب و الطريقة التعليمية المعمول بها اليوم في المجتمعات الغربية، والتي باستطاعتنا استثمارها في مجال التربية و التكوين، و التي تقوم على ترك زمام المبادرة للمتعلم و توجيهه عن بعد و التي تعرف اصطلاحا بالتعلم عن طريق الكفاءات و التي من شأنها أن تجعل المتعلم أكثر ثقة في قدراته و إمكانياته.

بيد أن ما يدعم هذه الطريقة بشكل أفضل هو عامل المنافسة، إلا أننا نعتقد بأن الدعوة إلى أخذ المبادرة تحتاج إلى تععيد معرفي و إلمام بشروط و طرق النشاط المقترح، بحيث يكون الخوف مشروعاً و التردد معقولاً لدى الشخص في ظل افتقاره لمقومات القبول بالاقترح وتفضيله أن يوكل إلى شخص بديل، مخافة أن يخطئ و من ثمة تحمّله لعواقب و نتائج عمله دون أن يكون مدركاً لأسلوب العمل ذاته، و هذا صلب الاعتراض على أسلوب التعميم أيضاً.

و من ناحية أخرى، فإن دراسة التاريخ في منظور رسل بحاجة إلى تغيير شامل، فهو يدرس في الوقت الراهن من وجهة نظر قومية متعصبة و مليئة بالتحيزات و يقترح حلاً جوهره توحيد كتب التاريخ التي تدرس في جميع أنحاء العالم و أن تقوم سلطة دولية بتأليفه، و بذلك تحتفي النظرة القومية الضارة التي تهتم بمصلحة الدولة على حساب بقية العالم، فيؤكد هنا " أن التعليم في التاريخ و الدين و بعض المواضيع المثيرة للجدل هو مضر بشكل مؤكد ...، يُعَلِّمُ [التاريخ] الأولاد بأن دولتهم كانت دائماً على حق تقريباً، منتصرة دائماً، و أنها أنتجت كل الرجال العظام تقريباً و أنها تتفوق في كل النواحي على الدول الأخرى." (180)

و يلح رسل أيضاً على ضرورة اهتمام التعليم في كل بقاع العالم بمبدأين هما الولاء للأسرة قبل الولاء للمحيط القومي و الثاني تشجيع المبادرة و الحرية في الفردية مادامت هذه الحرية لا تجور على حرية الآخرين، و بهذا تتسع أفاق الفرد وطموحات فتعطي لحياته أكثر دلالة و سعادة (181).

180 - رسل ، المصدر السابق ، ص 122.

181 - رسل، التربية و النظم الاجتماعية و السياسية، ت، عبد الكريم أحمد، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1986، ص، 27.

و يعلل رسل السبب الرئيسي الذي مكن من التخلص من الأفكار و السلطات القديمة هو اختراع الطباعة و اتساعها لتشمل أوروبا و التي ساهمت في تداول الأفكار سواء تعلق الأمر بالجانب الديني الذي قوض من سلطة ووصاية الكنيسة حيث صار الكتاب مترجما بلغات محلية عديدة أو عن المعرفة التي عجلت بالعودة إلى العلمانية من خلال نشر النظريات السياسية الجديدة التي هدمت من خلال النقد للنظم القديمة أو حتى الاطلاع على التراث الإنساني القديم و التعمق فيه بالدراسة و النقد، و هذا ما زاد من الرصيد المعرفي و العلمي و التعليمي بوجه عام.

فالتباعة في رأي رسل لم تكن كافية لولا فسحة حرية المنافسة و النقد و إلا كان الفرد مجبرا على القبول بالكذب و الزيف بعد الاطلاع عليه،" فالتداول الواسع للكلمة المطبوعة لا يساعد على تقدم البحث العلمي إلا حيث تتوافر حرية الكلام و النقد، و بغير هذه الحرية يكون الأفضل لنا أن نبقى أميين".⁽¹⁸²⁾ و يبين رسل أن هذا الشرط أصبح مشكلة في أيامنا هذه، إذ أن الطباعة لم تعد هي الوسيط القوي الوحيد للاتصال و الإعلام الجماهيري، لا يمكن الحفاظ على القدر الموجود إلا من خلال اختراع اللاسلكي و التلفزيون، حيث ازدادت أهمية ممارسة هذه اليقظة الدائمة التي ستختفي الحرية بغيابها، حيث يفترض رسل أن كل أشكال التقدم العلمي و المعرفي يعزى إلى انتشار المعلومة على نطاق واسع و الفضل فيه هو جملة التحسينات التي وجدت على مستوى المجالات المعرفية و الصناعية و التي ساهمت في اكتشاف مجالات جغرافية توسعية جديدة.⁽¹⁸³⁾

182 - رسل ، حكمة الغرب ، ج 1 ، ص 18.

183 - رسل ، المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 19 .

و في نفس السياق، يؤكد رسل أن العلم الحديث قد ساهم في الكشف عن العديد من الأخطاء التي تمثل عوائق ابستمولوجية من قبيل ما حدده بيكون و التي سماها بالأصنام أو الأوهام (**Idols**) و هي أوهام القبيلة في إشارة إلى النزوع البشري و سلطة الهوى و تحكّمها في الأفكار، و أوهام الكهف و هي نقاط ضعف على المستوى البشري، و أوهام السوق الناجمة عن إعجاب الذهن بالألفاظ و الانبهار بها ، و أوهام المسرح و تعني الأخطاء التي تترتب عن المذاهب و المدارس الفكرية و خاصة المذهب الأرسطي. و حقيقة الأمر هي أن الكشف العلمي يحتاج إلى تضافر العاملين معا، حاجة اجتماعية و عبقرية ذهنية، و كل ما في الأمر أنه عندما تتوفر الحاجة الاجتماعية لا يكون من الصعب ظهور العبقرية الذهنية .

إجمالاً ، لكل عصر نصيب من العبقرية، و المهم أن يأتي العبقرية في وقته، مثال ذلك الآلات التي اخترعها العالم اليوناني أرخميدس، و لكنه خجل من إظهارها على الملأ و نظر إليها كما لو كانت لعب للتسلية، و لو كان العبقرية يعيش عصرنا الحديث لأدرك على التو أهمية هذا التنظيم الميكانيكي لعناصر الطبيعة في ميدان التطبيق العملي، و لتوصل إلى ضرورة استخدام مبدأ الآلية من أجل توفير جهد الإنسان ووقته، و لكنه كان يعيش في عصر توجد فيه " آلات أدمية "، هم العبيد، فما الداعي إلى التفكير في آلات طبيعية مادية ؟ (184).

ثم إن التوقيت مهم في الاكتشافات العلمية، فابن خلدون يعد مؤسس علم الاجتماع و سماه علم العمران، و الذي قلل من شأنه البعض بإلحاق هذا العلم في أصله إلى الأوروبيين، و لم يكتشفوا أهمية آراء ابن خلدون و تعاليمه إلا بعد مضي قرون عديدة، و ذلك أنه جاء في عصر الانحطاط و الضعف للدولة الإسلامية، فكثير من آرائه ترددت فيما بعد بطريقة تكاد تتشابه حتى في التفاصيل عند علماء الاجتماع الأوروبيون أمثال أوغست كونت و دوركايم و ليفي برويل (185).

184 - فؤاد زكريا ، التفكير العلمي ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد 3 ، الكويت ، 1978 / ص 164 .

185 - فؤاد زكريا ، المرجع نفسه ، ص 164-165 .

و يُعَلِّمنا رسل أن توفر العبقرية الفردية وحدها دون أن تنتهياً الظروف الاجتماعية المواتية، إذ يمكن للتاريخ أن يطويها في زوايا النسيان، و يقال عنها أنها عبقرية ظهرت في غير أوانها⁽¹⁸⁶⁾، فيدعو إلى الاهتمام بالحرية الفردية و التي لها أهمية بالغة، إذ " أن التقدم المعنوي و العلمي قد جاء نتيجة للجهود الفردية، مما يستدعي ضرورة الحفاظ على الحرية الفردية، و لهذا يجب على المجتمع أن يفسح صدره للأفكار الجديدة مهما كانت هذه الأفكار غريبة أو مؤذية للشعور العام، و يصف غياب الحريات في الوقت الراهن، فيقول : "إن الاضطهاد المنظم للأفراد بالصور الراهنة البشعة ظاهرة جديدة في التاريخ الإنساني ، فالاضطهاد الحديث يفوق في بشاعته اضطهاد القرون الوسطى نفسه ، فهو اضطهاد متقن و قائم على أحدث الأساليب العلمية"⁽¹⁸⁷⁾.

و لما كانت الحرية الفكرية شرطا ضروريا في كل حراك فكري فإنها تقتضي في زعم رسل تحقيق أمرين أحدهما أنه لا ينبغي اضطهاد إنسان لأنه يعتنق آراءً لا تتفق مع الحكومة أو إلحاق الأذى به بسبب معتقداته، و ثانيهما أن نظام التعليم لا يجب أن يسخر بطريقة تجعل ضحاياه غير قادرين على التفكير المستقل⁽¹⁸⁸⁾، ولم تكن حرية البحث العلمي مكفولة في عهد جاليليو، الذي يعد من رواد العلم الحديث، و عاش في عصر إحياء العلم و ثار على الفلسفة التقليدية، و كان أول من أسس علم الطبيعة على أساس التجريب، فلعب دور كبير في إنعاش علوم عصره بوصف التجارب الممكنة و استخدام الطريقة العلمية في العصر الحديث⁽¹⁸⁹⁾، أو خلال القرون التي سبقت ظهوره، و كان أخطر ما يجد من حرية البحث العلمي أو الفلسفي هو تزمت و تصلب رجال الدين، و التاريخ زاخر بالمآسي التي ذهب ضحيتها كثير من الفلاسفة و العلماء نتيجة اضطهادهم من طرف رجال الدين.⁽¹⁹⁰⁾

186 - فؤاد زكريا ، المرجع السابق، ص 165.

187 - رمسيس عوض ، رسل مفكر سياسي ، ص 120.

188 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 121.

189 - د. عبد الفتاح مصطفى غنيمية ، فلسفة العلوم الطبيعية (النظريات الذرية و الكوانتم و النسبية) ، مكتبة الإسكندرية ، ص 38.

190 - د. عبد الفتاح مصطفى غنيمية ، المرجع نفسه ، ص 37.

و نفتح قوسا هنا لنشير إلى اعتراف رسل بأهمية جهود علماء الإسلام في التقعيد للمنهج التحريبي من خلال التذكير بأنه " في العصور الوسطى المظلمة كان العرب هم الذين يقومون بمهمة تنفيذ التقاليد العلمية ، أما المسيحيون أمثال روجر بيكون ، فقد اكتسبوا منهم إلى حد بعيد ما اكتسبوه من معرفة علمية حازتها العصور الوسطى اللاحقة، بالرغم من أنه يعيب عليهم اهتمامهم المفرط بالعلوم التجريبية و لم يهتموا بصياغة النظريات العامة⁽¹⁹¹⁾، و مع ذلك نستشف من هذا الموقف التاريخي لرسول مدى حرصه على التحلي بالموضوعية في التعامل مع الحقائق العلمية و ليس مجرد الدعوة إليها من المنابر العلمية.

و بعد ذلك، ينتقل رسل إلى تأييد افتراض في سياق حديثه عن قابلية القوانين العلمية للتعميم، مفاده أنه لا يمكن التنبؤ بالظواهر الطبيعية بشكل مطلق، فتكرار الوقائع التجريبية لا تعني شيئا و لا تضمن شيئا، " فمن أدزانا أن الطبيعة لن تفعل بنا ذلك في الغد، فتشمنا ثمرة فاكهة اعتدنا أنها شهية. و معنى هذا أن موقف رسل هو تكرار لموقف هيوم (Hume) من العلية الذي ينفي وجود علاقة منطقية بين العلة و المعلول. بل هو وصل قائم على العادة و التكرار فقط. ⁽¹⁹²⁾

و يستشهد رسل هنا بمثال مفاده أن الصراع بين جاليليو و محاكم التفتيش لم يكن صراعا بين الفكر الحر و التعصب و بين العلم و الدين، بل كان صراعا بين الاستنباط و الاستقراء، بحيث يعتقد رجال الكنيسة أنهم أقدر على استنباط الحقائق من الكتاب المقدس، بينما يعتقد العلماء أنهم أقدر على استخلاص الحقائق من خلال استقراء الطبيعة، لاسيما إذا كانت مكتوبة بأحرف رياضية، بناءً على مشاهدة الوقائع و التحريب ثم تعميمها⁽¹⁹³⁾، و لعل هذا ما أراد كارل بوبر ابستمولوجي القرن العشرين التأكيد عليه و الذي كان شديد التقدير لرسول، إذ يرى أن نظرية رسل في الأنماط المنطقية تعد إنجازا عظيما، ساهمت في معالجة عدة مفارقات كانت في حاجة إلى تحليل ليكشف عنها، مع أن رسل انتقد فكرة التحليل المنطقي و التعميم لأفكاره في شكل معيار التحقق الذي يتميز به العلم.⁽¹⁹⁴⁾

191 - د . يحيى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد 264، ص 43.

192 - د . يحيى طريف الخولي، المرجع نفسه ، ص 154.

193 - د . يحيى طريف الخولي، المرجع السابق ، ص 160-161.

194 - د . يحيى طريف الخولي، المرجع نفسه ، ص 331.

و بالإضافة إلى ذلك، يتوقع رسل أنه سيكون لعلم سيكولوجيا الجماعات أهمية في الوصول إلى فهم السلوك الفردي في سياقه الاجتماعي و ذلك باستخدام طرق علمية في التوسيع في وسائل الإعلام و الدعاية، كما يهتم هذا العلم أيضا بفن الإقناع الذي شهد تطورا في الأزمنة المتأخرة و ما يمارسه من تأثير في توجهات الفرد و ميوله أملا في إرساء قنوات معينة تساهم هي الأخرى في إرساء ثقافة السلام و سيطرة الحكومة على رعاياها بأمان دون الحاجة إلى تجييش الجيوش و رجال الشرطة و حشد المتطوعين و جمع العدة و العتاد و هذا لا يتسنى حسب رسل إلا مع دور الإقناع. كعينة لما قام به هتلر و إدمونت بيرك الذي يعتبر أحد المفكرين و رجال السياسة الانجليز الذي اشتهر بنظرياته حول السياسة المحافظة و دفاعه عنها. (195)

و من هنا تتجلى أهمية التقنية في الحياة الاجتماعية تمام الوضوح في نظره، و بالإضافة إلى ذلك ، يتمثل دورها في جعل المجتمع أكثر عضوية، أي ازدياد اعتماد أجزائه على بعضها البعض، فعلى سبيل المثال، و في مجال الإنتاج يظهر التأثير من خلال الترابط داخل وحدة الإنتاج الواحدة (**Travail en Groupe**) ، و الثاني في التكامل بين وحدات الإنتاج (**Complémentarité**). (196)

على صعيد آخر، يوجب رسل على الإنسان أن يتحلى بالشجاعة و العزم ليحيا مع أسمى ما فيه مهما اصطدم بالعقبات الداخلية أو الخارجية، "و على هذا فما بقيت في الإنسان إرادة في حياته سئتم خير احتمالاتها ما دام يتمتع بهذه الأشياء الثلاثة: الدوافع الإبداعية الأكثر منها تملكية، و التقدير للآخرين، و احترام الدافع الرئيس في نفسه." (197)، إذ أن رسل مقتنع أن نجاح المجتمعات السياسية و الاقتصادية متوقف على قدراتها في ما تسببه للأفراد من خير و شر، و إن كانت تشجع الإبداع أكثر من التملك، و إن كانت ترفع من روح الاحترام بين الإنسان و أخيه الإنسان و الحفاظ على ذاته. أما الإجابة عن هذه التساؤلات، فيجيب عنها رسل بالقول أن المجتمعات التي نعيش فيها بعيدة جدا عن ما ينبغي أن تكون عليه من هذه المقاييس و المعايير. (198)

195 رسل ، أثر العلم في المجتمع ، ص 55-56 .

196 - رسل، المصدر نفسه ، ص 56-57.

197 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 57

198 - رسل، مثل عليا سياسية.، ص 06-07 .

2- أثر العلم والأخلاق في الحفاظ على القيم الإنسانية:

يعتقد رسل أن من أشد الأوهام ضرراً بالإنسانية أن يدخل في روع الإنسان أنه مبعوث العناية الإلهية أو أن يؤمن بأنه أداة خاصة لتنفيذ الإرادة الإلهية سواء كان هذا في المجال الديني أو السياسي، لأن مثل هذا الإيمان يفضي حتماً إلى الاعتقاد بتفوق جانب من الإنسانية و تميزه عن سائر الأجناس و هو ما يعرف باسم شعب الله المختار تارة، و المصير المحتوم تارة أخرى، و على منطلق المصير المحتوم أن يقف في صفه، لأن الحكمة و الحصافة و بعد النظر يقتضي منا هذا.

إذ تعتقد بعض الاتجاهات الدينية أنها جاءت لتخلص البشر من مظاهر الفقر و الاستغلال تماماً كما اعتقد كرمويل أنه معين من قبل الله كأداة لتحقيق العدالة المتمثلة في القضاء على الكاثوليك و الأشرار، و كما اعتقد هيغل أن الجدلية بمنطقها المحتوم قد وفرت التفوق و الامتياز لألمانيا، و ماركس قال، "لا"، ليس التفوق لألمانيا، بل للبروليتاريا، و بالتالي من أجل تنفيذ هذه الأغراض يبرر القسوة التي لا تعرف للرحمة طريقاً و ما يعقبها من جرائم و انتهاكات لا تمت للإنسانية بصلة.⁽¹⁹⁹⁾

و يرى رسل أن كثيراً من البلاء يكمن وراء اقتناع الإنسان بأنه يؤدي رسالة من لدن الله، و إيمان الإنسان بأنه مبعوث الله، هو إحدى صور اليقين العديدة التي ألحقت الضرر بالجنس البشري، و معظم الشرور الجسمية التي ألحقها الإنسان بالإنسان ناتجة عن يقين الناس التام بصدد أمر لا ينهض عليه دليل في الواقع، و معرفة الحقيقة أصعب مما يظن معظم الناس، و تصرف إنسان بعزم و تصميم لا يعرفان الرحمة اعتقاداً منه أن الحقيقة حكراً عليه، لن يجد في أعقابه غير الويلات و المصائب .

199 - رمسيس عوض ، رسل المفكر السياسي ، ص 73 .

و في معرض حديثه عن الحرية الفردية، يرى أن الاهتمام في الماضي كان قاصرا على حرية الأفراد، كما كان الحال في نهاية القرن الثامن و التاسع عشر، لكن الفرد في العالم الحديث يكاد يكون عديم الأثر والفاعلية خارج التنظيم الذي ينتمي إليه، فهذا الموقف الذي يدعو إلى الاهتمام بحرية التنظيم على حساب الحرية الفردية، يشكل تهديدا صارخا لحرية الفرد التي يؤكد رسل على أهميتها البالغة حيث يصرح أن "الأفضل تمجيد كرامة الإنسان بتحريره ما أمكن من طغيان القوة للإنسانية"⁽²⁰⁰⁾، فيعتقد أن التقدم المعنوي و العلمي قد جاء نتيجة للجهود الفردية، مما يوجب الحفاظ على هذه الحرية الفردية، وبالتالي على المجتمع أن يفسح المجال للأفكار الجديدة مهما كانت غريبة و مؤذية للشعور العام.

و لهذا يقف رسل موقفا معارضا لكافة أشكال القيود التي تحد من الحرية الفردية و يشبه محاصرتها بالاضطهاد فيقول: "إن الاضطهاد المنظم للأفراد بالصورة الراهنة البشعة، ظاهرة جديدة في التاريخ الإنساني، فالاضطهاد الحديث يفوق في بشاعته اضطهاد القرون الوسطى نفسه، فهو اضطهاد متقن و قائم على أحدث الأساليب العلمية"⁽²⁰¹⁾.

و يبدو أن علاقة العلم بالأخلاق في شقها السياسي ليست على ما يرام - حسب رسل - بالرغم من الانجازات التي حققتها النظريات السياسية الحديثة ، إلا أنها لم تحسن استغلال العلم و التقنية وفق ما تتطلع إليه الإنسانية من طموحات و تنتظر تحقيقها في الواقع. و الدليل على هذا، أن رسل تجاوزها في طرحه الخاص المتمثل في إنشاء حكومة عالمية جديدة في رأيه بتحسيد المطلوب " و أن الأغراض الرئيسية للحكومة، كما أرى، يجب أن تكون ثلاثة، الأمن و العدالة و الصيانة، و هذه الأمور هي ذات أهمية قصوى للسعادة البشرية، وهي أمور تستطيع الحكومة العالمية وحدها تحقيقها"⁽²⁰²⁾،

²⁰⁰ - رسل، عبادة الإنسان الحر، ت، محمد قنري عمارة، القاهرة 2005 ط1، ص، 12.

²⁰¹ - رسل، المصدر نفسه ، ص، 12 .

²⁰² - رسل، الفرد و السلطة، ص ، 109.

و نلمس حقيقة تاريخية مؤكدة توحى بأن موقف رسل كان أميل إلى الغرب منه إلى الشرق، والفارق لديه هو رصيد الحرية التي تكفلها الأنظمة الليبرالية فيقول: "أنا لا أحب أن يفضي حب الانسجام والتوازن إلى ظهوري بمظهر الحياد من روسيا والغرب، ففي الغرب قدر يفوق ما في روسيا من كل شيء، أعتقد أنه ذو فائدة، فهناك قبل كل شيء حرية أوفر".⁽²⁰³⁾، بالرغم كما نعلم أن هذه الأنظمة هي الأخرى لا تخلو من مساوئ و تناقضات .

و كم هو نبيل و جميل جدا - في اعتقاده- أن تتداخل جهود العلماء و ما يقدمونه من وسائل و تكنولوجيات بمعية ما يؤمنون به من قيم إنسانية و مراعاتها فعليا، أما حقيقة الأمر بالنسبة للشعوب التي أحرزت تقدماً مشهوداً و التي يقترض أن تكون راعية و قدوة في هذا، هي أنها متأخرة في مقاضاة ضمائرنا بعد تجاوزت حدود الأمر و النهي و الخير و الشر في صلتها بالآخرين و مع مواطنيها الأصليين، فلم تعد تكثر بما تسببه من معاناة للآخرين في ظل سيطرة الآلية و النمطية و فرضها لمنطق المنفعة و تبريرها بكل الوسائل، فأصبح الإنسان سلعة تباع و تشتري و تبتز و تستغل و تنتهك حقوقه الطبيعية و القانونية و يفاوض في كرامته الإنسانية و بالتالي لم يعد حديث الغرب عن الإنسان حديث ذو معنى و يفتقد إلى الدقة و التحديد، فأأي إنسان يقصدون؟ و من هم المعنيون بالإنسانية عن سواهم؟

لقد عاين رسل خلال الفترة التي قضاها في روسيا الشيوعية ما آلت إليه الصناعة من تراجع و تدهور، الذي أصبح يهدد المشروع الشيوعي بالانهيار و الزوال، خاصة بعد تعطل المصانع عن العمل، و أصيبت حركة المواصلات بالشلل التام. أما السبب فيعزى إلى اعتماد روسيا في تصنيعها على الآلات الواردة من خارج روسيا، وعلى المتابعة التقنية من قبل الأجانب. ولما نشبت الثورة، أعلنت الدول الرأسمالية الغربية الحرب على روسيا و حاولت غزوها للإطاحة بالنظام البلشفي وفرضت عليها حصارا يهدف إلى حرمانها من السلع والبضائع، التي ينتجها الغرب أملا في إعادتها إلى بيت الطاعة.

²⁰³ - رمسيس عوض، رسل المفكر السياسي، ص 124.

و لقد نادى رسل برفع الحصار عن روسيا لوضع حد للمأساة الإنسانية الأليمة دون جدوى، بعد ما أصبحت الحياة اليومية بالنسبة لغالبية السكان في موسكو وغيرها باستثناء حياة القلة الحاكمة، مملة و سقيمة و خالية من سائر عناصر المتعة و التسلية. و يُجمع إلى ذلك المضايقات اليومية لأجهزة الأمن و التحري، مما عكر صفو الشعور بالسعادة و الرفاهية ، اللتين طال انتظارهما من قبل الجماهير.

لقد هاجم رسل النزعة الاستعمارية بعدما أيدها في البداية متأثراً بسيدني واب (Sideny Webb)، ثم تحول نظره إلى الاتحاد السوفيتي الذي أعجب به و بقادته لِمَا قاموا به من ثورة تهدف إلى تحقيق العدالة، فغير رأيه فيها بعد زيارات للإتحاد السوفيتي، فاكتشف أن دافع الثورة هو الحقد و الغل و الانتقام، فكان موضع عدا من طرف اليمين و اليسار، و انتقل أيضا إلى الصين التي أعجب بها و بتراثها و أساسها العقلي و إدراك أن للإنسان أبعاد مختلفة و لا يمكن حصرها فقط في الحاضر، و كلها تشكل تراثا إنسانيا⁽²⁰⁴⁾ ،

و في سياق سؤال فلسفي أخلاقي مشروع يتعلق بالذي يستطيع العلماء أن يفعلوه و ما الذي يعجزون عن القيام به ؟ يلاحظ عموما تداول تصورين مختلفين، البعض يعتقد بأن العلم هو الذي يستطيع أن يحل كافة المشكلات التي خلفها تقدمه السريع ، و البعض الآخر ينادي بضرورة الاستعانة بمصادر أخرى غير العلم لكي نعيد ذلك التوازن الذي أدخل به العلم، فالمقصود بالحلول العلمية هي الحلول التي تهتم بالعلم الإنساني، أي الاهتمام بقضايا الإنسان لا الاهتمام فقط بالعلم الطبيعي ، أي ضرورة تسخير العلم لخدمة أغراض إنسانية بحتة ، كمعالجة الأمراض المستعصية و الآفات الاجتماعية و قضايا الاقتصاد لمحاربة المجاعة و التحلف و الأمية ، فهي تتصل بالعلوم الإنسانية و الاجتماعية.⁽²⁰⁵⁾

أما الرأي الثاني، فيعتقد أن مهام التقليل من آثار العلم الطبيعي ليست فقط مسؤولية العلماء فحسب ، بل هي مهمة العلماء و المفكرين و الأدباء و الفنانين و الفلاسفة و الأخلاقيين و كل من يهمله مصير الإنسانية و يفكر في هذا المصير بنزاهة و تجرد | .

204 - رمسيس عوض ، برتراند رسل الإنسان ، ص 16-17.

205 - فؤاد زكريا ، التفكير العلمي ، ص 206.

أما مهمة العلم لدى رسل فتكمن في تحقيق السيادة و الاكتفاء الذاتي و يساهم في زيادة الإنتاج و التحرر أكثر من التبعية الخارجية، فالعلم حسب رسل قوة، و أيقن هذه الحقيقة بعد زيارته لروسيا في مايو 1920، بعد الإطاحة بالنظام القيصري الروسي، حيث فرضت الدول الرأسمالية حصاراً على روسيا الشيوعية، حيث شلت كل المصانع و وسائل المواصلات و مصادر الطاقة و الزراعة لكون روسيا تعيش تبعية تكنولوجية التي كانت تستوردها من الخارج .

كما فرضت على روسيا الشيوعية حصاراً يهدف إلى حرمانها من السلع و البضائع التي ينتجها الغرب ، مما أدى إلى نشوب أعمال عنف و تخريب تهدف إلى زعزعة الحكم الشيوعي⁽²⁰⁶⁾، برغم من أن رسل يرفض النظام السياسي الاشتراكي و الليبرالي على حد سواء و يدعو إلى نظام ديمقراطي برلماني يحقق طموحات الأفراد الاجتماعية و السياسية، على اعتبار أن النظام الديمقراطي البرلماني يسمح باسترداد كرامة الإنسان و مكانته⁽²⁰⁷⁾ | .

و واقع الحال أن رسل يكن لليبرالية كل العطف و التقدير لأنها ترفض التزمت و التعصب، و تنبذ ضيق الأفق و التعصب الذميم، كما أنها لا تقطع بشيء دون أن تدخل في حسابها الخطأ و الصواب خلافاً للماركسية التي تشجع على التعصب الفكري و الإيمان بالمسلمات التي لا تقبل الجدل و النقاش.⁽²⁰⁸⁾، و بدواعي إنسانية ، نادى رسل أيضاً بأن يرفع الغرب الحصار عن روسيا و بإيقاف الحرب معها حتى يضع حداً للمأساة الإنسانية الأليمة و مع ذلك لم يحرك الغرب ساكناً لتخفيف أوجاع روسيا الجريحة، بل عمل بكل طاقاته لينكأ جراحها و هو ينظر إليها نظرة ملؤها الشماتة و البغضاء.⁽²⁰⁹⁾

206 - رمسيس عوض ، رسل مفكر سياسي ، ص 47-48.

207 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 60.

208 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 74.

209 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 49.

و نختتم هذا المبحث بالقول أن رسل يشترط التوعية و الذكاء باعتبارهما الضمان الوحيد لحماية الشعب من التضليل و وقايته من الأحاييل في سياق حديث عن الحرية في التعليم و كيفية الانتقال إلى الاشتراكية بدون ثورة عالمية و وقف ما دعا إليه من ثورة عمالية للإطاحة برموز النظام الليبرالي. فالعلم في منظوره يعد العنف و التخريب.

المبحث الثالث : أهمية العلم و الأخلاق في الممارسة السياسية و الاقتصادية.

1- أثر العلم و الأخلاق في السياسة :

في البداية، يؤكد رسل أن هدف الخير يمكن أن يكون موضوعاً للدراسة العلمية، فهدف الأخلاق هو تحصيل أكبر قدر من اللذات و تجنب الشرور، بالرغم من عدة اعتراضات دينية، إذ وصف فلسفة بنتام مثلاً بفلسفة خنزير لتركيزها على الجانب الغريزي و الشهواني بالدرجة الأولى، و يعتبر رسل أن هذه المسألة تعد على العموم مسألة أخلاقية لكونها تهتم بقضايا تخرج عن نطاق العلم، و مع ذلك فرسل يؤكد على إمكانية علمنة الظواهر الأخلاقية، و يبقى العائق الاستمولوجي الوحيد في رأيه متمثلاً في الذاتية، بمعنى الاختلاف في الرغبات.

من جهة ثانية، يزعم رسل وجود علاقة وطيدة بين علم الأخلاق و السياسة، إذ أن علم الأخلاق يحاول جعل الرغبات الجماعية تؤثر في الأفراد و العكس صحيح ، إذا ما كانت رغبة الفرد لا تتعارض مع مصلحة الجماعة، و هكذا تبدو أهمية الأخلاق في تحقيق السعادة لكافة الأفراد من خلال الانسجام و التوافق في الرغبات، و هنا يقر رسل بصعوبة تحقق ذلك بحكم عدم التجانس في رغبات الأفراد خاصة في ظل الأنانية و حب التملك، فينهض رسل ببيان دور الجانب الأخلاقي في مجرى الحياة السياسية و التي تتجلى من خلال حرص المشرع على تعميم الفضيلة و استخدام الوعظ لإثارة عواطف الناس من أجل التفكير في الصالح العام.⁽²¹⁰⁾

و يتحدث رسل حول إمكانية دراسة الظواهر الأخلاقية، فيجزم بإمكانية تقنينها بحكم أن القيم الأخلاقية ذاتية لا نستطيع تعميمها أو إخضاعها للمعينة التجريبية فهي تمثل بالدرجة الأولى أحكام قيمة، و أن العلم ليس يمكنه إلا تبيان أساس الرغبات التي تبنى عليها الأحكام الأخلاقية و لا يمكن الوصول إلى الاتفاق في هذه الأحكام إلا بشكل حدسي و هو ما لا يستطيع تفسيره المنهج العلمي.

²¹⁰ - رسل ، العلم و الدين ، ص 231-232-234-235 .

و زيادة على هذا، أن القيم الأخلاقية تتطور بتطورنا و ليس هناك غاية أو أصل ميتافيزيقي لها، فهي تتطور مع بقية الأشياء و أن القيم الأخلاقية حسب رسل كلها ذاتية و من ثمة فاقدة للموضوعية. و من المهم الإشارة في رأي رسل أن الأخلاق الخيرية قابلة للإرساء عن طريق التربية و القدوة و المعرفة و لا يكفي خلقها بمسلك الإيمان على أساس أنها رغبات طيبة، أما مهمة تعميمها فتوكل إلى المؤسسات الحكيمة التي تُفعل الانسجام بين الأفراد و إيجاد رغبات عامة و جماعية. إذ " أن الذي يعجز العلم على اكتشافه لا يستطيع البشر معرفته." (211)

و يؤكد دون لبس أن تحقيق السعادة باستخدام العلم و التقنية أمر نسبي حتى و إن تم تغيير النظم و المؤسسات الاجتماعية الراهنة، و مع ذلك يؤكد أن هناك شران قديمان يمكن للعلم إذا استغل بدون حكمة أن يضاعفهما و يفاقمهما و هما حسب رسل الاستبداد و الحرب إذ يقول: " هناك شران قديمان يمكن للعلم إذا استخدم من دون حكمة أن يفاقمهما، هما الاستبداد و الحرب." (212)

لقد اتسم القرن التاسع عشر بالإيمان المطلق بالعلم الذي لا يتزعزع و إمكانيات التقدم الضخمة، فقد كان هذا العصر شديد التفاؤل و يؤمن بالتقدم المنظم في العالم بأسره و ما يفترض أن يصاحبه من سلام و استقرار و هو ما كان يأمله و يتفاءل به رسل أيضا، و لكن يبقى مجرد تفاؤل حيث تبين أن العالم على فوهة بركان بعد أن عاش حربين كونيتين و ما أحصاه من خسائر بشرية و مادية فاقت كل تصور، و التي دفعت برسل إلى القول بأن العالم ليس بحاجة إلى معرفة تكنولوجية بقدر حاجته في الوقت الحاضر إلى مزيد من الحكمة و الإنصات إلى صوت العقل و الإيمان بضرورة و أهمية الإخاء و التسامح. (213)

و يفترض أن تجنب فضائع استخدام التقنية و تهديداتها يكمن في إرساء الديمقراطية و احترام حقوق الإنسان فعليا و ليس كشعار فقط، أي ليس مجرد نظرية مثالية، فهي كما قال بنتام أن حقوق الإنسان سخف، إنها أمور لا يدركها الحس، و هي أشبه بهراء يسير على عكاز، بمعنى أنه يجب أن تكون حقوق

211 رسل ، المصدر السابق ، ص 238-239-240-241-242-243.

212 - رسل ، أثر العلم في المجتمع ، ص 120 .

213 - رمسيس عوض ، برتراند رسل الإنسان ، ص 20.

الإنسان خاضعة للاعتبارات العليا و للمنفعة العامة، فحين تدعي حكومة أنها تمتلك مصلحة تختلف عن مصالح الأفراد، هي في الحقيقة تدافع عن مصالح الحكومة و الطبقة الحاكمة فحسب، و أن مصالح الطبقات الحاكمة في النهاية هي أكثر أهمية من مصالح الأفراد الآخرين و عليه فإن وجهة نظر كهذه لا تملك أي مبرر أو أساس حسب رسل إلا دليل على وجود القوة الاستبدادية النافذة داخل هياكل الدولة و المجتمع.⁽²¹⁴⁾ و على ضوء الاعتبارات السابقة ، يؤسس رسل رأياً فحواه أن التقنية العلمية باستخداماتها الحالية، ستساعد حتما على استمرارية الأنظمة الشمولية طالما تتحكم في توزيع الغذاء سلطة مطلقة و تعتمد على الولاء و الشرطة و الجيش و إمكانية إعطاء هؤلاء جزء من المميزات التي تتمتع بها الطبقة الحاكمة، و" أما تطور التقنية العلمية بجميع نواحيها، فقد جعل إدامة الحكم الاستبدادي لأقلية خلافا لما كان عليه الأمر سابقا، فعندما تتحكم الحكومة في توزيع الغذاء تكون سلطتها مطلقة طالما اعتمدت على ولاء الشرطة و الجيش. و يمكن تأمين ولاء هؤلاء بإعطائهم جزءاً من الامتيازات التي تتمتع بها الطبقة الحاكمة." ⁽²¹⁵⁾ ، بمعنى أن التقنية مكنت سبل الاستمرارية للاستبداد و السيطرة من خلال الولاء و شراء الذمم و التحفيز للتقرب من مراكز القرار للحصول على المزيد من المكاسب و الامتيازات .

و بالتأكيد، يصح الادعاء في نظر رسل أيضاً أن التقنية العلمية أكثر عطاءً إذا كانت بيد حكومة ديمقراطية، و أدنى من ذلك إن كانت أداة في يد الاستبداد، أي أن استثمار التقنية بشكل نافع يتوقف على طبيعة النظام السياسي السائد، فإذا كان نظاما ديمقراطيا يقوم على الحرية و العدالة فإن نتائج التقنية لا محالة ستكون ذات نفع للجميع ، أما إن كان النظام السياسي قائما على الاستغلال و الاستبداد و الهيمنة، فمن

²¹⁴ رسل ، أثر العلم في المجتمع ، ص 81-82-83 .

²¹⁵ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 84 .

الطبيعي أن تكون للتقنية حين توظيفها نتائج عكسية، فيبين رسل لنا هذه القناعة لديه، " بأنه طالما كانت الديمقراطيات القوية موجودة، فإن الديمقراطيات ستنتصر في النهاية، وسمح لنفسي بقدر من التفاؤل في هذا المجال، قدر تعلق الأمر بالمستقبل، فالديكتاتوريات العلمية ستذوب من خلال عدم كونها علمية بما فيها الكفاية." (216)

و ما يلاحظ أن الديمقراطية من منظور رسل، مفهوم غامض فشرقاً تعني ديكتاتورية عسكرية للأقلية تفرض بواسطة الشرطة الاعتباطية، أما غرباً فتعني التوزيع المتساوي للسلطة العليا بين كافة البالغين فيما عدا المجانين و المجرمين و الأمراء، و من هنا يكشف لنا رسل أن قضية الديمقراطية قضية نسبية لأنها قائمة عدلاً أغلبية حتى و إن كانت تتضمن الاضطهاد و تحارب الحرية في إشارة إلى الاضطهاد الديني، و بفضل ربطها بفرص المبادرة عوض ربطها بالحرية و اعتقاد البعض أنها ستقضي على بعض الشرور، و لكن من قاموا بالإصلاح أكدوا على نسبتها خاصة في سياق الثورة الفرنسية و إعدام لويس السادس و مطاردة القساوسة و مع ذلك فشلوا في التمتع بالنعم السماوية، فقررروا أنه لا ضرر مع الأباطرة و الملوك .

و من جهة أخرى، يعتقد رسل أن هناك ثلاث فلسفات سياسية، أولها تنظر إلى الإنسان كرجل عادي أو كبطل أو كجزء من الماكينة، النظرة الأولى تعبر عن الديمقراطية بمفهومها الكلاسيكي و الثانية تعني الفاشية و الثالثة الشيوعية، و على هذا الأساس يؤكد رسل أن القوة تتجلى في الديمقراطية التي يجب أن تستعيد قوتها الملهم للعمل بعزم و يجب عليها أن تنظر إلى ما هو صحيح من الطريقتين الأخيرتين لاعتبار الفرد و خدمة مصالحه هو مبرر وجود الدولة و النظام السياسي ككل.

و هنا أيضاً يذكر رسل أن النظرية الفلسفية السياسية السليمة هي التي تجعل الفرد رجلاً عادياً حين الإدلاء و القيام بواجبه السياسي، و رجلاً بطولياً في حياته اليومية و باعتباره جزء من الماكينة إذا كان داخل مجموعة منظمة إنتاجية مثل، في إطار ما يعرف بالعمل الجماعي، و في هذا - في فلسفة رسل - خطورة على اعتيادية الإنسان لاسيما إذا كان من آثارها السلبية للتقنية العلمية التي قضت بالتدرج على المبادرة الفردية.

216 - رسل ، المصدر السابق ، ص 85 .

فمن معالم فلسفة رسل الاعتدال، إذ أن الوسط المعتدل بين الأنظمة السياسية المتداولة يكمن في التوازن بين اعتيادية الرجل و بطولته و عضويته، بحيث يكون رجلاً عادياً في أمان و بطولياً في ظل الفرصة للمبادرة و كجزء من ماكينه ذات فائدة، و لا تستطيع أمة - في نظره - أن تنال التفوق بأي من هذه الصفات منفردة، و يقدم لنا مثلاً من تاريخ الأمم، فبولونيا كان فيها الجميع أبطالا و الغرب الأمريكي كانوا مواطنين عاديين فهي موطن الرجل العادي، أما روسيا، فكان الكل أجزاء من الماكينة ماعدا أعضاء المكتب السياسي و كلها حالات لا تبدو مقنعة في رأي رسل .⁽²¹⁷⁾

و في نفس الاهتمام، يدلل رسل أن نظرية الجزء من الماكينة ذات آثار سلبية تدمر الناحية الإنسانية، إذ تركز الآلية و عبادة الماكينة باعتبارها غاية في حد ذاتها و ليست وسيلة لإنتاج حاجة ما و بذلك يصبح البشر عبيدا للآلة، و " إن هذا غير ممكن ، فتعاملنا مع الماكينة كتعامل الوثنيين مع أصنامهم أمر منكر و شنيع، وحبها إلى درجة العبادة هو شيطان هذا العصر، أما تقديسها فهو حقا أمر جهنمي " ⁽²¹⁸⁾

و يجب الإشارة هنا أن رسل لا يمانع استخدام الماكينة و لكن يرفض أن تؤله الماكينة، أي أن تأخذ الماكينة موقع الآلة، إذ يستدرك قائلاً : " عندما تأخذ الماكينة موقع الإله، فأنا احتج على ذلك. إن أي شيء يمكن أن يكون آلياً إلا (القيم)، و هذا شيء لا يجب أن ينساه أي باحث في فلسفة سياسية." ⁽²¹⁹⁾، أما كيفية تجنب كون الفرد جزء من الماكينة فتكمن في ضرورة الحفاظ على عنصر المبادرة لدى الفرد بالرغم من وجود المؤسسات. مع ضرورة أن تكون المبادرات عبارة عن نصائح حول ما يجب على المؤسسات فعله، و ضرورة أن تدار هذه المؤسسات ذاتها بطريقة ديمقراطية و تطبيق المبدأ الفيدرالي.

و يشترط في نفس الاهتمام أن أي مجتمع لا يمكن أن يكون مزدهراً بدون وجود أفراد مبدعين، و ما تعلق بالأمر الفكرية أن أكثر ما يحتاج إليه هؤلاء المبدعون هو إيجاد الفرص و رفع القيود و العراقيل من أمامهم، إلا أن رسل يشير على هامش ذلك أن التقنية الحديثة تجعل التمرد و حب المغامرة أكثر صعوبة ما لم يقبل الفرد التوجهات السياسية للسلطة و إلا لم يكن ليعمل في المجال العلمي و ما سيحتاج إليه من دعم لتغطية كلفة الأجهزة العلمية الباهضة الثمن ووسائل البحث العلمي من أدوات و تجهيزات مخبرية .⁽²²⁰⁾

²¹⁷ رسل ، المصدر السابق ، ص 89-90 .

²¹⁸ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 90 .

²¹⁹ رسل ، المصدر نفسه ، ص 91-92 .

²²⁰ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 92-97 .

و في السياق ذاته ، يشترط رسل وجوب إصرار الحكومات على ضرورة تعميم التحلي بصفات و خصائص المجتمع العلمي في الفيزياء النووية، و أن تتصرف بإعطاء العالم فرصة متناسبة مع قابليته و ليس مع استقامة رأيه علمياً، أي السعي لمعرفة النوايا السلمية و مدى إخلاصها في الإعلان عن نتائج الأبحاث العلمية و إخلاص الباحثين مع حكوماتهم السياسية.

إن المجتمع الصالح لدى رسل هو الذي يكون فيه الرجل نافعا و أن يكون أمنا على حياته، و يُمنَح الفرصة للمبادرة في كافة المجالات التي تسبب ضررا للغير، " ففي المجتمع الصالح يجب على الشخص أن يكون نافعا و أن يكون أمنا على نفسه من المصائب التي لا يستحقها و يمتلك الفرصة للمبادرة في كافة الاتجاهات التي لا تؤذي الغير . " (221)

و الفرد النافع وفق ما يقرره رسل دائما هو الذي يهتم بالحفاظ و تحقيق الصالح العام، أما الأمان فهو هدف رئيس لكل التشريعات الاجتماعية فالبطالة و المرض و الشيخوخة لا تستحق العقاب، إن المجتمع يملك الحق في فرض العمل على أولئك القادرين عليه، لكن واجب المجتمع أيضا دعم عامة الراغبين في العمل مستطيعين له كانوا أولا، أما الأمان فيقتضي ألا يعتقل الفرد أو يسجن اعتباطيا، و لا ينبغي مصادرة ممتلكاته بدون مبررات قانونية و تشريعية، فيما يخص فرص الإبداع فهي صعبة في ظل التصور الاشتراكي الطوباوي (**Utopie**) نظرا لغياب الظروف المساعدة على الإبداع و الابتكار، فلا يكون ذلك ممكنا إلا في ظل نظام المدينة الفاضلة الذي ساقه أفلاطون و الفارابي و توما الإكويني و توماس مور، فقل أن الإبداع يستدعي الأمان و مدن المعسكر الشرقي فيها الاستبداد السياسي كتقليد للممارسات النظام اللينيني الاشتراكي. (222)

221 - رسل ، المصدر السابق ، ص 97.

222 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 98-100-101 .

و في الشأن السياسي و تقلباته بشكل أعمق ، يرى رسل أن العلاقة بين العلم و الحرب تطورت تدريجياً و صارت أكثر حميمية و صميمية و بدا ذلك تاريخياً في نظره مع أرخميدس الذي قدم وسائل حربية لابن عمه سراكوزا (Syracuse) في الدفاع عن مدينته ضد الرومان سنة 212 ق.م، فلقد ساهمت العلوم في لعب دور حاسم في الحرب سواء في العصور القديمة أو الحديثة و صنعت هذه الوسائل العديد من الأساطير و الأبطال عبر التاريخ حتى و إن كان بعض من العلماء استهجن استخدام هذه الوسائل مثال ذلك استهجان فراداي (Faraday) لاستخدام الغازات السامة خلال حرب القرم (Cremean war) لأسباب إنسانية.

و على هذا الأساس، أبدى رسل مخاوفه من تطور آلات الدمار خاصة الأسلحة النووية و يكتشف على أن قدرة هذه الأسلحة تفوق قدرة الأسلحة التقليدية قتلاً و تدميراً، إذ " رغم زيادة قوة قتل الأسلحة، فإن الحروب الحديثة لغاية يومنا هذا ليست أكثر إهلاكا للأرواح مما كانت عليه في الأزمان الأقل علمية، و ذلك للتحسينات التي طرأت على الطب و الصحة العامة." (223)، لكن يستدرك بالقول أن العلم في المستقبل سيكون أكثر دماراً من الآن و يتضح ذلك من هذه المقتطف: " الذي أقوله إن العلم في يومنا هذا لم يجعل الحرب أكثر تدميراً، و هو أمر لا يعيه غالبية الناس." غير أن الأمة الحديثة تبدو أكثر تنظيماً و انضباطاً و تركيزاً لضمان الانتصار في الحرب مما كان ممكناً في الأزمنة ما قبل المرحلة الصناعية و بالتالي فالنتائج تكون أكثر وقعاً على معنويات الشعب و أكثر دماراً مما كانت عليه حروب نابليون. (224)

و يصبح موقف رسل أكثر وضوحاً عندما يقف على ما نلمسه من تطور في تكنولوجيا الحرب، فيؤكد أن الخطر الداهم يكمن في ما ستسببه القنبلة الهيدروجينية و تأثير العلم في حياة الإنسان من خلال ما يسمه أينشتاين (Einstein) من مخاطر إبادة لكل أنواع الحياة على هذا الكوكب، فيضعنا رسل أمام خيارين لتفادي هذا الوضع ، إما أن نسمح للبشر بإبادة أنفسهم أو التنازل عن بعض الحريات العزيزة علينا، كحرية قتل الأجانب على وجه التحديد.

²²³ رسل ، المصدر السابق ، ص 107-108 .

²²⁴ رسل، المصدر نفسه ، ص 109 .

و بالتفصيل، يقدم لنا رسل حلولا أكثر غضاضة و أكثر جرأة، فيشرع بوضع احتمال المواجهة و الحرب كخيار مفضل بدعوى أن ذلك لن يؤدي إلى إبادة كونية لدرجة أنه يفصح عن ذلك بالقول: "ربما كنا نعيش في آخر عهود الإنسان، و إن كان ذلك صحيحا فإننا سنكون مدينين للعلم في إبادة الإنسان، أما غير ذلك، فيلزم على الجنس البشري أن يقوم بتغييرات في طرق تفكيره و سلوكه كمقولة " كلا، الموت و لا العار".⁽²²⁵⁾

و هكذا يبدو جليا أن السلام العالمي في نظر رسل يستدعي تعلم الخضوع للقانون حتى و إن كان مفروضاً من قبل سلطة نكن لها الكراهية و الاحتقار. و هذا ينطبق في فرض سلطة حكومية دولية دون أن تساند ظلماً طرفاً على حساب طرف آخر، و من جهة ثانية يوصي رسل أن على الأمم ضبط عواطفها و أن تخضع لسلطة القانون لاسيما في ظل تطور العلم و التقنية التي تتيح للبعض بفرض وجهة نظره بالقوة، و على الأفراد أن يخضعوا هم الآخرون للقانون حتى مع اعتقادهم أنه غير عادل و ظالم، كما يجب على الأمم التي أقتنعت بمطالب العدالة أن تتقبل رفض مطالبها حين يكون الرفض صادراً عن سلطة محايدة.

و بالتالي يدعونا رسل إلى التعقل و الحكمة و هو قرار ذو أهمية تجنباً للدمار و الموت فيقول: " إن ما أعنيه بالتعقل هو موافقتنا على القانون كما تفصح عنه سلطة دولية، أخشى أن الجنس البشري سيختار الموت. أأمل أن أكون على خطأ." ⁽²²⁶⁾

و يدعو رسل إلى ضرورة استحداث وسائل لإخضاع علاقات الأمم لسيادة القانون دون إعطاء أمة لوحدها القدرة على الحكم على قضية تخصها كما هو الشأن اليوم، و إذا لم نسارع إلى ذلك، فإن العالم سيعود إلى البربرية و هو ما يؤدي إلى اختفاء التقنية العلمية، كما سيختفي العلم، فباستطاعة البشر أن يختاروا البقاء و الرخاء بدل الشقاء و الهلاك، و إذا كان الأمر على هذا النحو، فيجب إذن تقييد حرية الدول بصورة فعالة، " لذا يجب استنباط الوسائل لإخضاع علاقات الأمم لسيادة القانون، بحيث لا تتمكن

²²⁵ رسل، المصدر السابق، ص 110.

²²⁶ رسل، المصدر نفسه، ص 110-111.

أمة لوحدها من الحكم على قضية تخصها كما هو الحال اليوم، و إذا لم ينجز هذا، فإن العالم سيعود إلى البربرية و بسرعة، و في مثل هذا الحال ستختفي التقنية العلمية ، كما سيختفي العلم . "، بمعنى أن" في استطاعة البشر أن يختاروا البقاء و الازدهار بدال الشقاء و الهلاك، و إذا كان الأمر كذلك فيجب تقييد حرية الدول بصورة فعالة ."⁽²²⁷⁾.

و يشير رسل أيضا أن الاستبداد في الداخل نظير للنزاع في الخارج، أي أن الدول و الحكومات التي تمارس الاستبداد داخليا ستكون مولعة بالحروب في الخارج، و سبب ذلك أن حكام هذه الحكومات تسعى إلى التحكم في رقاب رعاياها بأعلى درجة و شدة، و هو ما يجب على المجتمع العلمي معالجته ، أي ضرورة إيجاد حلول للحفاظ على الحرية داخليا والإقلال منها خارجياً، و هي مشكلة يجب على العالم إيجاد الحل لها و بسرعة إذا أريد للمجتمع المبني على العلم أن يعيش ."⁽²²⁸⁾

و يرى أن التنظيمات الاجتماعية تحاصر حرية الفرد في النقد و تتهمه بالخيانة و العمالة عن تجرؤ على ذلك ، أي أن هدفها قتالي، و يمنع كل نقد يطال موظفيها أو أعضائها، و بذلك فهم يكرسون عقلية الحرب ، أما الحل الذي اقترحه، فيتمثل في ضرورة حل أكبر عدد من النزاعات بالطرق القانونية بدل المجاهدة بالقوة، إذ أن " الطريقة الوحيدة للهروب من هذا الواقع هو حل أكبر عدد ممكن من النزاعات بالطرق القانونية بدل مجابقتها بالقوة."⁽²²⁹⁾، و عليه فالاستقرار و محاربة الفوضى حسب رسل يقتضي العمل بأسلوب مفاده أنه إن كانت الحرية ضارة، يجب أن يلجأ إلى القانون و ليس مجرد الاعتماد على القوة لفض النزاعات كما كان الحال في القرون الماضية.⁽²³⁰⁾

227 - رسل ، المصدر السابق ، ص 66 .

228 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 67 .

229 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 68 .

230 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 70 .

و يقرر رسل بشأن الاوليغارشية التي تمثل نظام تؤول فيه السلطة إلى جزء من المجتمع فقط، أي إلى الأغنياء سوى الفقراء أو البروتستانت باستثناء الكاثوليك أو الارستقراطيين ماعدا العامة، أو الجنس الأبيض دون الأجناس الملونة أو الذكور دون الإناث أو أعضاء حزب دون بقية الأحزاب الأخرى، فإنه تعتمد على التقنية العلمية في تشكيل و بلورة هذه الأشكال من التفاوت و التمييز، فهي تزيد من أهمية المنظمات و المؤسسات الاجتماعية.

و ما يترتب عنها في زعمه، هو اتساع دائرة الصدام بين السلطة و المواطن خاصة مع وجود نزعة الاندماج و التكتل لهذه التنظيمات لتصبح فيما بعد حكما شموليا (**Totalitarian Rule**)، أي أن كافة الأشكال المهمة للقوة و السلطة تصبح محتكرة من قبل الدولة ، و هنا يرى أن لهذا النظام العديد من السلبيات، فيوضح هذا الاختلاف بأن " هذا النظام المرصوص المتماسك له من المزايا ما يجعله جذابا للعديد من الناس، لكن مساوئه حسب اعتقادي تفوق مزاياه بكثير. " (231)

و في تصور رسل، أن كافة الاوليغاركيات خلال العصور الماضية كرسست اهتمامها بتحقيق منفعتها دون الاهتمام بمنفعة المجتمع بحكم أن الطبيعة البشرية تميل إلى الأنانية (**Egoistic**) و تسعى لحفظ البقاء و هذا ما يبرر القيام بالثورات ضد هذه الاوليغاركيات ذاتها. (232).

و من الآن تبدو الصلة واضحة بين هذا النموذج من الأنظمة السياسية و التقنية العلمية و ما يفترض أن تقدمه لها من أدوات و وسائل لتحقيق أهدافها السياسية، فهي تساعد بالضبط على غرس قواعد الحكم الاوليغاركى و التمسك أكثر بالسلطة و قمع المعارضة و التطرف لصالح الانفراد بالسلطة و تشديد الحصار ضد حرية الصحافة و حرية النقاش و حرية طبع الكتب ، تماما مثل ما حدث في العصر الكنيسي و محاكم التفتيش و مصادرة كل صوت يعارض توجه الكنيسة و الاكليروس بصفة عامة ، فتفرض نموذج مدرسي معين يقع تحت رقابتها و سيطرتها و تحتكر كل وسائل الإعلام و الاتصال، بل و يمكنها حتى معاينة كل من يعارض نهجها باستعمال أساليب التجسس العلمية و الأمنية .

231 - رسل ، المصدر السابق ، ص 71-72 .

232 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 72-73 .

و هو هذا ما شهدته العالم أيضا - حسب رسل - تاريخ النازية الهتلرية و أباطرة الرومان المستبدون أمثال كاليغولا و نيرون⁽²³³⁾، فكان من الطبيعي أن تنتهي هذه الممارسات الاستبدادية بجرائم حرب لا إنسانية على شاكلة أوسشفيتز (Auschwitz) و داشاو (Dachau)، و هذا كله نتيجة التقنية العلمية، فيقف رسل هنا ساخرا أسفا بأن " هذا قليل مما أضافته العلوم على المستبدين من نعم. " ⁽²³⁴⁾

و ينتقل بنا رسل الآن إلى الحديث عن التقنية في بعدها السياسي خلال القرن الحديث، إذ ساعدت على الاستمرارية و الاستقرار و زوال الشرور خاصة في بعض الحكومات الاستبدادية كروسيا مثلا، كما أمكن أن يكون تأثيرها سلبياً ما دام أن أكثر الحكومات اضطهادا لموظفيها حتى قبل استحداث التقنية العلمية نظرا لما تمتلكه من وسائل و أساليب الدعاية و التهيب و التضليل، فتضاءلت كل إمكانيات الثورة ما لم تساعد القوات المسلحة أو التدخل الأجنبي الذي يقوض أركان النظام السياسي القائم، إذ يقدم رسل تحليلا و تشريحا فحواه أننا " نجد أن شرور النظام ذاته تساعد على توطيد أسسه، كما لا يوجد سبب - ما عدا الضغط الخارجي - ينفي استمرارية النظام من هذا النوع لزمن طويل جدا. " ⁽²³⁵⁾

و على هامش تأثير التقنية في المشهد السياسي، يزعم رسل أيضاً أن التطور العلمي في كافة العلوم سيمكن الحكومات من الحصول على إمكانيات للتحكم في عقليات الأفراد و ذهنياتهم أكبر مما هو عليه الآن في الأنظمة الشمولية خاصة الأجيال المقبلة التي تخضع لنظام تربوي ينفي عنها طابع الحرية و الإبداع الحر بإيجاد نظام تربوي يدمر المشيئة الحرة للفرد فيقنع الجميع أنهم سعداء في تصورهم الفكري من خلال المعلومات و الأوامر و الوصايا التي تلقوها في مراحل الطفولة، " و سيصبح أي انتقاد جدي للسلطات غير ممكن للفرد نفسيا، فسيعتقد الجميع أنهم سعداء رغم كونهم بائسين، لأن الحكومة القائمة هي كذلك. " ⁽²³⁶⁾

²³³ - من أشهر الطغاة في التاريخ الإنساني و تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، عُرفا بالوحشية و الجنون و السادية .

²³⁴ - رسل ، أثر العلم في المجتمع ، ص 74-75 .

²³⁵ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 78 .

²³⁶ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 79 .

و لا يمانع رسل بالقول أن للانفعالات المدمرة أثاراً سلبية تكمن في تهديد السلام العالمي و نشر العنف و الحرب و محركها في ذلك المصلحة الشخصية ، أي يجب " علينا أن نبحث لماذا استعمل الناس حتى الآن ذكائهم في صنع عالم لا يستطيع التمتع به سوى قلة و ينطوي، بالنسبة لغالبية من يهتمهم الأمر، على حياة أكثر بؤساً من حياة الحيوانات المتوحشة. " (237)، و يفصل هنا أن أسباب التوتر في العالم دافعها أربع علل أو عوامل و هي حب التملك و التنافس و الخيلاء (الشهرة) و حب القوة، و هي علة الصراع في الوقت الراهن و فيما سبق بين الأمم، و مرجعيتنا في ذلك ما ورد في أحد مصادره، إذ يحددها بأنها " أربع علل، رغبات بذاتها يمكننا أن نطلق عليها أسماءها و هي حب التملك و التنافس و الخيلاء و حب القوة . " (238)

و يضيف رسل معللاً أسباب التوتر أنها وليدة الخوف و الحقد و هما عاملان كفيلان بالدفع بالعالم إلى التوتر و التأزم ولا يمكن إعادة الأمل إلا بالتخفيف من هذه المخاوف و وضع حد للرغبة في هزيمة الأخر و تجاوز الأحقاد و الكراهية بين الناس، قاصداً ضمناً التوتر الذي عرفه العالم بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى و إعلان الحرب الباردة بين الشرق و الغرب و أيضاً المخاوف التي يغديها الاختلاف بين الطوائف المسيحية من جهة، و علاقاتها بالعقائد المغايرة و على رأسها العالم الإسلامي.

من جهة أخرى، يفضل رسل حينها استبدال الانفعالات المدمرة بانفعالات بناءة و إيجابية تدعو إلى التعاون بالرغم من الاختلاف بينها، و أن السلوك الغريزي المناسب هو الذي يقوم على التعاون و نشر ثقافة التسامح و معاملة الأخر بالعطف و عدم القسوة. (239)

و يعلق رسل على الحرب أنها مكلفة و أن أرقامها تمثل خسائر باهضة و مرتفعة، زيادة على ذلك أنها تسبب تأخر نمو المجتمعات الإنسانية عموماً و الغريبة على الخصوص و تقلل من فرص ثرائها ، و أنه من الأفضل ألا توجد على الإطلاق، فلو لم يكن هناك حرب، لكان هناك تعاون و لما وجدت الجيوش و الأساطيل و لا القنابل الذرية و لا دعاية حربية متخصصة و لتلاشى الرعب و الخوف من الأخر.

237 - رسل ، المجتمع البشري في الأخلاق و السياسة ، ص 139-140 .

238 - رسل، المصدر نفسه، ص 143.

239 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 152-153 .

و هنا بالذات تبدو الحاجة إلى منظومة أخلاقية تجنب المجتمعات ويلات الحروب و الاقتتال و تدعو إلى منطق العقل و الحكمة في حل الخلاف و فض النزاع و القضاء على بؤر التوتر لاسيما إذا كان رسل يشدد على أن سر الاختلاف بين الإنسان و الحيوان هو التفكير في المستقبل بحكم أنه فعل مبني على إدراك الغايات و تجاوز الرغبات الآنية و الاطلاع إلى الرغبات المستقبلية و مستثمرا قدرة الذاكرة في الاستفادة من تجارب الماضي و ما يتركه في حافظته من آثار مؤلمة. (240)

ويلفت رسل عنايتنا إلى التطورات التكنولوجية التي فاقت إمكانية و قدرة الإنسان على التكيف معها ، فالصراعات الدولية قضت على الأمان، حيث صارت ممارسات الدول تمثل اعتداءً على الحرية الفردية و التي تعتبر في مضمون العديد من الشرائع حقا طبيعيا لكل فرد على حد السواء، خاصة في ظل تقدم هندسة الالكترونيات و هندسة الاتصالات و هو ما بات يعرف باسم الثورة الصناعية الثانية، مؤكداً مجدداً أن التطور التكنولوجي أدى إلى فقدان الأمان و لاسيما من خلال تدخل الدولة و فرض سيطرتها على القوى التي تستطيع الإخلال بسياسة الدولة، و هذا كله يتوقف أساساً على تكنولوجيا حضارتنا. و معترفاً في نفس الوقت أن الشيء الوحيد الذي مكن الحضارة الغربية على فرض سيطرتها هو تكنولوجياها المقترنة بالتراث العلمي و الفلسفي و يبدي مخاوفه من ان تنتقل هذه السيطرة إلى دول أخرى إذا ما امتلكت أسباب قوة الغرب. (241)

240 - رسل ، المصدر السابق ، ص 153-158-159 .

241 - رسل ، حكمة الغرب ، ج 2 ، ص 216-217.

2- أثر العلم و الأخلاق في المجال الاقتصادي :

تتحلى أهمية العلم و التكنولوجيا على اعتبار أنهما قبل كل شيء و سيلتان اصطنعهما الإنسان لكي يبنى لنفسه حياة أفضل، و من ثمة دفع هذا الوعي المتأخر الإنسان إلى حرص على دراسة تأثير أي نشاط يقوم به في بيئته الطبيعية، و أخذ يضع القوانين و يتخذ من الاحتياط ما يعتقد أنه كفيلاً بصيانة هذه البيئة من أخطار التدخل الزائد في توازنها الطبيعي.

و على إثر ذلك نلاحظ وجود تحول في النظرة إلى مشكلة البيئة التي يعتقد البعض أنها ناجمة عن التصنيع و التقدم العلمي، و تمثل ضريبة حتمية ينبغي دفعها كلما زادت سيطرة الإنسان على الطبيعة، ليظهر فكر جديد يتخذ اتجاهها مخالفاً يؤكد أن قدرة الإنسان على فهم قوانين الطبيعة و استغلالها لا ينبغي على الإطلاق أن يؤدي إلى تشويه الإنسان لبيئته الطبيعية.⁽²⁴²⁾، حيث أن مشكلة التلوث قد تنطوي على آثار هامة على المستوى الجمالي و الذوقي التي يتعلمها الفرد من وسطه الطبيعي و بذلك يفقد عنصرها من إنسانيته و ما تقتضيه من تناسق و جمال.⁽²⁴³⁾

و من المؤكد أن معدل الاستهلاك في الدول الغنية يزداد بدرجة تنذر بخطر حقيقي في المستقبل إذ يصل الاستهلاك إلى حد التبديد السفه الذي لا يحدث نتيجة إشباع ضرورات حيوية، بل يحدث لإرضاء رغبات أنانية و نزوات استهلاكية مجنونة لا يلبى معظمها حاجات أصيلة لدى الإنسان، فإذا كان هذا الاستهلاك الزائد عن الحاجة يتم على حساب الضرورات الأساسية التي ستحتاج إليها الأجيال المقبلة، أليس من حق المرء أن يعترض و يطالب بالتريث و التفكير في الآخرين، لاسيما إذا كان هؤلاء الآخرين هم أبناؤنا و أحفادنا،

فمن الواضح في نظر الكثير أن الأجيال البشرية ينبغي أن تتخلى عن أنانيته و عن رغبتها في ضمان أعلى مستوى ممكن لمعيشتها، و عليها أن تفكر في مصير الأجيال التي ستعقبها، فلا تبدد موارد الطبيعة إلى حد الذي لا يترك لهذه الأجيال اللاحقة ما تستطيع أن تستهلكه؟، مما يدفعنا إلى طرح مشكلة أخلاقية هامة، هل ينبغي نحن الذين نعيش في الحاضر، أن نراعي حقوق جيلنا وحده، أم أن الجيل الناشئ و الأجيال التي لم تولد لها بدورها حقوق ينبغي مراعاتها عند استهلاك موارد العالم الطبيعية؟

242 - فؤاد زكريا، التفكير العلمي، 1978 ص 176.

243 - فؤاد زكريا، المرجع نفسه، 1978 ص 177.

الموقف الأول كان إنسانيا و دعا إلى التفكير في مصير الأجيال القادمة، أما الرأي المضاد فهو يسوق حجج تبدو في نظر الكثيرين معقولة ، فمن الواجب أن تترك في رأيهم الأجيال المقبلة تواجه مشكلاتها بنفسها، و لو افترضنا أن استهلاكنا لها قد قل، فهذا لن يحل المشكلة لسببين، السبب الأول، لأن المستهلك الحقيقي هم الأقلية، و الأغلبية فقراء و بالتالي وجب مساعدتها و عدم تحديد سقف استهلاكها، و السبب الثاني هو أنه مهما سعينا لترشيد الاستهلاك ، فهذا لن يمنع حدوث أزمات في الموارد الطبيعية في المستقبل و هو يؤجل المشكلة دون حلها. (244)

إن المجتمعات المتقدمة في عصرنا الحاضر أصعب بالنظر إلى توسع الاستهلاك كما لو كان غاية في حد ذاته، و تعده قيمة أساسية من قيم الحياة و بذلك يكون المجتمع مطالباً بتوفير أكبر قدر من فرص الاستهلاك، بل أصبحنا نعتبره جزءاً من طبيعة الأشياء و نظاما من أنظمة الكون، دون علمنا أن هذه ثقافة و اتجاه حديث ينتمي إلى المجتمع الصناعي الغربي، و هذا ما لم يكن موجودا مثلا عند اليونان الذين كان تفكيرهم في الأمر بطريقة مغايرة.

إن المتتبع لتاريخ الفكر الفلسفي سيلاحظ حتما أن الفكر الفلسفي و الأخلاقي عند اليونان و خاصة عند سقراط و أرسطو و الرواقيين يتجه إلى تعويد الإنسان للسيطرة على رغباته و التحكم فيها، فكان الإنسان المثالي في العصور الوسطى مثلا هو الذي يعزف عن تحقيق مطالب الترف و الرفاهية، دون أن يتضمن ذلك دعوة إلى الزهد أو التحامل على الحياة الحديثة المترفة و ما يترتب عنه ربما من كبت و قمع، فالموضوع لا يتعلق بالاستهلاك أو عدم الاستهلاك، بل بنوع الاستهلاك، فقد نجد أنفسنا مدفوعين إلى استهلاك أشياء تافهة تحت تأثير شبكة محكمة من وسائل الإعلام و الإعلانات الضخمة و تغريبا بانتقاء أشياء مختلفة بلهفة و نهم حتى حد الإغراق السوقي فيها (الدعوة إلى تغييرات في المقتنيات دون الحاجة إلى ذلك بفعل تأثير الإعلانات التجارية). (245)

244 - فؤاد زكريا ، المرجع السابق ، 1978 ص 181-182.

245 - فؤاد زكريا ، المرجع نفسه ، 1978 ص 181-184.

إن استغلال الإنسان لأغراض تجارية أدى إلى تشكيل عقله بطريقة يريدها المنتجون و التي تضمن لهم أكبر قدر من الربح، بل أن بعضها يجلب على المدى الطويل ضررا، فإذا كان بجوزتك فرشاة تتحرك بالكهرباء لا باليد أو جهاز تحكم عن بعد بدلا من جهاز تغيير يدوي، فإن كانت في ظاهرها مريحة، و لكنها في حقيقتها تعود الإنسان على الخمول الزائد و تحرمه من ممارسة أقل قدر من الجهد الجسمي الذي هو في اشد الحاجة إليه كي لا يتعرض لأمراض الترف و الحضارة.

و يتجلى دور التقنية لدى رسل من خلال النشاط الزراعي لزيادة الإنتاج و تحسينه و النشاط الصناعي و ما يقتضيه من تعاون و تكامل بين وحدات الإنتاج و عدد المؤسسات و لا يهم العامل سوى تحسين ظروفه الإنسانية، فلقد ساعدت التقنية على استحداث مناطق نفوذ اقتصادية و تكتلات و تجمعات اقتصادية بارزة باعتبار أن الفرد و العامل يعلم أنه كوحدة منفصلة سيكون بدون حول و لا قوة، و أن بلده منعزلة ستكون كذلك، أما ما يشوب هذه الأنظمة الاقتصادية من استبداد اقتصادي و سياسي، فلا بد في اعتقاد رسل من سن قوانين و تشريعات و اتخاذ إجراءات وقائية ضد الآثار السلبية السيئة المتوقعة. (246)

و يتحدث أيضا عن زيادة قوة الموظفين المصاحبة للتقنية العلمية، حيث لا يمكن تجنبها و هي تعمل من وراء الستار، كما أن تطور التقنية ترتب عنه سيطرة الرأسماليين سواء في النظم الليبرالية أو الاشتراكية، بالإضافة إلى هذا أن التقنية واكتبتها أيضا سيطرة التنظيمات النقابية العمالية و زيادة نفوذها و عدم إعطاء العامل الفرصة للتعبير عن آرائه و حريته، كما أن إحدى العوائق أمام تطور التقنية هو جهل الموظفين و عدم قبولهم لأي محاولة للابتكار و التقدم تحت صيغة (No - men) أو (Yes - men)، أي (رجل كلا) أو (رجل نعم)، في إشارة إلى دعاة الرفض المطلق أو الإمعة الذي يثنون فقط على رؤسائهم، و بالتالي يدعو رسل إلى البحث عن وسائل عملية لتحرير الطاقة و الإبداع من أجل استعادة الرخاء و التقدم الاجتماعي. (247)

²⁴⁶ رسل ، أثر العلم في المجتمع ، ص 59-60-61 .

²⁴⁷ رسل ، المصدر نفسه ، ص 63-64 .

أما عن الأثر الإيجابي للتقنية، فينهي رسل إلى علمنا أن التقنية ساهمت في إحداث تنظيم عالي يضم العديد من الفعاليات ذات أهمية للجميع و بدون تلك الفعاليات سيصاب المجتمع بعطل شديد، مشدداً هنا و ناصحاً بالتأني قبل اتخاذ قرار الإضراب دون أن يفهم من ذلك إلغاء حق الإضراب أي باستعمال التحكيم و التراضي لضمان ازدهار المجتمع الصناعي و تقدمه، فكلما كانت درجة التنظيم عالية كلما أصبح الأمر أكثر خطورة سواء تعلق ذلك في الحرب أو الإضراب، إذ أن " الحرب حالة أكثر تطرفاً من الإضراب، و لكنها تثير مسائل متشابهة، فعندما يتبارز رجلان يكون الأمر تافهاً، و لكن عندما يحارب مائتي مليون شخص مائتي مليون آخرين فالأمر جد خطير، و كلما زادت درجة التنظيم أصبح الأمر أكثر خطورة. " (248)

و يزعم أن حق إعلان الحرب في المجتمع العلمي أمر خطير جدا مثله مثل حق الإضراب دون أن يفهم من قول رسل قبوله بالاستبداد، و لكن يرفض باسم الحرية أن تطالب بحق يمثل أذى و ضرر بالنسبة للغير، " لذا فإن حق إعلان الحرب في مجتمع تحكمه التقنية العلمية أمر خطير جدا، كحق الإضراب و لكن على مستوى أعلى بكثير، فأى منهما لا يمكن إلغاؤه بسهولة، لأن ذلك سيفسح المجال للاستبداد، و علينا في الحالتين أن نأخذ بنظر الاعتبار أن المجموعات لا يمكنها باسم الحرية أن تطالب بحق إنزال الأذى الجسيم على الغير. " (249)

و يبرز رسل أن النظام الاقتصادي الأنسب هو الذي يقوم بمنح الحرية للعمال في إدارة الشؤون الاقتصادية و المؤسساتية و تنظيم النشاط الاقتصادي و المهام الاقتصادية و هو ما يجب أيضا في المجال السياسي و انتزاع القوة الموجودة في أيدي الرأسماليين، أي بإقامة حكومة ديمقراطية و أن تحدد العلاقات من قبل هيئة محايدة. (250) ، وبالتالي يؤيد أن المجتمعات الراهنة تقوم على القوة و الملكية و هما موزعان بشكل غير عادل و هما ينتميان إلى التملكية.

248 - رسل ، المصدر السابق ، ص 63-64 .

249 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 66 .

250 - رسل ، مثل عليا سياسية، ص 37 .

و عليه يشير رسل أن الإنسان المعاصر ليس حراً إن لم يكن له ثروة أو ملك، و لا يستطيع أن يتنعم بالطمأنينة و الأمن في الحصول على ضرورات الحياة، لذا فإن أرادت هذه المجتمعات أن تشجع الدوافع الإبداعية، و يجب عليها أن تحرر الأفراد من الحاجات المادية و تمنحهم أسباب القوة ليعبروا عن آرائهم بكل حرية و الدعوة إلى تغليب الفضائل الإبداعية على الغرائز التملكية بالقضاء على المنافسة و النظر بالاحترام للحكمة لا إلى الثروة، فيعبر عن هذا الطرح بالقول: " في مثل هذه البيئة نجد حتى أولئك الذين وهبتهم الطبيعة دوافع الخلق و الإبداع قد تأثروا بِسُمِّ المنافسة القاتل. " (251)

بالإضافة إلى ذلك، يوشك رسل أن يؤكد أن القدرة الإبداعية لا سيما في المجال الاقتصادي تتحكم فيها شروط موضوعية و يلخصها بالقول بأن " المؤثرات الخارجية التي تساعد على هذا النمو هي التي تشجع و تقدم الغذاء العقلي أو التي تهيئ الفرصة لتجد القوى العقلية لها مجالاً، فالمؤثرات التي تعوق هذا النمو هي التي تعترضه باستعمال أي نوع من القوة سواء أكان النظام أم النفوذ أو الخوف، أم طغيان الرأي العام، أم ضرورة الارتباط بعمل لا يلاءم المواهب الفطرية بحال من الأحوال. و أشد هذه المؤثرات خطراً هي تلك التي تشوه و تموه على دافع أساسي في الإنسان، و ذلك ما يعلن عن نفسه في العالم الأخلاقي أنه الضمير، و مثل هذا التأثير يسبب خطراً داخلياً لا ينجو منه الإنسان طوال حياته. " (252)

زيادة على ذلك، يتأكد يومياً أن حل مشكلة الغذاء و تزايد عدد السكان تكمن في استخدام العلم، و إيجاد موارد غذائية و حسن استثمارها، كالبحث في وسائل استزراع المناطق الصحراوية الشاسعة و إسقاط المطر الصناعي و استخلاص الموارد ذات القيمة الغذائية الحالية من طحالب البحار و المحيطات و هي موارد لا تنفذ، و تحويل بعض المخلفات الصناعية إلى موارد غذائية و إمكانية مضاعفة غلة الأراضي الزراعية بأساليب علمية حديثة. (253)

251 - رسل ، المصدر السابق ، ص 08 .

252 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 06 .

253 - فؤاد زكريا ، التفكير العلمي ، ص 169 .

و مما سلف ، يفترض رسل أن الابتكارات العلمية و الشركات المنتجة لها تستدعي منها أن تكون هذه الانجازات في خدمة الإنسان و ليس مجرد أدوات غير قابلة للاستغلال، و معنى هذا أن العلم و التقنية لا تكون مهمة إلا بالقدر الذي يمكن الإنسان من استخدامها و الاستفادة منها بالفعل.⁽²⁵⁴⁾، إذ ساعد كل من العلم و التقنية على توفير العديد من وسائل الراحة و تخفيف أعباء العمل و متاعبه، و القضاء على أشكال العمل المقرونة بالعبودية و الاستغلال المتوحش.⁽²⁵⁵⁾

و يبدو تأثير التقنية عند رسل في ما قدمته للإنسان من تسهيلات و تذييلات أثناء العمل، فبعدما كان شاقا و ضنكا، صار أقل صعوبة لاسيما بعد الاستعانة بالوسائل التقنية و أدوات العمل الحديثة. و الدليل على هذا هو مقارنة أجواء العمل قبل و بعد الثورة الصناعية التي طبعت بالعبودية و الهيمنة و الاستغلال الأوسع للعامل.⁽²⁵⁶⁾، فينبغي الاعتراف في نظر رسل أن التقنية الحديثة مكنت من إنتاج بأقل جهد ما يكفي لسد حاجة حياة الأفراد و توفير وسائل الراحة و الاستجمام و اللهو للعامل و توزيعها بشكل عادل دون التأثير على الجانب الحضاري والبيئي.⁽²⁵⁷⁾

و من الطبيعي لدى رسل أن تكون التقنية المستغلة في الجانب الاقتصادي قد ساهمت بشكل بارز في خفض ساعات العمل إذا كان العمل يخضع إلى التنظيم العلمي الذي عرفته أوروبا في الحرب العالمية الأولى، إلا أن طرق الإنتاج الليبرالية لا تهتم بذلك حتى و إن تم اختراع وسائل تضاعف عدد السلع المنتجة ، فيبقى العامل يشتغل لمدة 8 ساعات ، في حين كان يكفي خفضها إلى 4 ساعات، مع تحقيق نفس الأغراض الإنتاجية و بنفس الطاقم الإنتاجي المعهود.⁽²⁵⁸⁾، ثم إن زيادة الإنتاج بفضل الوسائل التقنية قد أدى إلى خفض معنويات العمال لمواصلتهم العمل لمدة 8 ساعات، و هو ما يترتب عنه أيضا زيادة في الإنتاج و انخفاض في مستويات الطلب.

²⁵⁴ - Russell – *Eloge de L'oisiveté* . Traduit par M. Parmentier, *Edition Allia, Paris, 2004*. p.03

²⁵⁵ - Russell – *Ibid* .p 05.

²⁵⁶ -Russell – *Ibid* .p . 05.

²⁵⁷ - Russell – *Ibid* .p . 06-07.

²⁵⁸ - Russell – *Ibid* .p 08 .

و عليه يكون مصير العديد من الوحدات الإنتاجية هو الإفلاس و تسريح جماعي للعمال. و بخلاف ذلك يرى رسل أن التقنية الحديثة مكنت الإنسان من العيش الرغيد و توفير الأمن، و هذا بفضل اللطف (**La Bonté**) و الفضيلة و التي ساعدت على تخفيف العديد من المتاعب و المشاقات. (259)

و يسارع رسل إلى القول أن التطور العلمي يعد محرك التنمية و التقدم الصناعي و يشهد على ذلك تاريخ انكلترا، حيث استطاعت أن تصل إلى التصنيع من خلال توفر الموارد الطبيعية و كثرة المخترعات الآلية الانجليزية التي عجلت بتطوير الصناعة و مكنتها من الإنتاج الهائل الرخيص. (260) فالتصنيع يستدعي ممارسة بعض الفضائل التي لم تكن لها وجود في عصور ما قبل التصنيع، و يرى أن سعادة المجتمع الصناعي تنهض على مجموعة من القيم الأخلاقية أهمها انتشار مشاعر الصداقة و المحبة بدلا من الكراهية و الحسد، و توفر القدرة على خلق الجمال و الاستمتاع به و جب الاستطلاع الفكري الذي يفضي إلى تقدم المعرفة و ذبوعها. و تعتمد فلسفة رسل الاقتصادية على معيار أساسه أن مؤشر الحكم على السلوك الإنساني هو نتيجته و في هذا اتفاق مع أئمة الفلسفة النفعية أمثال بنتام و وليام جيمس و جون ستوارت ميل، و ليس اتفاقاً على بعض قواعد السلوك التقليدية التي يتضمنها الدين و التي تنهض على الخزعبلات. (261)

و فيما تعلق بالمساوي، فإن رسل يَحْمِل حملة شعواء على الروح العلمية في ظل المجتمع الصناعي الرأسمالي، فإذا كان هذا النظام مسئولا على الكثير من مظاهر التقدم الذي حققه العالم في الأزمنة الحديثة و لكن الملاحظ أن هذه الأنظمة لا تهتم إلا بالجانب النفعي و التجاري من العلم أي بالتكنيك، و تتغافل وجه العلم، بل أقدمه و هو الوجه النظري الصرف.

259 - Russell – Ibid .p 20.

260 - رمسيس عوض، رسل المفكر السياسي، ص 154.

261 - رمسيس عوض، المرجع نفسه، ص 162.

و يبدو تأثر رسل واضحاً بالفلسفة السقراطية تحديدا فيما يتصل بالفضيلة و مقولة الخير ، إذ يفضل حب العلم من أجل العلم بغض النظر عن نفعه من الناحية العملية، و أن التقدم المشهود لم يكن ممكنا لولا وجود علماء مخلصين حاولوا فهم العالم و الكون دون تدخل النفعية في اعتبارهم أمثال مندل (Mendel) و اكتشاف نظريته في الوراثة، فكانوا هؤلاء على صلة بالعشق القدسي بالعلم و كذلك الحال مع ماكسويل و فراڤاي و هرتز الذين اكتشفوا الأساس النظري للاسلكي، فهم لم يكونوا مدفوعين بالآثار النفعية التي تترتب على اكتشافاتهم، بل كانوا مدفوعين بالرغبة الخالصة الأكيدة في تفهم العمليات الطبيعية في هذا الكون.

و يشدد معلنا أن وصاية الرأسمالية على العلم قد تتمخض عنها أخطار وبيلة تهدد كيانه الرأسمالية ، فقد تخنق الرأسمالية حب العلم لذاته في نفس كثير من الناس بحرصها على ما هو مفيد، فقد كان للنفعية آثار سلبية على الفنون و قد تمتد حتى تشمل العلوم. (262)

و يرى رسل أن دعم السلطة السياسية يقتضي تقدم الصناعة و الثروة المعدنية، كما أن الذكاء عامل أساسي في دعم السلطة سواء بالقوة العسكرية أو الإقناع (263)، و إن من الصحيح أن هناك أمرا أسمى و أرقى من أن يعبر عنها بلغة التجارة و المال، فالكشف العلمي الذي تعم نتائجه الإنسانية كلها، شأنه شأن العمل الفني الرفيع الذي يسعد الإنسان و يسمو به في كل مكان هي نواتج للعبقريّة البشرية لا يصح أن تقاس بالمقاييس المادية.

و مع ذلك فإن الواقع يؤكد بمرارة عكس ذلك، أن العلم يستغل و يقوم تجاريا ، وانه يستخدم لتحقيق أرباح لمؤسسات معينة تجني منه أضعاف ما أنفقت عليه، و تستخدمه لتحقيق أهداف مضادة لتلك التي يتجه إليها عقل العالم ، ذلك العقل الذي لا يحركه إلا السعي لخدمة البشرية كلها. (264)

262 - رمسيس عوض - المرجع السابق، ص 165-166.

263 - رمسيس عوض، المرجع نفسه، ص 166.

264 - فؤاد زكريا - التفكير العلمي، ص 247-248.

من جهة أخرى و إجمالاً، يبدي رسل قناعة مفادها أن للعلم آثار إيجابية منها القضاء على الفقر و ساعات العمل المفرطة إذ كان قديماً من صعب تحقيق سبل العيش و ضمان قوت الأفراد الذي كان في مواجهة عدة مخاطر و صعوبات و الدليل على ذلك هو تاريخ المجاعات و ما صاحبها من موت و هلاك و هو وضع لا يختلف اليوم كثيراً عند المجتمعات الحيوانية و كذلك كان فضل التصنيع بارزاً في تحقيق الاكتفاء الذاتي للأفراد.

و يبين رسل أنه بالإمكان تحقيق ذلك إذا لم يزداد عدد السكان بشكل سريع خاصة في أوروبا و انتشار المد الديمقراطي في أرجائها، أما القضاء على الفقر فهو ممكن إذا استطاعتنا التخلص من الحروب الكبيرة و الاعتماد على عوامل ثلاث أولها الديمقراطية و ثانيها توسيع النشاط النقابي وثالثها مباشرة سياسة تحديد النسل من أجل رفع المستوى المعيشي للأفراد ، و بخلاف هذا الوضع سيكون للتصنيع آثار سلبية علامته البارزة إحداث نظام فرعوني استبدادي لا مثيل له و الذي ينجم عنه استحالة إلغاء الفقر و الجهد المضني الذي يعانیه العامل لاسيما إذا و اكبه ارتفاع في عدد السكان بالوتيرة الحالية (265).

و يذكرنا رسل مرة أخرى أن الثورة الصناعية كان لها آثار سلبية على القبح و الشرور، ولم يتم التقليل من هذه الشرور إلا بعد الإصلاحات الاقتصادية التي سمحت من الاستجابة للعمال الصناعيين إذ " أن حركة التصنيع كانت لعنة في نظر اللرومانتكين الأوائل، ولقد كانوا في ذلك على حق لأن الثورة الصناعية جلبت الكثير من القبح على المستويين الاجتماعي والمادي." (266)، فالعلم - حسب رسل - مدان و هي نفس الإدانة التي أبداهها روسو (Rousseau) باعتبار أن الدوافع التي أدت إلى ظهوره هابطة أساسها الأبعاد المادية و النفعية لا غير، و قال أن الإنسان المتحضر فاسد، أما الفاضل فهو الهمجي النبيل. (267)، بمعنى أن روسو (Rousseau) يفضل المشاعر على العقل.

265 رسل ، أثر العلم في المجتمع ، ص 121 .

266 - رسل ، حكمة الغرب ج2 ، ص 109.

267 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 115.

و يلفت رسل عنايتنا بالقول أن أيام التصنيع الأولى كانت من الناحية الإنسانية فترة قاسية بالفعل نظراً للظروف المهنية التي كان يشتغل فيها العامل من أجل استخراج الفحم لتشغيل الآلات البخارية في المجال الصناعي، وفكرة تقسيم العمل المتخصص في الصناعة و الذي طبق في المصانع الأمريكية بالاعتماد على الآلات التي نجم عنها إفقاد العامل لعمله ومعاناته النفسية .⁽²⁶⁸⁾

و يحلل رسل هذه المعطيات ليستخلص أن مصدر الفوضى في العالم هو الصراع بين القوى المسيطرة على مقدراته، و يكشف أن هذا المصدر يتمثل في عامل التصنيع وعامل القومية، فالتصنيع تسيطر عليه الرأسمالية، أما القومية فهي من أشكال الاستعمار للدول الاستعمارية و محاولة الشعوب التخلص منها بمطالبتها بحق تقرير المصير الذي تحتضنه روسيا في مواجهة الغرب الاستعماري.

و لا شك أن الجميع يعلم أنه إذا كان من أهم الشروط لقيام الصناعة وجود المعرفة العلمية التي تساهم في استحداث المخترعات الآلية و استخدامها⁽²⁶⁹⁾، فإن الرفاهية التي تهدف إليها المجتمعات لن تتحقق إلا حينما تكون الصناعة على درجة كبيرة من التطوير⁽²⁷⁰⁾، إذ يبدو التصنيع في منطق رسل الاقتصادي ليس مجرد مشروعات عملاقة تتطلب عددا كبيرا من العمال فحسب، بل جوهر التصنيع هو استخدام الآلة و الآلات المعقدة و بعض الوسائل الأخرى التي تقلل مجموع الجهود المبذولة في الإنتاج .

و في إشارة إلى أهمية العلم و الأخلاق في الممارسة الاقتصادية، ينبهنا رسل من جديد أنه ليس الهدف الاسمي من حياة الإنسان هو إرضاء الحاجات البيولوجية و عليه يرفض ما اصطلح على تسميته بالحضارة بأنها السعي لتحقيق أشياء ليست ضرورية للبقاء من الناحية البيولوجية.

268 - رسل ، المصدر السابق ، ص 156 .

269 - رمسيس عوض ، رسل المفكر السياسي ، ص 131 .

270 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 132 .

و على هذا الأساس، يعتقد رسل أن الحضارة الأولى بدأت في مصر و بابل، إذ ساعدت خصوبة الأراضي على توفير فائض في الإنتاج مما أفضى إلى توفير الفراغ لقلّة من الناس و ازداد عددهم مع مرور الوقت، و التي كان لها الفضل في استحداث أسباب الحضارة من فراغ و رغد إلى استحداث الكتابة و العمارة و الرياضة و الفلك و الفنون الأخرى اللازمة لبناء الكيان الحضاري. وهذا ما يجب أن يسعى إليه الجنس البشري إذا أراد طرق الاستمتاع بمقومات الحضارة، كما يشترط أن يكون التصنيع اشتراكياً و لا يقتصر على القلة فقط. (271)

فلقد ساهم التصنيع نقلاً عن رسل في زيادة انتشار التعليم و بالتالي أصبح العامل أكثر كفاءة على المستوى الإنتاج أكثر من زميله الجاهل، و هذا ما يوجب إلزامية التعليم باعتباره ضرورة يقتضيها مبدأ التصنيع، على أن يكون الهدف من التعليم هو ضمان تجانس في الفكر و السلوك و ما يترتب عنه من رتبة و ملل بشكل سلمي للتصنيع.

و يضيف رسل في هذا الصدد أن التصنيع يؤدي إلى انهيار العائلة نتيجة استقلالية المرأة و عدم قيامها بتربية الأطفال و إيكالهم للدولة و هو ما يجعل تشابه في السكان (272)، و بالتالي يكشف لنا أن المجتمعات الإنسانية مازالت تخشى الآلة باعتبار أنها ستقضي على المهارات الفردية و يلزم عنها قطع أرزاق العمال خاصة فيما يخص اللحؤ إلى الآلات التي تدار الكترونياً. (273)

ويبقى جلبي - حسب رسل - أن للعلم العديد من المشكلات الإنسانية الكبرى التي نجدها في المجتمع التكنولوجي و التي عاشها فيما بعد الطبقة العاملة الصناعية و التي بدأ الحديث عنها في منتصف القرن الماضي لاسيما في كتابات العديد من الكتاب و التي نبهت عليها أيضا ثورة 1848 خاصة في أعمال ديكنز (Dickens) و الفرنسي إميل زولا (Emile Zola) و التي ساهمت في نشر الوعي بحقيقة الوضع و اقترحوا حلولاً لذلك من بينها تحسين مستوى التعليم، إلا أن البعض لا يشاطر هذا الحل و قد ساند هذا الوضع الفلسفات المعاصرة التي تنادي بالمنفعة كميّار للخير، أي أن اللذة هي الخير و الألم هو الشر امتداداً للفلسفة الانجليزية في خطوطها العريضة المقتبسة هي الأخرى من الفلسفة الأبيقورية. (274)

271 - رمسيس عوض ، المرجع السابق ، ص 137-138.

272 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 139.

273 - رسل ، حكمة الغرب ج2 ، ص 153-154.

274 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 157-158.

و على النقيض من ذلك، يعتقد رسل أن ج.س.ميل قدم دراسة يدافع فيها دفاعا قويا عن حرية الفكر و المناقشة، و يقترح وضع حدود لسلطة الدولة في التدخل في حياة رعاياها و هنا نقطة الخلاف مع المسيحية بأن الدولة هي منبع الخير كله.⁽²⁷⁵⁾ ، و بالرغم من هذه الآثار الجانبية للعلم في غياب منظومة الخير و الشر، فيبدو رسل مقتنعا بفكرة أن القرن التاسع عشر تميز بالتفاعل التدريجي بين العلم و التكنولوجيا إذ قام على مبادئ علمية طبقت بطريقة منهجية و لزم عن ذلك تصميم المعدات التكنولوجية و إنتاجها مما أدى إلى نمو متسارع للتوسع المادي، خاصة آلات أكثر كفاءة و قوة.⁽²⁷⁶⁾

أما في المجال الاقتصادي، فالعلم يتحمل وطأة الاقتصاد على نحو مباشر باعتبار أن الاقتصاد هو العلم، إذ أن حتى الدول الأكثر تسامحا مثل إنجلترا، فإن مخالفة الحكومة في وجهة النظر الاقتصادية يترتب عنه عدة عقوبات خاصة، إذا كانت في الطرف الأخر أي في المعسكر الشرقي، فذلك سيكلفه فقدان رزقه و الزج به في السجن، بل حتى و إن كان الشخص يحتفظ بها دون أن يكون مؤلفا و كاتبها .

و في ذات السياق، يؤيد رسل فكرة مؤداها أن نجاح العلم في الميدان الصناعي الذي يقدم خدمات عملية للزراعة يجب أن يكون مصحوبا بدعم من الحكومة للفلاحين و المنتجين، و إلا أدى ذلك إلى موت العديد منهم بظهور كساد في الإنتاج، و بالتالي اضمحلال التصنيع بطبيعة الحال على المدى الطويل⁽²⁷⁷⁾، و هذا ربما ما يقصده رسل عندما يؤكد بأن التقنية ساعدت على تحرير الإنسان و تسييده على الطبيعة، و بتعبير آخر، " فأجل أن عمل الفلاح الذي يزرع أرضه مختلف، حيث يحرث و يبذر و يحصد و لكنه تحت رحمة الطبيعة، و هو مدرك جدا بخضوعه و تبعيته لها ، أما الرجل الذي يعمل بالآلات الميكانيكية فيشعر بقدرته و قوته و يكتسب الإحساس بأن الإنسان هو السيد، و ليس عبدا للقوى الطبيعية."⁽²⁷⁸⁾

²⁷⁵ - رسل ، المصدر السابق ، ص 164 .

²⁷⁶ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 155 .

²⁷⁷ - رسل ، أثر العلم في المجتمع . ص 141

²⁷⁸ رسل ، المصدر نفسه ، ص 127 .

بالإضافة إلى ذلك، يعتقد رسل أن عصر الآلة و التكنولوجيا لم يكن له آثار سلبية و لم يبعث على الملل و السأم، بل على النقيض من ذلك تماما، إذ قللت الآلة من ساعات العمل ووفرت أيضا أساليب التسلية و الراحة، بل أن وضعنا الآن هو أفضل من ذي قبل، " إننا نسمع الكثير عن رتابة الحياة الصناعية، و لكن أحسب رتابة و ملالة الزراعة بالأساليب القديمة لا تقل عظمة عنها." (279)، و يستطرد في هذا الاتجاه " أن أهمية العلم تظهر من خلال تجاوز الصعوبات و العراقيل التي ارتبطت بالحقب الماضية، ففي غياب الإنارة و الطرقات ووسائل الرفاهية، كان من الصعب الحديث عن حياة مريحة و مطمئنة." (280)

و مما لا شك فيه أيضا أن للجانب العلمي و الأخلاقي دورا و أهمية في رقي الأفراد و المجتمعات اقتصاديا و تنمية شعورها بالسعادة و التي تمثل قيمة أخلاقية بارزة، فالطب من منظور رسل ساهم في الحفاظ على الزيادة الطبيعية في نسبة السكان من خلال استثمار التقدم العلمي و البيولوجي بالخصوص و ما تقوم به البعثات الطبية بهدف التقليل من نسبة الوفيات و مساعيها الجلية للقضاء على المجاعة بزيادة نسبة الغذاء، كما يبدو دور العلم و التقنية أيضا في زيادة نسبة السكان من خلال زيادة معدلات الإنتاج الزراعي في الهكتار الواحد جراء استخدام الماكينات و الآلات الزراعية و الاستعانة بالأسمدة و الفصائل المحسنة التعديل الوراثي (**OGM**)، في المحاصيل الزراعية و كذلك زيادة إنتاجية ساعة العمل من الجهد المبذول، و تقديم وسائل النقل لتغطية احتياجات كافة المناطق من المنتجات الزراعية و التبادل التجاري فيما بينها منتوجات زراعية مقابل فائض من المواد الخام و المصنوعات (**TROC**). (281)

و للتذكير، فإن الغاية من الإبداع العلمي و التكنولوجيا في اعتقاد رسل لا يعدو أن يجعل العمل أقل سامة و التقليل من مخاطر المجاعات، خاصة مع الزراعات المستقرة التي أدت إلى الانحطاط و البؤس، و لم يتخلص الإنسان من ذلك إلا مع ظهور الآلة. (282)

279 - رسل ، المصدر السابق ، ص 58

280 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 58-59 .

281 - رسل ، المصدر نفسه .، ص 140 .

282 - رسل ، الفوز بالسعادة ، ترجمة سمير عبده، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت، 1980، ص 127-128 .

و أما عن استقلالية العلم و الأخلاق في ميدان الاقتصاد فيترتب عنها عواقب و خيمة و هو ما يبدو واضحاً هنا في النظم الليبرالية التي تحتكم إلى رأس المال و القوة المادية، و بالتالي فالتصنيع يمكن من سيطرة الرأسمالي و معها تضمحل قوة الدولة و هيمنتها.⁽²⁸³⁾، و يعقب ذلك فرض قيودٍ في مجال العمل و الرقابة على حرية الرأي في الممارسة الاقتصادية و المهنية، فيعلن أن " في كل نواحي الحياة نجد أن الاحتفاظ بحرية الرأي عقابه الفشل كلما نما النظام الاقتصادي و اتسع و أصبح مجدياً"⁽²⁸⁴⁾،

و على ضوء ذلك يؤكد رسل أهمية الأمن و الحرية في عملية الإبداع، إذ أن " خير المجتمعات هي الدافعة للمرء على التفكير في مجتمعات أفضل و أفضل."، إذ أن النشاط الإبداعي يستدعي الخيال و الجدة و هما عاملان في تغيير الأوضاع القائمة و الثورة عليها و هو ما يرفضه بعض الأفراد الذين يملكون القوة، مخافة أن يؤدي التعبير إلى حرمانهم من مزاياهم العاشمة و الامتيازات المحففة، و من ثمة فهم يؤسسون لأنظمة تقتل الروح الفردية، فالغالب " في أيامنا هذه، هو طغيان النظام الآلي - الذي يرأسه و يديره رجال لا يعنون بحياة الذين يسيطرون عليهم - قاتلاً للفردية و روح الفكر "⁽²⁸⁵⁾

و بصفة عامة، لا يتوانى رسل في نفي إمكانية توفير الظروف المواتية للإبداع في ظل الأنظمة السياسية التقليدية كالنظام الديمقراطي أو الاوليغاركي أو حتى الملكي بحكم أنها لا تهتم بالإرادة الشخصية في الإدارة و التنظيم و حتى سيطرة الأغلبية و سحقها لصوت الأقلية "⁽²⁸⁶⁾.

هذا و يعلل رسل ندرة الغذاء أنها ناتجة عن زيادة نسبة السكان التي لم تؤثر عليها الحروب التقليدية خاصة بزيادة نسبة النمو في القارة الآسيوية على الخصوص، و ينتج عن هذا انخفاض مشهود في المستوى المعيشي في العالم المتقدم (المجتمعات الميسورة - Aisée)، و يصاحبه أيضاً انخفاض في الطلب على

²⁸³ - Royden Harrison, **Russell – From The Liberation to Socialism**. summer edition, 1986 ,P 23

²⁸⁴ رسل ، مثل سياسية عليا ، ص 09 .

²⁸⁵ - رسل ، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

²⁸⁶ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 10-11 .

البضائع الصناعية و تصبح بعض المنتوجات عبارة عن مقتنيات لا يسع الكل اقتنائها، إذ تعتبر من الكماليات، و يؤدي ذلك إلى انتشار البؤس وفق نظرية مالتوس (Malthus)، و سيتعزز هذا الافتراض إذا ما افترضنا وجود عالم موحد في نظر رسل، مما ينجم عنه تعميم لهذه الآثار على عموم الأقطار دون حصر سلبا أو إيجاباً.⁽²⁸⁷⁾

و لا يمكن حسب رسل تجنب هذه السيناريوهات الدراماتيكية التي يطبعها الكساد و الاضمحلال سوى دعوة الحكومات للقيام بجملة دعائية تربية و التي تسعى بالدرجة الأولى إلى تحديد النسل و تجاوز العوائق العقائدية و السياسية و القومية سعياً لاستبعاد أوضاع و ظروف أكثر بؤساً و فضاة خلال الخمسين سنة القادمة بالتقريب، و يبرز لنا " أن واجب كافة من يقدر على مواجهة الحقائق أن يفهم و ليس لفترة بأن معارضة انتشار وسائل تحديد النسل إن نجحت في مسعاها، فستصيب الجنس البشري بأشنع أنواع البؤس و الترددي ، خلال الخمسين سنة أو نحو ذلك ⁽²⁸⁸⁾

و بناءً على ما سبق يكشف لنا رسل أن تحديد النسل يمثل أسلوباً ناجعاً و حلاً عملياً تساهم فيه أساليب التربية لضمان الاستقرار و ظروف حياة لائقة لأفراد المجتمع العلمي، و مع ذلك يقدم لنا خيارات أخرى لمواجهة زيادة السكان، من بينها التعويل على الحروب الجرثومية الفتاكة التي تنظم عدد السكان و تجعل عدد السكان الناجين في كفاية بالنظر إلى ما تتحمله الأرض، و هو حل لا يبدي استعداد تاماً لتبنيه، فيضعه قيد الاحتمال.

و مما سبق ينكشف لنا أن تحديد النسل هو اقتراح علمي يقدمه رسل لحل مشكلة ارتفاع عدد سكان المعمورة و هو أفضل الخيارات على الإطلاق، التي يترتب عنها وأد الأطفال و الحروب و استفراء الأقلية بالثروة، فيقرر أن " من ضمن هذه الوسائل نلاحظ أن تحديد النسل هي الوسيلة الوحيدة التي تتجنب القسوة الفائقة و البؤس لغالبية الكائنات البشرية. " ⁽²⁸⁹⁾، و على هامش أثر التكنولوجيا و مستقبلها ، يكشف لنا أيضاً أن مخاطر التكنولوجيا في الحرب باتت أكثر دماراً من ذي قبل، إذ يوجز بأن " الحربان العالميتان اللتان عانينهما خفضتا مستوى المدنية في العديد من أرجاء العالم، و أنا متأكد أن الحرب القادمة ستعجز ما هو أكثر بكثير في هذا المجال " ⁽²⁹⁰⁾.

287 - رسل، أثر العلم في المجتمع ، ص 142

288 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 143 .

289 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 144 .

290 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 144-145

و ينصح رسل المجتمعات الحالية بوجوب استبعاد أخلاق الطابوهات و بالتالي يمكن معارضتها إذا تبين أنها تسبب ضرراً للآخرين مثال ذلك الطبيب فيزال (Vésales) الذي كان يجري التشريح لأغراض طبية و هذا ما يؤكد مدى ضرر هذه الأخلاق التي يسميها رسل أخلاق الطابوهات لصعوبة مواجهتها و تحديها و التي تعارضها سلطة المجتمع بقوة الضمير الجمعي و إرادة الأنا الأعلى، و هذه الأخلاق ذاتها أدت فيما مضى إلى تحديد نسب الولادة بحجة أنها تسبب الفقر والأمراض.⁽²⁹¹⁾

كنتيجة لما سبق، يتضح تكاتف دور العلم و العلوم الإنسانية، من بينها علم النفس بالتحديد - وفق رسل - في الحفاظ على الاستقرار داخل المجتمع العلمي، حتى و إن كان أقل تقدماً من العلوم الطبيعية أو البيولوجيا، من خلال الاعتماد على مسلماته و أهمها أن الكائن الإنساني بطبعه يميل إلى تجنب الخطر و السعي بطبعه للحفاظ على بقاءه و استمراره، و من هنا ستساهم التغييرات و الظروف الاجتماعية في تكيف الفرد مع المستجدات و قد لا يستطيع الأفراد مواجهة هذه التغييرات و بالتالي يصيبهم الجمود و الانحلال، و على هذا الأساس، فإن علم النفس سيمكننا من فهم آليات تقوية التكيف و يكشف عن الاختلالات التي تجعل الفرد عاجزاً عن التكيف مع وسطه الطبيعي و المؤسساتي.⁽²⁹²⁾

و على ضوء ما سبق كذلك، يخلص رسل إلى القول بأن علم النفس يرمي إلى حلحلة الأمراض النفسية و الاضطرابات السيكولوجية الناتجة عن الظروف الاقتصادية و المهنية، و الضغوطات التي يواجهها العامل و التي تفقده الكثير من فرص السعادة و البهجة في المجتمع العلمي و الصناعي و ضبط انفعالاته النفسية و التي تدفعه إلى المغامرة و ربما إتباع الأهواء التدميرية على حد رأي رسل.⁽²⁹³⁾

و لقد ساعدت الدراسات النفسية في نظره، لاسيما مع مدرسة التحليل النفسي على فهم العديد من المفاهيم الأخلاقية و تحليلها كمقولة الضمير و الشعور بالإثم و التي كانت حسب رسل تشمل على مجموعة من التحريمات اللاعقلية - و التي لقنت له من قبل المشرفين على تربيته - و تتضمن في داخلها عناصر مرضية مستمرة من المرض الروحي⁽²⁹⁴⁾، فيؤكد فضل علم النفس لكونه ساهم معالجة العديد من

²⁹¹ - Russell - **Ma conception du monde** -, traduit de l'anglais par louis Evrard- Edition Gallimard, Paris, 1962, p.81-82.

²⁹² رسل ، أثر العلم في المجتمع ، ص 148-149

²⁹³ - رسل ، المصدر السابق ، ص 150 .

²⁹⁴ - رسل ، الفوز بالسعادة ، 1980، ص 93 .

الاضطرابات النفسية،" فإيجاد وسائل التقليل من الحقد و الحسد هو لا شك أحد واجبات علم النفس العقلي." (295)

و سترتب عن هذا الفهم للتركيبية السيكولوجية للفرد في رأي رسل هنا تقدم، يعزى بصورة كاملة إلى التقنية العلمية، بمقارنة أوضاع الأفراد الاقتصادية اليوم و ما كانت عليه في القرن السابق، و يتجلى ذلك من خلال الجانب المعيشي و التربوي إلخ...، فيؤكد ذلك بالقول " أن هذا العصر يمثل تحسنا عن كافة العصور كافة شرائح المجتمع ، عدا الأغنياء و الميسورين، و هذه الميزات تعزى بصورة كاملة أو شبه كاملة إلى حقيقة أن قدرنا معينا من الجهد الآن يوفر إنتاجية أكبر مما كان عليه قبل أيام العلم." (296)، وبخلاف النظام الاقتصادي الليبرالي الذي ينهض على مبادئ اقتصادية تراعي إلى حد ما قيم أخلاقية و إنسانية في نظر رسل، يؤكد هذا الأخير أن النظم الشيوعية تفتقد كثيرا لمسامحي الاحترام و حرية الأفراد و أن النظم الليبرالية هي أكثر قدرة على احترامها و الدفاع عنها.(297)، مما يرشح الإقدام على الحرب الذي يمثل سلوكا يفتقد إلى المنطق و العقل و الحكمة، و لا يمكن تبريره إلا وفق النظرة البدائية.(298)

و من هنا باتت النظم الشيوعية لدى رسل لا تعبر في النهاية إلا على مظهر من مظاهر السجن الذي يفتقد فيه الإنسان إلى الحرية و التطلع لتحقيق طموحاته ، كما تجلى لرسل بعد زيارته لروسيا، إذ أن الدولة هي التي تحدد كل ما يتعلق بالعمل و كل ما يتعلق بالنشاط اليومي و تحديد مكان الإقامة و الأكثر من ذلك ما يجب الاعتقاد به، و لا يبقى من الأفراد الأحرار إلا من يعارض هذه الوصاية.(299)، حيث يفترض " أن الضمير هو نتاج تفاعل بين النمو و التربية و من العبث الإصغاء إليه دون العقل و الحكمة".(300)، فكل أشكال التقدم الفضل فيها للعلم . و معظم الأمراض و المصائب سببها العقيدة (في إشارة إلى الايدولوجيا).(301)، مثلما يعتقد كذلك أن العادات التي أوجدها التصنيع مكنت من هدم المعتقد القائل أن الأمر حسب ما تنتج، و مكنت التربية من زيادة نسبة ذكاء في النقد البناء الاجتماعي.(302)

295 - رسل ، المصدر السابق ، ص 95 .

296 رسل ، اثر العلم في المجتمع ، ص 68-69 .

297 - - Royden Harrison , **Russell – From The Liberation to Socialism.** P 11

298 - Royden Harrison , **Ibid.** P 13

299 - - Royden Harrison. **Ibid.** P 15.

300 - - Royden Harrison-**Ibid** . P 15

301 - - Royden Harrison-**Ibid.** P 21.

302 - - Royden Harrison . **Ibid.** P 23

و يدافع رسل عن علاقة العلم بالأخلاق و ما تحققه من تقدم اقتصادي على أساس أن التربية مكنت العمال من اكتساب ديمقراطية سياسية و استبعاد ديمقراطية خاضعة لسيطرة الدولة.⁽³⁰³⁾، من بينها أن هناك قاعدة خاصة بها مفادها حاول أن تدرك العواقب و تزن ما يتوقع من تكاليف و فوائد.⁽³⁰⁴⁾، و المهم عند رسل ليس هو رفع الشعارات أو الأسماء للرأسمالية أو الشيوعية، و إنما المهم هو إنسانية الإنسان، فإذا أمكننا إنجاز شيء ما، فذاك طريق نحو الجنة و العكس صحيح، و إلا كان ذاك الموت الجماعي. إن هذه الأماني تستدعي الحفاظ على السلام و السلوك الحضاري، و هذا ما يسعى إليه رسل من خلال الدفاع أحيانا عن الرأسمالية و أحيانا أخرى ميله للشيوعية.⁽³⁰⁵⁾، كحل لضمان الاستقرار و الطمأنينة حفاظا على بقاء الجنس البشري و نبذ محاولات القتل و الحرب.⁽³⁰⁶⁾

و يثني رسل على أهمية العلم و التعليم في ارتفاع مستوى المعيشة بين الإجراء و جعل الظروف أكثر ملائمة من أي وقت مضى للمطالبة بإعادة البناء الاقتصادي، أي أن الوعي و التفكير يساعد الفرد على العمل على تحسين ظروفه المعيشية و محاربة الاستغلال و الهيمنة الاقتصادية⁽³⁰⁷⁾، خاصة و أن رسل يعتقد أن إمكانات التقدم التقني و وسائل الإنتاج متوفرة أكثر من ذي قبل، لدرجة أنه لن يكون هناك لعدة قرون حاجزا لا يمكن تجنبه يقف في سبيل ازدياد الرفاهية بوجه عام عن طريق الزيادة في الإنتاج للسلع و خفض ساعات العمل في آن واحد.

كما يخالف الرأي السائد الذي يزعم بأن زيادة عدد السكان سيوازيها ندرة و غلاء في المعيشة و الغذاء، فعدد السكان لن يتواصل مستقبلا بنفس الوتيرة، لاسيما إذا كانت طرق الزراعة و أساليبها ستمكن من رفع مستوى الإنتاج و تحافظ بذلك على استقرار الأسعار للمنتجات مع زيادة الطلب الصناعي عليها.⁽³⁰⁸⁾

³⁰³ -- Royden Harrison –. **Ibid.** P .23

³⁰⁴ - Royden Harrison –**Ibid.** P . 30

³⁰⁵ - Royden Harrison –. **Ibid.** P . 38.

³⁰⁶ -- Russell – **Common Sense and Warfare.** , Rutledge edition,London,2001 , P. 56-58.

³⁰⁷ – رسل ، سبل الحرية ، ص 10 .

³⁰⁸ – رسل ، المصدر نفسه ، ص 100-102-104 .

أما بشأن المنافسة في بعدها التقني و العلمي فهي ليست شرا محضا في نظر رسل، فعندما تأخذ صورة التباري في الخدمة العلمية و في اكتشاف الأعمال الفنية أو إنتاجها قد تصبح باعثا مفيدا يحث الناس على بذل جهود منتجة أكثر مما يبذلونه بدونها.

و تتجلى بوضوح العلاقة التفاعلية بشأن موقف رسل من علاقة العلم بالأخلاق و ما يترتب عنها من نتائج على أرض الواقع، حيث يبدو التأثير البارز للعلم في اكتساب أخلاق السياسية الناجعة و الاقتصاد المطلوب و أساليب التربية الخلقية و الاجتماعية الرفيعة، فهو يعدنا بمستقبل أفضل إذا ما التزمنا في مسارنا العلمي بطرق الخير و الفضيلة و يتوعدنا بالشر و البلاء إذا ما أسقطنا اعتبارات المنظومة الأخلاقية من حساباتنا، و عليه تبدو الحاجة ماسة في رأي رسل إلى مراعاة الصلة الوثيقة بين العلم و تطبيقاته من جهة و الأخلاق و مقتضياتها من جهة أخرى، مستدلا بآثار هذه العلاقة عمليا تارة من الواقع السياسي، تارة من الواقع الاجتماعي و الاقتصادي للمجتمع الإنساني و الغربي على وجه الخصوص.

لكن ألا يحق لنا أن نتساءل عن مدى قدرة العلم على توجيه السلوك الإنساني نحو الأفضل و هو سؤال مشروع قد يطرح على رسل بالنظر إلى ما يشهده العالم من خروقات و تجاوزات بالرغم من وجود مجتمعات توصف بأنها علمية، هل يعني هذا أن بنائنا السيكلوجي لم يعد يستجيب للغة العلم و مناهجه؟ هل دوافعنا النزوعية و الفطرية أقوى من أن تنصاع للعلم و تتجاوب مع مبادئ المعرفة الحقة؟ و مهما يكن من أمر، فإننا نعتقد أن تأثير العلم و الأخلاق يبقى نسبياً و بحاجة إلى جهد أكبر لتطويع النوازع الإنسانية و لجم إنفعالاتها المتزايدة و دوافعها الشهوانية و العدوانية المتوارثة.

الفصل الثالث

أهمية البعد الأخلاقي في العلم و تطبيقاته عند رسل.

المبحث الأول : مكانة الأخلاق في تحصيل العلم و المعرفة عند رسل .

1- دور الأخلاق في طلب العلم وأثر الروح العلمية و الاستمولوجية.

يبدو أن شخصية العالم هي أقل الأشياء أهمية في العلم، و أن البحث العلمي نشاط مستمر يقوم به أناس ينكرون شخصياتهم و لا يحرصون إلا على متابعة السير في الطريق، و مثل هذا الطابع اللاشخصي للعلم خليق بأن يجعل مشكلة البحث عن شخصية العالم ثانوية لا مبرر للاهتمام به، و من ناحية ثانية فإن العلماء فئة شديدة التباين و الاختلاف و قد يصل إلى حد الدهشة، إذ نجد منهم من نبغ في مقتبل عمره، و من لم يظهر بنبوغه إلا في مرحلة الشيخوخة، و نجد منهم من يميل إلى البحث المتأني، و منهم من يدافع عن الانبثاق المفاجئ للأفكار الجديدة، و هنا نجد بينهم زهاداً أو مستمتعين بالحياة، و من هذا كله، فهل يكون من الصعب أن نلتمس صفات مشتركة بين العلماء نستطيع أن نطلق عليها في مجموعها " شخصية العالم ؟

و يبدو أيضاً من استقراء حياة الكثير من العلماء ، و التي تُكوّن في مجموعها كيانا متميزاً يستحق أن نطلق عليه اسم شخصية العالم مع الإقرار بوجود توفر هذه الصفات في كل عالم منهم و لا تجعل المرء عالماً آلياً بتوفرها، فلا يكون عالماً إلا بتوفر الكثير منها، أي أن يكون له تكوين من نوع معين و تفكير خاص و معارف و قدرات خاصة على البحث و هي تمثل إجمالاً خصائص التفكير العلمي.

بالإضافة إلى ذلك هناك أيضاً عناصر أخلاقية في شخصية العالم، و المقصود بالأخلاق، الأخلاق المتصلة بعمل الإنسان كعالم و ليس بطريقة سلوك العالم كإنسان، أي بعيداً عن طريقة إدارة شؤونه الخاصة إلا ما كان له صلة بعمله العلمي، و حتى لو كان بطريقة غير مباشرة ، فالعالم قبل أن يكون عالماً هو إنسان، له ما للبشر من جوانب الضعف و الانفعالات و ربما النزوات، و بالتالي فقد تختلف حياته الخاصة بعيداً عن الصورة التي يكوّنها عنه الناس باعتباره عالماً.⁽³⁰⁹⁾

³⁰⁹ - فؤاد زكريا ، التفكير العلمي، ص 1978 ص 211-212.

و فيما يخص مظاهر حياة العالم التي تتصل من قريب أو بعيد بعمله العلمي، يشيع تلخيص القيمة الأخلاقية العليا التي يتميز بها العالم في كلمة واحدة هي الموضوعية، و الموضوعية كلمة شديدة التعقيد لا تفهم إلا بتحليلها وتحليل معانيها و جوانبها المختلفة، و من هذا التحليل نستطيع أن نلقي الضوء على العناصر الأخلاقية التي تكون بدايتها الروح النقدية، و هي أول معاني الموضوعية، بمعنى أن يكون للمرء روح نقدية، أي ألا يتأثر بالمسلمات الموجودة أو الشائعة، وأن يَنقُدَ نفسه و يتقبل النقد من الآخرين، أي تتضمن قدرة العالم على اختبار الآراء السائدة سواء على المستوى العلمي أو العملي أو كلاهما، بذهن ناقد، لا ينقاد وراء سلطة القدم و الانتشار و الشهرة.

و لا يُقْبَلُ من هذه الآراء إلا ما يبدو له مقنعا على أسس عقلية و سليمة، دون أن يعني ذلك العناد المتعمد من كل ما هو شائع، فما يجب في النهاية هو إخضاعها للفحص العقلي الدقيق، فإذا تبين له صدقها مع الاطمئنان، قَبَلَهَا، أما لو تبين له ضعف أو تناقض أو تفكك فيها، تمسك بموقفه الجديد بكل ما يملك من تصميم و إصرار مهما كانت التضحيات التي يعانيتها في سبيل الموقف أمثال **جاليليو**، و هو شيخ عجوز أمام محكمة التفتيش في روما حول دوران الأرض، و **باستور (Pasteur)** في مواجهة علماء عصره في دفاعه عن وجود كائنات دقيقة تسبب التلوث و التعفن والأمراض (البكتريا)، و موقف **فرويد** باكتشافه للدوافع البعيدة للسلوك اللاشعوري .

كما يجب على العالم أيضا أن يفحص آرائه العلمية و يخضعها لمحكمة العقل وحده، فمن الجائز أن يكون هو نفسه قد وقع في الخطأ، و بذلك لزم اعترافه بالخطأ و ما يصاحبه من ألم، فمن السهل أن ينقد الإنسان الآخرين، أما نقده لنفسه فهو من أصعب الأمور.⁽³¹⁰⁾

و إن ما يزيد صعوبة النقد الذاتي هو ما يعنيه كثيراً من هدم حصيلة عمل بذل فيه جهداً شاقاً، فمن الصعب أن ينقد العالم نفسه فذاك يؤدي إلى تنفيذ عمله و تبديد الوقت و الجهد و هو أمر شاق من الوجهة النفسية و الأخلاقية، فقليل منهم تتوفر لديهم القدرة على مراجعة النفس بأمانة و ما تنطوي عليه من قيم أخلاقية رفيعة من إنكار للذات و التنكر لجهودهم بمحض إرادتهم.

³¹⁰ - فؤاد زكريا ، المرجع السابق ، ص 121-213.

و أخيراً يجب على العالم أن يتقبل النقد من الآخرين و هي صفة أساسية ينبغي أن يتحلى بها العالم، فإذا كان لكل عاداته الفكرية الخاصة و أسلوبه الخاص في معالجة الأمور و تكوينه الفردي المتميز، الذي ينعكس حقاً على عمله العلمي، فيعجز عن رؤية الضعف أو النقص فيه و يحتاج حينها إلى مُتأملٍ بعيونٍ أخرى لكي يرى فيه ما لم يراه صاحبه، ما دامت الحقيقة العلمية في مراحل تكوينها بحاجة إلى تضافر عقول كثيرة و إلى حواسها، وهو ما أدركه قدماء الفلاسفة حين أكدوا أن الجدل، بمعنى مشاركة أكثر من عقل واحد في السعي إلى بلوغ الحقيقة، هو طريق المعرفة و هكذا أصبح النقد جزءاً لا يتجزأ في الممارسة العلمية. (311)

لاشك أن رسل يقف موقفاً مؤيداً لهذه العناصر التي تستدعها الممارسة العلمية و يقتضيها البحث العلمي، و بالتالي تتجلى لنا أهمية العناصر الأخلاقية في سلوكيات و يوميات العلماء حينما يتجه هؤلاء لاكتشاف الحقائق و البحث عن العلل و المقاصد، مع ضرورة أن تتجسد هذه القيم في الواقع العلمي و لا تبقى مجرد شعارات ترفع في مناسبات بعينها، ولا يمكن إغفال ما قام به رسل من جهود لتحسين هذه العناصر و القيم الأخلاقية في المجتمعات الغربية و التي تفرض قيماً ليس من اليسير تحديها و طيها، فكان لزاماً على رسل العمل على فحصها و مراجعتها و التدقيق فيها و وضعها على محك العقل و المنطق، فدعا بذلك إلى تجاوزها و التخلص منها، بالتححرر من سلطان التقليد و منطق سيادة العرف و العادة، و فكر التبعية و الانقياد، و لم يكن من الممكن القيام بذلك إلا بإرادة و عمل شاق و نضال مستمر صاحبه الكثير من التهم و المضايقات لاحقته في الداخل و الخارج .

311 - فؤاد زكريا ، المرجع السابق ، ص 215.

و بفضل التراث النقدي الذي استمر أجيالا كثيرة في البلاد المتقدمة، اكتسب نوعا من القداسة و ازداد طابعه الموضوعي و أصبح الناقد يشعر و هو يمسك قلمه بمسؤولية لا تقل عن مسؤولية القاضي و هو يصدر أحكامه، فالناقد هو بالفعل قاض في الميدان العلمي و الفرق الوحيد هو أن القاضي لا يتناول إلا حالات الخروج على القانون، على حين أن الناقد يعالج الحالات الإيجابية و السلبية معا، إذ أن مهمته ليست إبراز العيوب فحسب، بل و امتداح المزايا أيضا، و فيما عدا ذلك، فإن الضمير النقدي في البلاد المتقدمة قد اكتسب حساسية و رفاهة لا تقل عن الضمير القضائي و كلاهما يصدر أحكامه عن دستور أو تشريع موضوعي، القاضي عن بنود القانون، و الناقد عن المنطق السليم و المعارف العلمية المستقرة و هو ما لم يتبلور بعد بالقدر الكافي في أوساطنا العلمية لغياب عوامل تطور الضمير النقدي من تراث نقدي و خلط بين الخاص و العام، أي إكرام القريب و إجحاف البعيد عنا.⁽³¹²⁾

أما الوجه الآخر لموضوع النقد هو أن نعترف بفضل الآخرين على أعمالنا، فنحن ندين لمن نقرأ لهم بقدر كبير من معارفنا، و بهذا فالعلماء و الكتاب في البلاد التي رسخت فيها تقاليد العلمية يحاولون بقدر ما في وسعهم رد الفضل إلى أصحابه، فلربما نرى أن المؤلف يعدد في مقدمة كتابه أسماء مجموعة ضخمة من الأشخاص بعضهم ناقشه مناقشة قصيرة حول موضوع، و أحيانا يذكر الأستاذ فضل تلاميذه الذين ألهموه بأسئلتهم و استفساراتهم - كثيرا من أفكاره - أما الإشارة إلى الاقتباسات من المراجع الأخرى فقد أصبحت تقليداً ثابتاً لا يخالفه أحد، و هو ما لم يستقر في بلادنا، بل مخالفته قد تتخذ أحيانا أبعادا مؤسفة كما يحدث في حالة السطو على أعمال الآخرين التي ينسبها المرء إلى نفسه دون وازع من ضمير، مما يوحي بفقدان هذا المبدأ حتى في الأمور البسيطة، فلا تستقيم الحياة العلمية إلا باستقامة حياتنا البسيطة، مما يحتاج إلى قدر من الشدة، بحيث يلقي مرتكب أعمال السرقة العلمية جزاءً رادعاً، و بعد ذلك يتحول السلوك العلمي القويم إلى عادة متأصلة في النفوس.⁽³¹³⁾

³¹² - فؤاد زكريا ، المرجع السابق ، ص 216.

³¹³ - فؤاد زكريا ، المرجع نفسه ، ص 217-218.

و ينبغي أن نشير إلى ما لمسناه من التزام لدى رسل في الحث على هذه الفضائل العلمية و التحلي بها عملياً، لاسيما أثناء اتصالنا المباشر بمؤلفاته و ما خلفه من آثار فكرية، فكان شديد الحرص على التنويه بالموضوعية في تناول أفكاره و عرض ما يقابلها من آراء مختلفة، و يقدمها دون تغيير أو تعديل في فحواها، و يشير إلى الواقع دون تزييف أو مغالاة، بالإضافة إلى تقييده بالشروط الأكاديمية في نشر مؤلفاته مستعرضاً إسهامات الغير في إنجازها كما هو الحال في مؤلفه الذي عكف فيه على دراسة علم المنطق الرياضي وأصوله، تحت إشراف أستاذه ألفرد نورث وايتهد (Alfred North Whitehead).

أما النزاهة و هي معنى أساسي من معاني الموضوعية و هو ما لمسناه عند الحديث عن الروح النقدية و التي ترتبط بصفة النزاهة، و تعني النزاهة البدء باستبعاد العوامل الذاتية من عمل الباحث العلمي، فحين يمارس العالم هذا العمل، ينبغي عليه أن يطرح مصالحه و ميوله و اتجاهاته الشخصية جانباً وأن يعالج موضوعه بتجرد تام و الاعتماد فقط في الإقناع، على الدليل و البرهان الموضوعي و التجرد أيضاً من الربح المادي، أي السعي إلى الحقيقة وحدها بغض النظر عما يمكن أن يجنيه من ورائها من مغام، و يتجلى ذلك عموماً من خلال تقسيم أفلاطون للبشر، فمنهم محبي الكسب و هم التجار و منهم محبي الشهرة و هم الحكام و العسكريين و محبي العلم و المعرفة و هم العلماء و الفلاسفة، و هم لا ينتمون إلى الفئتين السابقتين (التزام الزهد).⁽³¹⁴⁾

إن تلك الخصائص التي سبق ذكرها أنفاً، هي بالتحديد ما يدعو إليه رسل إذ يسلم مبدئياً أن المعرفة هي الهدف الأسمى، وهي التي تميز الإنسان عن الحيوان، و حياة العقل هي الأصل، أما حياة الجسد فلا تخرج عن كونها الوسيلة التي لا غنى عنها لنمو الروح. و يعتبر رسل أن كل ما يقف حجر عثرة أمام الخلق و الإبداع و الاستعداد للابتكار في الفنون و العلوم من قبل مجموعة من الناس في وجه فئة مبدعة لا يستحق إلا الإدانة و الاستنكا، و واجب المجتمع الأمثل أن يقوم بتوفير أشياء لا غنى عنها للتقدم الروحي فيه، يجب عليه أن يمد أفراده بالخبرة الفنية و وسائل المعرفة، كما أنه يجب أن يمنح أفراده الحرية في إتباع نزعاتهم الخلاقة⁽³¹⁵⁾.

³¹⁴ - فؤاد زكريا ، المرجع السابق ، ص 219.

³¹⁵ - رمسيس عوض ، بوتراند رسل المفكر السياسي، ص 35-36.

و تماشياً مع موقفه السابق، يدعو أيضاً إلى رفع كافة الحواجز والعقبات البيروقراطية أمام أشكال الإبداع الفني والعلمي، فهو يرى أن الفن نابع من الجانب الفوضوي في طبيعة الإنسان و هو يأبى الخضوع للنظام، فالنظام يلف حبل المشنقة حول الفن، فيفضل رسل مجتمعاً رأسمالياً بكل آثامه أفضل من نظام اشتراكي بيروقراطي يشدد الخناق على القدرة على الإبداع و الابتكار.⁽³¹⁶⁾

و من هنا يتضح لنا حرص رسل على وجوب احترام حرية الأفراد بصفة عامة و العلماء و الباحثين و الفنانين بصفة خاصة باعتبارها شرط الإبداع و الابتكار والحافز على تحقيق التقدم و الرقي، أما الوصاية و التضيق و السيطرة فليس من شأنها إلا أن تبعث على التمرد و العصيان، و تقتل روح المبادرة الفردية و تحاصر كل جهد باعث على الأمل و الانفتاح على غد فيه إشراق و أمل.

و بحثنا كذلك على ضرورة احترام البحث العلمي لقوانين اللغة العقلية الشاملة أو بتعبير سقراط إلزامية التقيد بقواعد المنطق الجدلي، أي ضرورة عرض الأفكار دون التطرق لها والقبول بنقدها ومعارضتها ووضع هامش الخطأ (النسبية) فيستطرد في سياق ذلك قائلاً بأن " الشيء الوحيد الذي ينبغي على البحث العلمي احترامه هو قوانين اللغة العقلية الشاملة أو بتعبير سقراط (الديالكتيك).⁽³¹⁷⁾

و للتفصيل أكثر، فإن المراد من ذلك هو ضرورة التحلي بالأمانة العلمية في عرض القضية و نقيضها و استحضار كافة الشواهد و القرائن التي وظفها أنصارها للدفاع عنها، مهما كانت طبيعة الحجة، و تقديم عموم منطلقاتهم و مسلماتهم حتى و إن كانت تبدو لنا في رأينا مجانبة للصدق و الحقيقة في بعدها الصوري أو الواقع أو كلاهما معاً، ثم بعد ذلك إخضاع هذه القضية للنقد و المراجعة بميزان العقل و المنطق و الواقع و استظهار ما للرأي من إيجابيات و سلبيات بالإقرار بالفضل في حالة ملامسة الصواب و الدعوة إلى تصحيح المفاهيم و الوقوف عليها بالنقد و التقويم إن أمكن عملاً بقاعدة شافعية ، رأينا صواب يحتمل الخطأ، و رأيكم خطأ يحتمل الصواب.

³¹⁶ - رمسيس عوض ، المراجع السابق ، ص 36.

³¹⁷ - رسل ، حكمة الغرب - ج1، ص ، 17 .

و يعتقد رسل أيضا أنه من الضروري الاعتقاد بإمكانية تحقيق العديد من الإنجازات العلمية مع الإصرار و الصبر والإلحاح، مع التأكيد على واجب إتباع المنهج العلمي الصحيح، و أنه يجب التعويل على تضافر الجهود و أعمال عقول كثيرة و استثمار أيادي كثيرة، و الإيمان أيضا بأن قدرة الإنسان على العطاء و الابتكار غير محدودة، دون أن ينسى إلزامنا بأن نضع في الحسبان أن كافة المشاريع إنما يكمن هدفها في خدمة الإنسان بالدرجة الأولى، و أن تسخر هذه المنجزات العلمية لخدمة أهداف إنسانية، و ما التهديد الذي يواجهه الإنسان المعاصر إلا نتيجة غياب هذه الاعتبارات.⁽³¹⁸⁾

و أما النزعة القومية في العلم في نظر رسل، فكانت أشد خفاء من النزعة التجارية التي تعلن عن نفسها صراحة و بلا موارد، إذ أن دول العالم المعاصر و أوساطها العلمية لا تكف عن ترديد القول أن العلم لا وطن له، و أنه يتخطى الحدود القومية ، ومثله في ذلك مثل تخطيه للحواجز السياسية و العقائدية، فالحقيقة العلمية تفرض نفسها على العقل في أي مكان أو زمان، بقوة المنطق و البرهان وحدها، أي أنها بطبيعتها العالمية بعيدة عن كل تفرقة قائمة على أسس قومية، و لكن إذا كان هذا هو ما يعلنه الجميع، فإن الممارسات الفعلية تختلف عن ذلك في كثير من الأحيان.

و في نفس الوقت الذي يؤكد فيه الناس عالمية العلم، تظهر لديهم انتماءات قومية، فالأمثلة التي يضر بها المؤلفين الفرنسيين أو الاكتشافات العلمية الهامة نجد أغلبها مستمداً من علماء فرنسيين، و حديث الإنجليز عن تاريخ العلم هو حديث عن دور علماء إنجليز فحسب، و هو نفس الأمر بالنسبة للألمان، بل بين الغرب و الروس عند حديثهم عن دور ريمان و لوباتشفسكي في وضع الهندسة اللاإقليدية بحكم الانتماء القومي لكل منهما، و هذا ما نستشفه أيضا كملاحظة عند الحديث عن نظرية التطور، فالكتاب الفرنسيون يتحدثون عن بيفون و لامارك أكثر مما يتحدثون عن داروين و عن لافوازييه في الكيمياء و باسكال في الفيزياء أكثر من نيوتن.⁽³¹⁹⁾

³¹⁸ - رسل ، المصدر السابق - ج1، ص 18 .

³¹⁹ - فؤاد زكريا - التفكير العلمي .، ص 248-249.

و يستوقفنا رسل هنا بشكل لافت، ليقرر أن تطور العلم و تقدمه يحتاج إلى قاعدة تعليمية صلبة تقوم على غرس مجموعة من الفضائل في المتعلم طوال مسيرته التعليمية والتكوينية، ومن أهم هذه الفضائل توسيع مجال الدوافع التي توفرها الطبيعية البشرية، أي استثمار استعدادات المتعلم و قدراته العقلية، وذلك بزيادة أشكال الأفكار المتاحة و بث روح حب الإطلاع و البحث عن الحقيقة و تمكينه من الفضائل التي تجعل الفرد أكثر نضجاً و إسهاماً في الحياة العلمية.⁽³²⁰⁾، بمعنى توفير الشروط الموضوعية الكفيلة بنقل قدرات الأفراد باستخدام مصطلح أرسطي من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل.

لكن في رأينا أن القدرة على تحقيق ذلك تبقى نسبية بحكم تفاوت المجتمعات و إمكانياتها، ثم لماذا لا تتوفر هذه الإمكانيات إلا بعد الانتقال إلى أحضان المجتمعات الغربية، و كأننا أمام انتقائية في توفيرها لدى البعض و تجاهلها لدى عينات اجتماعية مغايرة؟ أم أن قدر تلك المجتمعات أن تعيش التهميش و التخلف و تتعرض إلى القرصنة لمقدراتها و كفاءاتها العلمية و الفكرية .

و من ناحية أخرى، يزعم رسل أن وظيفة الجانب الأخلاقي تكمن في جعل الفرد بعيداً عن سلوكيات الإنسان البدائي و تحطم فيه أيضاً بدائية الغريزة و الزيادة من المعرفة و الثروة التي يكتسبها الفرد من خلال اتصاله بالعالم الخارجي، فيكون بذلك "مواطناً كونياً" (**Citoyen Universel**)، يهتم بالبلاد البعيدة ، وليس مجرد وحدة معزولة مقاتلة حسب تعبير رسل المشار إليه اقتباساً بالقول " أن هذا التخفيف المتحرر من إلحاح الرغبة و توسيع مجالاتها يعد الهدف الرئيسي من التعليم." ⁽³²¹⁾

و في معرض حديثه عن الأخلاق في بعدها التربوي، يبين لنا رسل أن هدف التعليم الأخلاقي يكمن في الجانب الفكري، إذ أن التعليم هو سعي لجعل الفرد يتخيل و يرى العالم بشكل موضوعي متى كان ذلك ممكناً وعلى النحو الذي هو عليه، وليس مجرد رؤية مشبوهة لرغبة شخصية، وذلك يمثل في طرح رسل هدفاً أساسياً و منشوداً، كما يقتضي أيضاً إعطائنا نظرة حقيقة لوضعنا في المجتمع و علاقتنا بالمجتمع الإنساني بكامله و البيئة الإنسانية بعيداً عن رغباتنا واهتماماتنا، بمعنى أن الغاية القصوى للتعليم تكمن في جعل الفرد متفتحاً على العالم الخارجي و قادراً على التعامل مع مختلف التحديات التي تفرضها ضرورات التكيف معه

³²⁰ - رسل ، عبادة الإنسان الحر، ص 59-60

³²¹ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 60

سواء كانت هذه التحديات تتصل بالعالم الطبيعي أو الاجتماعي مما يوجب التعامل مع هذا الواقع بصدق دون مبالغة أو استهتار أو إملاء و توجيه من قبل سلطة وصية .⁽³²²⁾

و يقف أيضا على أهمية الفضائل الأخلاقية في طلب العلم بالتأكيد أنه لا شك أن أفضل العوالم هو ما يقتضي و يحتاج إلى المعرفة واللفظ والشجاعة ، وليس فقط الاعتماد على المعتقدات السائدة التي دعا إليها أناس جهال.⁽³²³⁾، فيرى أن المعرفة بإمكانها أن تساعدنا على التخلص من المخاوف التي عاشها الإنسان لأجيال عديدة.⁽³²⁴⁾، و هنا نلمس دعوة صريحة لتجنب التقليد و الإلتباع في الآراء و المعتقدات و ضرورة ممارسة العمل الإستمولوجي ووضعه تحت محك النقد الذي بلا شك سيمكننا من الكشف عن الأوهام و الأخطاء و الممارسات الاجتماعية الزائفة خاصة التي تتسلل إلى الأفراد عن طريق التلقين و التنشئة الاجتماعية مثلها في ذلك مثل أوهام الكهف و المسرح و السوق و القبيلة التي أشار إليها مؤسس النزعة التجريبية في العصر الحديث فرنسيس بيكون، فتتحول لاحقاً إلى مخاوف تتحكم في السلوك تماماً مثل ما انتهت إليها دراسات علم النفس الحديث لاسيما مدرسة التحليل النفسي.

و مع ذلك يجب أن نتحفظ على بعض التعميمات التي وردت على لسان رسل ، فمن الطبيعي أن يحتك الفرد بزمرته و عشيرته، فهو قبل كل شيء و من زاوية اجتماعية ابن بيته على حد تعبير علماء الاجتماع بدءاً من أرسطو القائل بأن الإنسان مدني بطبعه، مروراً بابن خلدون و انتهاء بأوغست كونت و دوركايم و ليفي برويل و جون بياجي، فلا يمكن لشخصية الفرد أن تنمو و تكتمل إلا بالتطبع و التواصل مع الغير و لا يتعرف على العالم الخارجي إلا في حدود التجربة الاجتماعية و التربية و التعليم و الثقافة التي تتيحها للفرد مختلف مؤسسات الدولة. من هنا من الصعب إهمال هذا الدور الذي يقوم به المجتمع الذي لا شك أنه لا يلحق على الدوام الأوهام و لا يكرس في كافة مراحل التنشئة ثقافة الخوف و التقليد .

³²² - رسل ، المصدر السابق ، ص 60.

³²³ - Russell – **Why I'm not Christian** – ترجمة خاصة – Touchstone edition, London, 2004 ..p. 15

³²⁴ - Russell – **Ibid** – ترجمة خاصة – p 14-15

و يبدو تأثير البعد الأخلاقي أيضا من خلال مرافعة رسل بوجوب عدم الالتفات أكثر نحو الماضي و التوجه بشكل أفضل نحو المستقبل لما ينتظر أن يقدمه الفكر البشري و قدرته على الابتكار من إنجازات هامة.⁽³²⁵⁾ و بذلك يطلب من النخبة العلمية و مؤسسات المجتمع أن تتطلع إلى المستقبل و لا تحصر اهتمامها في التجارب الماضية و تقف فقط على إنجازات الغير. و هذا يعني ضمنا ضرورة مواكبة ديناميكية الأبحاث العلمية و مستجداتها و التعرف على آخر ما انتهت إليها الابتكارات التكنولوجية، و أن يكون لهذا المجتمع تأثير إيجابي وفعال في حاضره و مستقبله.

و لعل أفكار رسل هذه تحيي إشكالية فلسفية قوامها كيفية التوفيق بين الأصالة و المعاصرة، و هي إشكالية لازالت بعض المجتمعات تجد صعوبة في حلقتها، بين متمسك بالأصالة على حرفيتها و داعياً للمعاصرة بقطيعتها المطلقة مع الماضي و ملابساته و حيثياته، بهدف تحقيق التقدم و فرض الذات، لكننا نعتقد أنه حتى و إن كان الحل ممكناً نظرياً للخروج من هذا الإشكال من خلال دعوة بعض المعتدلين و الوسطيين للحفاظ على ثوابت الأمة و مساندة مقتضيات الراهن و التفكير في المستقبل آسوة ببعض تجارب الشرق الآسيوية الناجعة على غرار التجربة اليابانية و الماليزية، إلا أن تحقيق ذلك عملياً ليس متاحاً للجميع لاسيما في ظل الظروف الجيوسياسية الراهنة التي ترفض وجود كيانات اجتماعية تزاخمها ثقافياً و علمياً و تنافسها إيديولوجياً و عقائدياً، و من هنا كانت هذه التوصيات التي قدمها رسل موجهة للخاصة دون العامة من المجتمعات.

و على هامش تحري البحث عن الحقيقة و طلبها لذاتها، يؤكد رسل أن معيار صدق الفروض العلمية هو خلوها من التناقض بحيث أننا نقبل منها ما كان أكثر درجة للتأكد منها و نضحي بأقل تأكيداً، ما لم يكن هنالك عدد كبير منها مناقضاً لعدد صغير جدا من الأكثر تأكيداً، و هذا ما لا يقبل به رسل إذ يرفض اختزال الفروض كما نادى بذلك المناطقة، و يقبل بكثرتها.⁽³²⁶⁾ ، فالكشاف القوانين العلمية يقوم على قواعد تجريبية منهجية صارمة، من بين خطواتها الفرضية التي تمثل ثاني مرحلة من مراحل الاستقراء التجريبي، إلا أن الواضح أن رسل يعارض المناطقة في آلية وشروط بناء و صياغة الفروض العلمية، فلا يعارض القبول بكثرتها و يرفض اختزالها في عدد محصور و استبعاد ما لا يتفق مع ضرورات المنطق و من أهمها الحرص على شرط الانسجام الداخلي بين المقدمات و ما يلزم عنها من نتائج.

325 - Russell – Ibid – ترجمة خاصة – p 15.

326 - رسل ، ما وراء المعنى و الحقيقة، ت، محمد قذري عمارة، القاهرة، 2005. ، ص 139.

و هنا ينبغي لنا أن نقف موقفا نقديا يتأسس على ضوء حقائق علوم عصرنا و خطواتها الاستدلالية في ميدان العلوم الاستقرائية، و التي تقرر إجمالا بأهمية الفروض العلمية باعتبارها خطوة عقلية تفسر ظواهر الكون و تحدد علله بشكل مؤقت، لكن ليس المهم في عددها كما اعتقد رسل بقدر ما يهمنا فيها من قدرة على تصور هذه الوقائع بشكل منطقي سليم، و السلامة لا تتأتى إلا إذا تطابق الفكر مع نفسه بأن يكون خاليا من التناقض الداخلي بين المنطلقات و النتائج على المستوى الصوري من جهة، و مع الواقع من خلال تطابق الفكر في نتائجه مع ما يقره الفحص التجريبي، و بالتالي فمن الأجدى أن نولي مسألة الصدق المنطقي الصوري اهتماما، و لا نهمل للكثرة على حساب اللزوم المنطقي و اتساق الفكر استداليا.

و بالإضافة إلى هذا، يراجع رسل رأيا سائداً بالقول أن المعرفة لا تكون يقينية إلا إذا كانت المقدمات التي ننتقل منها معروفة لدينا تجريبيا، فلا يمكن أن يكون الحكم صحيحا بمجرد أن يكون الانتقال من المقدمات إلى النتائج سليماً، فقد تكون المقدمات التي ننتقل منها غير معروفة لدينا و بالتالي قد نقع في الخطأ.⁽³²⁷⁾، و من بين دواعي الخطأ حسب رسل، بعض معتقداتنا التي قد تبدو صحيحة ظاهرياً، أي صحيحة من خلال انسجام المنطلقات مع النتائج، و لكن هذا غير كاف و بالتالي قد تحملنا على الأخطاء.⁽³²⁸⁾.

و هنا كذلك نفتح قوساً لمناقشة هذه الأفكار، فمن الجلي اليوم أن الحقائق التي نتوصل إليها لا تعدو أن تكون نسبية و عليه من النادر أن نعثر على حقائق يقينية و مطلقة، ثم أن المنطق الأرسطي قد أثار هذه المسائل عندما تحدث عن المغالطات و الاغلوطات التي ترد في المقدمات و التي ترتب عنها فيما بعد أقييسة فاسدة، بغض النظر عن طبيعتها صورية أم تجريبية كانت، فكانت الحاجة حينها لتصنيف الأقييسة المنتجة و الأقييسة الفاسدة و التي تضع حداً لمثل هذه التجاوزات في إصدار الأحكام و تقرير الحقائق، لاسيما بعد أن أتعبت هذه المغالطات أفلاطون في جدالاته التاريخية للفلاسفة السفسطائيين.

³²⁷ - Russell – **The Problems of Philosophy**. Library edition, London, 1976. P 44-45.

³²⁸ - Russell – **Ibid** . P. 45.

إن أهم ما دعا إليه رسل هو احترام عقول الآخرين و قبول الرأي الآخر وضرورة تقويض أشكال التعصب والتطرف باعتبار أنها تتنافى مع ما تقتضيه المعرفة العلمية من خصال وخصائص الروح العلمية فيخبرنا عن ذلك بأنه لا بد للعقل أن يسود ولا بد للحكمة أن تنتصر ولا بد للتسامح أن يدك معاقل التعصب و لا يمكن تجسيد هذه الآمال إلا من خلال العلم النافع و التطبيق العملي المفيد و الدعوة إلى خدمة صالح الإنسان و جميع كل من يقاسم هذه الأهداف النبيلة شرقاً وغرباً للنهوض بها في الغد القريب.⁽³²⁹⁾

و يبقى أن نتساءل حول كيفية تجسيد هذه الفضائل و القيم في ظل واقع جعل منها معانٍ مزيفة و مميعة، فبين الأقوال و الأفعال بون شاسع، فالأفراد و الحكومات يدعون في كل مناسبة إلى العمل على نشر هذه القيم و لكنهما في أفعالهما يدفعان فيما تبقى من أفراد إلى العنف و القوة باستغلال كافة الوسائل المتاحة التي يضعها العلم تحت الخدمة، و من ثمة يقللان و يُبعضان فرص إحلال التسامح و الحكمة و يشجعان على التطرف و الكراهية، فكان حرياً برسول تقديم أساليب تقويض هذا النفاق و التعارض الصريح بين الأقوال و الأفعال .

و تتجلى بعد هذا حقيقة رسل باعتباره من أنصار العقل و الحكمة و من المشككين في جدوى العواطف، فيدعو إلى استخدام العقل و الاعتماد على أحكامه وحدها، و من ثمة أراد أن يطبق المنهج العلمي في التفكير و حتى على المنازعات في المجالات السياسية، أي معالجة الخلافات السياسية بنفس الكيفية التي تعالج بها المسائل الرياضية، أي الالتزام بالحياد و الموضوعية و إبعاد التحيز و الذاتية، فيؤكد بأن المنهج العلمي في التفكير يحميناً من التعصب و ضيق الأفق و من الشطط و التطرف و الاضطهاد.⁽³³⁰⁾

³²⁹ - رمسيس عوض ، بورتواند رسل المفكر السياسي ، ص 06.

³³⁰ - رمسيس عوض ، المرجع السابق ، ص 10.

و يزعم أيضا أن بعض العادات و التقاليد القديمة لا أساس لها من الحكمة و التفكير وأنها تعبر عن أخطاء ناتجة عن التقليد، و بالتالي يدعونا إلى عدم الوثوق بها لأنها قد تسبب أضرارا و آثارا وخيمة، لذا يجب ألا توضع أية عقبة في طريق الفكر أو التعبير عنه، أو في تقرير حقيقة ما، فيستعرض لنا رسل عن هذا الأساس و القانون الذي يحكم حياة كل مفكر حر بالقول أن " النتيجة الوحيدة التي نصل إليها من كل هذه الأمثلة أنه يجب ألا توضع أية عقبة في طريق الفكر أو التعبير عنه، أو في تقرير حقيقة ما. هذا القانون هو أساس الحياة لكل مفكر حر. و مع ذلك فإنه لن يتحقق في يوم من الأيام، بل لقد صار عبر أوروبا - من أقصاها إلى أقصاها - حقيقة خطيرة يتعذب بسببها المفكرون، و يقاسون من جرائمها السجن و التشريد و القتل." (331)

و يلح رسل على ضرورة تجاوز هذه العوائق بمنهج يتأسس ابستمولوجياً على التساؤل و التشكيك الذي قد ينتج العدا و الاضطهاد، و هنا يدعونا على سبيل الإيضاح إلى التشكيك في المعتقدات المعتقدية مبرراً ذلك أن كراهية الآراء الجديدة سببها أن القوة الحاكمة مرتبطة بالمعتقدات القديمة مشيراً إلى ذلك بعبارة دالة في شكلها و مضمونها أن " السبب الثالث الذي يحمل الناس على كراهية الآراء الجديدة فهو أن القوة الحاكمة مرتبطة بالمعتقدات القديمة، و يمكن اعتبار النزاع بين الكنيسة و العلم منذ ظهور " جيوردانو " حتى " داروين"، شاهداً على هذا السبب و كذلك الفرع من الاشتراكية في الماضي القريب." (332)

و يفسر رسل مجدداً أن تأخر الفكر الإنساني على الإبداع مرده وجود عوائق تقف حاجزاً أمام مساعي التجديد و الابتكار، فيفصح عن ذلك بعبارة منسوبة إليه بأنه " كم من الناس من يقضي حياة تفكير و تأمل طويلة دون أن يبتدع أو يبتكر شيئاً جديداً أصل الجدة. و كان من الواجب في مجتمعاتنا المتحضرة اختفاء مثل هذه العقبات من المجتمعات التي تتطور و تتغير بسرعة و تتمشى مع مطالب الزمن، و التي تفتح فيها على العقلية و مظالم و حقائق هذا الكون. وكان ينبغي أن يكون هناك تشجيع على قدر الإمكان للمعتقدات و الآراء و المقترحات الجديدة بدلا من كبتها و محاربتها." (333)

331 رسل ، مثل عليا سياسية ، ص 45 .

332 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 46 .

333 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 46-47 .

و لعل المقصود هنا هو وجود عقبات موضوعية تحول دون إعطاء فرص ممكنة للأفراد للإبداع و الإسهام في تطوير مجتمعاتهم لأسباب متعددة لاشك أن من أهمها غياب الحرية و الوسائل المادية التي تعتبر شروطاً ضرورية لأي إنتاج معرفي، إلا أننا لا نتفق كل الاتفاق مع هذا الطرح لسببين بسيطين، فكثيرة هي البلدان التي أنجبت العديد من المبدعين بالرغم من افتقارها لأدنى الشروط المادية، و تمكنت مجتمعات أخرى من الاستفادة منها في ظل عدم اكتراث معلن ومقصود بهذه الفئة من المجتمع، و من جهة أخرى فإن رفع كافة العقبات أمام الأفراد لا ينبج بالضرورة مخترعين و مبدعين، بل بالعكس، يمكن لهذه الحواجز أحياناً أن تثمر إبداعاً وتجديداً.

و يذكرنا أن المنهج العلمي الصحيح هو الذي لا يقوم على التصديق المتسرع ، و يقوم بفحص و تمحيص المعتقدات و الأفكار السائدة، حيث يدعونا إلى ممارسة العمل الإستمولوجي عند التعامل مع الوقائع والأحكام و المعتقدات عن طريق التحليل و الفحص والغريلة و التشكيك مع عدم إنكاره أن هذه المعتقدات قد تكون مفيدة بالنظر إلى أهميتها في صياغة الفروض العلمية .⁽³³⁴⁾

و تتجلى لنا براغماتية ديوي و بيرس في فلسفة رسل، بقبوله للأفكار التي يصفها بالزيف و يلح على وجوب تحليلها و تفكيكها، و في ذات الوقت لا يمتنع عن الأخذ بها في بناء الصرح العلمي الذي يرى في الموضوعية على أنها أهم شروط العلمية، ولا تختلف حينذاك فلسفة رسل في أبعادها عن الطابع العام الذي تميزت به الفلسفة الانجليزية عن بقية النماذج الفلسفية الأخرى.

و في نفس السياق، يؤكد أن الخيال مهم في العلم دون أن يعني ذلك الإشارة بالقول إلى أهمية الأحلام سواء كانت أحلاماً في حالة النوم أو أحلام يقظة المتمثلة في أصلها في الطقوس و الخرافات و الأديان حسب رسل و التي اعتمدت على الخيال وبموجبه تفسر و تعلل الوقائع و الأحداث العلمية و التي عادة ما تكون فاقدة إلى كل تبرير علمي ولا تتطابق مع حقائق و نتائج التجربة.⁽³³⁵⁾

³³⁴ - رسل ، المجتمع البشري في الأخلاق والسياسة، عبد الكريم أحمد، مكتبة الانجلوالمصرية، القاهرة، 1986 ، ص 167 .

³³⁵ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 168 .

و سياق هذه التوصيات هو اعتقاده أن هناك عدة معتقدات لاعقلية يحركها فقط الميل إلى الاعتقاد بأن العلل في الطبيعة لا بد أن تكون مشابهة لرغباتنا و مشاعرنا، ويضرب لنا أمثلة، فالبراكين و الزلازل تعطي الانطباع مثيلة لمظاهر الغضب، أي أننا نعتقد أن روحاً غاضبة هي السبب في ذلك، و في نفس الوقت نظن أن روحاً طيبة ترسل المطر و تحمل الزرع على النمو، بل أن هذه المعتقدات تسللت إلى ما يعتقد أنه في قمة الصرامة في التفكير وطرق الاستدلال التي وضعها أرسطو، ولم يسلم من هذه المعتقدات حتى التفكير الأرسطي الذي يزعم مثلاً أن الكواكب تحتاج إلى تسعة وأربعين إلهاً يدفعونها لتظل دائرة في أفلاكها.⁽³³⁶⁾

و للدفاع عن هذا الطرح، يستثمر رسل العديد من الشواهد والحقائق التاريخية لدعم موقفه من بينها اعتقاد العديد من رجال الدين أن المذنبات نذير شؤم و تنذر بالثورات و الأوبئة و الحروب و العواصف مثال ذلك الراهب الإنجليزي بيد (Bede)، و يذهب تقريباً إلى نفس القراءة جون نوكس (Joh Nox)، إذ يزعم أن المذنبات دليل على الغضب الإلهي و هو ما كان يعتقد أيضاً شكسبير من باب الاحتمال.⁽³³⁷⁾ و يسوق لنا رسل أيضاً حجة تاريخية هامة للتدليل على صدق أحكامه، فمن وجهة رأيه أن الإنسان لم يتجاوز التفسير السلي للظواهر الكونية على شاكلة المذنبات واعتبارها نذير شؤم، إلا بعد البرهان عليها من طرف المتشبعين بالوضع العلمية، فتبين أن هذه الظواهر ليست سوى مجرد إتباع لقوانين الجاذبية و أنها نتيجة تقويم علمي وحساب تحريبي لمساراتها، فنقلا عن رسل أنه لم يتوقف اعتقاد البشر في كون المذنبات إنذار شؤم حتى تم البرهان عند المتنورين على أنها تتبع قوانين الجاذبية وأن مسارات البعض منها يمكن حسابها.

أما في عهد شارل الثاني، فكان الرفض للمعتقدات من الصفوة المثقفة جلياً، إذ أدرك الملك حينها أنه يمكن للعلم أن يكون حليفاً له في نزاعه مع خصومه المتعصبين (Fanatics) وعلى رأسهم كرمويل، فسارع إلى تأسيس الجمعية الملكية (The Royal Society)، فاقتزنت بذلك الرغبة في العلم وتفشى التنوير بصورة تدريجية من البلاط الملكي إلى الأوساط الشعبية.

³³⁶ - رسل ، المصدر السابق ، ص 170 .

³³⁷ رسل ، أثر العلم في المجتمع، ت ، صباح الصديق الدمولوجي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008، ص 22-23 .

و بخلاف ذلك توجه الملك الذي أبدى إعجابه بالكثير من مفكري العصر الحديث أمثال هوبز و هيوم، وأظهر انزعاجه من التضيق على الحرية، غير أن مجلس العموم البريطاني لم يشاركه نفس النظرة المحدثة نفسها و لم يقاسم الملك رغبته في تعميم المعرفة و نشرها، فبعد نشوب حريق لندن و انتشار وباء الطاعون اللذين اجتاحا العاصمة البريطانية، انتهت لجان التحقيق أن سبب هذه الوقائع تعزى إلى الغضب الإلهي و أن أكثر ما أغضب الرب هو كتابات **توماس هوبز**، و من ثمة أوصت بعدم نشر أعماله في انكلترا بالرغم من تكرار الحدث مجدداً، فعم الوباء واحتترقت مدينة لندن جزئياً لاحقاً ، (338).

في اعتقادنا المتواضع أن هذه التعليقات لازمت لفترة ليست بالهينة تاريخ الإنسانية و صاحبت مراحل تطور الفكر البشري و التي اصطلح عليها في فلسفة **أوغست كونت** بقانون الأطوار الثلاث، مرحلة أولى علل فيها الإنسان الحوادث بفعل تأثير قوى غيبية منفصلة عن الظواهر والأشياء، تعرف بالمرحلة اللاهوتية ، ثم تلتها مرحلة لاحقة فسر فيها الإنسان الأحداث والوقائع بفعل قوى ميتافيزيقية موجودة في الأشياء ذاتها، وأخيراً اكتمل نمو العقل البشري بالانتقال إلى المرحلة الوضعية، و بموجبها انطلق العقل إلى تفسير الوقائع تجريبياً و ذلك من خلال ردها إلى أسباب موضوعية حسية.

و على الرغم من ذلك لازال هذا العقل يحن إلى المراحل السابقة، فتراه يبرر و يفسر خارج نطاق الحس و التجريب، و من هنا قد تكون هذه التفسيرات مقدمات للفحص التجريبي و في حدود الواقع و ما وراء الطبيعة حدوداً ضيقة جداً، فينصح المريض من قبل أهل الاختصاص لشق طرق جديدة للعلاج ليست بالضرورة علمية تجريبية بحتة و العكس صحيح، وبالتالي موقف رسل فيه مزايدة فيما يخص أهمية المعتقدات التفسيرات الغيبية، فقد تكون كما ذكر أنفا مفيدة وعملية. و عليه يبدو لنا أن موقف رسل متذبذب ومتعارض بعض الشيء.

³³⁸ رسل ، المصدر السابق ، ص 23 .

و رافق كذلك هذه الفترة استنادا لرسول اعتقاد بأن السحر ليس سوى خرافة فكان الملك جيمس الأول من الذين اضطهدوا السحرة بموجب تشريعات برلمانية صارمة تشدد العقوبة على من امتهن السحر و الشعوذة و لم تتراجع محاولات مطاردة السحرة إلا في عهد الكومنولث و انتشار عقيدة المتطهرين (Puritans)، الذين اعتقدوا بقوة الشيطان و فعالية السحر و قوته.⁽³³⁹⁾.

أما الحد من تأثير الخرافة و السحر، فلم يكن ممكناً إلا بعد الاحتكام للنظرة العلمية وانتصار الشعور الإنساني وسيادة العقلانية و حضور التفكير المنطقي الذي يؤرخ له مع بداية عهد شارل الثاني، و يشير رسل إلى ذلك بأنه " علينا الاعتراف بأن الثورة ضد صرامة التعاليم الأخلاقية، تمثل أحد أسباب التحول إلى التفكير المنطقي." ⁽³⁴⁰⁾، فتقدم الطب مثلاً في البدء استدعى بشكل قسري محاربة الخرافات التي شجعت الناس على التمسك بالسحر، فلقد أريك فيزاليوس (Vesales) الكنيسة عندما قام بتشريح جثث الموتى للمرة الأولى، فاتهم بتقطيع أعضاء البشر و أمر كتكفير عن خطاياهم بالحج إلى بيت المقدس. ⁽³⁴¹⁾

و فيما يخص تأثير الخرافة، فإنها تمكنت من الطب بالرغم من إنجازات فيزاليوس و هارفي و غيرهم من الأطباء العظام، فمثلاً بدا من الصعب التخلص منها و من السحر في تفسير حالات الجنون و التي فسرت آنذاك بتملك الأرواح الشريرة للمصاب، فكان علاجه يتم من خلال تعريض المصاب للقسوة بهدف إزعاج الأرواح الشيطانية و لم يستثن من ذلك الملك جورج الثالث، إذ عولج بنفس الكيفية عندما أصيب بالجنون. و لا زالت عامة الناس على هذا الاعتقاد. إذ يبدو من الصعب القول بسيطرة النظرة العلمية على الطب بصورة كلية حتى مع مجيء ليبتز و باستور، فالأول استخدم العقل والمنطق و الثاني ساهم في اكتشاف اللقاح ضد الوباء المستعصي في تلك الفترة على الشفاء. ⁽³⁴²⁾

³³⁹ رسل ، المصدر السابق ، ص 24 .

³⁴⁰ رسل ، المصدر نفسه ، ص 25 .

³⁴¹ رسل ، المصدر نفسه ، ص 25 .

³⁴² رسل ، المصدر نفسه ، ص 26 .

و بالموازاة مع ذلك، يعيدنا رسل إلى النظرة العلمية، حيث يردد بأنها تستوجب ثلاث مكونات ذات أهمية بالغة سادت القرن الثامن عشر وهي ضرورة إقامة الحقائق على أساس الملاحظة و ليس استشهاد غير مسند و أن العالم الطبيعي و ظواهره تخضع إلى قوانين طبيعية، و أن الأرض ليست مركزاً للكون و من المحتمل أن الإنسان ليس غاية الكون إذا ما افترضنا أن للكون غاية، و أن الغاية لا تتناسب مع تطلعات العلم و شروطه. فيصرح بالقول " إنني اعتقد بوجود ثلاث مكونات ذات أهمية خاصة في تكوين النظرة العلمية التي سادت القرن الثامن عشر و هي أولاً أن بيانات الحقائق يجب أن تبنى على الملاحظة و ليس على الاستشهاد غير المسند.

و ثانياً أن العالم المادي يتمتع بنظام ذاتي الفعل و ذاتي الديمومة، تخضع كافة التغيرات فيه إلى قوانين الطبيعة، و ثالثاً أن الأرض ليست مركزاً للكون، و من المحتمل أن الإنسان ليس غاية الكون (في حال كان للكون غاية)، و أن " الغاية " - إضافة إلى ذلك - مفهوم غير ذي نفع علمياً.

و يواصل في نفس السياق أن هذه المبادئ التي قامت عليها النظرة الميكانيكية الحديثة هي التي حاربها رجال الكنيسة و أدت إلى وضح حد للاضطهاد و تبني وجهة النظرة الإنسانية بصورة عامة، حتى و إن كانت أقل تقبل اليوم من ذي قبل، حيث يوصي رسل أولئك الذين يعتقدون أن لهذه النظرة آثاراً سلبية ومضرة من الناحية المعنوية بالتمعن في هذه الحقائق و يعلن عن ذلك بالقول: " إنني أوصي أولئك الذين يعتقدون أن لهذه النظرة آثاراً مضرةً من الناحية المعنوية بالتمعن في هذه الحقائق." (343).

و يبدو هنا جلياً مدى حرصه على التمسك بمبادئ و أبجديات العمل الإستمولوجي القائم على الشك و التحليل و النقد و التمهيص في التواصل مع الحقائق و مجريات الواقع، وكأنه يؤسس من جديد لقيم أخلاقية تتميز بها النظرة العلمية الحديثة و الخطاب العلمي المعاصر، و التي ظهرت بوضوح في كتابات غاستون باشلار و العديد من الأيسمولوجيين المعاصرين

³⁴³ - رسل ، المصدر السابق . ص 26-27 .

و لم يكن من السهل إقامة الحقائق على أساس الملاحظة قبل القرن السابع عشر كما هو الحال بالنسبة للمثقفين في عصرنا دون مشاورة النصوص القديمة، فقد شاعت العديد من الأحكام التقريرية دون التأكد منها تجريبياً، مثال ذلك تأكيد **أرسطو** أن عدد أسنان المرأة أقل من عدد أسنان الرجل دون أن يكلف نفسه عناء النظر في فم أي من زوجتيه ليستدل على مقولته، و أكد أيضاً أن الأطفال يكونون أكثر صحة إن كان بدء الحمل متزامناً مع الرياح الشمالية، كما أفاد أن الشخص الذي يعضه كلب مسعور لن يصاب بالسعار في حالة ما إذا انتقلت عدوى ذلك الكلب لآخر يصاب هو أيضاً بالسعار، و أن الفيلة التي تعاني الأرق يمكن شفاؤها بذلك أكتافها بالملح و زيت الزيتون و الماء الدافئ.

و لقد تسربت العديد من المعتقدات الخرافية إلى العالم الإغريقي بعد احتلال الإسكندر للشرق القديم خاصة فيما يتعلق بالتنجيم الذي آمن به الوثنيون و أدانته الكنيسة لكونه يعني الاستسلام للقدر دون أن يكون رفضاً مؤسساً على منطلقات علمية بالرغم من محاولة **أوغسطين** دحضه باسم اختلاف أقدار التوأم في الحياة، فلو كان التنجيم صحيحاً لوجب تشابه أقدار التوأم. فمازال الكثير يعتقد بأشياء كثيرة لا أساس لها علمي سوى الاعتماد على تأكيدات الأولين، ففي عصر النهضة (**Renaissance**) استمر الاعتقاد بالتنجيم لدى المفكرين الأحرار لمجرد كونه مدانا من قبل الكنيسة، إذ افتقد هؤلاء للنظرة العلمية والمشاهدة الحسية للوقائع.⁽³⁴⁴⁾.

و الأكيد في رأينا أنه كان للنظرة العلمية تأثيرٌ إيجابيٌ في جلاء العديد من الآراء الخرافية التي انتشرت في فترات تاريخية و تسللت من خلال الاحتكاك بغيرها من الحضارات و التي أثبت العلم أنها أفكار تتعارض مع التجربة العلمية و نتائجها، و على هذا الأساس نادى الكثير بإحداث القطيعة معها و رفضها، لكن البعض منها لا يزال منتشراً و شائعاً بين الناس على الرغم من تقدم العلوم و سيطرة النظرة العلمية في تحليل الأشياء و الوقائع خاصة لدى بعض المجتمعات التي تميل إلى التقليد و ترفض التجديد.

إذ لا يزال البعض يرتاد على العرافين و المنجمين و الدجالين و يؤمن بفك الطلاس و يستمع إلى قراء الكف و الطالع و يعتقد بقدرتها على التأثير في الأحداث المستقبلية و التحكم في مصائر الناس، و لسان حالهم يقول آمنوا بها في أول النهار و اكفروا بها في آخره، و قد يصدر هذا عن المثقف و المفكر و من كان له باع في العلم و المعرفة، و لهذا يبدو من الصعب القضاء على هذه المظاهر الفكرية المتأصلة كلياً، حتى في ظل واقع يحكمه العلم و التكنولوجيا و يدرك أفرادها معنى التناقض و الخرافة

³⁴⁴ - رسل ، المصدر السابق ، ص 27-28 .

و نلمس حضور الجانب الأخلاقي في مجريات الحياة العلمية بالانتقال بها من المستوى اللاهوتي الميتافيزيقي إلى المستوى الوضعي، كما هو الحال على سبيل المثال في مجال الدراسات السيكلولوجية، فعلى الرغم من اعتقاد رسل أن علم النفس أقل تقدماً من سائر المجالات المعرفية المهمة، وهو يعني من حيث الاشتقاق نظرية الروح، أما عن تأخر علم النفس فيعلل بأن الروح موضوع ومفهوم لا علمي، إذ يقترب إلى مجال المسائل اللاهوتية و الميتافيزيقية، كما يصعب تحديد موضوع علم النفس ذلك أنه يهتم على الأقل بالظواهر الذهنية التي يختلف موضوعها عن موضوع الفيزياء، أو بخصوص الأسئلة التي يعالجها، فهي ذات صلة أكثر بالفلسفة.

و مع ذلك، يعتقد رسل بإمكانية تجاوز هذا العلم مستقبلاً للعوائق المعرفية و تحقيق العديد من الإنجازات و تحاشي الأخطاء التي ترسبت نتيجة اتصاله باللاهوت و تسلل انطباعات الحس المشترك، و من هنا تأخرت هذه الدراسات و بات عاجزة على مسايرة العلوم الأخرى في تطورها و تقدمها، فيحلل رسل هذه الأسباب و يوجزها لنا من المصدر بأن المذاهب الميتافيزيقية التي تعتبر لسبب أو لآخر جوهرية في مجموع المعتقدات الدينية الأرثوذكسية التي تتصف بالتزمت والتطرف".⁽³⁴⁵⁾.

و من أهم القضايا التي أثارها علم النفس هي علاقة المادة بالروح و إنكار المادة و الإقرار بها لدى البعض أمثال هيوم، و تناول علم النفس أيضاً مشكلة الإدراك و بَيَّنَّ **كانط** أن ما تضيفه الذات على الموضوعات المدركة من مكان و زمان أساسها الذات المدركة و الموضوع المدرك كحقيقة ميتافيزيقية و التي لا يمكن - في نظر **كانط** - إدراكها بالطرق و المسالك العلمية. و من جهة ثانية، يؤكد أن نشأة علم النفس ارتبطت بنظرية علمية أساسها وجود علاقة صارمة بين حالة الجسد و حالة العقل (الروح) إلى درجة أن معرفة إحداها يُمكنُ من معرفة الأخرى.

و بالكشف عن القوانين التي تتحكم فيهما يمكننا أيضاً الوصول إلى التنبؤ بعيداً عن فكرة حرية الإرادة التي لا يمكن معاينتها تجريبياً، و هذا يمثل سعياً لمحاكاة القوانين الفيزيائية التي تتميز بالآلية و اقتداءً بمذهب ديكارت في القرن الثامن عشر الذي تحول إلى مادية صرفة تطبع السلوك الإنساني بقوانين الحركة الفيزيائية و تجاوز فكرة الخطيئة و الإرادة.

³⁴⁵ رسل، المصدر السابق، ص 107-108.

إن المعارضين لعلمنة الظواهر السيكولوجية في نظر رسل اعتمدوا على مقولة العقل و الإرادة و الضمير و العواطف التي لا يمكن تكميمها وتقديرها و لا التنبؤ بها بحكم أن هذه المعطيات تخلو من مفهوم السببية، و هذا ما لا يوافق عليه رسل، إذا يرى أن لكل فعل سبب و حتى إذا كانت له صلة بالجانب الديني أو الأخلاقي كالرغبة في إرضاء الله و إرضاء جيرانه و رؤية كل الناس سعداء فإنها في النهاية تمثل أسبابا لهذه الأفعال، و هذه المعطيات التي تتحكم فيها دوافع بيولوجية من إفرازات هرمونية و نشاط الغدد الصماء و كذلك نتيجة التربية و التنشئة و التجربة الذاتية للشخص و بناءً على هذا استبعد وجود أفعال و رغبات بدون أن يكون لها دوافع و أسباب موضوعية.⁽³⁴⁶⁾

و لا يتوانى رسل في اعتبار أن علم النفس استطاع أن يصل إلى درجة عالية من العلمية كما هو الحال في الفيزياء، إذ أن المفاهيم التقليدية مهدت الطريق لظهور مفاهيم جديدة أكثر علمية، بل يدعو علماء النفس إلى نبذ مفهوم الإدراك و الوعي لصعوبة تحديد و توضيح ذلك بدقة.⁽³⁴⁷⁾، و يدعوننا أيضا في آن واحد إلى وضع بعض المفاهيم موضع شك في دلالتها كالوعي والنشاط الفكري و الإدراك و الذاكرة و يدعو إلى ضرورة الاعتماد على المعاينة الفيزيولوجية لمثل هذه الظواهر السالفة الذكر نظراً لطبيعتها المادية.⁽³⁴⁸⁾

و مع ذلك، لا ينفي رسل وجود مثل هذه الاعتقادات في العصور المتأخرة، فقد سمع مثلا أن النعامة تأكل المسامير دون أن يشكك في صحة هذه الرواية، مكتشفا أن مصدرها كاتب روائي إغريقي، و أن الرواية ذاتها لا أساس لها من الصحة، و من هنا يعتقد أن الناس يزعمون صحة بعض الأشياء لمجرد وجود شعور لديهم يلزمهم بقبول صحتها مبررين هذه الاعتقادات على أساس الموروث الاجتماعي و أحيانا بالاعتماد على العنينة دون إسناد صحيح أو تأكيد من مصدر الخبر، فتم رفض العديد من هذه الحقائق العلمية بهذا النمط من التبريرات المتوارثة، فعندما اكتشف **جاليليو** بتلسكوبه أقمار المشتري، رفض التقليديون النظر من تلسكوبه بحجة اقتناعهم بعدم وجود هذه الأقمار وأن التلسكوب ليس سوى خداع نظر.

³⁴⁶ - رسل ، الدين و العلم، ص 122-123 .

³⁴⁷ - رسل، المصدر نفسه ، ص 124 .

³⁴⁸ رسل ، المصدر نفسه ، ص 127-128 .

و تبعا لذلك اتضح أنه من الضروري إعمال الملاحظة كخيار بديل للتقاليد الموروثة مع الإقرار بصعوبة الأمر. و بالرغم من ذلك فلا مناص حسب رسل بقبول التحكيم العلمي القائم على الملاحظة واستقراء الوقائع تجريبيا بديل مقتبس العبارة مفاده أن محاولة وضع احترام الملاحظة كبديل عن التقاليد الموروثة موضع التنفيذ هو أمر صعب جدا، إلى درجة أنه يمكن للمرء القول إنه مخالف لطبيعة البشر، أما العلم فيصر عليه، وكان هذا الإصرار مصدرا لأعنف المعارك بين العلم و السلطة." (349)

و يكشف لنا أيضا أن أهم عامل ساهم في القضاء على النظرة التي سبقت النظرة العلمية هو قانون الحركة الأول الذي أرسا قاعدته **جاليليو** و الذي ينص على أن أي جسم متحرك يستمر في الحركة في نفس الاتجاه و بنفس السرعة حتى يتم إيقافه من قبل شيء آخر، خلافا لما كان سائدا أن أي جسم غير حي لا يتحرك بذاته، وأنه إذا كان متحركا فإنه يسكن تدريجيا، و أن الكائنات الحية وحدها القادرة على الحركة دون وساطة خارجية، فاعتقد **أرسطو** أن الأجرام السماوية تدفع في مسارتها من قبل الآلهة.

و يعزي رسل تأخر استقلالية العلوم إلى سيطرة التفسيرات و التعليقات اللاهوتية التي أعاققت فعليا تقدمها، خاصة الفيزياء باعتبار الاعتقاد بإمكانية الحركة دون تقييدها بمبدأ السببية الذي يؤكد أن لكل ظاهرة سبب، و لم يكن ذلك ممكنا إلا بمحيء **جاليليو** و **نيوتن** اللذان برهنا أن كافة أشكال المادة تسيير وفق قوانين فيزيائية، إلا أن **نيوتن** فكر أن قوة الخالق كانت ضرورية لبدء هذه العلمية وأنها فيما بعد تخضع إلى القوانين الميكانيكية، فحتى ديكارت تمسك بهذه الفكرة الكلاسيكية إذ في اعتقاده أن أجسام الحيوانات هي الأخرى تخضع لهذه القوانين، فهي لا تقتصر على الجمادات فقط و لم يبق إلا تعميمها على أجسام البشر فحسب.

349 رسل ، أثر العلم في المجتمع ، ص 29-30 .

ومن ثمة استمرت القطيعة مع النظرة السابقة لاسيما مع المفكرين الأحرار، ففي رأيهم أن علاقة العقل مع المادة تناقض افتراض أرسطو والمدرسيون، فالأسباب الأولى حسب أرسطو كانت عقلية مثل عربة الشحن حيث تنتقل الحركة من عربة السائق إلى باقي العربات، أما ماديو القرن الثامن عشر فكانوا على عكس ذلك، فقد رأوا أن كل المسببات مادية و لم تكن للوقائع العقلية إلا نتاجاً ثانوياً. فيشير رسل في هذا المضمار أن طوال الوقت الذي ساد فيه هذا الاعتقاد، كانت الفيزياء كعلم مستقل غير ممكنة، لأن الفكرة كانت تقول أن العالم الطبيعي ليس ذاتي المحتوى سببياً." (350)

لقد سبق لأرسطو التأكيد أن الأسباب أربع من قبل، أما النظرة العلمية فلا يهتمها و لا يسلم إلا بسبب واحد منها، فالنظرة العلمية تقف بالتحديد على العلة الفاعلة و العلة الغائية، فكل الموجودات توجد ضمن سياقها الفاعلي و الغائي، إذ يجب تحديد سبب وجوده و علته الفاعلة، و أيضاً من خلال تحديد الغاية من وجوده، و يجب الإشارة هنا إلى أن الوقوف على الغايات لا يهتم العلم كثيراً بقدر ما يهتم رجل اللاهوت الذي يؤمن بأن لكل شيء غاية، فرجل العلم لا يكفيه تبرير مثلاً أن القمر وجد ليعطي الضياء في الليل، كما هو معلن في الكتاب المقدس، أما السؤال عن سبب السرطان، فرجل العلم و من كان يعتقد في قرارات نفسه أنه قد يكون عقاباً لخطايا الشر، و لكن بوصفه رجل علم فعليه أن يتجاهل وجهة النظر هذه، فيطلعنا عن مضمون هذا المعنى أننا "نحن نعلم (الغاية) في العلاقات الإنسانية، و يمكننا أن نفترض وجود غايات كونية، لكن العلم ينص أن الماضي هو الذي يقرر المستقبل و ليس العكس، فإن (الأسباب الغائية) لا توجد في السرد العلمي لواقع العلم." (351)

و يدفع رسل بالمجتمع العلمي إلى التسليم أيضاً أن العلم باعتباره معرفة له قيمة، أما التقنية فقيمتها متوقفة على الفائدة التي تجنى منها، فيذكرنا " أن العلم طالما هو معرفة لا بد أن يعتبر ذا قيمة، ولكنه إذ يكون تكتيكا فإن قضية ما إذا كان سيحمد أو سيذم تعتمد على الفائدة التي تجنى من التكنيك، إنه في ذاته محايد، لا هو خير و لا هو شر، و أن أية وجهة نظر قاطعة يمكن أن نتخذها حول ما يرجح هذه الكفة أو تلك يجب أن تأتي من مصدر آخر غير العلم." (352)، و يجدد التأكيد على أنه لا يمكن إصدار حكم على وجه التعميم، وفيما يخص رجال العلم فإسهاماتهم في فهم الطبيعة كانت رائعة، و يحملون صفات أناس

350 رسل، المصدر السابق، ص 31-32.

351 - رسل، المصدر نفسه، ص 32-33.

352 - رسل، السلطة و الفرد، ترجمة شاهر الحمود، دار الطباعة للطباعة و النشر، بيروت 1961، ص 71.

غير عاديين من حكمة و خيال و قوة و مبادرة ذاتية، لكن فيهم من قدم خيراً للبشرية و منهم من كان شراً عليها ، وعموما على هؤلاء أن يكون سعيهم دوما لمنفعة الجنس البشري بالدرجة الأولى.⁽³⁵³⁾

و يرى رسل كذلك أن العالم اليوم بحاجة إلى مساعدة الدولة وتضع اختراعها تحت تصرفه. أما من كان باحثاً منفرداً فلا يرجو شهرة أو نجاحاً كبيراً، و بالتالي فالعالم لم يعد الآن مستقلاً.⁽³⁵⁴⁾، ومن هنا يدعو بالحاح إلى الاهتمام بالنخبة المبدعة، من منطلق أن العالم المنفرد يمكن أن تكون أعماله ذات نفع من الأعمال التي تتم بمساعدة الحكومة، فالنجاح في الأهداف الإنسانية صعب بخلاف من يسعى إلى خدمة مصلحته الخاصة و ينطبق ذلك على كافة الأشخاص المهوبين.⁽³⁵⁵⁾، ويضيف إلى توصياته وجوب مراعاة الحرية في عملية الإنشاء و الإبداع.

و واقع الحال يكشف أن الظروف الراهنة لا تبعث على العمل الإبداعي باعتبار أنها ليست باعثة على الحرية الفعلية.⁽³⁵⁶⁾، مما يفرض على القائمين بهذا الشأن إلى مباشرة عملية الإصلاح و التغيير لتمكين الأفراد من إطلاق العنان لطاقتهم الإبداعية المختلفة. بل كل الظروف اجتمعت في رأيه لتجعل من حياة الإنسان مملة و مقرفة خاصة مع انتشار مظاهر الفساد في البر و البحر و استفحال ظاهرة التلوث و انتشار النفايات و التنظيم الآلي و غياب التلقائية والعفوية عادة في السلوك الإنساني، بمعنى أنه يدعو إلى عدم إتلاف معالم التنظيم الحديث لكن مع الحفاظ على المبادرة الذاتية.⁽³⁵⁷⁾ ، فيعتقد أن معظم الجنس البشري منذ بداية التاريخ الإنساني يعيش في بؤس و ظلم و شقاء، ومن ثمة يمكن القضاء على هذه المظاهر بالاستعانة بالعلم و التقنية بشرط أن يكون ذلك بروح إنسانية و بتفهم لمصادر السعادة الإنسانية.⁽³⁵⁸⁾

353 - رسل ، المصدر السابق ، ص 72-73.

354 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 74.

355 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 74-75.

356 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 76-77.

357 - رسل ، المصدر السابق ، ص 79.

358 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 104.

إن أهمية الأخلاق و الفضائل الأدبية و الفكرية، تكمن في تمحيص القيم الدينية السائدة و الأفكار المتطرفة وعدم الاستسلام للضغوطات التي تهدف إلى إسكات صوت العقل والحكمة، و هذا من خلال ما تعرض له رسل من محاكمات عندما كان أستاذ رياضيات في نيويورك و اتهم زوراً بأنه يدعو إلى الانحلال و الفساد الأخلاقي و أنه لم يجتاز امتحان التوظيف، و أنه تارة أخرى أجني لا يحق له العمل في و.م.أ، و هي مجرد حجج واهية تمثل عقوبة ضمنية لمواقفه الجريئة من الدين والأخلاق و لقي في ذلك مساندة و دعماً من أجل الدفاع عن الديمقراطية و حرية الفكر من قبل أصدقاء حرية الفكر أمثال جون ديوي.⁽³⁵⁹⁾

و قبل الانتقال إلى دور الأخلاق في التعامل مع مصادر المعرفة، يبدو لنا من الضروري مراجعة بعض النقاط الهامة التي وردت أنفاً، فلاحظنا مدى اهتمام رسل بعلماء الغرب و إسهاماتهم في التأسيس للنظرة العلمية و لم يكلف نفسه عناء تبيان ما قدمه علماء الإسلام في هذا المجال خاصة في ما أنجزوه من تقدم في عملية الاستقراء و دراسة الطبيعة و ظواهرها المختلفة أمثال جاير بن حيان و ابن الهيثم و ابن النفيس، و اقتصر وصفه على ما سبق إلا بكونها مراحل كرسست التفسيرات الخرافية و اللاهوتية و التي في مجملها لا تمت للعلم بصلة حسبه، من جهة ثانية، يلاحظ ظاهرياً وجود خطاب مزدوج لدى رسل، فهو يثني على الوضع الراهن باعتبار أن الأفراد اليوم هم أكثر سعادة من ذي قبل، و من ناحية أخرى يعبر عن امتعاضه و قلقه نتيجة ما تعانيه الإنسانية من ظلم و بؤس ويدعو إلى ضرورة العمل على تحسين الظروف الحالية .

³⁵⁹ - رمسيس عوض ، بوتراند رسل الإنسان ، ص 31-32-33-39-40.

2- دور الأخلاق في التعامل مع مصادر و منابع المعرفة.

منذ البداية، يؤكد رسل على أهمية المعرفة و العلم بدليل أنه اهتم هو الآخر بذلك منذ طفولته، إذ يصرح أنه " و بنفس الدافع سعيت إلى المعرفة، كنت أرغب في فهم قلوب الناس، و معرفة الذي يجعل النجوم تضيء، كما حاولت أن أتبين القوة التي قال بها فيتاغورس و التي بمقتضاها يسيطر العدد على فيض الكائنات، و لقد حققت شيئاً من ذلك، ولكنني لم أصل إلى الكثير ".⁽³⁶⁰⁾

و في هذا إشارة إلى فكرة مفادها أن من شروط المعرفة أن تنهض على استدلال عقلي متزن، و هو يستخلص النتائج بالاستناد على أسلوب حق في استنباطها من قضايا سليمة بعيداً عن خزعبلات و قضايا رخيصة مهلهلة تهدف إلى تضليل الناس.⁽³⁶¹⁾، و في ذات السياق يشير إلى أن " الإدراك هو الذي يعطينا المعرفة الأولية للأموال الفعلية و التي عليها يقوم العلم ".⁽³⁶²⁾.

و معنى هذا أن البحث العلمي بحاجة إلى رغبة و دافع و هو كفيل لإمداد الباحث بالطاقة والإصرار لتجاوز كافة العقبات والصعوبات وهذا ما يظهر من خلال الصبر والمواصلة لبلوغ الهدف.⁽³⁶³⁾، كما يسترسل أن القيم الأخلاقية مهمة في التقدم العلمي خاصة صفة احترام الذات التي تجعل الفرد على حق عندما يقف العالم ضده، و إذا لم تكن للإنسان هذه الصفة، فيجعل له شعوراً من خلاله يستشعر أن الأغلبية و الحكومة معصومين من الخطأ، و هذا ما يجعل كل من التقدم الأخلاقي و العقلي مستحيلاً.⁽³⁶⁴⁾.

و تشير أيضاً أفكاره المُقدّمة إلى أهمية حب الإطلاع في الوصول إلى إدراك الحقيقة و الاعتراف بأن المعرفة الإنسانية نسبية و محدودة، و يوضح رسل هذه الفكرة بالقول: " قد أدى الحب و تلك المعرفة، بقدر ما توفر لي معها، إلى التسامي الذي بلغ بي عنان السماء، و لكن عاطفة الإشفاق كانت تعيدني ثانية إلى الأرض".⁽³⁶⁵⁾

³⁶⁰ - رسل ، سيرتي الذاتية، ت، عبد الله عبد الحافظ و آخرين، دار المعارف ، القاهرة، 1970 . ، ص 07.

³⁶¹ - رمسيس عوض ، بوتراند رسل الإنسان ، ص 31.

³⁶² - رسل ، ما وراء المعنى ، ص 131.

³⁶³ - رسل ، السلطة و الفرد ، ص 82.

³⁶⁴ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 98.

³⁶⁵ - رسل ، سيرتي الذاتية ، ص 07.

و يقرر رسل أيضا أن علماء المنطق يهتمون بالحث عن الفروض و هدفهم الأساسي هو البحث عن أقل مجموعة من الفروض و هو ما يختلف مع علماء الإيستومولوجيا، و بذلك يسعى العلم إلى استبعاد الفروض المبنية على أسس سيكولوجية نفسية، بحكم إمكانية حملها واعتمادها على معتقدات بدائية، وعليه لا نستطيع قبول كل الفروض السيكولوجية كفروض معرفية، إذ يصرح " بأن الفروض السيكولوجية لا بد من إخضاعها للتحليل قبل قبولها كفروض لنظرية المعرفة، و في هذا التحليل تكون على أقل درجة ممكنة من الشك." ، أي حتى لا يكون الشك مطلقا.⁽³⁶⁶⁾

و من جهة ثانية، يقرر رسل إن التحليل بوصفه طريقة ليست جديدة إذ تعود جذوره إلى التحليل الفلسفي مع فلاسفة اليونان أمثال أفلاطون وأرسطو، و بعض فلاسفة العصور الوسطى، إلا أن رسل يقيم لنا مصادر حركة التحليل الهامة، و هو التطور الذي طرأ على العلوم الرياضية والطبيعية في القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين، فكان أفلاطون و توما الاكوييني و سبنوزا ممثلين للتيار الرياضي و ديمقراطس و أرسطو والتجريبيون المحدثون منذ لوك للتيار الثاني، فهو مستوحى من إنجازات هؤلاء العلماء و العديد من الباحثين في ميدان الرياضيات و الفيزياء بعد ذلك.⁽³⁶⁷⁾

و يواصل تبيان أهمية الأخلاق في الممارسة العلمية بالاعتقاد بأن الحس المشترك صورة غير منقحة للمعرفة العلمية، و عليه لم يلتزم بالحس المشترك، فالعلم يذهب إلى أبعد مما يذهب إليه الحس المشترك ، فكان رسل يسعى في فلسفته إلى الوصول إلى الدقة و اليقين العلمي في اعتقاده، فحاول أن يجمع بين منهج ميل و ليبنتز، أي التجريبية والعقلية، حيث يمكن في النهاية ملائمة مكتشفات العلم بداخله .

³⁶⁶ - رسل ، ما وراء المعنى ، ص 138-139.

³⁶⁷ - د. محمد مهران رشوان ، مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة ، دار الثقافة للنشر و التوزيع ، ط2 ، 1984 ، ص 165-

فلقد لاحظ أن العلم مبهر في نتائجه، بينما الفلسفة وضعت دعاوي كثيرة وحققت نتائج أقل، واستنتج رسل على إثرها أن الفلسفة ليست علمية، فالنجاح - في اعتقاده - مرده استخدام العلم للمنهج العلمي في الوصول إلى حقائقه، وهو ما تفتقده الفلسفة، فتساءل إذا كان ممكنا علمنة الفلسفة و أجاب بالإيجاب.⁽³⁶⁸⁾، إن علمنة الفلسفة تقوم على دعائم العلم، و هي أن تركز على نتائج العلم العامة، وتبحث في إعطاء هذه النتائج عمومية و وحدة أكثر والثاني أن تدرس مناهج العلم و تبحث في تطبيقاتها مع إدخال تعديلات ضرورية على مجالها الخاص. و من هنا يمكن إقرار أهمية تطبيق مبادئ المنهج التجريبي العلمي على المشكلات الفلسفية.

إن البحث العلمي يستدعي مراعاة ساعات العمل و ساعات البحث العلمي و من ذلك لإمكانية الجمع بين التدريس و البحث العلمي على ألا تكون ساعات العمل أقل، وأن هذه الشروط وفق زعم رسل لا تتوفر في ظل النظم السياسية و الاقتصادية بشكل أنسب، خاصة مع قيود الدولة و سيطرتها على المؤسسات التعليمية و التربوية، فيخبرنا أنه واضح أن الفرصة مهيأة في هذه الحالة لقيام رقابة أشد من عهد التفتيش، فإذا كانت الدولة هي الناشر الوحيد فستفرض حتماً نشر الكتب التي تعارض اشتراكية الدولة.⁽³⁶⁹⁾، أما احتمال التقدير و يعني به رسل هو الفهم و الشعور التلقائي بأن الأشياء الجميلة مهمة، أي الاهتمام بجماليات الأشياء و ليس النظر إليها مجرد أدوات تستهدف تحقيق مكاسب مادية فقط.⁽³⁷⁰⁾

و لم يستثن رسل كافة مجالات المعرفة من هذه المعايير الأخلاقية، فهو لا يستخدم لفظ "العلم" ليدل فقط على العلوم التجريبية، بل ليدل أيضا على العلوم الصورية كالمنطق و الرياضيات، فحين ينادي رسل بتطبيق المنهج العلمي في الفلسفة، لا يلغي في ذهنه تلك العلوم الصورية مع ضرورة التمييز بين قضايا العلوم التجريبية والصورية والفلسفية والمنهج العلمي المراد تطبيقه على الفلسفة هو تطبيق المنطق ومناهجه على المشكلات الفلسفية.⁽³⁷¹⁾.

368 - د. محمد مهران رشوان، المرجع السابق، ص 171.

369 رسل، سبل الحرية، ص 181.

370 رسل، المصدر نفسه، ص 184.

371 - د. محمد مهران رشوان، المرجع السابق، ص 172.

إن المنهج العلمي عند رسل ينحو نحو الشك المنهجي الديكارتي الذي يوصل إلى نتائج جزئية و محتملة كما هو الحال في العلم، ولا يسعى إلى إقامة أنساق فلسفية كتلك التي وضعها القدماء، وهو ما يسعى إليه رسل من خلال علمنة الفلسفة. إذ أن منهج التحليل هو طريقة تحلل بها المركبات إلى عناصرها البسيطة، تلك العناصر التي نكون على معرفة مباشرة بها، أو نعيد صياغة التعبيرات اللغوية التي تحتوي مركبات رمزية في حدود تعبيرات أخرى أكثر دقة، بحيث نستغني عن تلك المركبات الرمزية و بالتالي يجب تحليل الأشياء المركبة إلى أجزائها و العلاقات الكائنة بينها.⁽³⁷²⁾

إن مسعى رسل لعلمنة الفلسفة في رأينا تعترضه العديد من التحديات و الصعوبات تفرضها بالدرجة الأولى خصوصية الموضوع الذي لا شك أنه ينفرد عن طبيعة موضوعات العلم، و عليه ليس من اليسير تطبيق المنهج التجريبي عليها، و للتفصيل أكثر فإن موضوع العلم يتناول الطبيعيات القابلة للمشاهدة الحسية، و بذلك هي موضوعات و ظواهر قابلة للتكميم و التعميم و التنبؤ النسبي، بخلاف ذلك تهتم الفلسفة بالقضايا الماورائية و الميتافيزيقية و تتناول مشكلات إنسانية و التي لا يمكن دراستها إلا وفق منهج خاص يعرف بالمنهج التأملي العقلي، و من هنا يصعب تكميم قضايا الفلسفة و إخضاعها للمعاينة المخبرية تماما مثل ما هو ساري في مجال الظواهر العينية، و عليه نخلص إلى القول أن محاولة رسل علمنة الفلسفة مبالغ فيها و لا تراعي مميزات الفلسفة و ضرورات المنهج .

³⁷² - د. محمد مهران رشوان ، المرجع السابق .، ص 173.

المبحث الثاني : دور الأخلاق في الممارسة العلمية – البيوتিকা .

1- دور الأخلاق في البحث العلمي:

يعتقد رسل أن الأخطاء العلمية هي أخطاء إنسانية لا علاقة لها بالطبيعة ، إذ أن نتائج البحث العلمي قد تكون على خطأ، ولكن نلاحظ أن الخطأ يحتاج إلى إنسان على الأقل يرتكبه، أما الطبيعة فلا تخطئ كونها لا تصدر أحكاما، فالناس هم الذين يخطئون عندما يصدرون أحكاما و قضايا.⁽³⁷³⁾

و يؤكد أيضا ضرورة أن تتصف البحوث العلمية بالموضوعية والنزاهة، والاستقلالية عن الذات في مزاوله البحوث العلمية التي تضع حداً للأوهام والقوة اللامحدودة التي تترتب عن التحيز الذاتي . فإذا كان الإنسان في نسق رسل حيواناً اجتماعياً فهو لا يهتم فقط بكشف طبيعة العالم، بل إن مهامه أيضا أن يتعامل معه، والجانب العلمي يعنى بالوسائل ولا يثير مسألة الغايات، و هكذا يكون الإنسان بطبيعته في مواجهة مشكلات أخلاقية، فالعلم يمكننا من التنبؤ بأفضل الأساليب و الطرق لبلوغ غايات معينة و لكنه يعجز عن القول في تحديد الغايات المعينة دون غيرها.

و يبدو هنا أن فلسفة رسل العقلية تُنفّر الكثير منها لأنها تحفف ينباع العواطف و تقضي على حرارة الحياة بالمغالاة في استعمال المنطق ولأنها تركز على التشكيك إن لم يكن على الإلحاد، إذ ينادي بنبذ كل الأفكار التقليدية غير اليقينية التي لا ينهض الدليل العلمي على صحتها، ولكنها تدخل العزاء و السلوى في قلب الإنسان و تمنحه الطمأنينة، و مع ذلك يعتقد أن اليقين مريح و أن الشك يُقضى راحة البال، ولكن الحقيقة في نظره أهم وأسمى من راحة بال الإنسان ومن السلوى والعزاء، فهو يرحب بالقلق الذي يكابده المتشكك و يعتبره صفة حميدة و شجاعة أدبية كما ينطوي على الصدق الفكري و الأمانة العقلية.⁽³⁷⁴⁾

أما تاريخ هذه المشكلة الأخلاقية، فتتجلى عند أفلاطون حيث يسير العامل الأخلاقي و العامل العلمي جنباً إلى جنب، و من هنا يتم توحيد الخير و المعرفة و هو رأي يعتقد أنه يواجه سوء الحظ أمام التفاؤل المفرط، إذ قد يلجأ من يعرفون أكثر من غيرهم إلى استخدام معرفتهم في أغراض شريرة، وحتى في ظل معرفة بمقدار ما نعرفه فهذا لا يكفي في ذاته حل مشكلة ما ينبغي القيام به، فالقضية ترتبط أساسا في وجه

³⁷³ - رسل ، حكمة الغرب ، ج 2 ، ص 233.

³⁷⁴ - رمسيس عوض ، رسل المفكر السياسي، ص 11.

الصلة بين العلم و الإرادة، فالبعض يعتقد أنهما متطابقان وهو ما يفنده عدم بلوغ غاية واحدة ، أما القول بالانفصال فيكون حينذاك العقل موجها و ضابطا للإرادة و الانفعالات، أما الإرادة فهي محددة للغايات. و من هنا يضعنا هذا التصور أمام حقيقة مفادها أننا لا نستطيع تبرير أهدافنا على أسس علمية أو المبادئ القيمية التي نسير وفقها لأننا نضطر أن نسلم بمقدمات تقتضي الوجود حتى يمكن تبريرها، و إلا كان ذلك صعباً، ثم أن المطالب الأخلاقية هي موضع تباين بين الناس و بالتالي صعوبة الوصول إلى التعميم و الشمولية في سياق المبادئ الأخلاقية، علماً أنهم مختلفون في قدراتهم وإمكانياتهم وفق نظريات التفاوت الطبيعي..

اللافت للانتباه أيضا أن رسل يؤكد على ضرورة الاهتمام بالكون و التفكير فيه مهما كانت مستويات القلق التي تتابنا، و عدم الاكتراث بذلك ما دامت الحياة قصيرة في نظر البعض، أما واقع الحال - حسب رسل - فيقتضي إحداث قطيعة مع الأفكار غير العلمية والتي تمثل شكلاً من الرهبانية، فحتى و إن كان الاشتغال بالعلم له إضرار و مخاطر، فهذا لا ينفي كذلك إيجابياته، على الأقل بالنظر إلى الكون نظرة علمية مقننة، فتخصيب الصحراء حسب رسل و إذابة جليد القطبين والحروب كلها متشابهة في إظهار قوتنا. و يستدرك في أحد مؤلفاته بالقول: " لكن الإنسان العلمي سيقول إن الإلحاح على أفكار غير علمية من هذا النوع أمر غير ذي طائل و يمثل نزعة رهبانية. دعنا نستمر في عملنا لتخصيب الصحراء و إذابة الجليد القطبي، وقتل بعضنا البعض بتقنيات دائمة التحسن، فبعض نشاطاتنا في هذا جيدة النتيجة، و الأخرى سيئة، لكنها كلها متشابهة في إظهار قوتنا، و بهذا سنصبح آلهة في هذا الكون الملحد." (375)

و يضيف رسل أن الحياد هو كذلك من بين المقومات التي يجب الالتزام بها، و الذي يمثل أيضا أحد معاني الموضوعية، أي لا ينحاز مُقَدِّمًا إلى طرف من أطراف النزاع الفكري أو الخلاف العلمي، فالعالم ينبغي أن يقف موقف الحياد، بمعنى أن يعطي كل رأي من الآراء المتعارضة حقه الكامل في التعبير عن نفسه، و يزن كل الحجج التي تقال بميزان يخلو من الغرض أو التحيز، أي معاملتها بقدم المساواة دون مفاضلة أو مجاملة مثال ذلك أن الحياد العلمي اتخذ أبعادا واسعة و أولها الطابع الأخلاقي.

³⁷⁵ - رمسيس عوض ، المرجع السابق ، ص 12.

و من الشائع أن البعض ينظر إلى العلم بأنه سبب الشرور في ظل تحالفه مع التكنولوجيات وما سببته من المخاطر لإنسانية الإنسان، ولكن من ناحية أخرى، يعتقد البعض الآخر أنه يمثل القوة القادرة على أن تحقق اللجنة الموعودة للإنسان على سطح الأرض و هكذا يتضح رأي ثالث معتقداً أن العلم "محايد"، بين الخير و الشر.

فالعلم أداة تتيح للإنسان أن يفهم العالم المحيط به و أن يفهم نفسه على نحو أفضل، ولكن هذه القدرة على السيطرة على العالم الخارجي و الداخلي هي قدرة محايدة، بمعنى أنها قابلة لتشكّل في اتجاه الخير أو الشر، و قد تكون عقلية في فهم الظواهر، أو مادية تتمثل في السيطرة على الظواهر و إخضاعها و تسخيرها لأغراض الإنسان و لكن هذه الأغراض قد تكون متجهة إلى تحقيق السعادة و الرخاء للبشر، و قد تتجه إلى إرضاء نزوات حاكم و مستبد أو تحقيق مصالح فئة جشعة أو ضمان التفوق لشعب مغتصب.⁽³⁷⁶⁾

فإذا وجدنا العلم قد يؤدي إلى حروب و كوارث، و يشجع على القسوة و الجشع، فلنعلم أن هذه ليست مرتبطة بالعلم ذاته، و إنما من نتائج تترتب على طريقة معينة في التصرف بنتائج البحث العلمي، وكان من الممكن لو تصرفنا بهذه النتائج بطريقة أخرى ، أن يكون العلم كله خيراً و رخاءً ، أي أن طريقة استخدام العلم هي التي تحدد مدى أخلاقيته أو لا أخلاقيته، هذا هو الوضع الشائع لمشكلة علاقة العلم بالأخلاق للتعبير عن حياد العلم.⁽³⁷⁷⁾

بالإضافة إلى ذلك، يمكننا أن نجد لمعنى حياد العلم أبعاداً غير مألوفة، فيمكن لصفة الحياد من زاوية معينة أن تكون موضوعاً للاتهام و الإدانة، و لا تكون على الدوام صفة مرغوبة في العلم، و يحدث ذلك حين يعني الحياد عدم الاكتراث أو تبدل الفكر والمشاعر، بحيث يستمر العالم في عمله بغض النظر عما يمكن

³⁷⁶ - فؤاد زكريا ، التفكير العلمي ، ص 223-224 .

³⁷⁷ - فؤاد زكريا ، المرجع نفسه ، ص 225 .

أن يترتب عليه من خير أو شر، أي بغض النظر عن أية غاية أخلاقية، يمكن أن يخدمها هذا البحث، فهو موقف يعد بدوره حياداً، ولكنه حياد يتضمن في داخله نتائج خطيرة من الوجهة الأخلاقية، إذ يمكن القول مثلاً أن العلماء الألمان كانوا يبحثون لكي يساعدوا هتلر على تطوير أدواته الحربية، لكنهم لم يكونوا كلهم من الأشرار، وإنما كان معظمهم مفتوناً بأبحاثه ومستغرقاً فيها بصورة حيادية وهذه السلبيّة أو عدم الاكتراث بالنتائج يمكن أن يترتب عنها استغلال العلماء أنفسهم من أجل تحقيق أشد الأغراض بعداً عن الأخلاق والسياسة.

بخلاف ذلك يمكن القول أيضاً أن مكتشف البنسلين لم يكن بالضرورة مستهدفاً لغاية أخلاقية أو خيرة، بل أن ذلك كان من باب الصدفة، فكان هدفه هو السعي في هذا الطريق و معرفة النهاية الموصلة إليه، فالسعي إلى مواصلة الشيء لذاته، يمكن أن يعني وقوف العالم بمعزل عن الأخلاق و عن قيمته و هو الموقف المسمى "AMORALISM"، حيث لا يكون المرء أخلاقياً أو معادياً للأخلاق، وإنما يقف خارج نطاق القيم الأخلاقية أصلاً. و رغم أن هذا الموقف ليس في ذاته شراً، فإنه يمكن أن يؤدي إلى الشر بسهولة، و يبعث في العالم نوعاً من التبدل و الإحساس بجمود المشاعر.

و لقد دافع البعض عن هذا الموقف على أساس أن البحث عن الحقيقة لذاتها أمر محايد، ولا شأن لها بالأخلاق و تبنى هذا الموقف و ركاه مذهب فلسفي معاصر هو الوضعية المنطقية التي تؤمن بأن القيم، أكانت أخلاقية أو جمالية تخرج عن نطاق العلم الذي يجب أن يكون محايداً لكونها معيارية ذاتية، وهذا ما يتعارض مع موقف آخر، يؤكد صلة العلم بالأخلاق باعتبار أن الأخلاقية ترى أن الحقيقة في ذاتها قيمة عليا و أن السعي إليها يمثل خطوة أساسية في طريق الأخلاق.

إن البصيرة التي نكتسبها بفضل الحقيقة و الاستنارة التي تبعثها في نفوسنا المعرفة هي بلا شك أمور أخلاقية أو مرتبطة بالأخلاق مباشرة، فالتضحيات التي بذلها العلماء من أجل تحقيق كشوفاتهم تنطوي على واقع أخلاقي لا شك فيه، إذ يمكننا أن نتصور العناء و الجهد و المكابدة التي يعانها العالم، إلا إذا كانت هناك روح معينة ذات طابع أخلاقي تدفعه الأخلاقية لتحمل ذلك كله، و يتنازل عن النمط المريح الذي تسير عليه حياة العامة ليحي حياة مكرسة للعلم وحده.

و يعد الصراع ضد الجهل عمل أخلاقي جليل لاسيما إذا اقترن بتضحيات ناجمة عن التصدي للقوى التي تقف وراء الجهل و تسانده و تحارب كل من يسعى أخلاقياً لنشر الحقائق، ولا جدال في أن العالم الذي يجارب من أجل حقيقة يؤمن بها عن اقتناع أو الذي يكرس حياته من أجل كشف بيدد ظلام الجهل أو يحقق للإنسان مزيداً من السيطرة على الطبيعة يقف في صف واحد مع الأنبياء و المصلحين الذين لم تكن حياتهم مكرسة في الواقع إلا لأهداف مماثلة مثال ذلك فرنسيس بيكون.⁽³⁷⁸⁾

من جهة ثانية، يعتقد رسل أن للأخلاق أهمية بالغة في تمكين العلم من التخفيف من معاناة الإنسان سواء تعلق ذلك بالجانب الصحي أو الغذائي أو التقليل من أعباء العمل إذ يؤكد هذا الطرح على " أننا لا نستطيع أن نتغلب على الموت، ولو أننا نستطيع أن نؤخره في كثير من الأحيان عن طريق العلم....، كما أننا لا نستطيع القضاء تماماً على الألم، و لكننا نستطيع التخفيف من وطأته إلى أقصى حد عن طريق تهيئة حياة صحية للجميع، و نحن لا نستطيع أن نجعل الأرض تغل (منتجة) من خيراتها دون العمل الشاق، و لكننا نستطيع أن نقلل من مقدار العمل و نحسن ظروفه حتى يصبح غير معدود من المساوي."⁽³⁷⁹⁾

و في نفس المنحى، يرى أن العلم إذا اقترن بالأخلاق قادر على محاربة المساوي المادية إذ يحيلنا الاقتباس الآتي على أن " الوسائل الرئيسية في مكافحة هذه المساوي هي: العلم للمساوي المادية "، و يكشف لنا أيضاً على مكانة العلم الذي يراعى فيه القيم الأخلاقية بأن " العلم هو الأمل الأخير الذي يعتمد عليه الجنس البشري حتى يصيب نجاحاً في كفاحه ضد المساوي المادية "⁽³⁸⁰⁾.

كما أن رسل يدعي أن تقدم العلم مرهون بدرجة الحرية الفكرية و يستدعي عدم تدخل الدولة تنظيمياً و إشرافاً و إلا صار جامداً و ميتاً، إذ يطلعنا على حقيقة ذلك بالقول بأن " فيما يتعلق بتقدم العلم ، فإن ذلك يتوقف إلى حد كبير على درجة الحرية الفكرية في المجتمع الجديد، فإذا أخضع العلم كله للتنظيم و لإشراف الدولة ، فسرعان ما يصير جامداً و ميتاً، فلن يحدث أي تقدم جوهري لأنه سيبدو - في أول أمره و إلى أن يتم - موضع ريبة بحيث لا يسمح بالإنفاق عليه من الأموال العامة ".⁽³⁸¹⁾، و يواصل في ذات

378 - فؤاد زكريا ، المرجع السابق ، ص 226-227 .

379 رسل ، سبل الحرية ، ص 190 .

380 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 191-208 .

381 رسل ، المصدر نفسه ، ص 208 .

السياق، " كما أنه لا ريب في أن الذهن تزداد حدته و قدرته على الخلق في عالم يقل فيه تعرض الغريزة للضغط ، و تكون الحياة فيه أكثر بهجة ، وبالتالي يكون الناس أكثر حيوية مما هم عليه الآن. " (382)

2 - دور الأخلاق في التطبيقات و استخدامات التكنيك. (البيوتيك).

تطلق كلمة علم عند أفلاطون على الفكر النظري و على المعرفة التامة. (383)، فالعلم في اللغة اللاهوتية يدل على معرفة الله للعالم. (384)، أما التقنية فهي تطبيقات العلم في الصناعة، و يعني بالعموم كافة التطبيقات للعلوم النظرية منها علم الميكانيكا و تسمى هذه العلوم التطبيقية بالعلوم العملية. (385)، و التي تقوم على مبادئ استقرائية أهمها الحتمية و التي تعني باختصار جملة الشروط الضرورية لتحديد ظاهرة معينة. (386)، و هي تشترط نوع من الإيثار، وهذا المعنى يتضمن درجة من إنكار الذات، أو معنى التعبير عن إنكار الذات، و الذين يتجاوزون النسيان المحض للذات (387)، و بذل النفس، و يعني فعل التضحية بحياته أو بمصالحه الأكثر إلحاحا في سبيل شخص أو جماعة أو قضية يعتقد أنها ذات قيمة رفيعة. (388)، من هنا تبدو لنا أهمية الأخلاق في الممارسة العلمية و تطبيقاتها المتعددة و التي يؤدي غيابها في نظر رسل إلى شرور لا تحصى و مآسي إنسانية .

و يبدو رسل متفائلا بشأن العلم و المستقبل، و أن المستقبل قد يتيح إثارة مسألة تحسين النسل إذ يؤسس لافتراض هام مؤداه، " لنفرض أن هناك حكومة عالمية تسلطت عليها الفكرة التالية و هي أنها تستطيع إنتاج جيل أفضل من جيلنا، سيكون من الواضح تماما، من وجهة النظر العلمية المحضة، أن جيل المستقبل يجب أن

382 رسل ، المصدر السابق ، ص 210.

383 - لالاند ، الموسوعة الفلسفية ، ص 1251.

384 - لالاند ، المرجع نفسه ، ص 1252.

385 - لالاند ، المرجع نفسه ، ص 1254.

386 - لالاند ، المرجع نفسه ، ص 267.

387 - لالاند ، المرجع نفسه ، ص 03

388 - لالاند ، المرجع نفسه ، ص 272

388 - لالاند ، المرجع نفسه ، ص 273.

يولد عن طريق انتخاب 5% من الذكور و30% من الإناث، وأنه يجب تعقيم الباقي من أجل ضمان هذه النتيجة أحسن، أعتقد أن الوضع سيكون سيئاً للغاية، و لكنني لا أستبعد حدوث ذلك." (389)

و يستدرك بعد ذلك، أن هناك احتمالاً خطيراً بالفعل يوحي بأن العلم قد يتسلط على عقول الناس فيدفعهم إلى هذا الإجراء، و سيعملون كل ما في وسعهم لإحراز التقدم و الانتصار بإنتاج جيل أكثر كفاءة قد يستخدم في الحرب، مثل ذلك السباق نحو امتلاك الأسلحة الذرية بحجة أن الآخر قد يتحصل عليها، و بالتالي بإمكانه أن يلجأ إليها هو الآخر، و يُتمثل في اعتقاده " أنهم قد يفعلون ذلك من أجل الانتصار في الحرب، فمن الواضح تماماً أنك تستطيع إنتاج جيل بهذه الطريقة، و سيكون الجيل أكثر كفاءة - في الحرب - من أناس ولدوا بطريقة عرضية عفوية، و أعتقد أنك تستطيع أن تقنع الناس بسهولة ، لقد صدقنا أن الحصول على الأسلحة الذرية أمر ضروري لأن الجانب الآخر سيحصل عليها لا محالة، و لذا فإن الإنجاب بالطرق العلمية ضروري أيضاً لأن الجانب الآخر سيطبق هذه الطريقة لا محالة." (390).

و ينتقل بنا رسل إلى تحليل أسباب انتشار المآسي بأن خطر استخدام التقنية في المستقبل سببه نفسية الفرد إذ " أن السبب الوحيد في استمرار هذه الشرور هو أن في أرواح الناس عواطف شريرة، عواطف تمنعهم من اتخاذ خطوات لإسعاد الآخرين، و إذا سلمنا بقوى العالم المعاصر من حيث الأساليب الحديثة، وجدنا أن المشكلة كلها كامنة في نفسية الفرد و في عواطف الفرد الرديئة." (391)

و يشدد رسل على أهمية المعرفة العلمية و التقنية في إسعاد البشر شريطة أن يتم استغلالها بشكل أفضل و إلا كانت نتائجها وخيمة، فيعبر عن هذا الطرح مخاطباً الضمير الإنساني، " إنكم تملكون، بفضل المعرفة، قوى لم يسبق الإنسان أن امتلكها، و في مقدروكم أن تحسنوا استغلال هذه القوى أو تسيئوا استخدامها و سيكون لكم ذلك إذا تحققت من أن الجنس البشري كله أسرة واحدة." (392).

389 - Russell – **Ma Conception du monde** , traduit de l'anglais par louis Evrard- Edition Gallimard, Paris, 1962. p. 174 .

390 - Russell – Ibid . p.175

391 - Russell – Ibid . p.178

392 -Russell – **Ibid** . p.182

و يحذرنا في نفس الإطار من الطابع السلبي الذي يمكن أن يترتب عن استخدام التكنولوجيا مع الاعتراف بأن الاختراع العلمي سيف ذو حدين، والأمر كله للقوة التي تكسبنا إياها هي ، والتي يمكن تحويلها في اتجاه الخير أو الشر، فلو نظرنا إلى كشوفات العلماء و اختراعاتهم في ذاتها لكانت محايدة من الوجهة الأخلاقية، و هناك فرق حسب رسل بين الماضي والحاضر متمثلاً في عدم التمييز حاضراً في استخدام القوة و السيطرة التي تتيحها التكنولوجيا من أجل الدمار، وهكذا ابتعدنا عن الأوضاع الإغريقية حين كان من أفضع الجرائم التي يمكن أن يرتكبها اليوناني في زمن الحرب قطع أشجار الزيتون.⁽³⁹³⁾.

و يرد رسل على من يعتقد بأن الشرور مصدرها متعالٍ و أنها خارجة عن إرادة الإنسان مبيناً نقيض ذلك، أي أنها صادرة عن الإنسان ذاته و هذا ما أعلنه صراحة من خلال هذا الاقتباس الذي مفاده " أن العالم الذي هو موضوع للبحث ليس من صنعنا، بل إننا نحن الذين نصنع أخطاءنا و أوهامنا. و كثيراً ما نجد صعوبة في اكتشاف أخطائنا." ⁽³⁹⁴⁾

و يبرر هذه الحقائق على أساس أن هيكل القيم و الأفكار المسبقة أنهار كله بقيام الحرب العالمية الأولى إذ أكدت على وجود اختلافات بين الدول و التي لم تخف حدثها بالرغم من ازدياد الوعي القومي، وهذا ما أدى إلى حرب كارثية انهارت معها الثقة في التقدم و ظهور الشك و الارتياب.

أما على المستوى التكنولوجي فإن الحرب العالمية الأولى كشفت مستوى التقدم في الأسلحة والتكنيك الحربي، وهو ما يشكل تهديداً للاستقرار العالمي بظهور ديكتاتوريات اشتراكية وطنية أدت فيما بعد إلى نشوب الحرب العالمية الثانية بعد فشل عصبة الأمم و التي سعت إلى إرساء أسس التعاون السلمي بين الأمم، وفاقت الحرب في مداها و تخريبها من خلال التفوق في التسليح لم يشهد التاريخ الإنساني نظيراً له.⁽³⁹⁵⁾

³⁹³ - رسل ، حكمة الغرب ، ج 2 ، ص 195-196 .

³⁹⁴ - رسل ، المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 233.

³⁹⁵ - رسل ، المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 214-215.

و يزعم رسل أن ما شهدته الحرب الذرية و الاستخدام الصارخ لها في اليابان و أن هذا الإنجاز لا يفوقه إنجاز آخر في القوة التدميرية، أي وضع إمكانية التدمير الذاتي في متناول يد الإنسان، و هنا يشدد على أننا أمام امتحان يثبت فيه الإنسان إن كان حكيماً إلى حد مقاومة هذه الإغراءات لاستخدام هذه الوسائل للدمار.⁽³⁹⁶⁾

إن التكنولوجيا تحيلنا إلى جملة الوسائل التي يستعين بها الإنسان في عمله، فالوسائل البدائية هي الأخرى تمثل تكنولوجيا ، إذ أن كل ما كان يستعين به الإنسان للقيام بعمله بالإضافة إلى أعضائه وقواه الجسمية يستحق أن تسمى تكنولوجيا باعتبارها امتداداً له تساعد على أداء مهام معينة، فيوجز هذه الفكرة " بأن علاقة التكنولوجيا بالعلم تبدو في الوقت الحاضر على صلة وثيقة، إذ أن الإنسان يعتمد على العلم لتطويرها و إبداعها، في حين لم يكن هنالك اتصال بينهما من قبل، أي أن الوسائل لا تتطور بدون استثمار نتائج العلوم النظرية فيها، أي بالاعتماد على التجربة الخاصة و ما يمثل إرثاً متوارثاً، فكان الانتقال من عصر إلى عصر يستغرق آلاف السنين مثال ذلك الساعة الرملية، ثم الساعة كجهاز ميكانيكي يدل على دقة أكثر .

إن ربط العلم و التقنية بالقيم الأخلاقية أسس له فرنسيس بيكون الذي كان رائداً في هذا الميدان، حيث دعا إلى نوع جديد من العلم، لا يكون هدفه إرضاء الطموح النظري للعقل البشري، بل يكون هدفه تحقيق سيطرة الإنسان على الطبيعة و تسخير قواها لخدمته و إسعاده، و هي دعوة ظهرت في أواخر القرن السادس عشر و أوائل القرن السابع عشر، ولم تأت أكلها إلا بعد قرنين أو أكثر و لكنها تمثل انطلاقة جديدة نحو عصر جديد.⁽³⁹⁷⁾

و بشأن تاريخية التوأمة بين العلم و التقنية، فيبين أن إرهاباتها الأولى تعود إلى دعوة بيكون و التي حفزت الإنكليز على إنشاء الجمعية الملكية للعلوم التي اتخذت من هذه الدعوة هدفاً لها في الواقع ، فكان الجانب التطبيقي يمثل المكانة البارزة وسط الأبحاث التي قام بها أعضاء الجمعية في مراحلها الأولى، فكانت المشكلات تعالج بتطبيقات عملية، أما السبب في التفكير في ربط التقنية بالعلم يأتي في سياق انهيار الإقطاع

³⁹⁶ - رسل ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 215.

³⁹⁷ - فؤاد زكريا ، التفكير العلمي ، ص 137.

و ظهور المنشآت الرأسمالية و التي لم تعد تكتفي بأساليب الصناعة القديمة مهما كانت براعتها ، فكانت حاجاتهم لتكنولوجيا هائلة.⁽³⁹⁸⁾.

و لقد لقب **بيكون** بفيلسوف الثورة الصناعية من خلال الدعوة إلى إعطاء التقدم التكنولوجي دفعة قوية عن طريق ربط البحث العلمي بالجانب العلمي و استغلال نتائج المعرفة العلمية المتراكمة، و هذا ما أدى إلى ظهور الثورة الصناعية في انكلترا، فظهر لفظ المهندس في العصر الحديث وهو يجمع في مهنته بين المعرفة النظرية و بين فهم التطبيقات العملية و القدرة على تنفيذها، أي نقل الخطة العقلية التي يرسمها العالم في ذهنه تجربة تجرى في المختبر، و هو ما يساعد على تقدم العلم التجريبي مساعدة فعالة، فاستبدلت بذلك الوسائل التقليدية في العمل بوسائل حديثة كالطاقة البخارية و استخدام الفحم كوقود للمصانع و بذلك بدأت الإنسانية في التطور.⁽³⁹⁹⁾.

و من باب المقارنة ، يذكرنا رسل أن التطور التكنولوجي لا يتم في مدة قصيرة كما يعتقد البعض ، فقد كانت المسافة الزمنية بين ظهور البحث العلمي و اكتشاف تطبيقاته العملية قد قلت إلى أبعد حد في عصرنا الحالي، فقد استغرق التصوير الفوتوغرافي 112 سنة لتطبيق مبدأ يبنى عليه التصوير (1727 - 1839) و إلى 56 سنة (1820 - 1876) لاختراع التلفون، و إلى 35 سنة (1867 - 1902) لظهور اللاسلكي، و 15 سنة لظهور الرادار (1925 - 1940)، و إلى 12 سنة (1922 - 1934)، و إلى 6 سنوات للقبلة الذرية (1939 - 1945) .⁽⁴⁰⁰⁾.

و بناءً على ما سلف، فإن المشكلة في أيامنا هذه هي مشكلة التسرع في التطبيق التكنولوجي قبل القيام بالأبحاث العلمية الكافية، كفضيحة العقاقير التي ذاع صيتها و التي كشفت الأبحاث العلمية فيما بعد عن أضرارها على المدى الطويل، و هو ما أدى إلى ولادة مئات الأطفال المشوهين، أو بعض المبيدات الزراعية و الآفات الزراعية التي تبين وجود أضرار جانبية خطيرة لها.⁽⁴⁰¹⁾

³⁹⁸ - فؤاد زكريا ، المرجع السابق ، ص 137.

³⁹⁹ - ، فؤاد زكريا ، المرجع نفسه ، ص 138.

⁴⁰⁰ - فؤاد زكريا ، المرجع نفسه ، ص 139.

⁴⁰¹ - فؤاد زكريا ، المرجع نفسه ، ص 140.

و فيما يخص الرأي المتشائم من التقدم المخيف التكنولوجي، يمتدون بخيالهم إلى المستقبل إذ يؤمنون أن العقل البشري الذي انتقل في مائة سنة من الآلات الجديدة الضخمة ذات الفعالية المحدودة إلى العقول الإلكترونية عظيمة الكفاءة، قادر على أن يصل بالآلة بعد مائة سنة أخرى إلى مستوى يصبح مُهدداً بالفعل. أما الرأي المتفائل فهو يوجز قوله بأن الآلة قادرة على تحقيق السعادة للبشر أو تخليصه من الشقاء والمعاناة بجهودها الخاصة أو بتطورها التلقائي.

أما الرأي الوسط الذي يعد رسل من دعائه ، فيفصل بين الإنسان والآلة و يمثل برأيه هذا ، أحد مكتشفي السيبرنطيقا ، أي الحدود التي يصلها إيماننا بالآلة أو خوفنا من طغيانها، و يبين لنا هذه الحدود بوجه دقيق ، " أعط للإنسان ما للإنسان و ما للعقل الإلكتروني للعقل الإلكتروني "، بمعنى أن الإنسان يظل له الدور الهام و الأساسي في عصر التقدم التكنولوجي المذهل و أن أرقى أنواع الآلات تظل على الدوام أداة طيعة في يد صانعها ، و تتجه - إن خيرا و إن شرا - في نفس الطريق الذي يريده الإنسان أن يسلكه.⁽⁴⁰²⁾

و من جهة مغايرة ، كان رسل معارضا ضد القرن التاسع عشر بقيمه الرجعية المنافقة و بتفاؤله المطلق بالعلم، و سبب ذلك أنه يرى الأخطار الداهية التي ينطوي عليها التقدم العلمي الذي أحرزه القرن العشرين و الذي ترتب عنه حربان كونيتان عظيمتان في مدى قصير، وبالتالي فالتقدم العلمي كان مصدر شقاء بدل أن يكون مصدر سعادة.⁽⁴⁰³⁾

بالإضافة إلى ذلك، يزعم رسل أن السلطة الأخلاقية أقل ضرراً في وقتنا الحالي و لكنها ما زالت تمارس تأثيراً على المشاعر و التصرفات الإنسانية، مثل معارضتها لضبط أو تحديد النسل و معارضتها للقتل الرحيم أو القتل من باب الرحمة (**Euthanasie**).⁽⁴⁰⁴⁾، و يستفيض بشأن هذا الانشغال العلمي الذي تحول إلى قضية أخلاقية، أن القتل الرحيم حرم لأسباب دينية حجته أن الله وحده القادر على تحديد لحظة الوفاة ، أما الأطباء والمرضى فهم على التوالي قاتلون و منتحرون و بالتالي يجب رفض أي مشروع يدعو إلى السماح بهذا الأمر.

⁴⁰² - فؤاد زكريا ، المرجع السابق ، ص 144.

⁴⁰³ - رمسيس عوض ، رسل المفكر السياسي، ص 11.

⁴⁰⁴ - رسل ، المجتمع البشري في الأخلاق والسياسة، ص 24 .

هذا ما يعتبره رسل قسوة و تطرفاً و انتهاكاً لإرادة الإنسان وعائقاً أمام دواعي الرحمة والعطف و الرغبة في تخليص الناس من الألم والعذاب، وهذا الموقف يؤازره صاحب مشروع القتل الرحيم أو القتل من باب الرحمة، اللورد بونسوني و الذي اعترض عليه اللورد فيتزالان (Wietzalan) الإنجليزي، فالقتل من باب الرحمة هي حالة في آخر المطاف يسمح فيها للمريض بمعية أطبائه بممارسة حقه إنهاء حياته قبل أن تنتهي بصورة طبيعية، شرط اتخاذ الاحتياطات الكافية، أي يتم ذلك فقط في حالة استنفاد كل إمكانية للشفاء⁽⁴⁰⁵⁾.

و يعبر لنا رسل عن موقفه صراحة إزاء هذه المسألة المثيرة للجدل بين مؤيد و رافض للقتل الرحيم، " بأن هذا القول يمكن وضعه في صيغة أكثر اختصاراً في الكلمات البسيطة الآتية: النفاق مهما كان الثمن."، والمراد بالنفاق هو أنه حتى في ظل وجود القانون الذي يمنع ممارسة فعل القتل الرحيم، فهناك دوما الكثير من الأطباء الذين يمارسونه مع علم أطراف برلمانية و حكومية دون أن تتدخل لوضع حد لتلك الممارسات، و بذلك الرفض و القبول يندرج حسب رسل في إطار التعصب للرأي لا غير.⁽⁴⁰⁶⁾

و يذكرنا هنا رسل أن القدرة على القتل تتنافى مطلقاً مع كل القيم الأخلاقية فيعلن بصريح العبارة قائلاً : " لست مقتنعا تماما بأن القدرة على القتل على نطاق واسع تستحق الإعجاب الأخلاقي الخالص."⁽⁴⁰⁷⁾. و هنا يظهر نزعه الإنسانية و قلقه اتجاه ما يهدده من مخاطر و مخاوف " أن عصرنا، بهذه الطريقة، عصر متهور إلى درجة غير عادية، و هو عصر متهور لأن كل شيء مائع و المستقبل غير مؤكد. و إلى أن نبلغ بعض الاستقرار، ليس من المحتمل أن الناس سيمنحون الأجيال المقبلة حقها من الاعتبار."⁽⁴⁰⁸⁾

و يلح رسل على ضرورة حماية حقوق الأجيال المقبلة أيضا قائلاً أن هذه الأشياء هي التي تتكون منها أهمية الإنسان الفريدة، و هذه الأشياء هي وديعة كل جيل بدوره. إن واجبنا الأسمى نحو الأجيال هو أن نسلمها هذا الكنز أكبر مما تسلمناه لأقل. و كم بودي أن أصدق أننا نفعل ذلك." و المقصود بطبيعة الحال بالأشياء هنا مقومات الحضارة الإنسانية و إسهامات الأجيال الماضية وإمكانية مساهمة الأجيال المقبلة أيضا بموجب حيازتها لقدرات عقلية و فكرية هي كذلك.⁽⁴⁰⁹⁾

⁴⁰⁵ - رسل ، المصدر السابق ، ص 123-124 .

⁴⁰⁶ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 125 .

⁴⁰⁷ . رسل ، المصدر نفسه ، ص 107 .

⁴⁰⁸ - رسل ، المصدر نفسه ، نفس الصفحة

⁴⁰⁹ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 121 .

و من الواضح لنا كباحثين، أن تخوف رسل من الأسلحة العلمية و اليأس الذي يصيبه من جراء هذا الخوف يشكلان خلافا جوهريا بين رسل كفيلسوف العقل في القرن العشرين و سائر فلاسفة العقل المتفائلين والمؤمنين بالعلم وحده في القرن التاسع عشر، و بدون مبالغة إذا قلنا أن رسل من أشد الناس تشكيكاً في قدرة العلم على تخليص الإنسان من ويلات الحياة ، فقد يكون العلم نفسه الويل الأكبر لها إذا لم يرتكز على حكمة و خلق و مبادئ إنسانية .

و باختصار، تبدو فلسفة رسل قائمة على القيم الأخلاقية و داعية إليها إذا تعلق الأمر بالممارسة العلمية و تطبيقاتها وأن مراعاة البعد الأخلاقي هو وحده الكفيل بتحقيق السعادة للإنسان و تجنبه الوقوع في المآسي و الويلات، بمعنى أن العلم قد يتحول إلى أداة للدمار إذا لم تلجمه الأخلاق و الفضائل التي تسعى إلى صالح خير الإنسان و سعادته، و يمكن بتحقيق السعادة للإنسان و تجنبه الوقوع في المآسي و الويلات، بمعنى أن العلم قد يتحول إلى أداة للدمار إذا لم تلجمه الأخلاق و الفضائل التي تسعى إلى صالح خير الإنسان و سعادته، ولعل أفضل ما يوجز هذه الفكرة مقتطف من أبيات شعرية لشاعر النيل حافظ إبراهيم⁽⁴¹⁰⁾ :

لا تحسبنَّ العلمَ ينفعُ وحده *** ما لم يتَّوَّجْ رُئُهْ بِخلاقِ
والعلمُ إن لم تكتنفهُ شمائلٌ *** تُعليه كان مطيةً الإخفاقِ
كم عالمٌ مدَّ العلومَ حبانلاً *** لوقيةٍ وقطيةٍ وفراقِ

و من هنا تتخلى أهمية الأخلاق في الممارسة العلمية، إلا أن العديد من العلماء ، و بالرغم من إدراكه لمدى ضرورة الأخذ بعين الاعتبار للقيم الأخلاقية في معابنتهم و دراستهم لمختلف الظواهر الطبيعية، إلا أن نتائج هذه الأبحاث وما تسفر عليه من تطبيقات عادة ما توظف في غير محلها. فما الذي يقوض سلطة العالم و يقبل بأن تستخدم إبداعاته و مبتكراته بشكل يتناقض مع ضميره و قناعاته ليعلن عن حسرته و ندمه لاحقاً، فقد لمسنا ذلك من تاريخنا الحديث و المعاصر خاصة مع مكتشف نظرية النسبية الذي ساهمت أبحاثه في ابتكار القنبلة الذرية التي استخدمت بشكل فظيع في وقف الحرب العالمية الثانية.؟ هل من الضروري تشكيل هيئة تقوم بدور الرقيب لمتابعة جوانب توظيف التكنيك و مدى احترام منظومة القيم الإنسانية و محاولة استغلالها للإنساني من قبل الأنظمة السياسية الراهنة ؟

⁴¹⁰ - حافظ إبراهيم ، قصيدة العلم و الأخلاق ،

المبحث الثالث : أهمية الأخلاق في بناء المجتمع العلمي.

1- دور الأخلاق في الدعوة إلى توظيف الأساليب العلمية في معالجة القضايا

الاجتماعية :

إن النظر إلى العلم من الناحية الكمية الخالصة ، يكشف أن معدل نمو العلم قد تسارع بصورة مذهلة خلال القرن العشرين كما سبق ذكره في المبحث السابق، فالإحصائيات تؤكد أن كمية المعرفة تتضاعف في وقتنا الحالي بين عشر سنوات و خمس عشرة سنة، وهذا ما كان يستغرق في العصور الماضية مئات السنين، و سيظل هذا النمو في ازدياد متواصل.⁽⁴¹¹⁾

و بالموازاة مع ذلك، فإن ازدياد الكم المعرفي صاحبه ازدياد في عدد العلماء إذ أن عدد العلماء حالياً يساوي $\frac{3}{4}$ من مجموع العلماء الذين عاشوا منذ بدء التاريخ البشري، وبافتراض أن العدد سيستمر بنفس المعدل الحالي ، فهذا يعني أن كل رجل و امرأة و طفل لا بد أن يصبح عالماً في أوساط القرن المقبل، و هو نفس الوضع بالنسبة للبحوث العلمية . فوزن المجالات العلمية الموجودة في العالم بعد مائة سنة سيصبح أثقل من الكرة الأرضية ذاتها .

و لو استمر الإنفاق على الأبحاث العلمية بنفس الوتيرة في الدول المتقدمة ، فإن هذه الدول ستنفق بعد فترة كل دخلها القومي على البحث العلمي و التكنولوجي، و لنا أن نتصور هذا الوضع مع الكم الهائل من المعارف والإنتاج العلمي و ما يفرزه من نتائج على المستوى الإنساني والطبيعي، فكل ما تدل عليه هذه الإحصائيات هو أن معدل النمو في العلم يتزايد في القرن العشرين بسرعة مخيفة .

ومن الواجب وضع حد للمقددرات الحالية للبحث العلمي، فهي كافية لإحداث تغييرات على المستوى العلمي، مما يعطي فرص أعظم لمضاعفة الإنجازات العلمية، أما في الدول المتخلفة علمياً، فإن الفشل يؤدي إلى مزيد من الفشل ، فالعلماء الذين يشعرون بخيبة الأمل و الذين يفتقرون إلى وسائل البحث العلمي سيتركون من ورائهم أجيالاً أكثر إحباطاً و أقل مقدرة و يصبح هو الجيل الأضعف، و يوماً ما، هو المسئول عن هذا الضعف.⁽⁴¹²⁾

⁴¹¹ - ، فؤاد زكريا ، التفكير العلمي ، ص 148-149.

⁴¹² فؤاد زكريا ، المرجع نفسه ، ص 149-150.

إن التطور التكنولوجي انطلق أساساً من تطبيق ما يحدث في الإنسان بوصفه جهازاً حياً، على الآلات من بلوغ مرحلة جديدة في تطورها، و بدراسة الوظائف العامة للجهاز العصبي للإنسان و الذي يساعده في تصحيح مسار أفعاله و يعيد توجيهها وفقاً لما يواجهه من مواقف، ثم الانتقال إلى تطبيقها في صنع جيل جديد من الآلات ليست بحاجة إلى إشراف دائم للإنسان و لا تعمل إلا وفق أوامره، و هي تصحح مسارها بنفسها، و تقوم بأعمال أعقد وأكمل مما كانت تقوم به الأجيال السابقة من الآلات، فهذه الآلات الجديدة تتضمن في داخلها عقلاً حاسباً يراقب عملها و يعدله و يصححه و يوجهه وفقاً لما يجربه من حسابات.⁽⁴¹³⁾

بالإضافة إلى ذلك، فإن عصرنا الحاضر هو عصر الانفجار المعرفي أو المعلوماتي، مما يعني أن وسائل الإطلاع العادية كالبحث عن الكتب و المجلات العلمية في المكتبات في هذا العصر لا يجدي نفعاً، في ظل عصر تتدفق فيه المعلومات و الأبحاث العلمية و يتزايد عددها بدون انقطاع، وهنا تظهر الحاجة إلى العقول الإلكترونية لتقوم بدور الذاكرة الصناعية، وتزود الباحث على الفور بقائمة المراجع التي يتعين عليه قراءتها في الميدان الذي اختاره و تغنيه عن جهود شاقة تدوم سنوات بتقديمها إليه المعلومات المطلوبة مباشرة.⁽⁴¹⁴⁾

إن الدور الذي تقوم به هذه العقول في الميدان العلمي من خدمات أساسية لا يتوقف على الحفظ الصناعي فقط بمعنى الذاكرة الصناعية، بل أنها تؤدي عمليات ذهنية يعجز عنها العقل البشري، فهي تقوم بأدق العمليات الحاسوبية وأعقدها بسرعة هائلة، و هي عظيمة الكفاءة في الظروف الأكثر تعقيداً بالنسبة للعقل البشري و تقوم بتوجيه السفن الفضائية إلى كوكب بعيد و سرعة السفينة و سرعة دوران الأرض والجاذبية و حركة الكواكب و جاذبيتها و التي يستحيل على العقل البشري أن يجمعها كلها في مليّة واحدة.⁽⁴¹⁵⁾

⁴¹³ - ، فؤاد زكريا ، المرجع السابق ص 153-154.

⁴¹⁴ - فؤاد زكريا ، المرجع نفسه ، ص 154.

⁴¹⁵ - فؤاد زكريا ، المرجع نفسه ، ص 155.

و يزداد الدور الذي تقوم به العقول الإلكترونية في العصر الحاضر، و لأنها كانت نتاج تفكير و تطبيق علمي رفيع ، فإنها تعمل على زيادة ارتفاع مستويات التفكير العلمي في البلاد التي توظفها على نطاق واسع، فهي تعفي العالم من عمليات شاقة تتعلق بجمع المواد العلمية لأبحاثه و تعريفه بجهود الآخرين، بالإضافة إلى تمكينه من الوصول إلى استكشاف أبعاد الطبيعة التي عجز عن الوصول إليها تفكيره العقلي، وبذلك تمكنه من الدقة و التعمق و ربح الوقت و الجهد معا. (416)

و بناءً على التحليل السابق، فإن النتيجة التي يؤدي إليها مسار التفكير العلمي في رحلته الشاقة والطويلة هي توحيد الإنسانية، وهي نتيجة ما زالت بعيدة المنال، وهي تقتضي التأكيد على وجود عوامل تقف حائلا دون هذا التوحيد، وهي كلها تتعارض مع الطبيعة الحقيقية للعلم، ومن ثمة فإن تقدم التفكير العلمي ينبغي أن يزيحها جانبا، فما هي هذه العوائق التي تقف في وجه استخدام العلم لصالح الإنسانية جمعاء، بدلا من أن يستخدم كما هو حادث في الوقت الراهن ، أداة التفرقة و زيادة قوة فئات أو مجتمعات معينة على حساب الباقين؟

و من المتعارف عليه، أن العلم كان منذ بداية تقدمه في العصر الحديث يخدم شتى أنواع المصالح و الجماعات البشرية، و لكننا اليوم نستطيع أن نشير إلى طريقتين واضحتين في استخدام العلم، تؤدي كل منهما بطريقتها الخاصة إلى إرجاء اليوم الذي سيصبح فيه العلم قوة موحدة تخدم أرجاء العالم بلا تفرقة، هاتان الطريقتان هما : النزعة التجارية و النزعة القومية .

فمن الواضح أن لا أحدا ينكر أن العلم في كثير من المجتمعات المعاصرة ما زال يستخدم استخداما تجاريا، و ما زال البحث العلمي فيها يعد سلعة تخضع لمتطلبات السوق و تخدم أغراضه، بل أن بعض العلماء ممن يقعون فريسة لأوهام الاقتصاد الحر على النمو الذي كان يدعو إليه آدم سميث في القرن الثامن عشر ما زالوا يؤمنون بأن هذا الطابع للعلم خير وسيلة للنهوض به، إذ يؤدي بالإنسانية إلى احتدام المنافسة بين المؤسسات التجارية التي تقوم بتشغيل العلماء. مما يوفر للعلماء شروطاً أفضل تعينهم على التقدم في بحوثهم، ومن ثمة تكون الحصيلة النهائية مزيداً من الكشوف العلمية الناتجة عن التنافس .

416 - فؤاد زكريا ، المرجع السابق ، ص 156.

ولكن مثلما تبين بعد وقت طويل، أن نظام الاقتصاد الحر إذا تُرك يسير تلقائياً دون ضابط، يؤدي بالإنسانية عكس الفرض الذي تصوره مفكروه و فلا سفته الأوائل و يقع الإنسان فريسة للاستغلال بدلا من أن يخدم مصالحه المادية ، وكذلك اتضح أن للاستخدام التجاري للعلم عيوباً فادحة أوضحت تشتت جهود العلماء و تبديدها، حيث أن المشكلة العلمية الواحدة قد تصبح عندئذ موضوعاً للبحث في عدة مؤسسات تتنافس فيما بينها، مما جعلها بحثاً متقاربة و ربما متكررة.

بالإضافة إلى ذلك، و في ظل الاستغلال التجاري، يمكن للعلم أن يصبح موضوعاً للاحتكار، فنظام براءات الاختراع يعطي المؤسسة التي تشتري حق استغلال كشف معين الحرية في استخدام هذا الاختراع، و قد يظهر كشف علمي إلى تكنولوجي هام في سرية تامة، إذ أن نشره فيه ضرر بمصالح تجارية ضخمة، فهي تشتري الاختراع لكي تخنقه، مثال ذلك ما أشيع على اختراع محرك السيارات أقل و أبسط تكلفة من المحركات الحالية، فاشترته شركة كبرى لكي تحجبه و تحمي استثماراتها الهائلة المبنية على نظام المحركات الحالية .

و تعقياً على ما سبق، يبدو أن العيب الكبير هو الاستغلال التجاري للعلم ، أي إخضاع البحث العلمي للاعتبارات التجارية ، فالعمل العلمي أشرف من أن يقاس بالمقاييس التجارية، فهو ثمرة جهد علماء سابقين في حد ذاته. وعليه ينبغي على العالم أن يكون واسع الاطلاع بكافة القضايا الإنسانية و أن لا يضيق اهتمامه في مجال تخصصه فقط، أي ضرورة الإمام ببقية فروع التخصص في شكل متكامل مع الاحتفاظ بالنزعة الإنسانية.⁽⁴¹⁷⁾

⁴¹⁷ - فؤاد زكريا ، المرجع السابق ، ص 236 .

و هنا يجب التذكير أن الإمام لا يعني الموسوعية، فهي تتصل فقط في التخصص دون المبالغة في استخدام لغة خاصة بتميز مقصود عن الغير، مع العلم أنهم لو خرجوا عن ميدانهم الأصلي لاكتشفوا مدى محدودية علمهم، فكثيرا ما يقال " العلماء جهال"، و هو ما يوسع الفجوة بين العلم والإنسان إذا ما انعزل العالم المشتغل بالبحث العلمي عن كافة جوانب المعرفة الأخرى .

و يضاف إلى ذلك، أن هذا الإقبال على الثقافة ذاتها من جانب العلماء الكبار لا يمكن تفسيره إلا على أساس وحدة الإنسان، فالروح الإنسانية ينبغي أن تظل محتفظة بوحدها مهما ضاق نطاق اهتمامها الأصلي، والتخصص الدقيق لا ينبغي على الإطلاق أن العالم إنسان و بالتالي قادر على تذوق و استيعاب الجوانب الإنسانية في الثقافة، بالإضافة إلى اهتمامه العلمي، فالتنوع في ميادين المعرفة لا يتعارض مع مقولة أن منبع ملكات العقل الإنساني هو الروح الإنسانية الواحدة.⁽⁴¹⁸⁾ ، و هذا ما أكد عليه روني بوارل مثلاً في سياق حديثه عن الشروط النفسية للإبداع، حيث بين ضرورة توفر جملة من الشروط السيكلوجية التي تتواجد على مستوى الذات المبدعة على غرار الخيال، الاهتمام ، الرغبة ..⁽⁴¹⁹⁾

و انسجاما مع منطلقاته، يعتقد رسل أن العلم لا تكون له قيمة إلا إذا كان في خدمة قضايا المجتمع و إلا تميز بالتكليف والتحذلق، ففي رأيه أن المجتمع بمفكره و نخبه ، وهي التي تصنع أمجاده و إنجازاته ، " فإن الخير العام للجماعة يتحقق في الأفراد فقط، إلا أنه يتحقق في بعض الأفراد بصورة أو في مما يتحقق في الآخرين، فلبعض الناس عقل أكثر إدراكاً و نفاذاً، يجعل في إمكانهم أن يقدروا الإنتاج الفكري لأسلافهم و ما عرفوه وأن يعوا ذلك في ذاكرتهم، و أن يكتشفوا آفاقاً جديدة يتمتعون فيها بجميع تلك المباحج السامية التي يتمتع بها المكتشف الذهبي." ⁽⁴²⁰⁾

⁴¹⁸ - فؤاد زكريا ، المرجع السابق ، ص 239 .

⁴¹⁹ - René BOIREL . **Théorie Générale de l'invention** . Edité par PUF (1961) . p 242 .

⁴²⁰ - رسل ، سبل الحرية ، ص 170 .

و يضيف رسل أن عملية الإبداع العلمي لا تقوم فقط على التشجيع المادي والمكافآت المالية، بل تقتضي بشكل ضروري إتاحة الفرصة وتهيئة الجو الذهني المنشط الذي يحث على الإنتاج، أي أهمية العوامل الذاتية في عملية الابتكار و الإبداع، فيستطرد بهذا الشأن معلنا، " أن جميع الأعمال ذات الأهمية البالغة تنبثق من نزعة لا تقدر هذه العواقب، و خير ما يمكن عمله لتشجيع هذه الأعمال هو إيجاد الظروف التي تحافظ على حياة هذه النزعة و تهيئة المجال لما تلهمه من نشاط، و ليس منح المكافآت بعد أن يتم العمل." (421)

و أهم ما ورد عن رسل في شروط الإبداع هو تأكيده على شروط ثلاثة تتمثل في التدريب الفني و الثاني حرية إتباع النزعة الخالقة والثالث هو وجود احتمال على الأقل في الفوز بالتقدير من جمهور كبير أو صغير في نهاية الأمر." (422) و فيما يخص التدريب الفني يعني ضرورة توفير الوسائل المادية و التربوية و التي يوفرها المجتمع للفرد المبدع، و كل ما يمكنه من ضمان شروط اجتماعية ومادية تساعد في بحوثه العلمية دون أن ننسى ما للمنهج الدراسية من أثر، فتكون دوما باعشا على المنافسة، دون أن يكون مبالغا فيه لبعض الشرائح التعليمية.

421 رسل ، سبيل الحرية ، ص 171-172 .

422 رسل ، المصدر نفسه ، ص 173 .

2- دور الأخلاق في تهذيب الأفراد أمام مخاطر التكنولوجيا و تهديداتها المختلفة.

إن العلم هو الإنجاز الذي يمكننا أن نسميه " مصيرياً " بحق في هذا العصر، فلأول مرة يدرك الإنسان أن العلم هو الذي يحدد مصيره سلبياً أو إيجابياً، إذ تعيش البشرية في خوف دائم من أن تدمر حياتها و حضارتها حرب نووية أو بيولوجية تعتمد اعتماداً كلياً على العلم، ومن جهة أخرى ، فإن الأمل الأكبر لدى البشرية في مستقبل أفضل، و في حل مشكلاتها الغذائية و الصحية المستعصية، بل في استمرار قدراتها على الارتقاء و النماء هو الآن معقود على العلم.⁽⁴²³⁾

و ينوه رسل هنا على أن حضور التقنية في المستقبل و فرض التنظيم يترتب عنه غياب فرص السعادة نظراً لتأثر المجتمع و الفرد بالاكشافات العلمية ، إذ أن الأثر النفسي و الطرق العلمية - في اعتقاده - تكمن في فرض الرقابة على الفكر من خلال السلطات التعليمية، إذ يكشف ذلك في معرض إجابته عن سؤال حول إمكانية إيجاد فكر حر في المستقبل، " أريد أن أقول أن طراز الناس الذين أنتمي إليهم تربوا في عالم قديم، تربوا في عالم أقل تنظيماً من العالم الذي أتصوره في المستقبل، أعتقد أن عالم اليوم هو أكثر تحراً، و هذا بشرط أن لا يكون الناس في قالب واحد، و هذا ما سيحدث في المستقبل حسب اعتقادي." ⁽⁴²⁴⁾.

و في سياق حديثه عن جذور مشكلات البيئة، يزعم رسل أن الحديث عن البيئة في بداية الستينات لا يتعدى جدران عدد محدود من الجامعات العلمية شديدة التخصص، و في سنة ذاتها صارت هذه المشكلة من أكثر المشكلات تداولاً على ألسنة الناس و في أجهزة الإعلام و في الهيئات الدولية الكبرى، و أعقبها إنشاء معاهد متخصصة و مجالات خاصة و مئات النشريات و الكتب بشتى اللغات و هيئة دولية تابعة للأمم المتحدة، فما هي أسباب الانتقال السريع من التجاهل لمشكلة البيئة إلى الوعي الزائد بها.؟

⁴²³ - فؤاد زكريا ، التفكير العلمي ، ص 167.

⁴²⁴ - Russell – Ma Conception du monde . p 173.

من الثابت أن مشكلة البيئة كان لها وجود قبل ظهور هذا الوعي المفاجئ لوقت طويل، حيث أن التقدم العلمي والتكنولوجي كان لا بد أن يترك آثاره العميقة على بيئة الإنسان. و منذ بداية العصر الصناعي أصبح تدخل الإنسان في البيئة حقيقة أساسية من حقائق هذا العصر، لأن لفظ الصناعة ذاته يعني تغيير عناصر البيئة بجهد الإنسان .

أما ظهور الوعي بمشكلة البيئة يعلل بعدة عوامل أهمها التوسع الهائل في التصنيع و الزيادة الضخمة في الإنتاج بعد ح.ع.2، و هو توسع أدى إلى إدخال تغييرات أساسية في البيئة الطبيعية التي أخضعت لمتطلبات الصناعة إلى حد قضى على الكثير من معالمها الأساسية، و أهم عامل أدى إلى ظهور الوعي بمشكلة البيئة هو ظهور وعي جديد في خضم السباق بين الدول المصنعة بضرورة الحفاظ على توازن البيئة التي يعيش فيها و غيره من الأحياء، فلقد أدركت المجتمعات الصناعية أن تلاعب الإنسان ببيئته قد زاد عن حده، بل أدى إلى تلويثها بمختلف النواتج المخلفة عن عملية التصنيع.⁽⁴²⁵⁾

لقد كانت مشكلة تلويث البيئة نتيجة لنفايات المصانع هي المشكلة الصارخة، فهي تطرد من مداخلها الضخمة كميات هائلة من الغازات التي تلوث جو مدن بأكملها و تعرض حياة الإنسان و خاصة الأطفال لأخطار جسيمة بعد استنشاقهم أشكالاً من الهواء الملوثة، فضلا عن ذلك، يلوث الأنهار لما يُلقَى فيها من نفايات بما فيها مياه الشرب.

و حتى البحار لم تسلم من ذلك نتيجة مخلفات المصانع القريبة منها و السفن التي تسير فيها و الموانئ المطلة عليها، بل أن التقدم في تكنولوجيا الزراعة ذاتها التي لها صلة وثيقة بالبيئة الطبيعية من الصناعة الطبيعية ، بطبيعة الحال ، قد أدى إلى مشكلات بيئية خطيرة ، فاستخدام مبيدات الآفات على نطاق واسع أدى إلى تلوث المزروعات و تعرض مستهلكها لأخطار التسمم ، فضلا عن إلقاء مياه الصرف الصحي في الأنهار و الترع (الدالتا) لوثها بدورها و هدد كل أشكال الحياة.⁽⁴²⁶⁾

425 - فؤاد زكريا ، التفكير العلمي ، ص 173-174.

426 - فؤاد زكريا ، المرجع نفسه ، ص 174-175.

كما أن الخطر لا يقتصر على التلوث وحده، بل هناك خطرٌ آخر يتمثل فيما يسمى " باختلال التوازن البيئي ". و يمكن تقديم أمثلة على هذه المخاطر البيئية بالاعتماد على نتائج الدراسات و التجارب العلمية ، فأكدت مثلاً أن العناصر الطبيعية المختلفة قد تعايشت على مدى الآلاف من السنين، بحيث يعتمد بعضها على بعض في توازن دقيق، وتدخّل الإنسان للقضاء على أحد هذه العناصر يترتب عنه نتائج غير متوقعة ، مثال ذلك ما قامت به الصين من تجربة اعتبرت رائدة في القضاء على العصافير خلال أيام قلائل التي كانت تنكاثر بالملايين و كانت تهدد المحاصيل (الحبوب) تهديداً خطيراً يؤثر في ثروتها الزراعية.

و لكن القضاء على العصافير بعد سنوات قلائل تبين أنه ألقى ضرراً بالتربة الزراعية، لأن العصافير كانت تأكل ديدانها التي تفرز السموم ، فلما اختفت العصافير تكاثرت هذه الديدان إلى حد أثر على خصوبة التربة، فكل هذه المشاكل من تلوث أو الإخلال بالتوازن الطبيعي في معظم الأحوال تعد نتيجة مباشرة للتقدم التكنولوجي في عصرنا الحاضر، و تستدعي الإسراع في نمو الوعي و العمل بشكل منسق للحد من أضرار التصنيع والوعي بإدراك الأخطار المختلفة و أبعادها الاجتماعية و الجمالية للمشكلة، و بالتالي فإن الحد من مشكلات البيئة يقتضي تغييراً سياسياً في قيم المجتمع، فلا تعود مركزة على التنافس بل على التعاون و التعايش، و بالتالي فالحلول ليست قطرية بل عالمية.⁽⁴²⁷⁾

و لما كانت الثورة الإلكترونية هي إحدى الدعائم الرئيسية التي يرتكز عليها عصرنا الحاضر، ففي وسعنا أن نجد مثلاً لإنجاز آخر ضخّم حققته العلوم البيولوجية في النصف الثاني من القرن العشرين، فمنذ عدد قليل من السنوات توصل علماء البيولوجيا إلى كشف خصائص الخلايا الوراثية " الجينات " و معرفة تركيبها الكيميائي و اهتموا إلى أول خيط، الذي يؤدي إلى كشف الشفرة الوراثية و ما قد تسفر عليه من نتائج مستقبلاً، إذ سيمكن من معرفة العوامل الوراثية بدقة و من ثمة معرفة سر من أسرار الحياة، وعليه التحكم بطريقة إرادية في الوراثة البشرية، بحيث يغير من خصائص الجينات تغييراً متعمداً، فتكون النتيجة تغيير صفات المواليد الجدد .

427 - فؤاد زكريا ، المرجع السابق ، ص 176.

و لقد وضع التطور البيولوجي العلم في أول طريق إلى توسيع نطاق سيطرة الإنسان لتمتد إلى إدخال تعديلات أساسية على مواليدته، لتصل أيضا إلى إنتاجه الاقتصادي، بحيث لم تعد مقتصرة على ما يوجد به الأرض في الزراعة، بل أصبح الاقتصادي يحور مواد الطبيعة ويشكلها وفقا لإرادته، و بذلك يبدو أن العلم قد أمسك الآن بأول الخيط المؤدي إلى إحداث تغيير مماثل في الكائنات البشرية التي تتألف منها أجياله الجديدة بحيث تصبح علاقة العصور التي يتحقق فيها هذا الإنجاز الضخم بالعصور السابقة شبيهة بعلاقة العصر الصناعي بعصور الزراعة والرعي و القنص.⁽⁴²⁸⁾

و لا ريب أن الأبحاث التي تجري في ميدان دراسة المخ البشري ستؤدي إلى نتائج هائلة أيضا، فهو عضو شديد التعقيد ولم تكن المعلومات حولها بالتفصيل المطلوب ممكنة، و لكن المعرفة العلمية في هذا المجال تضاعفت، إذ يقترب العلماء إلى معرفة آليات و ميكانيزمات العمليات التي تتم في المخ، و نوع التغييرات الفيزيائية و الكيماوية عند تأدية وظائفه وهو ما يسمح في المستقبل من التحكم في تركيبية المخ البشري بالزيادة أو النقصان.

و مع ذلك لا يملك الإنسان إلا أن يشعر بالفزع جراء احتمالات مخيفة تثيرها هذه الكشوف، لاسيما إذا كانت خالية من رقابة أو متابعة جدية، و وضع حدود لهذه النتائج و مدى إمكانية استغلالها لصالح خدمة الإنسان، فمن يحدد هذه الأهداف؟، و في يد من التحكم في حياة الاقتصادي و في خصائصه الوراثية؟، وهل يجوز التفكير أصلا في تعديل قدرات الاقتصادي؟، و إلى أي مدى يعد مثل هذا التدخل أمرا مشروعاً؟ وهل يكون من حقنا أن نتخذ الإنسان و هو أرفع الكائنات مكانة موضوعا للتجارب وللتشكيل المتعمد في المختبرات؟.⁽⁴²⁹⁾

و بالإمكان أيضاً أن تستغل دول ذات الأنظمة العدوانية كاشفا علميا يزيد من قسوة مواطنيها أو قدراتهم على سحق خصومهم بلا رحمة، وكذلك لو تخيلنا أن هذه القدرة الفائقة للعلم على تشكيل صفات البشر قد وضعت في يد مجتمع يحكمه أصحاب الأطماع الاقتصادية و المصالح التجارية، لكان من الممكن استغلال هذه القدرات العلمية في تكوين واستنساخ أجيال بشرية تحمل بلا شكوى و بلا كلل في مصانعهم أو تستهلك منتجاتهم طائفة بقصد إيجاد أجيال نمطية لا تنوع فيها.⁽⁴³⁰⁾

428 - فؤاد زكريا ، المرجع السابق ، ص 190-191 .

429 - فؤاد زكريا ، المرجع نفسه ، ص 192 - 1978 .

430 - فؤاد زكريا ، المرجع نفسه ، ص 193 .

و على أية حال، فإن المستقبل يحمل في طياته مفاجآت كثيرة في ميدان الكشف العلمي لا تقل عن تلك التي حملها إلينا العلم في ميدان الفضاء خلال الأعوام العشرين الماضية، والمأمول أن يثبت العقل البشري أنه قد بلغ من النضج ما يسمح له بالتحكم في ذاته بنفس الكفاءة التي تحكم بها في العالم المحيط به.⁽⁴³¹⁾ كل هذه الإشكالات التي أفرزها تطور العلم اليوم لا تجد حلا لها إلا إذا أقررنا مرة أخرى في اعتقاد رسل ضرورة توثيق الصلة بين العلم والأخلاق، فمن المهم مراعاة القيم الأخلاقية العليا والفضائل الإنسانية في الممارسة العلمية و تطبيق نتائجها التقنية و إلا تحولت الكشوفات العلمية من نعمة تعلق عليها الآمال إلى نقمة تبعث على المخاوف والتهديدات.

فلقد كانت أزمة الضمير هي التي دفعت عدداً غير قليل من العلماء بعد مشاركتهم في صنع القنبلة الذرية وإدراكهم لما أسهموا فيه من إدخال الإنسانية إلى عصر أسلحة الدمار الشامل التي لا تفرق بين الجنود والأطفال و النساء، إلى أن يكرسوا بقية حياتهم من أجل الدعوة إلى السلام ، بل أن منهم من أصبح محاطا بالشبهات مثل روبرت أوبنهايمر (**Oppenheimer Robert**)، الذي وصل به الندم حداً جعل السلطات في بلاده تراقبه عن كتب ثم تبعده عن مواقع المسؤولية في عمله، خوفاً من أن يعمل على تسريب أسرار الأسلحة الجديدة إلى المعسكر الشرقي،

لقد قام فريق بالفعل بالقيام بذلك لا من أجل المال، بل لدوافع يعتقد أنها إنسانية، إذ أن امتلاك طرفي النزاع الدولي للقنبلة الذرية هو الكفيل بإيجاد حالة من التوازن يمتنع فيها كل من الطرفين عن استخدامها خوفاً من الآخر، والمؤكد أن عمل هؤلاء يعد بالمقاييس الأخلاقية الخالصة عملاً إنسانياً جليلاً ولكنه بمقاييس القوانين العادية خيانة للوطن.⁽⁴³²⁾

و تشير المشكلات السابقة كلها بصورة واضحة إلى حقيقة أساسية هي أن التقدم العلمي المعاصر يسير في طريق تفجير النظم الاجتماعية التي ظل الإنسان يعيش فيها، فمشكلة الغذاء والأكل لا تحل في الإطار العالمي الذي لم يتوفر لحد الآن، ومشكلة البيئة التي لا تحل إلا بتصور دولي موحد، ومشكلة الموارد الطبيعية تقتضي التفكير في الحاضر والمستقبل بعيداً عن الأنانية والمصلحة و حب الاستهلاك، و مشكلة الوراثة ومشكلة التسلح ، أي طريق السلامة أو طريق الندامة.⁽⁴³³⁾

431 - فؤاد زكريا ، المرجع السابق ، ص 194.

432 - فؤاد زكريا ، المرجع نفسه ، ص 198.

433 - فؤاد زكريا ، المرجع نفسه ، ص 202-203 .

و في عصرنا الحاضر تختلط النزعة القومية بالانحياز الإيديولوجي ، فيدافع الاشتراكيون عن العلم الذي يظهر في ظل الإيديولوجية الروسية أو على يد علماء لهم اتجاهات اشتراكية، بينما يميل علماء الرأسمالية إلى الإقلال من دور هؤلاء الأخيرين ، فمنذ عهد النازي في ألمانيا، يتجاهل علماء الألمان فيزياء أينشتاين لأنه غادر ألمانيا و أدى ذلك إلى تقدم الإنجليز و الأمريكيين عليهم، وفي العهد الستاليني كان عالم الأحياء المشهور ليسنكو (Lyssenko)، هو الحاكم في ميدانه بقدرته على التوفيق بين النظريات البيولوجية و بين الفلسفة المادية الديالكتيكية، و لذلك كانت نظرياته مدعمة بسلطة الدولة ، و خصومهم معرضين للدولة و معرضين للاضطهاد، أما في أمريكا، فهناك حرص شديد على تأكيد دور العلماء و المخترعين بالرغم من شهرتهم المحدودة مثل بنجامين فرنكلين (B.FRANKLIN) و فولتون (Fulton) و أبولو لتغرس في ذاكرة الأمة الأمريكية باعتبارها إنجازا علميا أمريكيا بامتياز.⁽⁴³⁴⁾

من هذه الأمثلة كلها، يتبين بوضوح أن النزاعات القومية أو الإيديولوجية مازالت لها تأثير قوي حتى في أرقى المجتمعات المعاصرة في نظرتها إلى العلم، دون أن يكون ذلك منعا لافتخار هذه الشعوب بإنجازاتها العلمية، فقط و تعقيبا على هذه الأطروحات الفكرية، ينبغي الاعتراف أمام الملاء أن العلم ملك للإنسانية كلها وأن العالم الكبير مواطن للعالم كله، لا لوطنه فحسب و لكننا نتصرف عملياً عكس ذلك و نحفظ في أحكامنا على العلماء وإنتاجياتهم بمنطق قومي إيديولوجي وهو ما يبعدهنا عن النزعة العالمية. التي تتجاوز الأوطان أو المذاهب الفكرية .

و هكذا يمكن القول أن كثير من مظاهر العلم مازالت تتأثر بنزعات مضادة للنزعة العالمية مع أن العلم يتجه إلى مزيد من التوحد بفضل العلم والتكنولوجيا الحديثة التي هي نتاج مباشر للعلم، وبذلك تخلق عالم تتقارب فيه المسافات وتتشابه فيه الأفكار والعادات و يزداد بذلك يوماً بعد يوم تأثير بتلك الثقافة العالمية التي خلقتها وسائل الإعلام الحديثة والتي تسعى أيضاً هيئات و منظمات عالمية لنشرها، من أجل ثقافة ذات مستوى إنساني رفيع على نطاق العالم كله، مثل منظمة اليونسكو التي تمثل في نفسها مظهراً هاماً من مظاهر التوحيد الثقافي بين البشر والتي تبذل جهوداً أكبر من أجل صنع الثقافة العالمية بصيغة أرفع من تلك التي تتسم بها الثقافة التجارية الحالية.⁽⁴³⁵⁾

⁴³⁴ - فؤاد زكريا ،. المرجع السابق ، ص 247.

⁴³⁵ - فؤاد زكريا ، المرجع نفسه ، ص 250.

و أما في سياق إثارته لقضية أضرار العلم والتقنية فتكمن في نظر رسل في سلطة الدولة أو الحكومة المركزية بتحسين سبل الاتصال والمواصلات و استعمال كافة الوسائل التقنية المتاحة لمراقبة الأفراد والدعاية السياسية والإيديولوجية، كما أنه ساهم في التحكم في طبيعة ردود أفعال البشر من خلال استخدام و استثمار نتائج علم النفس و البيولوجية الوراثية، فأصبح البشر مجرد آلات صماء تفكر كما يريد حكامها أن يفكروا، مما يعني ضرورة إعادة النظر في دور العلم و مكانته وجعله خادما مفيدا لا مستبدا طاغيا يصنع العقول وفق أهواء الحاكمين و شهواتهم.⁽⁴³⁶⁾

و بتزامن مع ذلك، يرافع عن قناعة مفادها أن العلم مكن الاتجاهات الإيديولوجية كالماركسية و البراغماتية من استمداد قوتها، لأن هذا الجانب مفيد ونافع و يمنح السيطرة على الطبيعة البشرية وهي بدورها تتماشى مع رغبة الإنسان لامتلاك أسباب القوة والسلطان عليها. لا إلى فهمه.⁽⁴³⁷⁾ ، كما يزعم أيضا أن التعصب و الثكلكة (نسبة إلى العقيدة الكاثوليكية) تؤدي إلى الأحقاد وتثير البغضاء و تقضي على فضيلة العقل والتسامح.⁽⁴³⁸⁾، من جهة ثانية، يؤكد أن الديمقراطية ليست الوحيدة التي تصون الحرية الفكرية و تضمنها، فالتاريخ يكشف لنا عن الحكام المستبدين الذين يوفرون الحماية لرجال الفكر.⁽⁴³⁹⁾.

و هنا بالتحديد يعبر رسل عن أسفه لأفول نجم الحرية كما عرفها في القرن الماضي و يعزي ذلك إلى اعتبارات الخوف المسيطر على أذهان الناس واستخدام وسائل القمع و الردع البوليسي.⁽⁴⁴⁰⁾، إذ أن التضيق على حرية الفكر باللجوء إلى إجراءات قمعية سيفضي إلى إضعاف مستوى البحث العلمي وضعف الكفاءة التكنولوجية، و بالتسليم بهذا الواقع، يقترح رسل وجوب استبعاد رجال الاقتصاد من مجال الجامعات العليا بحكم أن ذلك يؤدي إلى تدخل هؤلاء في مناهج التعليم الجامعي و تقرير أمور بيداغوجية لا علم لهم بها، بحجة أنهم الممونون لهذه الجامعات.⁽⁴⁴¹⁾

436 - رمسيس عوض ، رسل المفكر السياسي ، ص 84.

437 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 86.

438 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 87.

439 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 102.

440 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 103.

441 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 103.

و على نطاق أوسع، يدعو رسل الدول الغربية إلى ضرورة أداء واجبها المتمثل في الحفاظ على الروح العلمية التي اكتسبتها الحضارة الغربية خلال القرون الأربعة الماضية و تتلخص هذه الروح العلمية في إحلال التفكير العلمي محل الخزعبلات.⁽⁴⁴²⁾ ، بالإضافة إلى الحياد الفكري، فيحذ رسل فضيلة يطلق عليها الشمول الأخلاقي و تتلخص هذه الفضيلة في القدرة على العطف على محنة أناس بعيدين عنا، لا يهمننا أمرهم مباشرة، و يبادر بتعيين معنى هذه الفضيلة بالقول مباشرة، " فإذا استطعت أن تتصف بالقدرة على الشعور بصورة جادة بالشور النائية عنك، أمكنك أن تحقق خلال شعورك متعة الشمول الأخلاقي. " ⁽⁴⁴³⁾ و يبرر إلحاحه على هذه الروح، على أساس أن تركيز التقنية في يد الدولة يمثل تهديداً للأفراد و حياتهم وبالتالي من الجائز اختفاء الحرية الفردية و ستبعث من جديد الشرور القديمة.⁽⁴⁴⁴⁾ و لا يتسنى محاربة هذه المظاهر إلا بموجب الاعتقاد أن للعلم والعلماء مكانة خاصة في مجتمعاتنا و هو ما لم يكن كذلك من قبل، فنُفي من نفي و أحرق منهم من أحرق و أودع منهم غياهب السجون و الأوفر حظاً أحرقت كتبه، إلا أن الدولة الآن تدريجياً اتضحت لها مكانة وقوة العلماء وأنه يمكن الاستفادة منها لصالحهم.⁽⁴⁴⁵⁾، من وعي سياسي و اجتماعي لدى العالم خاصة إذا كان نشاطه مصيري و يؤثر على كافة جوانب الحياة البشرية أي وجوب الاشتغال بالميدان الإنساني.⁽⁴⁴⁶⁾

و يقدم رسل أمثلة على ذلك في الجانب الاقتصادي، فيعتقد أن تحسين وسائل الإنتاج سيكون في صالح المجتمع⁽⁴⁴⁷⁾ ككل و أكثر مما هو عليه الآن، أما في الجانب السياسي و في سياق حديثه عن أهمية الحرية بمختلف أبعادها في توفير السعادة و الرفاهية للمجتمع، فينادي بأهمية الحرية قائلاً في هذا الصدد: " ولكنها ستختفي إذا عرفنا أهمية الحرية معرفة كافية ، ففي هذا المجال، كما في مجال آخر، سبيل الحرية هو أفضل سبيل إلى خير الأشياء. " ⁽⁴⁴⁸⁾

442 - رمسيس عوض ، المرجع السابق ، ص 104.

443 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 117.

444 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 173.

445 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 194.

446 - فؤاد زكريا ، التفكير العلمي ، ص 233-234 .

447 - رسل ، سبيل الحرية ، ص 186 .

448 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 187 .

و عطفًا على ما سبق، يصرح أنه لا غرابة في معارضة السلطات للعلماء و رغم ما للعلماء من سلطات على الطبيعة، لأنهم يأترون بأوامر الساسة، فوضع العلماء بالنسبة للساسة هو نفس وضع الجان بالنسبة للساحر، فالجان يأتي بخوارق الأعمال، لا لأن هناك حافزاً يدفعه إلى ذلك، ولكن لأنه ملزم بطاعة لسيد الساحر، والعلماء - حسب رسل - صنفان، فمنهم من كان فيه خير و بركة للإنسانية و صنف آخر ألحق بها الضرر.⁽⁴⁴⁹⁾، فيجب معرفة كيفية تسخير كل هذه القدرات والمبادرات لصالح الإنسانية.

و يعلق رسل أن العالم في الوقت الحاضر لا يستطيع أن يباشر أبحاثه العلمية من غير مساندة الدولة أو منظمات وهيئات تنفق عليه نظراً لتكلفة المعدات العلمية و معامل باهضة التكاليف، و هذا تغيير مؤسف، لأنه يجعل من العلماء مجرد خدام في تبعية، يضعون جهودهم تحت المنظمات المنفقة عليهم.⁽⁴⁵⁰⁾، و بالرغم من ذلك، يبدو مقتنعاً أن التقدم الحضاري في العالم يحمل في طياته معالم التفاؤل، فالمقارنة بين الحضارات السابقة تكشف عن تقدم أوضح، أهمها سيادة المعرفة.

و مع ذلك، فهذه الحركة التقدمية ليست كلها باعثة على التفاؤل لأنها ببساطة تنطوي على مخاطر تهدد الإنسانية، فقدرة الإنسان على التدمير تزداد بزيادة ما يصل إليه الإنسان من علم وما يصيبه من معرفة، إلا أن حاجة الإنسان إلى التقدم العلمي والمعرفة واضحة بلا شك على اعتبار أنها تمنع الفوضى بمعية الحاجة إلى تنظيمها من قبل الدولة.⁽⁴⁵¹⁾

و في ذات السياق، يعلن أنه من نتائج التصنيع أن تشابكت مصالح الإنسانية و ترابطت، الأمر الذي يحتم ضرورة التعاون على المستوى الإنساني بغية وضع حد لمفاسد الدولة وشرورها، و ذلك بإقامة حكومة عالمية، ويمثل هذا التعاون الضمان الوحيد والعلاج النهائي الذي يجنب الإنسانية آثام التناحر القومي و الفرقة الإقليمية.

449 - رمسيس عوض -، رسل مفكر سياسي، ص 194-195.

450 - رمسيس عوض، المرجع نفسه، ص 195.

451 - رمسيس عوض، المرجع نفسه، ص 129.

أما هذا الوضع الذي تبدو فيه الحاجة إلى التضامن، ناجم في الأساس عن التصنيع و المخترعات الآلية، وكلاهما نتاج العلم.⁽⁴⁵²⁾، و عليه تتجلى حاجة الإنسان إلى العقل أكبر و حاجته إلى الأسلوب العلمي أعظم.⁽⁴⁵³⁾، فعلى المستوى الايكولوجي على سبيل المثال، يظهر أن المستقبل البشري يواجه عدة مخاطر من جراء الاستخدام السيئ، و يحمل هذا تهديداً لاستمرار الحياة على كوكبنا نتيجة مخاطر ناشئة عن تصرف الإنسان، فيلخص لنا الوضع باقتباس من مصدر بأنه " إذا استطاع الإنسان أن يستمر في البقاء رغم الأخطار الناشئة عن تصرفاته المخبولة ، فليس هناك ما يمنع استمراره في سلسلة الانتصارات التي بدأها من عهد قريب." ⁽⁴⁵⁴⁾.

و على هذا الأساس، يقترح حلولاً لمواجهة هذه المخاطر و التي أساسها إدراك الإنسان لهذه المخاطر ذاتها والتسلح بالشجاعة والأمل لمعالجة دواعي هذه الرهانات ، فيشير إلى ذلك " أن مستقبل الإنسان في خطر، و إذا أدرك ذلك عدد كبير من الناس، فإن الخطر يزول، وسيحتاج أولئك الذين يخرجون العالم من محنته إلى الشجاعة والأمل والحب، و لست أعرف ما إذا كانوا سينجحون، و لكنني واثق ثقة لا تززع في أن التوفيق سيصاحبهم رغم كل شيء." ⁽⁴⁵⁵⁾

و ينقل لنا رسل تأكيدات الكثير من العلماء أن أخطر التطورات في عصرنا الحاضر هي تلك التي تحدث في علم يتقدم بلا ضجيج ولا دعاية أو أخبار تنشر على الصفحات الأولى للجرائد هو علم الحياة أي البيولوجيا، و يؤكد هؤلاء أنه إذا كان عصرنا قد عرف تغييرات و تحولات حاسمة في الحياة بفضل الفيزياء و الكيمياء فقد بدأت تظهر فيه بوادر تدل على أنه العلم الذي سيحدث تغييرات جذرية في العالم خلال القرن المقبل و ربما قبل ذلك. ⁽⁴⁵⁶⁾

⁴⁵² - رمسيس عوض، المرجع السابق ، ص 129.

⁴⁵³ - رمسيس عوض، المرجع نفسه ، ص 129.

⁴⁵⁴ - رسل ، المجتمع البشري في الأخلاق و السياسة ، ص 209 .

⁴⁵⁵ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 212 .

⁴⁵⁶ - فؤاد زكريا ، التفكير العلمي ، ص 189-190.

و للتنبؤ به أيضاً، فإن العلوم الطبيعية التي لها صلة وثيقة بعلم الحياة، قد أحرزت كما هو معروف تقدماً هائلاً منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأدى هذا التقدم إلى زيادة كبيرة في متوسط عمر الإنسان على مستوى العالم كله، وفي الدول المتقدمة بصفة خاصة، كما أدى إلى انخفاض هائل في نسبة الوفيات بين المواليد، وهكذا ازدادت فرص الحياة أمام الإنسان على طرقي العمر.

و بالتأكيد، أن هذا التقدم قد واجه الإنسان بمشكلات كبرى، إذ أن زيادة متوسط العمر قد أبرزت بصورة حادة مشكلة الشيخوخة و موقف المجتمع منه، حيث يعجز هذا المجتمع من الآن عن إيجاد حل حاسم لهذه المشكلة و لاسيما في الدول المتقدمة، و فيها يعجز نظام الأسرة عن استيعاب هؤلاء المسنين بعد ازدياد مطرد لعدد المسنين الذين يظلون طويلاً على قيد الحياة، إذ أن الأبناء الذين يعيشون في مجتمع تسوده الاعتبارات العلمية و يبحث كل فرد فيه عن مصلحته الخاصة، يضيقون ذرعاً بوالديهم ولا يجد هؤلاء مفرّاً إلا بيوت الكبار (ديار العجزة)، والتي لم تثبت نجاحها حتى الآن، و الانخفاض الكبير في نسبة الوفيات بين المواليد قد أدى إلى تضاعف نسبة الزيادة في العالم و خاصة في الدول الفقيرة التي كانت تشهد توازناً بين نسبة الوفيات و زيادة النسل، لكن بالرغم من هذه المشكلات.

فمن البين أن التقدم في العلوم الطبية كان من أعظم الإنجازات الإنسانية التي حققها العلم الحديث خلال القرن الماضي، فمن ناحية، كانت العلوم البيولوجية أحد الأسس الهامة التي بني عليها اختراع العقول الإلكترونية، فالسيرنطيقا كما هو متداول كانت بدايتها تطبيقاً للمبادئ البيولوجية التي يعمل بها الجهاز العصبي على الآلات.⁽⁴⁵⁷⁾

و على المستوى الواقعي بعيداً عن المثالية و الافتراضية، فإن ما ينبغي القيام به هو ضرورة الحد من الاتجاه الاستهلاكي المتطرف، الذي تسير فيه بعض المجتمعات المصنعة و إتباع العديد من المجتمعات لها من باب القدوة، باعتبار أن الإنسان الحديث كان همه هو السيطرة على الطبيعة لكل نشاط يقوم به في ميدان العلم و المعرفة بوجه عام، إذا كان الشعاع هو فهم العالم والتحكم في الطبيعة عن طريق معرفة قوانينها.

⁴⁵⁷ - فؤاد زكريا ، المرجع السابق ، ص 190.

إن كبار الفلاسفة الذين عرفناهم مثل بيكون و ديكارت في أوائل القرن السابع عشر تدفعهم نزعة إنسانية قوية أساسها الرغبة في استعادة مملكة الإنسان على الأرض و تحريره من عبودية العمل الشاق الذي يضيئ جسمه و يضعف نفسه و لا يدع له فرصة للممارسة بشكل أفضل من الملكات، فهي الدافع الذي حفز الرواد الأوائل إلى المناداة بشعار السيطرة على الطبيعة عن طريق العلم و اتخاذ المعرفة سبيلاً إلى اكتساب القوة والمقدرة، و لكن مع استمرار التقدم العلمي و التكنولوجي إلى مستويات هائلة في الآونة الأخيرة ، أصبح يهدد المثل العليا التي كان ينادي بها هؤلاء الرواد.

ففي وقت قريب كنا نستمع إلى أصوات تحذرننا من أن وسائلنا التي نستخدمها في السيطرة على الطبيعة قد سيطرت هي ذاتها علينا و خلقت لدينا نوعاً من العبودية و بالفعل أكد الكثير أن الآلة قد خيبت الآمال التي عُقدت عليها، ونفس الآلة الجديدة التي خلقت الثراء والوفرة، قد خلقت البؤس والفاقة و ولدت القبح و نشرت الظلم و قسمت العالم إلى دول مترفة و دول محرومة، و كررت هذا التقسيم ذاته في كل مجتمع على حدة. (458)

و أي كان الأمر، فمن المسلم أن للعالم الآن اتجاهات كثيرة تحتاج إلى تغيير و مراجعة جذرية ترتبط بالعبادات الاستهلاكية التي ينبغي تغييرها ، لأن الأمر يحتاج إلى مراجعة كاملة لنظم التعليم والتوجيه في المجتمع البشري و ربما يحتاج كما يؤكد الكثيرون إلى التفكير ملياً وجدياً في إقامة نوع من الحكومة العالمية التي تشرف على شؤون العالم و في ذهنها مصالح الجميع، لا مصالح فئات أو دول معينة فحسب، و بغير هذا قد يكون تحقيق هدف التعاون مع الطبيعة أمراً عسير المنال. (459)

و على هامش صلة العلم بالمنظومة القيمية، يعلمنا رسل أن للدوافع التملكية أو ما يعرف بحب التملك آثاراً سلبية و مشاكلاً بالغة التعقيد بالنسبة للفرد و المجتمع على حد سواء، و تعززت هذه المساوئ نتيجة تأثير الأساليب الفنية والتقنية الجديدة على المجتمع و الذي عهد سابقاً طرقاً و عادات تنظيمية و فكرية قديمة محددة . و ارتبط هذا التأثير السلبي بشكل مباشر مع ظهور الزراعة و ما ترتب عنها من شقاء للبشر لما نتج عنها من عبودية و استبداد منذ فراعنة مصر و حتى سقوط روما القديمة.

458 - فؤاد زكريا ، المرجع السابق ، ص 186-187.

459 - فؤاد زكريا ، المرجع نفسه ، ص 189.

و يبقى الحدث الأبرز المتمثل في التصنيع العلمي واستحداث الأساليب التقنية و التي كان من أكبر شروورها الحرب التي أصبحت أكثر تدميراً، فيتوقف رسل للحديث عن هذا التطور التقني و ما أفرزه من عواقب وخيمة على المجتمعات البشرية بتزديد، " أما الشرور المترتبة على إدخال الأساليب الفنية العلمية فأخشى ما أخشاه أننا لم نشهد سوى بدايتها . وأكبر هذه الشرور هو أن الحروب أصبحت أكثر تدميراً . " (460)

و يؤكد بقية الشرور بالتفصيل بأنه " يبدو أن هناك شروراً أخرى كثيرة ، فاستنفاذ المصادر الطبيعية و تدمير الحكومات للابتكار الفردي و السيطرة على عقول الناس بواسطة أجهزة مركزية للدعاية و التربية، هي بعض الشرور الكبرى التي يبدو أنها تتزايد نتيجة تأثير العلم على عقول تمكنت سابقاً من التكيف مع العالم الخارجي، فالعلم الحديث و الأساليب الفنية الحديثة زادت من قوة الحكام و جعلت ذلك في حيز الإمكان، أكبر من أي وقت مضى. (461)

و لا ينفى رسل للتدليل على صدق هذه الوقائع، وجود أشكال من العنف و القسوة في عالمنا هذا مستنداً إلى عينات من الأحداث في التاريخ الإنساني، " إذ أن دراسة الأهرام حتى يومنا الحاضر ليس فيها ما يشجع أي شخص تحدوه العواطف الإنسانية، و قد كان هناك رجال في أوقات مختلفة رأوا الخير و لكنهم لم يفلحوا في تغيير طابع التصرفات البشرية. " (462).

و يعبر عن فشل التجربة الإنسانية في استخلاص الدروس من الماضي و عدم قدراتها على التأكيد على أهمية الأخلاق في العلاقات البشرية ومناحي الحياة المتعددة فيفصح بعبارة مدخلها أنه " يبدو أننا بلغنا لحظة في التاريخ البشري أصبح فيها - لأول مرة - بقاء الجنس البشري يعتمد على ما تستطيع الكائنات البشرية أن تتعلم كيف تجعل تصرفاتها متفقة مع الاعتبارات الأخلاقية. " (463)

460 - رسل ، المجتمع البشري في الأخلاق و السياسة ، ص 13 .

461 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 14 .

462 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 138 .

463 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 139 .

و بكل موضوعية ، كان الفيلسوف البريطاني برتراند رسل واحداً من الذين بعثوا طاقات حيوية في علوم الرياضة لكن عقله النشط لم يحمد أبداً ولم تكبله نظريات الرياضة البائسة إلى حد ما عن تدوين ملاحظاته الجديرة بالتأمل عن تقهقر الحضارة عن غاياتها الإنسانية وتقليصها لأبعادها التي تنطوي على جوهر الرحمة والرأفة والشفقة ، وربما كانت أولى إضاءته لتحرير العقل من قيوده التي بدت ظاهرياً معرفية ، كتاباته العميقة والمؤثرة عن التربية والمؤسسات التربوية متخذاً التفكير منطقاً أخلاقياً وهادياً للإنسان.

و لا شك أن فلسفة رسل صدمت العالم في بداياتها حين لاح مثابراً على الإرباك الفكري وتحطيم اليقينيات، والبحث الدءوب عن نهايات مسائل الرياضة التي تقود بدورها إلى تفكير منطقي حول ما عداها ، تلك هي المعضلة التي كافح رسل في تفكيكها إذ قاده المنطق الأخلاقي إلى صياغة عبارة تلخص فكرته الشاملة حيال الأخلاق، و لسان حاله يردد، "عجبت لذلك النوع السخيف من الأخلاق الذي يجزع لكلمة نابية أكثر من جزعه لفعل قبيح" (464)

ويبدو رسل مفراطاً في عنايته بالسلمات الأخلاقية الظاهرة وتجريدها من حوافها الماهرة التي حاكتها المجتمعات في اجترار سخيف للسطوح البراقة التي تخفي أعماق آسنه، ساخطاً عليها كل السخط راداً إياها إلى الإطار الشكلي المجتمعي الذي يغفل الجوهر ويحاكم الأشياء الخداعا بالمظهر والعبارة تشير بوضوح إلى اهتمامه الفعلي بالفعل الأخلاقي المنطلق من أعماق مجللة بقيم حقيقية وهدمه لإجترارات المجتمع الكلامية حيال الأخلاق فيما يصفه بتمسك مستعار بقشور أخلاقية.

لعل هذا الإيمان بالفعل انعكس على موقفه الإنساني إزاء الحرب العالمية والاستعمار واستجلب عليه لعنات الإنجليز الذين بنوا منظومتهم الأخلاقية وقتئذ على معايير التحضر والحرية و السلام إلا أن الفعل الاستعماري وآثاره على الشعوب المستعمرة ثم انصياع الساسة البريطانيين لنداءات الحرب وما يمكن أن تمثله مآلاتها إلى زيادة حتمية في رقعة الإمبراطورية.

464 رسل - المصدر السابق ، ص 140

و لجوء رسل منذ البدء إلى الإيقان باللادرية والشك هو الذي مكنه من أن يتخذ موقفاً أخلاقياً حيال قومه رغم انتمائه لأسرة عريقة في ممارسة السياسة والأستوزار، و ربما هذا الذي دفعه لانتقاده تطبيق الشيوعية في روسيا عقب الثورة البلشفية بعد أن كان يرى فيها خلاصاً عادلاً من شرور "الإمبراطورية" وساستها المتعطشين للدماء لكنه حين عايش الحكم اللينيني خلال زيارته للمعقل الاشتراكي صدم وأيقن أن تطبيق الاشتراكية على ذلك النحو القاسي لا يقل بشاعة عن النزعات التسلطية التوسعية. إنها الرحلة التي أستغرقها طوّافاً يدوّن ملاحظاته حول النظم السياسية والاجتماعية البريطانية وفجيئته في النموذج الاشتراكي الروسي ذهب به بعيداً إلى حد أن بدأ يحلل بعمق مدى جمود الآراء و ثباتها اليقيني الذي يؤدي إلى الدمار والحروب و أن العلاج الناجع كامن في تحرير العقل من أمراض التعصب وعلل الانحياز الأعمى.

ومن ثمة شرع رسل في توثيق تحليلاته حول الوسائل التعليمية والتربوية الجامدة و ارتباطها بالقيم الاجتماعية والاقتصادية المتوارثة و تفكيك نزعات الامتلاك والتغلب و بثّ عصارة جهده ملخصاً في عبارة أنيقة تضاد التوسع والاستعمار والشر الإنساني العميم في ذلك الوقت مضمونها ألا يكون نمو الفرد أو الجماعة على حساب فرد آخر أو جماعة أخرى ما أمكن.

و لعل أكثر ما مكن رسل من تعميم فلسفته الإنسانية، تخلصه من جرثومة الرجل الأبيض المتفوق واكتشافه باكراً قيمة المساواة بين البشر وتعززت نظرتة بزيارة قام بها إلى الشرق وانبهر بما للصينيين من راحة عقل وواقعية في مواجهة الحقائق ونسجهم عبر القرون لفلسفة خلاقة حتى أنه تعمد أن يعترف بالأهمية للجنس الأبيض بذلك القدر الذي يظن، وما أحوج عالم اليوم لفيلسوف إنساني على شاكلة رسل قادر على مواجهة نفسه والإفصاح عن إنسانيته حتى لو كانت في مواجهة قومه، يصدّم "إنسان التكنولوجيا" في عقائده المادية، و يهزم تسلطه ورغبته العارمة في الدمار والإبادة.

و رغم مضي سنوات طويلة على رحيله ظل رسل موجودا بعقله وفلسفته التي نزعت للإنسانية و ألّبت الفلسفة ثوبا إنسانيا قشيبا و زودت الفكر الإنساني بتقاريرات جديدة في الرياضة و التفكير المجتمعي و فوق ذلك كله مكافحة الرغبات الآثمة في الظفر و التعدي.⁽⁴⁶⁵⁾

و بعبارات موجزة، اكتشفنا مدى تأثير فلسفة رسل الأخلاقية في مناحي الحياة الأوروبية، و دعوته إلى تجاوز أشكال التفكير القديم و ضرورة الإسراع بتعديل المنظومة التربوية و القيمة لمجتمعها، لما لها من أهمية في مساعدة الفرد على التفكير الحر والإبداع العلمي و الفني، و تبقي على إمكانات استغلال الطاقات العلمية و التقنية بشكل أفضل، و تحدد له ما ينبغي القيام به لحماية مستقبل الأجيال القادمة و حقها في التمتع بالأمن و الاستقرار، و ذلك بوضع آليات للتعامل مع الراهن في مجال العلوم و التقنيات المتاحة، لجعلها في خدمة الإنسان لا وبال عليه، من خلال محاربة التطرف العرقي و الإيديولوجي و الدعوة إلى إحلال السلام و المحبة بين كافة أفراد المعمورة .

أما فيما يخص مزاعم الفيلسوف الإنجليزي "برتراند رسل" أن وظيفة الدين لا تُساعد على الخوض في مُغامرة عقلية، إذ يعتبرها سبباً في عرقلة دور الممارسة الفلسفية، فالكهنة الديني -حسب ما يذهب إليه- يُعتبر كاجبا لجماح العقل والفلسف. فينقل لنا "أن وظيفة الدين لم تكن تُساعد على ممارسة المُغامرة العقلية"⁽⁴⁶⁶⁾.

و المُطلع على سياق المقولة يقف على أحد أبرز أوجه الغرب ذي النزعة العنصرية الاستعلائية، التي لا ترى من فائدة وراء وجود الحضارات الأخرى والشعوب المُختلفة، حيث ذكر رسل هذه المقولة في معرض الاستدلال على فضل الإغريق في اختراع العقل والعلم والفلسفة! إذ يقول: "تبدأ الفلسفة حين يطرح المرء سؤالاً عاماً، وعلى النحو ذاته يبدأ العلم.

و لقد كان أول شعب أبدى هذا النوع من حب الاستطلاع هم اليونانيون. فالفلسفة والعلم، كما نعرفهما، اختراعا يونانيان. والواقع أن ظهور الحضارة اليونانية، التي أنتجت هذا النشاط العقلي العام، إنما

⁴⁶⁵ _ أ . س . قرايلينغ ، برتراند رسل ، مقدمة قصيرة جدا ، ت - إيمان جمال الدين الفرماوي ، الطبعة الأولى 2013 م ص 112 .

⁴⁶⁶ - رسل ، حكمة الغرب ، ج 1 ، ص 22 .

هو واحد من أروع أحداث التاريخ، وهو حدث لم يظهر له نظير قبله ولا بعده. ففي فترة قصيرة لا تزيد عن قرنين، فاضت العبقرية اليونانية في ميادين الفن والأدب والفلسفة بسيل لا ينقطع من الروائع التي أصبحت منذ ذلك الحين مقياساً عاماً للحضارة الغربية"⁴⁶⁷

بيد أن الشواهد العلمية والتاريخية التي كانت بين أيدي علماء الغرب في القرن التاسع عشر تؤكد وجود تلاقح حضاري وفكري بين الحضارة اليونانية وباقي الحضارات الشرقية المجاورة، بل أكثر من ذلك، تؤكد أن تلك الحضارات المجاورة ضاربة في القدم وسابقة للوجود على الحضارة اليونانية، فكيف لم تهتد إلى ما اهتدت إليه الحضارة الشرقية القديمة مثلاً؟ وبالتالي من الإجحاف أن ننسب العلم و الفلسفة إلى الغرب و ننكر ما أسهمت به الحضارات القديمة و علماء الإسلام على وجه الخصوص في التأسيس للتراث المعرفي و الثقافي و الحضاري الإنساني .

⁴⁶⁷ - رسل ، المصدر السابق ، ص 21 .

- الفصل الرابع -
موقف رسل ، تأسيس لأخلاق العلم
و علمنة الأخلاق و أنسنة الحضارة.

المبحث الأول: دور رسل في تأسيس الاستومولوجيا و البيوتিকা .

1- أهمية العمل الاستومولوجي و الأخلاق و علاقتهما بالعلم و الممارسة العلمية.

يتجلى دور رسل في المساهمة في تأسيس استومولوجيا المعرفة من خلال حرصه على العمل النقدي، و هو الكفيل فيما يعتقد بتخليص المعرفة من زلاتها و يعصمها من المعتقدات الفاسدة المبنية على الخيال، فيثني على هذا الدور بالقول مثلا أن " مفهوم السببية المادية البحتة الدافعة لذاتها مفهوم حديث جدا، ولم ينتشر في الحدود التي بلغها الانتشار إلا عن طريق مقاومة إلحاح معتقداتنا القائمة على الخيال." (468)

و في ذات المسعى يؤكد أيضا أن المعتقدات اللاعقلية بالإمكان أن تسبب آلاما قاسية، و هي التي تشير إلى نوع من الانفعالات المسيطرة لدى مخترعيها، مثل تقديم القرابين و حتى في الأوقات الراهنة ما زالت يعقبها فضائع، اعتقادا من أصحابها أنها تخدم أغراضا نفعية براغماتية. و يشير إلى هذا بصريح العبارة بالنفي " أننا لا نكاد نجد أية عادات رحيمة ناتجة عن معتقد لا عقلي." (469)، و من الواضح كذلك مساهمته في وضع آليات التعامل مع مصادر المعرفة بالاعتماد على الأساليب العلمية و مناهجه المعرفية أثناء دراسة الواقع.

و يقرر رسل أن أساليب العلم و منهجه يختلف عن ما نعتقده أو نتصوره، فهو يحتكم إلى التجربة و لا يقرر الحقائق كما يتصورها ، بل كما يجدها في الواقع، و حينها لا يجب الوثوق في الحواس، و إنما هو ما ينكشف لنا وفق نظرة منطقية مجردة أيضا، و رفض للأفكار و المعتقدات السابقة. فيصوغ لنا أدلة عن مدى تأثير هذا الأسلوب العلمي باستعراض تاريخ البشرية و كيف يبدو تحول هذه المجتمعات تدريجياً بفعل الآثار الإيجابية التي أفرزتها الأساليب العلمية.

و يتجلى دور رسل أيضا من خلال تصوره أن الذين يتهجمون على العلم من " أنصار النظم العتيقة من المادية و يقولون أن العلم ينسى القيم الروحية، وأولئك الذين يقولون ذلك مرغمون على إغفال ما فعلته الخرافات في الجنس البشري، تلك العصور الطويلة من القرابين البشرية والطقوس القاسية و المخاوف البشرية

468 - رسل ، المجتمع البشري في الأخلاق و السياسة ، ص 170 .

469 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 171 .

و عقاب من طلبوا المعرفة، إنهم ينسون القسوة التي عزاها الناس إلى آلهتهم عن طريق صنع هذه الآلهة على صورتهم هم ، إنهم مضطرون إلى نسيان الجحيم والخوف من الجحيم و الآلام البشعة التي ظلت قرونًا طويلة تحتم على الروح البشرية بسبب الخوف، و هم مضطرون أن ينسوا أن الفضل في تنقية عالم الخرافات من بعض ما فيه من ألوان القسوة إنما يرجع إلى العلم، و أن الناس لم يقلعوا عن هذه القسوة، و هم مترددون في الاستجابة له" فالمعرفة هي التي حررت العالم عن طريق القضاء على الأعذار التي كانت تساق تبريراً للقسوة." (470)

و يبدو من المهم في فلسفة رسل الأخلاقية تحذيره من أن أشكال الإيمان سواء كانت دينية أو إيديولوجية فكلها مضرّة إذا لم يكن هناك دليل عقلي ومنطقي يثبتها، و مضرّة لأنها تحتكر الحقيقة و تعتقد كل من خالفها على خطأ و ضلالة ، لذا يقترح رسل ألا يقبل الرأي إلا بالحجة الدامغة والدليل والبرهان.

إن هذا يشير إلى أهمية العمل الإيستمولوجي في قبول الرأي العلمي و تخليصه من الذاتية والأحكام المسبقة و الدوغماتية، و هي أفكار عادة ما يلجأ أصحابها للدفاع عنها بأساليب الحرب والدعاية مثالها روسيا الشيوعية والرأسمالية الإمبريالية المتوحشة التي تستخدم التعليم لغرس هذه الأفكار العدائية وتمارس الرقابة الفكرية والثقافية وتحرق الكتب وتحرقها، التي تعلم شيئاً مناقضاً لإيديولوجيتها، أما اعتقاد البعض أن الأديان تمنع الحرب فهذا يفنده رسل بناءً على استقراء تاريخ الأمم، فالدولة الرومانية صارت مسيحية في عهد قسطنطين، وظلت باستمرار تقريباً في حالة حرب حتى اختفت من الوجود. (471)

و نلمس أهمية فلسفة رسل في بعدها الاجتماعي و الأخلاقي دعوته للانفتاح على الغير والحوار مع الآخر، بدليل رفضه للتعصب الذي لا يؤدي في غالب الأحوال إلا إلى الحرب بالرغم من وسائل الدعاية المستخدمة كما هو الحال عند المسيحيين المتعصبين بشأن موقفهم من الإسلام، فالنصر كان للمسلمين بالرغم أنهم لم يكونوا متعصبين، و هذا تأكيد لموقف رسل الموضوعي اتجاه تحليل الوقائع التاريخية قل ما نلمسه عند فلاسفة الغرب.

470 - رسل ، المصدر السابق ، ص 174-175 .

471 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 191-192 .

و من هنا يعتقد رسل أن التطور العلمي ليس بحاجة إلى تعصب، ولا يمكن فرض سياق البحث العلمي بالقوة كما هو الشأن بالنسبة لروسيا الستالينية لإجبار علماء البيولوجيا لتحقيق وتحسين الإنتاج، وهي مبادئ كانت خاطئة بالمقارنة مع مبادئ علم الوراثة التقليدية، فحرية التفكير شرط أساسي في الممارسة العلمية و اعتمادها كمصدر لتأسيس معارفنا حول العالم الخارجي.⁽⁴⁷²⁾

و لقد ساهم رسل أيضا في محاربة أشكال التطرف الذي يؤدي إلى الكراهية و الخصومة و نبذ الغير، ذلك أن التشبع بالأفكار المتطرفة يلغي كل إمكانية للتقارب الفكري مع ما نعتقدهم خصوما لنا، فيدعو إلى ضرورة تحكيم الرأي العلمي والتحلي بالروح العلمية التي من أهم مقوماتها النسبية في المواقف وقابلية مراجعة الأفكار والإقرار بوجود مجال للخطأ فيها.

و هذه صفة، تحلى بها حتى هؤلاء من يعتقد بأنهم بلغوا مستوى من التحصيل العلمي و الفكري من العظماء و المفكرين الذي تشهد عليه مؤلفاتهم و آرائهم المختلفة بما في ذلك مواقفهم اتجاه ما يوصف بالقدسية والكمال في إشارة إلى الكتب المقدسة ، فالكتاب المقدس حسب رسل تضمن العديد من الأخطاء العلمية من بينها ما ورد فيه من اجترار الأرانب، فجميع هذه الآراء المتطرفة و المتمتة لا شك أنها ستؤدي إلى الهلاك إن عاجلا أو آجلا أو ستنتهي بمعسكرات للاعتقال في إشارات إلى المعسكرات النازية إبان الحرب العالمية الثانية.⁽⁴⁷³⁾

و تبدو فاعلية رسل واضحة المعالم في محاربة التطرف الفكري و العقائدي من تذكيرنا رسل مجدداً أن كافة أشكال التعصب مضرة إذن، سواء كانت تقليدية عقائدية أو حديثة في زيها الشيوعي أو النازي، و أن الاعتقاد الأهم هو العمل من أجل إسعاد الآخرين لا محاولة تعذيبهم و إفنائهم، فيعلن " أن ما يحتاجه العالم ليس التعصب للعقيدة، ولكن اتجاهها نحو البحث العلمي مصحوبا بالاعتقاد بأن تعذيب الملايين أمر غير مرغوب فيه ، سواء كان المعذب ستالين أو غيره من الآلهة التي يتخيلها المؤمن على غرار نفسه." ⁽⁴⁷⁴⁾

⁴⁷² - رسل ، المصدر السابق ، ص 194 .

⁴⁷³ - رسل - المصدر نفسه ، ص 125-126

⁴⁷⁴ - رسل ، المصدر نفسه، ص 196 .

و يشكل موقف رسل لدى الكثير مبادرة سلمية للمحافظة على الأمن و الاستقرار و هذا مما لا شك فيه يحسب في رصيد مساعيه الخيرية السلمية إزاء الوضع السياسي المقلق، إذ يدعو إلى اتخاذ إجراءات عملية لفرض منطق السلام و أولها هي إبرام اتفاق ينص على عدم اللجوء إلى الدعاية العدائية، و يحدد لنا تلك الإجراءات العملية التي يوصي بها المجتمع الدولي بأن " ولعل أول و أسهل خطوة نحو إقرار السلام تكون اتفاقاً بين الجانبين للحد من نشاط الدعاية العدائية، والخطوة الثانية، ينبغي أن يكون السماح للمعلومات الصحيحة بأن تعبر الستار الحديدي.

و معنى ذلك أنه من الضروري استبعاد الدعاية المغرضة و تمكين الشعوب من مصافحة بعضها البعض و التواصل فيما بينها ليكشف كل طرف حقيقة الآخر و يحدث التفاهم المتبادل بينهم و بالتالي تجنب سوء الفهم و من ثمة نزع فتيل الحرب و الصراع الذي يغذيه العداء المتبادل، و يفصل لنا ذلك بأنه " إذا كان للعالم أن يتوحد، وهو ما لا بد منه إذا أريد له البقاء، فلن يتم ذلك إلا بانتشار الروح العلمية ، ولست أعني بذلك العبارة الفنية، بل أعني عادة الحكم على الأشياء على أساس من الأدلة، و الامتناع عن الحكم إذا لم توجد الأدلة، إن بخيره أو شره، وهو ما يتميز به عصرنا، و التعصب سواء كان هندوسياً أو مسلماً أو كاثوليكياً أو شيوعياً أو تراث العصور الوسطى.

و يقترح علينا رسل أن أول الأشياء التي يجب عملها خلال " فترة التوقف السليبي " إيقاف كل تشجيع حكومي للتعصب الأعمى و ما يتولد عنه من كراهية. " و يعني هذا بطبيعة الحال نبذ التعصب و الاحتكام إلى المنطق و البرهنة.⁽⁴⁷⁵⁾، كما يستمر رسل في الكشف عن أساليب استخدام التقنية في الحقل السياسي و التربوي لينبهننا للوجه السليبي للتقنية العلمية من خلال استثمارها من قبل الحكومات الشمولية في التمسك

⁴⁷⁵ - رسل ، المصدر السابق، ص 207 .

بالسلطة كما هو الحال للنازية الألمانية و ما أسفرت عنه من فضائع و جرائم إنسانية تدعو في رأيه إلى الاشمئزاز و الاستنكار لدرجة القيام باختبارات وتجارب علمية استهوت العديد من العلماء الألمان لإجراء التناسل العلمي من أجل تحقيق أفضلية عسكرية كبرى و رفع نسبة القدرات العضلية والفكرية، و هو ما يعرف عند البيولوجيين بـ (**Scientific Breeding**) و عمليات التلقيح الاصطناعي (**In-Vitro**)

أما إسهامه في مجال الفلسفة التحليلية للعلم يظهر من خلال حثه المتواصل على الآخذ بمنهج التحليل الذي يمدنا بمعارج جديدة بخلاف عدد كبير من الفلاسفة التحليليين، والذين دأبوا على القول بأن مهمة التحليل هو مجرد التوضيح، سواء كان توسع للوقائع التي نعرفها، أو توضيح الألفاظ كما يستخدمها الناس في حياتهم اليومية، بذلك يؤكد هؤلاء أن نتائج عملية التحليل غالبا ما تكون غير مباشرة نابعة للفرع التركيبية للعلم، أما رسل فلا ينهي مهمة التحليل عند مجرد التوضيح و الدقة، بل بإمكانه أن يقدم لنا معرفة جديدة دون أن تعدم لنا المعارف السابقة باعتبار أن المهمة الأساسية للفكر هي فهم العالم في أفضل وجه ممكن.

و يؤيد رسل " أن التحليل يقدم معرفة جديدة دون هدم أي من المعارف الموجودة من قبل."، فهو يكشف لنا عن أجزاء المركب، و يكسبنا بذلك معرفة الكثير من الأشياء الخاصة بالمركب و الذي ما كان يمكن أن نتوصل إليها بدون استخدام هذا المنهج، فهو منهج لا يقدم معرفة أدق ، بل معرفة أكثر، في ذات الوقت و هنا تفسير حول قناعة رسل اقتناعا راسخا بأن التقدم لن يكون ممكناً إلا عن طريق التحليل.⁽⁴⁷⁶⁾

إن حديث رسل عن التحليل و وظيفته يجعلنا نضع هذا التعريف للتحليل في الصياغة التالية: " منهج التحليل هو تلك العملية التي بها إما أن ترد المركبات إلى عناصرها البسيطة، أو أن نعيد صياغة التغيرات الحيوية إلى مركبات رمزية في تغييرات أخرى أكثر دقة لا تحتوي على هذه المركبات". و هنا يبرز دور التحليل بالكشف على أن أهمية التعريف الذي يأتي في سياق فهم تحليلي تتجلى في كونه هدف العلوم التي تعالج المادة إلى صياغة التعريفات، فقد يكون هدفها في النهاية هو تحديد خواص المادة ، أي عناصرها و خصائص هذه العناصر والعلاقات الكائنة بينها ، أي تقديم تعريف واقعي للمادة.⁽⁴⁷⁷⁾

476 - د . محمد مهران - فلسفة رسل ، دار المعارف، القاهرة، 1976 ص 333-334-335.

477 - د . محمد مهران ، المرجع نفسه، ص 324.

و على هامش فلسفة رسل التحليلية، يبدو أن تصوره هو أقرب إلى تجريبية **لوك** و **هيوم** و **بركلي**، أكثر منه إلى **مور** و **فيجتشتين** و **كار ناب**، و هذا سبب رئيس جعل رسل يقر أن كل اعتقاد نعتقه بحاجة إلى تبرير سواء كانت القضية فلسفية أو تجريبية حسب الموضوع ، فالاعتقاد التجريبي يقوم على تبرير تجريبي.⁽⁴⁷⁸⁾، و فيما يخص التحليل دوماً، فإنه يساهم في نظر رسل في الدقة و التقليل من الألفاظ والمفردات أو كما يقول، "التقليل من عدد الكائنات في العالم و التقليل من عدد مفرداتنا اللغوية، و بذلك نقلل من أخطائنا و الحد من الوقوع فيها. فلا يبقى من الكائنات إلا ما كان الاستدلال عليه استدلالاً صحيحاً، أي استبعاد الكائنات التي لا يمكن التحقق منها (**unverifiable**)، في إشارة إلى المفاهيم الميتافيزيقية، و بذلك تكون المعتقدات أفكار من الواجب تبريرها، فأني معتقد لا نستطيع أن نجد له سبباً في هو في اعتقاد رسل معتقد غير معقول.⁽⁴⁷⁹⁾"

بالإضافة إلى ذلك، يدعونا رسل إلى الأخذ بمسلك التحليل باعتباره طريقة معينة للفكر تقوم على وجهين، إحداها تحليل الردى الذي يعني تحليل الموضوع إلى عناصر أولية، أي الانتقال من المركب إلى البسيط، و تحليل رمزي و يقصد به عملية ترجمة العبارات المحتوية على رموز مركبة إلى عبارات أخرى لا تحتوي على هذه الرموز، فالأول يعني تحليل العالم المادي و الثاني تحليل عالم الألفاظ واللغة.⁽⁴⁸⁰⁾ و في نفس السياق، يسهم رسل في الدفاع عن الحرية الفكرية ليؤكد على ضرورة تبني الرأي العلمي في كافة المجالات و عدم الانقياد وراء الآراء الخرافية و بالأساطير، بمعنى أنه يجب استبعاد التفسيرات التي لا تستند إلى أسس علمية و تتنافى مع قواعد التفكير المنطقي السليم، مع ضرورة تجنب التطرف في إبداء الرأي أو التمسك بالعقائد والأفكار، تشجيعاً للتقدم الفكري والعلمي و تجاوزاً للمصالح الشخصية بالحفاظ على الوضع الفطري السائد وهو ما كرسته حسب رسل دور الكنائس و من ورائهم القسيسين و رجال الدين.⁽⁴⁸¹⁾

478 - د . محمد مهران ، السابق ، ص 327

479 - د . محمد مهران ، المرجع نفسه ، ص 332.

480 - د . محمد مهران - المرجع نفسه ، ص 341.

481 رسل ، أثر العلم في المجتمع ، ص 124-125

من جهة أخرى، تبدو مساهمة رسل فعالة في اشتراط مراحل الاستدلال التجريبي، إذ يبين لنا أن انتصار العلم يعزى إلى إحداث قطيعة مع المرجعية (**Référence**)، و توثيق الصلة بالملاحظة و الاستنتاج، بعبارة أخرى محاولة الكشف عن الحقائق باستخدام خطوات المنهج التجريبي الذي قعد له رواد الاتجاه التجريبي، و في ذات الوقت ضرورة الاعتقاد في النسبية و اعتبار الآراء العلمية افتراضية و نسبية، و هذا ما تقتضيه حسب رسل مقتضيات النظرة العلمية و شرطا ضروريا من شروطها.

و هنا إذ يؤكد بأن " انتصار العلم هو نتيجة لتعويض الملاحظة و الاستنتاج بدل المرجعية، و كل محاولة لإعادة الحياة إلى المرجعية في الأمور الفكرية هي خطوة رجعية. فيجب عدم اعتبار الآراء العلمية حقيقة مطلقة، بل يعد ذلك أكثر الاحتمالات صحة في ضوء الحقائق الحالية، و هو جزء من وجهة النظر العلمية." (482)، إذ يواصل رسل دفاعه عن النظرة العلمية و شروطها بقوله " أن أهم الإنجازات العلمية كانت نتيجة استبعاد المرجعي بشكل أساسي، والتي تساهم في القضاء على أشكال الاستبداد الفكري، موضحاً ذلك في قوله: " و واحدة من المنافع التي يسديها العلم لأولئك الذين يفهمون روحيته هي أن يساعدهم على العيش بدون الاستناد الخادع للوثقية الوهمية. " (483)

و يبدو أيضا موقف رسل الأخلاقي مبكراً من زاوية التكنيك و استخداماته و ما ينجر عنها من آثار سلبية على البيئة و المحيط عموما و الإنسان خصوصا تمهيداً لظهور موقف يتضامن إلى حد ما مع نشاط الحركات الحيميائية و يتقاطع مع أهداف فلسفة جديدة تعرف بالإيكوسوفيا التي تناشد الإنسان على ضرورة الحفاظ على الانسجام مع الكون و التوازن الطبيعي، و التي دعا إليها الأب النرويجي أرن ناس (Arne naess) و الفيلسوف و عالم التحليل النفسي الفرنسي فليكس قتاري (Félix Guattari).

482 - رسل ، المصدر السابق ، ص 126 .

483 - رسل ، المصدر نفسه، نفس الصفحة .

لقد ساهم رسل في ذلك بوضع مجموعة من الشروط و العوامل التي تساعد على الحفاظ على الكون و خيراتہ من بينها وجوب عدم استنفاد التربة و مواد الخام بسرعة و التي لا تستطيع الإمكانيات التكنولوجية من تعويض فقدانها بواسطة الاختراعات والابتكارات ذلك أن التقدم العلمي هو شرط ليس فقط للتقدم الاجتماعي فحسب، بل حتى لإدامة درجة الرفاهية التي توصلنا إليها جملة المقدرات الطبيعية .

بالإضافة إلى ذلك يلح على ضرورة الحد من المنافسة لإستحصال مواد الخام و عدم إطلاق العنان لحرية المنافسة إذا ما أردنا ألا تستنفذ هذه المواد بكيفية و وتيرة سريعة، إذ من الواجب أن تقوم هيئة دولية بتقنين الكميات التي يسمح باستغلالها بما يتناسب مع استمرار الرفاهية و متطلبات الإنتاج الصناعي، و من ناحية أخرى ينصح رسل أنه إذا كان الهدف هو وضع حد للشح الدائم للمواد الغذائية ، فإنه من الضروري تعلم الأساليب الزراعية التي لا تسبب هدرًا وإجهادًا للتربة وموادها العضوية، و بالموازاة مع ذلك ينبغي المحافظة نسبة الإنتاج تناسبًا مع عدد السكان و تجنب كل أشكال التبذير و الإسراف ، بمعنى وجوب الحفاظ على نسبة معينة من السكان و توفير ما هم بحاجة إليه فقط .⁽⁴⁸⁴⁾

و يعتبر رسل من بين المساهمين في تحديد ضوابط للبحث العلمي لاسيما إذا كان من الوارد أن تؤثر البيولوجيا على حياة الإنسان و بالتحديد من خلال تجارب علم الوراثة، فالتقنية العلمية ساهمت في تغيير سلالات الماشية و النباتات الغذائية بدرجة كبيرة و قدمت بذلك نفعاً عملياً ملموساً للإنسان وهذا ما يعرف عند أهل الاختصاص بالتعديل الوراثي، مما يفتح المجال أمام جهود علمية و تقنية ذات فائدة للبشر في القريب العاجل. بل ولا يستبعد رسل أن يكون لهذه النتائج آثاراً حتى على تكاثر الإنسان إذا ما نجحت عملية تغيير الصفات الأصلية للنباتات و الحيوان معترفاً في نفس الوقت بإمكانية مصادفة العديد من العوائق الاستمولوجية سواء كانت عقائدية أو دينية أو عاطفية.

484 - رسل - المصدر السابق ، ص 151

و يفترض زمنياً أن " عند ثبات نجاح هذه الطرائق في تغيير الصفات الأصلية للنباتات و الحيوان، و ذلك بعد متابعة النتائج لفترة كافية بما يضمن هذا النجاح، فمن المحتمل بروز حركة قوية لتطبيق التقنية العلمية على تكاثر الإنسان و سيكون هنالك عوائق قوية من النوع الديني و العاطفي حول تبني أسلوب من هذا النوع " (485).

و يبدو رسل أيضاً متفائلاً بشأن العلم و أغراضه النفعية خدمة للإنسان على أساس أن هذه الأساليب تساعد البشر على امتلاك قدر أكبر من الذكاء ومقاومة أفضل للأمراض من ذي قبل، و قد تستخدم في الحروب، لكن المؤكد أنها بعد ذلك قد تستخدم هذه التقنيات للأغراض السلمية، بالإضافة إلى ذلك، يمكن استثمار نتائج علم الفيزيولوجيا و السيكولوجيا اللذان أثرهما كل من **بافلوف (Pavlov)** و **فرويد (Sigmund Freud)**، إذ يعبر عن هذا التفاؤل " بأن توليد جيل أدمي بالطرق العلمية يجب أن يكون متوقعا" و يضيف أيضاً بأن " يوفر كل من علم الفيزيولوجيا و السايكولوجيا مجالات للتقنية العلمية لا تزال تنتظر التطوير، و قد أرسا أسس ذلك عالمان عظيمان هما **بافلوف (Pavlov)** و **فرويد (Freud)** " (486)

و في ذات المسعى، أكد كذلك في مسعاه الإنساني و السلمي على ضرورة الإسراع في منع زيادة عدد السكان و ذلك من خلال استحداث وسائل تستجيب لقناعة كل دولة و يتزامن مع ذلك تحديد حصتها الغذائية مع عدد سكانها، فإذا ما زاد عدد سكان هذه الدولة يعقبه عدم زيادة حصتها الغذائية المعتادة، و هذا ما يجب أن تقوم به سلطة دولية تتمتع بالقوة و الصرامة في تطبيق هذه الإجراءات بغية تجنب كافة أشكال الصراع و المواجهة بين المجتمعات الإنسانية غير المرغوب فيها كالحروب و الأوبئة و المجاعات فيوجز الإجابة عن هذه التحديات " بأن الحل لهذه المشكلة يكمن في أن المجتمع يكون مستقراً إذا ما بلغ العالم كله مستوى من الرفاه بالرغم ما يعترض هذا الحل من صعوبات " (487)

485 - رسل ، المصدر السابق ص 53 .

486 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 54.

487 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 151

و فيما يتعلق بمساهمته في الشأن الاجتماعي و السياسي و صلته بالأخلاق و العلم، يعتبر رسل في نظر العديد من المفكرين السياسيين و الاجتماعيين، أنه من دعاة السلم الاجتماعي و السياسي بلا منازع، بحكم اعتقاده أن الاستقرار داخل المجتمع العلمي يستدعي الاهتمام بالعمال و توفير الرخاء الاقتصادي لهم، بمعنى تمكين الفرد العامل من بلوغ موجبات الرفاهية والعيش الرغيد دون تمييز أو تكليف.

و بهذا ينتهي رسل إلى محصلة مفادها أن المجتمعات التي تحتكم إلى العلم و المبنية على أسس علمية بإمكانها أن تستمر بتوفير شروط معينة أهمها وضع لبنات حكومة واحدة تحكم العالم و تحتكر أسباب القوة و تحتكرها لاسيما قوة السلاح و الردع و بالتالي من السهل عليها فرض السلام العالمي وأن سيادة العلم داخل الأطر الاجتماعية كفيلا بتوسيع نطاق الرفاهية ليطلع مجموع الفئات الاجتماعية بشكل عام حتى لا ينتشر الحسد و الكراهية بين دول العالم، دون إغفال أهمية خفض نسبة الولادات و توفير عنصر المبادرة الشخصية في العمل المنجز واللهم، و في هذا كله دعوة صريحة لاستخدام الأساليب العلمية .

و من هنا يشير رسل أن هذه شروط لم تتحقق بالتمام ، فهي لازالت بعيدة ، و يبرهن على جدية هذه الشروط و صعوبة تحقيقها على أرض الواقع " أن العالم لا يزال بعيدا عن تحقيق هذه الشروط ، لذا علينا أن نتوقع اضطرابات واسعة و شقاء مرعب قبل أن يتحقق الاستقرار." (488) ، و يحضر الجانب الأخلاقي في فلسفة رسل أيضاً إذا ما تحدثنا على مستقبل الأجيال القادمة و ما يتعرض له الكون من استنزاف و الأرض من فساد من قبل الإنسان، و هنا لا يتوانى رسل في خضم حديثه عن آثار العلم و التقنية للوقوف عن خطر آخر بعد الإشارة إلى أخطارها الصناعية و الأساليب التقنية المستغلة في الإنتاج الصناعي.

و يتضح جليا مدى نضال رسل في مجال حماية البيئة و عقلنة استغلال خيراتها، إذ يفصل لنا أكثر بشأن خطر النتائج السلبية التي تعقب الاستغلال المفرط لمقدرات الكون و إنهاك الأرض، فاستخدام الأسمدة الصناعية المفرط قد يؤدي إلى عواقب وخيمة تتعلق بإنهاك الأرض و القضاء على مواد الخام و مصادر الطاقة التي يصعب كما نعلم استعاضتها، و من هنا تحول استخدام هذه المواد إلى موضوع جدل في الأوساط العلمية بالإضافة إلى ما تخلفه من عواقب صحية على المستهلك، فتضاعف بذلك تحديات المجتمعات الصناعية.

و زيادة على ذلك، يتمثل خطرهما في تكريسها لسيادة التقنية و التي يصعب تلقائيا التخلص منها في الوقت الحالي. طالما أن عصرنا عصر التقنية بامتياز إذ " أن العالم كان يعيش على رأسماله، و طالما بقي صناعيا فعليه الاستمرار بذلك . وهذا مصدر لعدم الاستقرار في المجتمع ، لا يمكن التخلص منه رغم أن تأثيره ليس بقريب الحدوث." (489) ، و معنى هذا أن تأثير الأسمدة سيكون طويل المدى و بالتالي فخطرها حقيقي و عواقبها جدية و هي تمثل نتيجة طبيعية لمقتضيات الانظمة الليبرالية التي تسعى لتحقيق المنافع المادية دون الاهتمام بالنتائج.

و لا ينكر من يطلع على أعمال رسل في مجال القيم و البيوتিকা مشاركة رسل الاتجاه العام الذي يدعو إلى أحلقة الممارسة العلمية و تطويق عواقبها السلبية، لاسيما في ظل تنويهه و تنبيهه المتواصل حين حديثه عن الأخطار الإيكولوجية الناجمة عن الاستخدام اللاعقلاني والمفرط و السريع للتقنية و الطرق و الوسائل المستخدمة في الإنتاج، حيث يعتقد أن هناك أسباب متعددة ووجيهة تجعلنا نعتقد بعدم الاستقرار داخل المجتمعات العلمية و التي يصنفها إلى ثلاث عينات ، منها الطبيعية و البيولوجية و السيكلوجية. أما الطبيعي منها فيتلخص في الطرق الزراعية و الصناعية التي كان لها تأثير سلبى مشهود متمثلا في إهدار موارد العالم من المواد الطبيعية بصورة تتجه حاليا نحو الأسوأ.

و يتضح ذلك من خلال مقارنة مستوى إنحناك التربة سابقا ، فكان يتم بوتيرة منظمة ، حيث كانت تستخدم الأسمدة بشكل معقول إما ببقايا الحيوانات أو أسمدة القرايين التي تساعد و تزداد معها المحاصيل و في أن واحد التقليل من الأفواه الواجب إطعامها، و على النقيض من ذلك صارت الحروب اليوم أقل هلاكا و بالتالي زاد إنضاب المقدرات الطبيعية للتربة و استنزاف ثروتها بشكل متسارع و مقلق ، فالحكومات حاليا في معظم أرجاء العالم تسعى لضمان حصتها الغذائية من خلال مضاعفة وتيرة الإنتاج و استغلال كافة الإمكانيات التكنولوجية و بطرق تقنية مأسوية كما تسعى فوق ذلك كله لتحصيل أكبر قدر من العوائد الاقتصادية، أي ضمان أرباح فورية مرتفعة (490).

489 - رسل ، المصدر السابق ، ص 138 .

490 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 137

و يلفت رسل انتباهنا أيضا إلى قضية لا تقل خطورة عن سابقاتها و هي قضية ندرة المواد الخام على المدى الطويل، فكثيرا من المناطق استنفذت مواردها و موادها الخام كالمصدير و النفط الذي يشكل في أساس و وقود الازدهار الصناعي و تأمين وسائل الدفاع الحيوي، ويسلم رسل فعليا بالوضع المعقد حيث " تمثل المواد الخام على المدى الطويل مشكلة لا تقل جسامة عن الزراعة".⁽⁴⁹¹⁾

و ينتقد الطرح القائل بإمكانية تعويض الموارد المستنفذة بالطاقة الذرية التي تمثل بديلا للنفط، و تبرير رسل لمعارضته لهذا الموقف هو الآثار السلبية الناجمة عن المفاعلات النووية و انعكاساتها الايكولوجية، فيؤكد رسل هذا الفرض بأنه " و بالطبع سيقول قائل إن الطاقة الذرية ستحل محل النفط كمصدر للطاقة، لكن ما سيحدث عندما تقوم كل خامات اليورانيوم (**Thorium**) بعملها في الناس و الأسماك."⁽⁴⁹²⁾

و يذكرنا رسل بضرورة الاهتمام بالكون لكونه يمثل موطن الإنسان ومصدر غذائه مثله مثل كل الكائنات الحية، بل أبعد من ذلك، فهي مصدر لسعادته و طمأنينته، ففي ظنه أنه " مهما كانت رغباتنا في التفكير، فنحن مخلوقات الأرض، و حياتنا جزء من حياة الأرض، و نحن نستمد غذائنا منها، شأننا في هذا شأن الحيوانات و النباتات، و إيقاع دوران الأرض بطيء، و الخريف و الشتاء ضروريان لها الربيع ضرورة الربيع و الصيف، و الراحة الجوهرية فيها مثل الحركة."⁽⁴⁹³⁾

و يواصل في نفس السياق أن " مثل هذه الملذات متى انقطعت تركت لدى الإنسان شعورا ترايبا بالسخط و جوعاً لا يدري بالضبط ما هو، أما الملذات التي تصلنا بحياة الأرض ففيها شيء يرضي أعماقنا".⁽⁴⁹⁴⁾، و يصف لنا ما أفرزته المدنية من نتائج سلبية على المستوى الإيكولوجي أن سببها يعزى لانفصالهم عن الحياة البسيطة و التي لم تكن مملة لولا حياة التصنيع و الانغلاق عن الذات إذ " أن النوع الخاص من السأم الذي يقاسي منه سكان المدن العصريون مرتبط ارتباطا حميميا بانفصالهم عن حياة الأرض، مما يجعل حياتهم حارة ترابية و عطشى مثل الحجاج في الصحراء."⁽⁴⁹⁵⁾

491 - رسل ، المصدر السابق ، ص 138

492 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 138 .

493 - رسل ، الفوز بالسعادة ، ص 63-64 .

494 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 64

495 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 65

من ناحية أخرى، يحذرنا من خطر استخدام القنبلة الهيدروجينية لما تنطوي عليه من آثار بيئية و ما تسببه من عواقب و آفات على الأرض، حيث يعتقد أن توظيفها سيكون بمثابة نهاية الحياة على الأرض و أنها حرب لا رايح فيها ، مثال ذلك ما خلفته هذه الأسلحة إبان الحرب العالمية على اليابان و التي أفسدت الحرث و النسل و لوثت الهواء و التراب و أوجدت أجيال مشوهة و أجساد ترتعش لسماعها لقرع طبول الحرب، و هذا ما يصطلح بلغة التكنولوجيا الدمار بالدمار الشامل.

و لا جرم أن توصف هذه الوسائل بأسلحة الدمار الشامل، فالتفكير في استغلالها يعزى إلى سلطة العسكر، فبمجرد سوء فهم ، قد يترتب عنه اللجوء إليها تحت مسمى خيارات الدفاع و رد الاعتداء.⁽⁴⁹⁶⁾ و لهذا يدعو رسل إلى وقف التجارب النووية، و يعلمنا أن الموازين في القوى العسكرية و الترسانة الحربية لن توقف الحرب، بخلاف ما اعتقد مثلاً ألفرد نوبل حين اختراعه الديناميت ظناً منه أن ذلك سيخيف الناس في شن الحروب على اعتبار أنها ستكون أكثر فظاعة، لذا يحث المجتمع الدولي على وضع حد للتجارب النووية و العمل للحيلولة دون امتلاكها مجدداً، و التي قد تلجأ إليها بشكل غير مسؤول، في إشارة إلى الدول المارقة و ديكتاتوريات القرن العشرين و تحديات التنظيمات الإرهابية في صيغتها الجديدة.⁽⁴⁹⁷⁾

و حري بنا أن نعترف بأن عصر العلم قد جلب للإنسان التقدم و الرقي، إلا أنه من ناحية أخرى قد قضى على شعوره بالأمان و الطمأنينة، فالعلم سلاح ذو حدين، له فوائده، وله أضراره، بمعنى أن الإنسان هو الذي يصنع بيده الآلة العلمية، وهو أيضاً الذي يستخدمها ومن هنا يبرز سؤالاً هاماً ألا و هو: هل الإنسان هو الذي يتسبب في كل الكوارث و الأخطار المحدقة به و بالبيئة الطبيعية المحيطة به؟ أو بمعنى آخر، هل عدم وجود قدرة على التنبؤ لدى العلماء بكافة النتائج المترتبة على التطورات العلمية و التكنولوجيا هو الذي يؤدي إلى سوء العواقب؟

⁴⁹⁶ - Russell - **Ma conception du monde** – p.158-159.

⁴⁹⁷ - **Ibid.** . p . 163

تتحلى أهمية فلسفة رسل الأخلاقية من خلال إثارتهما للمسؤولية الأخلاقية التي يتحملها الباحث أو العالم، فلقد نوقشت المشكلات الناجمة عن قصور الإنسان عن التنبؤ بتطبيقات البحث العلمي، أو إساءة استعماله في الأجل الطويل في الندوة التي نظمت في باريس عام 1982، و قد تم التأكيد على أن العلم أداة اجتماعية، و أن الأهداف المجتمعية في البحوث ذات أهمية بالغة، وكذلك التأكيد على أحقية العالم أو الباحث في اختيار بحثه الخاص، و إلزامه أيضاً بتحمل المسؤولية الشخصية عن نتائج بحثه و قبول المنافسة من الأفراد، ولكن العلماء قد يضطرون إلى إخضاع مسيرتهم وأفضليتهم الشخصية لاحتياجات مجتمعاتهم (498).

لقد كثر الحديث في الآونة الأخيرة في ظل التقدم العلمي المذهل الذي يشهده العالم في القرن الحادي والعشرين عن ما يتعرض له الإنسان وتعرض له البيئة الطبيعية من مخاطر عديدة كثمار لهذا التقدم العلمي والتكنولوجي. و حاول البعض إرجاع جذور أزمة الإنسان و البيئة إلى فلسفة الأخلاق، وعادوا من جديد إلى أرسطو و فلسفته الأخلاقية في كتابه (الأخلاق النيقوماخية) والذي يقرر فيه أرسطو أن الغرض من الفعل أو الفعل نفسه هو العامل الحاسم في إحداث الفعل الأخلاقي، وإن الدارس للمسائل الفكرية لا يحتاج لكل هذه الأدوات، و ربما كانت عائقاً في تفكيره. (499)

و بذات الصلة، يرشدنا أرسطو أن " كل الفنون، وكل الأبحاث العقلية المرتبة، وجميع أفعالنا، وجميع مقاصدنا الأخلاقية يظهر أن غرضها شيء من الخير نرغب في بلوغه. و هذا هو ما يجعل تعريفهم للخير تاماً إذ قالوا: أن الخير هو موضوع جميع الآمال... على أن هذا لا يمنع من وجود الفروق الكبيرة بين الغايات التي يعتزمها الإنسان و بين النتائج النهائية، والتي تكون هي بالطبع أهم من الأفعال ذاتها" (500).

498 - د. جون. ب. ديكسون، العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث، ترجمة شعبة الترجمة باليونيسكو، سلسلة عالم

المعرفة، المجلس الوطني للفنون والثقافة، الكويت إبريل 1987 - 201، ص 200

499 - ال د. جون ديكسون. المرجع نفسه، ص 204 .

500 - أرسطو طاليس، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمة سانتهيلير ج ١، لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة 1914، ص 167،

كما حاولنا أن نوضح إنشغال رسل بشأن مسؤولية العالم و أن نبحث في حدود هذه المسؤولية و قلنا هل يتحمل العالم أو الباحث وحده المسؤولية كاملة عن إبداعه العلمي، أم أن عليه أن يعمل ويبحث فقط؟ أو بصيغة، هل لابد للعلم أن يكون محايداً؟ في الحقيقة أن الطلب المستمر على الابتكار التكنولوجي من أجل الأغراض الحربية قد طرح عدداً من الأسئلة في أقصى صورها بشأن أخلاقيات العلم والتكنولوجيا والبحوث وتطبيقاتها و بالتالي يدعو رسل إلى مراعاة آثار تطبيقات العلم و إفرازاتها على المستوى البيئي و الانساني .

و إذا ما نظرنا للعلم تجريبياً على أنه نظام من المبادئ والفروض والمناهج الإجرائية، فإنه ينتمي إلى نفس النوع الذي ينتمي إليه المنطق و الفلسفة. فمثلاً يمكن القول بأن قانون الجاذبية موجود بشكل مستقل عن الجنس البشري و الحق أن علم الكونيات (الكوزمولوجيا) الحديث يوفر أسس معقولة للاعتقاد بأن القوانين الطبيعية التي تحكم الكون تعمل الآن بنفس الطريقة التي كانت تعمل بها قبل أن يوجد أي نوع من الحياة على الأرض. و أنه لافتراض معقول أن يقال أن عمل هذه القوانين لن يتغير ولا بمثل ذرة إذا استمرت حماقات البشر التي ستؤدي إلى اختفاء الحياة على الأرض.⁽⁵⁰¹⁾

و مهما يكن من أمر، فإنه لم يعد في الإمكان في وقتنا الحاضر أن ينظر إلى العلم و التكنولوجيا حتى لو أمكن ذلك في أي وقت من الأوقات بطريقة منعزلة عن المحيط الدولي والمجتمعي الذي يمارسان فيه، لأن معظم العلم مصمم لبعض غايات محددة ومقصودة، و هي ليست محايدة، أو حتمية، أو عرضية، و لكنها ترتبط بآراء محددة للمجتمع يعتنقها المكلفون بهذا العلم.⁽⁵⁰²⁾

501 - ب. ديكسون، ديكسون، العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث، ص 208

502 - د. جون ديكسون. المرجع نفسه، ص 209.

2 - أخلفة العلم و علمنة الأخلاق بين النسبية و الاطلاقية.

إن من أهم الأفكار التي انتهينا إليها بعد تحليلنا، أن فكرة السعادة في ظل واقع العلم و تبعاته عند رسل مطبوعة بطابع الازدواجية، فهي تارة تميل إلى التشاؤم بشأنها و تؤكد بصعوبة بلوغها على نحو الإطلاق، و تارة أخرى تحمل تباشير القدرة على تحقيقها على أرض الواقع فيقول: "إنني أقول أن هذا العالم ليس سعيدا ... إن العالم قد أصبح هكذا لا يطاق، متوترا و مشحونا بالكراهية وملئنا بالتعاسة و الألم، حيث فقد الإنسان قوة الحكم المتعادل، و الذي يحتاج إليه للتخلص من التورط الذي يتخبط فيه الجنس البشري، إن عصرنا مؤلم لدرجة حيث أن اليأس قد حل بأحسن الناس."⁽⁵⁰³⁾ ، و يقول في موقع آخر: " و لكن ليس هناك مبررات واقعية لليأس، فإن وسائل السعادة للعنصر البشري قائمة، و أنها ضرورية فقط، لأن الجنس البشري عليه أن يختار كيف يستغل هذه الوسائل."⁽⁵⁰⁴⁾

فإذا استقرأنا مواقف رسل الأخلاقية، حتما سنجدها ظاهريا متضاربة و متعارضة و أحيانا تبدو متناقضة بشكل عارض، و بذلك يجعل من فلسفته الأخلاقية تميل إلى كونها مطاطية و تارة قطعية يقينية، و لاشك أن هذه الازدواجية تكشف مدى قدرة رسل على الجمع بين العموم و الكلي المطلق والجزئي التفصيلي النسبي بالرغم ما يُحَوَّلُ لدى البعض دون استصاغة مثل هذه التقريرات، و لعل ذلك يتمظهر بكيفية بارزة من خلال السيرة الذاتية لرسول، فلقد كان موضع عداوة من قبل الشرق و الغرب، فالغرب المسيحي يبغضه لأنه يدعو إلى التشكيك كما يبغضه الغرب الاستعماري لأن رسل يفضح الاستعمار و يسخر منه، والغرب يبغضه كذلك لأن النظام الرأسمالي يقوم على الاستغلال مهما حاول تلطيف شعارته، ورسول يناصب العداوة للرأسمالية و يدعو إلى الاشتراكية بالرغم من مهاجمة رسل لديكتاتورية الإتحاد السوفيتي.

و ظل العالم الغربي يدأب لوصف رسل بالخنزير الشيوعي، أما المعسكر الشرقي فيحمل لرسول عداوة لا تقل على عداوة الغرب له، إذ يعتبره أجير البرجوازية الغربية، و سبب بغضهم له هو الحرب الشعواء التي شنها رسل على أجهزة الدولة الشيوعية القائمة على القسر و الاضطهاد و إلى وصفه لها بضيق الأفق و التعصب

⁵⁰³ - رسل ، التربية و النظم الاجتماعية، ص 293.

⁵⁰⁴ - رسل، المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

الأعمى، و من اعتباره لنتائج البحث العلمي بالمطلق و بالاستبداد البيروقراطي، والنظام الشيوعي يكره رسل لأنه يرفض الإيمان بأن الفرد مجرد ترس في الآلة الاجتماعية الضخمة، أي أن الشيوعية تقزم دور الفرد و تحاصر قدراته و تشدد عليه الرقابة و تشتت أن يكون في إطار الحركة العامة للمجتمع، و هذه الكراهية التي يكنها له الشرق والغرب على حد سواء تجعل من الصعب تقييم فلسفة رسل من الناحية الموضوعية و تحديد فلسفته ضمن الإيديولوجيات الحديثة التي تستولي على تفكير الإنسان الحديث.

و مما لا شك فيه أنه يصعب تقييم هذه الفلسفة بناءً على شواهد كثيرة، فإذا قلنا أنه كان ملحدًا كنا صادقين و كاذبين في آن واحد، إذ صحيح أنه لا يؤمن بوجود إله، و لكنه في نفس الوقت لا يقطع بعدم وجوده، فهو يؤكد استحالة المعرفة اليقينية العلمية في هذا الشأن، و صحيح أن رسل يكتب كتابا بعنوان " لماذا لست مسيحيا؟" و لكنه يقول في موضع آخر في كتاب أثر العلم في المجتمع، بأن العالم الحديث بحاجة إلى الحب المسيحي، فهو السبيل إلى تخليصه من ويلاته و شروره الراهنة، و صحيح أيضا أن رسل يشكك في وجود إله و لكنه في نفس الوقت يقول أنه من الجائز أن يكون هناك إله و إن كان هذا بعيد الاحتمال.

و إذا قلنا أن رسل مادي بمعنى أنه لا يؤمن بغير العلم، كنا صادقين وغير صادقين في آن واحد، فرغم أنه يؤمن بالمنهج العلمي و العقلي إيمانًا لا حد له، إلا أنه لا يكتفي بالنظرة المادية إلى الأشياء، و عندما هاجم رسل كارل ماركس في كتابه تاريخ الفلسفة الغربية، قال بالحرف الواحد: " إنني أؤمن بوجود معرفة إلى جانب المعرفة العلمية"، و تمجيد رسل للعقل لا يعنيه عن أخطار العلم و على أقل تقدير في الوقت الحاضر، فرسل يريد من العلم أن يتصف بالتواضع، لا أن يملأه الزهو و يستبد به الخيال كما يحدث في المعسكر الشرقي.

و إذا قلنا أيضا أن آراء رسل في الجنس تهدف إلى تدمير الأوضاع الجنسية التقليدية لأصننا و جانبنا الصواب في آن واحد، فهو يشتهر بدفاعه عن الحب الطليق و دعوته إلى التحرر من جنس، و لكن اشتهر عنده أيضا أن الزواج أهم و أحسن علاقة يمكن أن تنشأ بين اثنين من البشر و " ليس مجرد المتعة".

و إذا قلنا أن رسل يدافع عن السلام بأي ثمن و تحت أي ظرف ، صدقنا و كذبنا في آن واحد أيضا، صدقنا لما نعرفه عن تاريخ كفاحه المجيد و تضحيته العظيمة من أجل السلام ، وكذبنا، لأن رسل يعترف بشرعية بعض الحروب، فهو لا يجب أن يرى أجهزة الحضارة تنقوض أمام جحافل البربرية و الهمجية كما حدث مع الدولة الرومانية. (505)

إن هذا التضارب في الآراء عند رسل يفتح الباب أمام السؤال التالي : هل نحن أمام فيلسوف متناقض مع نفسه؟ كلا، بطبيعة الحال . فليس هناك من هو أكثر انسجاما و تكاملا في الفكر من رسل، السبب فيما يبدو تناقضا هو أن بصيرته النفاذة تجعله يرى وجهي المسألة، فهو أبعد ما يكون عن التفكير بأسلوب، "هذا أبيض، و ذاك أسود"، لأنه يرى البياض و السواد معاً و في وقت واحد، و يعمل جاهداً على استخلاص البياض من السواد حتى يتبين الإنسان الحق من الضلالة. (506) و لا شك أن الدهشة البالغة ستصيبنا إذا علمنا أن رسل يعترف في كتابه " رسل يفصح عن ما في خلدته " في غير موارد أنه يتمنى في بعض الأحيان أن تندثر الكلمة من وجه الأرض، و أن تمارس الإنسانية نعمة الجهل والأمية، و لا يعني هذا بطبيعة الحال أن رسل يفضل الجهل على نور العلم. (507)

إن رسل لا يؤمن قدر إيمانه بقيمة العلم إذا اتصف بالحكمة و العقل على تحرير الإنسان ، و لكنه يأسى عندما يرى الكلمة المكتوبة تسخر في كثير من الأحيان لتزييف الحقائق على الناس، إذا رأيناه ساخطا و خانقا في بعض الأحيان على الكلمة المكتوبة، فالسبب في هذا يرجع إلى الآلام التي يكابدها و هو يشاهد الكتب تنفث السم و الزعاف باسم الترياق، و الضلال تحت شعار الحق، وهذه الحقيقة لم يدركها في شبابه، و لم تدخل أعينه إلا في مراحل النضج .

و يعتقد رسل أن قصة أسفار جيلفر تمثل في واقع الحال ذروة القنوط الإنساني، و أن العلم ليس قوة محررة بالضرورة، كما أنه ليس من دعاة التفاؤل المطلق، فقد يكون العلم نفسه سييلا للبطش و الاستبداد وكما أظهر ذلك هلسكي في كتابه العالم الجديد الشجاع. فلقد أدرك رسل مبكرا احتمال استبداد العلم، و لا

505 - رمسيس عوض ، رسل مفكر سياسي، ص 12-13.

506 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 13-14-17.

507 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 13.

زال هذا التخوف المميز لتفكيره، و الذي لازمه منذ حدثته على إدراك الفضاءات التي ينطوي عليها الاستخدام الشرير للعلم، و أدرك حياد العلم من الناحية الأخلاقية، فالعلم ليس شراً أو خيراً ، و هو مجرد وسيلة لتحقيق غايات الإنسان التي تحتمل الخير أو الشر، حيث يذكر رسل المخلوقات المعروفة بالياهو "Yahoo" ⁽⁵⁰⁸⁾، في أسفار جيلوفر تتضمن مساوئ البشرية و عيوبها، و أن بدنه يقشعر من هولها و فظاعته.

و تتجلى معالم النسبية عند رسل في الأخذ بالمواقف التي تبدو أحياناً متعارضة و أحياناً آخر متناقضة و لا يمكن فهم هذه المفارقات التي حملتها فلسفة رسل إلا بإرجاعها إلى سياقها العام و مضمون الأفكار التي تضمنتها ، فعلى سبيل المثال نقرأ في كتابه مقالات غير مألوفة العديد من هذه الصور الفكرية التي يتعذر على من كان غير ملم بفلسفة رسل باستصاغتها و هضمها فنذكر رأيه في البريطانيين الذين يتميزون بين أمم أوروبا المعاصرة من جهة بتفوق فلاسفتهم، و من جهة أخرى احتقارهم للفلسفة. و في الناحيتين يبنون حكمتهم و عن فلسفة أفلاطون و مدينته بأنها نسخة عن المدينة الخالدة التي وضعت أسسها في السماء، و لربما استطعنا في السماء أن نتمتع بنوع من الوجود الذي تعرضه لنا، ولكن إذا لم نستطع التمتع به على سطح الأرض فهذا أسوأ النتائج.

و الشاهد على التملل بين النسبي و المطلق هو هذه الآراء و الأحكام التي آمن بها رسل بشدة و دافع لتحقيقها في الواقع بقوة و ثقة، و هي دليل على توجه سليم في مجال الأخلاق و القيم الذي يقر بعدم الثبات المطلق في الوجود و ينفي استحالة صياغة قواعد و مبادئ كلية للتفكير و السلوك الإنساني، فيصرح مثلاً أنه يجب علينا أن نأمل بأن من الممكن أن تسود نظرة أكثر عقلانية لأننا نستطيع فقط بإحياء التجربة الليبرالية والتسامح، بأن نجعل العالم باقياً على قيد الحياة و في موضع آخر يقرر بأن النظرة التجريبية للمعرفة - التي أعتقد بها مع بعض التحفظات - هي في منتصف الطريق بين العقائدية و الشكوكية.

و في سياق مخالف ، يرافع قائلاً أنه إذا كان من المشكوك به أن يذهب الضالون أو الهراطقة إلى جهنم فإن الحججة في التعذيب لا تساوي أي قيمة و أن شيئاً من الفلسفة هي ضرورة للجميع ما عدا أولئك الذين خلوا من كل فكر، و في غياب المعرفة تصبح هذه الفلسفة بصورة أكيدة فلسفة حمقاء.

⁵⁰⁸ - مخلوقات ورد ذكرها في كتاب أسفار جوليفر للروائي الايرلندي جونانن سويفت 1727، و هي كائنات شريرة .

و نلمس أيضا أثر رسل في التأسيس لفكرة التواضع العقلي التي تعد من أهم خصائص الروح العلمية عبر العديد من الاقتباسات، إذ يؤكد مثلا في اقتباس سبق ذكره أن الدوغمائية أو التعصب هي عدو للسلام وحاجز لا يمكن تجاوزه ضد الديمقراطية. وفي الوقت الراهن، كما في الأزمنة السابقة على الأقل، أصبح التعصب أكبر عقبة ذهنية للسعادة البشرية و يضيف أن الدوغمائية المتعصبة و الشكوكية كلاهما، في معنى من المعاني، فلسفات مطلقة، أحدهما واثق من المعرفة، والآخر واثق من عدم المعرفة.

و يباشر النسبية منهجا بطريقة مفضوحة عندما يُعَلِّمنا أنه لا يثق بجميع التعميمات الشاملة عن النساء التي تتميز لهن أو لا تتميز، سواء كانت من الذكور أو الإناث، أو قديمة أو حديثة، وكل ذلك معاً ناجم عن الافتقار إلى التجربة ، لتجنب مختلف الآراء الحمقاء التي تتعرض لها البشرية، ليس ثمة حاجة إلى عبقرية تفوق العقل الإنساني. فبضع قوانين بسيطة ستحفظك، لا من الأخطاء، بل من الأخطاء الحمقاء و أن الظن بأنك تعرف بينما أنت في الواقع لا تعرف هو خطيئة فادحة، نتعرض لها كلنا..

و فيما يخص ما يؤمن به دائما من أفكار و مبادئ على وجه الثقة و اليقين، نعرضها في عجالة من بينها ما شاع لديه من أقوال على سبيل المثال لا الحصر ما تعلق بأهم المخاطر، فيستطرد معلنا أنه علينا أن نكون حذرين ضد ثلاثة مخاطر: 1- نهاية أو انقراض الجنس البشري. 2- الردة إلى البربرية. 3- تأسيس دولة كلية من العبيد تنطوي على شقاء الأكثرية الساحقة، واختفاء كل تقدم في المعرفة والفكر و أيضا أن الشك الأول لديكارت كان بما أعتقد، حقيقياً بمقدار ما يكون كذلك في رجل أضاع طريقه، ولكنه كان يقصد به أيضاً أن يحل محله اليقين في أقرب برهة ممكنة، وعن ثنائية الروح و الجسد يعلن أن بعث الجسد الذي هو مادة من عقيدة الرسل، هي اعتقاد تنطوي على كثير من النتائج الغريبة..

و يتضح مما سبق كذلك أن رسل أيضا يجمع بين الإيمان و الإلحاد، حيث يقرر أن أولئك الذين يفكرون بجد بأن الخطيئة عصيان لله مجبرون على القول بأن الله ليس قادراً على كل شيء. و في خضم حديثه عن واقع العلم فيشير أن العلم الذي وجب عليه دائماً أن يشق طريقه ضد العقائد الشائعة، يخوض الآن واحدة من أصعب المعارك في حقل علم النفس و على النقيض من ذلك أن الناس الذين يحسبون أنهم يعرفون كل شيء عن الطبيعة البشرية هم دائماً وبدون أمل في خضم من الأوهام حينما يعالجون أي حالة شاذة.

أما جهوده في ميدان التربية و الإصلاح فهي الأخرى كانت مترنحة بين الإمكان و الاستحالة، ذلك أنه يعبر عن مواقف راسخة على النحو الذي يجعل أولئك الذين يُعاقَبون قلما يتعلمون أن يشعروا شعوراً حسناً نحو أولئك الذين يعاقبونهم، وأن العقائد تبتدئ في الطبقات الاجتماعية العليا، ثم تغرق كالوحدل في نهر بالتدرج إلى أسفل في السلم التربوي، وقد تحمل ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من السنين لتغرق تماماً.

و يتناول رسل الحديث عن الجانب الأخلاقي، مؤكداً أن التقدم الأخلاقي يتكون أساساً من الوقوف في وجه العادات التي تتسم بالقسوة و الغلظة، و ضرورة توسيع هذا المسعى ليشمل كل الناس عطفاً و شفقة، وقد دعا الرواقيون في السابق إلى تعميم هذه الفضائل، و رأوا أنها لا تقتصر على الإغريق الأحرار فحسب، بل يجب أن تتعداهم إلى البرابرة و العبيد، بل إلى الإنسانية بأسرها في واقع الأمر، و من ثمة تجاوز الأسس الأخلاقية البدائية التي كانت تعتبر مثل هذه القيم خطيئة لا تقبل ولا تغتفر.

و عن إمكانية تجسيد هذه الفضائل، فإنه يعتقد أن هذا الهدف صعب المنال. فيشير إلى خطورة الدولة على مصائر أفرادها في العصر الحديث، وعلى الأخص الدولة الشمولية، ففي الماضي كان المصلح الديني أو الأخلاقي يستطيع أن يصبر على الكثير من العنف و الاضطهاد، بل الاستشهاد بنفسه في سبيل وصول صوته إلى مسامع الناس قبل أن يلقي حتفه، وهذا ما فعله - حسب رسل - سقراط و المسيح، ولكن الدولة الشمولية الحديثة تحمد أنفاس أية محاولة للإصلاح الخلقي، وهي في المهدي، ولن تجدي معها أية تضحية بالنفس أو أية شجاعة أدبية.

و يعطينا هذا فكرة عن مقدار الخطر الجسيم الذي بيدد الأمل في أي نوع من التقدم الأخلاقي في ظل الدولة التوتاليرية - الشمولية، ولهذا كله يكاد يتعذر على الفرد مهما بلغت قدراته أن يصل أثره في مجال الإصلاح الأخلاقي ما وصل إليه المصلحون السابقون في العصور الماضية. إذ أن المصلحين الدينيين والأخلاقيين بذلوا قصارى جهدهم لتوسيع رقعة التعاطف الإنساني والحد من قسوة البشر، إلا أن نتائج الإصلاح لم تبلغ الغاية المنشودة .

و ينتقل رسل للحديث بمنطق النسبية و رفض التعميم عن العلماء عبر التاريخ، فيصنفهم إلى نوعين ، صنف ساهم بجهده لخدمة صالح الإنسانية خيرا، و صنف آخر ألحق بها ضررا بليغا، فالعلماء في مساعيهم للسيطرة على قوى الطبيعة واستثمارها إما أن يكون سعيهم للخير أو للشر، وفي هذا الصدد يميز رسل بين النظرة الميكانيكية أو الآلية و النظرة الإنسانية المعجب بها و التي تنال منه كل التقدير، باعتبار أن النظرة الآلية تعتبر الخير شيئا مستقلا عن الفرد، وانه يتحقق من خلال المجتمع ككل سواء كان التعاون على تحقيق ذلك طوعية أو قسرا، أما المفهوم الإنساني فيعتبر الخير موجودا في حياة الأفراد، كما ينظر إلى التعاون الاجتماعي على أنه ذو قيمة فقط في الحدود الذي يسهم فيها في توفير سعادة كل المواطنين.

هذا و يبين لنا الواجبات الأخلاقية للفرد نحو الآخرين، فيقول في هذا السياق: "...نخفف أحزانهم بأكف التعاطف، و تمنحهم الغبطة الخالصة للتعاطف الذي يفتر، بأن نقوي العزائم المنهارة و نوفر لهم الإيمان في ساعات اليأس، و نتوقف عن قياس مزاياهم و عيوبهم بمقاييس جامدة، ولنفكر فقط في احتياجاتهم، في الأحزان والصعوبات و القهر و العمى الذي يكتنف حياتهم و يسبب لهم البؤس."⁽⁵⁰⁹⁾.

و يضيف أنه يمكن توفير فرص النمو الطبيعي للأفراد إذا توفر عاملا العدالة و الحرية، و إذا أمكن التوفيق بينهما، إذ أن العدالة تضمن للفرد ضرورات الحياة، و الحرية توفر له تحقيق ذاته و سعادته، إلا أنه يشترط ألا تتجاوز حرية الفرد حرية الآخرين، فالواقع يكشف لنا في وقتنا الراهن وجود تعارض بين بعض جوانب أخلاقيات الفرد و بين أخلاقيات المجتمع، و هنا يقر رسل أنه لا يوجد إنسان حر حرية كاملة، كما أنه لا يوجد إنسان مستعبد عبودية كاملة، فحتى وإن كان الفرد حرا، فهو بحاجة إلى أخلاقيات شخصية توجه سلوكه، وإن كان بعض الناس يعتقدون أن الفرد لا يحتاج أكثر من إتباع القانون الأخلاقي السائد في مجتمعه.

⁵⁰⁹ - رسل ، عبادة الإنسان الحر ، ص 18.

إلا أن رسل لم يقتنع بهذا الموقف، بدليل أن هناك بعض العادات قد اندثرت مثل أكل لحوم البشر وتقديم القران و صيد رؤوس البشر وقطعها، كنتيجة للإجماع الأخلاقي ضد الآراء الأخلاقية البدائية، حيث يقول: "وإذا كان للإنسان رغبة جادة صادقة في أن يعيش أفضل حياة، فعليه أن ينتقد العادات و المعتقدات القبلية السائدة عموماً بين جيرانه. فالمنظومة الأخلاقية ينبغي أن يكون فيها انسجام بين مصلحة الفرد الشخصية و المصلحة العامة الاجتماعية، وهي وظيفة تلقى على عاتق المؤسسات الاجتماعية." (510)

و ما يلاحظ بشأن موقف رسل الأخلاقي الذي يحمل في ثناياه دلالة النسبية و الإطلاكية أنه موقف أراد به أن يرتقي مستويات المعرفة و أشكالها المختلفة، فتنحو منحى الإطلاكية في كليتها وتصبح نسبية في تفاصيلها و جزئياتها وهو ما يشبه إلى حد ما مبدأ التفسير في مجال الفيزياء الذي يجمع بين الحتمية و الاحتمية بعد اكتشاف عالم المايكرو فيزياء دون أن يخل ذلك بمصادقية قوانين عالم الماكر و فيزياء.

لا ريب أيضاً أن التمسك بمنطلق التغيير و التحول أمر فيه الكثير من الصواب و البحث عن المطلق فيه العديد من الاعتراضات، فكانت يؤكد على أن الحقيقة المطلقة لا يحتضنها علم و لا يدركها عقل و بالتالي تبقى المعرفة الإنسانية مهما اجتهدنا بعقولنا وحواسنا نسبية و متغيرة، فمن العبث بحجارة النفس في الانسياق ورائها و الدعوة بالانشغال بالبحث عنها والحجة في ذلك تتلخص في قصور عقولنا و أفهامنا و محدودية حواسنا المعرضة دوماً للخطأ و الزلل، وعليه فإذا كان رسل مثلاً يرفض الدين باعتباره عائقاً أمام تحقيق التقدم العلمي و الإنساني بشكل قطعي، فهناك من المعتقدات لا تفرض بالضرورة هذه القيود على التفكير و البحث المعرفي، بل على العكس من ذلك، فهي تدعو بشكل ملح إلى احترام الحريات الفردية و الاهتمام بمطالب الفرد و الجماعة، و فتح المجال أمام المبادرة الفردية.

و بالتالي نعتقد أنه ليس من الموضوعية بشيء تعميم التجربة المسيحية على عموم الاعتقادات الإنسانية، وأخلاقياً يبدو أن رسل يرفض أيضاً المفاهيم الأخلاقية التي تمثل عقبة في وجه أي تقدم نحو السعادة و الانفتاح، إلا أننا نلمس تعميماً غير مشروع و تنطوي على الكثير من المبالغة، فهذه المنظومة الأخلاقية في بعض جوانبها تعتبر شرطاً أساسياً في التمتع بالسعادة كاحترام الغير و الدعوة إلى التعاون و السلم.

510 - رسل ، الدين و العلم، ص 243.

المبحث الثاني: أثر موقف رسل الأخلاقي- العلمي للتأسيس لحوار الحضارات .

1- دور الأخلاق في وضع حدود لاستخدام العلم للحفاظ على السلم

العالمي .

مهما يكن من أمر، فإنه لم يعد في الإمكان في وقتنا الحاضر أن ينظر إلى العلم والتكنولوجيا- حتى لو أمكن ذلك في أي وقت من الأوقات- بطريقة منعزلة عن المحيط الدولي والمجتمعي الذي يمارسان فيه، لأن معظم العلم المصمم لبعض غايات محددة ومقصودة، وهي ليست محايدة، أو حتمية، أو عرضية، ولكنها ترتبط بآراء محددة للمجتمع يعتنقها المكلفون بهذا العلم.⁽⁵¹¹⁾

و نحن في عصر يسوده شعور بالعجز و الحيرة كما في نظر رسل " لأننا نجد أنفسنا مسوقين إلى حرب لا يكاد يريدونها أحد وهي حرب كما نعلم جميعاً لا بد أن تجلب كارثة للغالبية العظمى من البشر، ولكننا مثل أرنب سحرته أفعى تحرق في الخطر دون أن تدري ماذا تفعل لتجنبه ويحكي بعضنا للبعض قصص أهوال القنابل الذرية والقنابل الهيدروجينية والمدن التي محيت من عالم الوجود والجحافل الزاحفة والمجاعات الوحشية في كل مكان . ولكن على الرغم من أن العقل ينصحنا أن نخشى هول مثل هذا المستقبل، فإن هناك جزءاً آخر من أنفسنا يجد فيه متعة، ومن ثمة ليست لدينا إرادة راسخة للعمل على تحقيقه، فهناك انقسام كما يرى رسل في أرواحنا بين الجزء العاقل والجزء غير العاقل.⁽⁵¹²⁾

و يحمل موقف رسل هنا دعوة للسلام و تحميل كافة الأطراف لظروف الحرب التي مرت بها الإنسانية في الماضي و يحذر مما هو قادم إذا لم نطوق هذه التهديدات و المخاطر، و يعكس كلام رسل السابق رأياً يتبناه البعض وهو مسئولية العالم عن نتائج نظرياته واختراعاته العلمية. و أنه على العالم و الباحث أن تكون لديه ملكة خاصة للتنبؤ بالنتائج المترتبة على اكتشافاته العلمية وكيفية استخدام الناس لها. وهذا ربما يذكرنا بما فعله " أينشاتين " قبيل وفاته 1955 حينما رأى أن يوقع مع فريق من العلماء على بيان جاء نذيراً وتحذيراً مشتملاً على هذا الإيضاح " فإذا استعملت القنابل الهيدروجينية على نطاق واسع وجب أن

511 - د. جون ب. ديكسون، العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث، ص 207 .

512 - ألان وود، برتراند رسل بين الشك و العاطفة ، دار الأندلس للطباعة و التوزيع ، ط1، 1984 ، ص 19 .

تتوقع الفناء العاجل لجزء من الإنسانية، ثم فتك الأمراض المبرحة، وأخيراً الموت البطيء الذي يدرك الكائنات الحية جميعاً." (513)

و هكذا، يسوقنا الحديث للوقوف على أهم وأكثر المشكلات التي يواجهها الإنسان في العصر الحديث و هي الانشطار النووي و تصنيع الأسلحة النووية التي تهدد الإنسان بالفناء كما تهدد البيئة الطبيعية أيضاً بأخطار كثيرة ، و تعد مساهمة رسل لنشر الوعي بضرورة الحفاظ على السلام و الأمن مؤشراً موضوعياً على مدى قلقه بمستقبل الإنسان و يوحي لنا ذلك بأهمية إدراك الأخطار الناجمة عن غياب الأخلاق في استخدام نتائج البحث العلمي و تطبيقات الوسائل التقنية في التجاذبات الجيوسياسية و العسكرية، و تجلي هذا في العديد من مرافعات رسل الفلسفية.

و يفترض على سبيل التذليل أن الاكتشافات العلمية يمكن أن تستغل في الحرب (الطاقة الذرية)، كما لا يمكن استخدامها لأغراض سلمية، حيث يمكن أن تستغل في وسائل النقل بمختلف أشكاله و تستغل أيضاً في الطب، و هناك إمكانيات ستتجلى في المستقبل، إذ يمكن أن تستعمل في تخصيص الأراضي الصحراوية، أو إذابة الثلج القطبي، و تغيير الجو في المناطق الشمالية، وهي مشاريع لا زالت قيد التفكير ذات فوائد اقتصادية عديدة، أما ما يمكن أن ينسف هذه المشاريع هو الحرب و غياب السلام الذي يؤكد البعض أمثال اينشتاين أنه إذا لم يوضع حد للحرب ، فمن الوارد جداً فناء الجنس البشري. (514)

و ما يعزز هذه المخاوف لدى رسل أن العلم قد قدم وسائل أكثر تدميراً أو فتكا، إذ أن " العلم قد وضع في أيدينا لسوء الحظ وسائل لإشباع غرائزنا الفتاكة." (515)، ومن ثمة " فإن مشكلة إقامة سلم دائم مع دوافعنا الفوضوية هي مشكلة قليلا ما درست، ولكنها تصبح أكثر إلحاحاً كلما تقدم التكنيك العلمي"، و يعني بالواقع الفوضوي، أساليب الحفاظ على البقاء و البقاء للأصلح . (516)، و من جهة ثانية، أن التكنيك الحديث مكن من تحقيق التماسك بين الجماعات و الكتل الاجتماعية من خلال ما يوفره من وسائل الاتصال و التربية. (517) .

513 - كارل ياسبرز، مستقبل الإنسانية، ترجمة وتقديم: عثمان أمين، الدار القومية للطباعة والنشر، ط ١ ، القاهرة 1963 ، ص 87

514 - رسل، المجتمع البشري في السياسة و الأخلاق، ص 184 .

515 - رسل ، السلطة و الفرد ، ص 36.

516 - نظرية بيولوجية مفادها افتراض أن التنازع قد أدى بالتدرج إلى وجود كائنات عضوية أكثر تعقيد بلغت أوجها في الإنسان ، فهذا الرأي يعتبر البقاء هو الغاية العليا ، و كل ما يزيد في عدد السكان هو خير و العكس صحيح.

517 - رسل ، السلطة و الفرد ، ص 44.

و يستدل على شكوكه المخيفة بشأن التحولات المستقبلية للمجتمعات البشرية على أساس أن القدرة على التنبؤ في ميدان العلوم الإنسانية خاصة التاريخية غير ممكنة، فلا وجود ليقين و حتمية مطلقة من خلالها نستطيع الكشف عن قوانين و نواميس التطور التاريخي إذ " أن كل التنبؤات حول مستقبل الجنس البشري يجب أن تؤخذ فقط كفرضيات قد تستحق النظر." (518)

و بهذا، يخلص فيلسوف الإنسانية إلى أن هستريا الخوف ستصيب الشعوب، وأن نفقات السلم ستزداد و يضطر الناس لقبول الفاقة الاقتصادية و سينخفض مستوى المعيشة في القارات الخمس بناءً على تقرير وضعته لجنة خاصة من الخبراء في أمريكا تعمل تحت رعاية الجمعية الأمريكية للتخطيط القومي و الذي يحمل عنوان " 1980 من غير رقابة على الأسلحة : مضمون تكنولوجياية الأسلحة الحديثة " .

أما الوصول إلى ما وصلت إليه و.م.أ من تقدم و ارتفاع لمستوى المعيشة ورفاهية و رخاء، فيستلزم حسب رسل الإنصات إلى صوت العقل و الحكمة و استخدام المعرفة التكنولوجية الحديثة من أجل السلام لا من أجل الاستعداد للحرب. أما على المستوى السياسي فإن الحرب و تطور وسائل الدمار و انتشار هستريا الهلع ستؤدي لا محالة إلى تقلص الحريات و انكماشها. (519)، و زيادة على ذلك، يلاحظ أن تطور وسائل الدمار في تواصل مستمر، حيث يفضح الواقع الفكري بما يخطط من استغلال الأقمار الصناعية للأغراض العسكرية وذلك بتزويدها بأجهزة حساسة إلكترونية تجعل من الممكن توقيفها، بحيث تمطر الموت وبالأعلى على أرض الأعداء، و تتوقف عند عبورها فوق أرض الأصدقاء.

إن هذه الآراء التي ساقها لنا رسل تمثل نظرة استشرافية، فبقدر ما هي مرعبة و مخيفة، بقدر ما هي دافع و حافز للإسراع بإعادة الاعتبار لثقافتنا الإنسانية و قيمنا الأخلاقية لتجاوز تحديات التكنيك و إفرازاته الجانبية، لاسيما و هو يبين لنا أيضا كيف أن البعض يفكر في نقل الحرب من كوكب الأرض إلى الفضاء، حيث أكد بعض العسكريين الأمريكيين أن سلاح الطيران الأمريكي يهدف إلى إقامة قاعدة عسكرية في القمر و ما تسهله من إطلاق قذائف الموت من القمر إلى الأرض و الذي لن يحتاج إلى طاقة كبيرة بسبب عدم وجود غلاف جوي حول القمر من ناحية، و ضعف جاذبيته من ناحية أخرى.

518 - رسل ، المصدر السابق ، ص 57.

519 - رمسيس عوض ، برتراند رسل الإنسان ، ص 57-58.

و تستخدم هذه القاعدة العسكرية بالطبع في صد الاعتداء الروسي و توجيه ضربات عسكرية استباقية و انتقامية في أن واحد.⁽⁵²⁰⁾ ، و قد يمكن غزو الفضاء حسب رسل انطلاقاً من تصريحات – المسؤولين العسكريين من إيجاد حل لمأزق تطور الأسلحة النووية على كوكب الأرض، و بذلك دعا هؤلاء إلى مباشرة السباق نحو غزو الفضاء و المبادرة باحتلال كوكب آخر مثل المريخ و الزهرة نظراً لعوائدهما العسكرية المفيدة.⁽⁵²¹⁾

لقد أبان رسل قناعة تبعث على إحياء المبادرات السلمية و العمل على حظر استخدام الأسلحة و الدعوة إلى الحد من انتشارها، و هي محاولات لازالت مستمرة إلى اليوم في المحافل الدولية و في أجنحة الزيارات الرسمية بين قادة الدول العظيمة المالكة لها، بل كثيراً ما كان يبدي اشمئزاه عن المشاريع العسكرية التي يروج لها العسكريين التي تدنس طهارة السماء و تلطخ الأجرام السماوية العلوية بأحفاد البشر وضغائنهم الصغيرة ومنازعاتهم التافهة، و يأسف لحال الإنسان الذي يملك من جوانب القوة الشيء الكثير ولكنه لا يتصف بالحكمة في قليل أو كثير، و يأمل أن يتغلب يوماً صوت العقل و التسامح في هذا العالم.⁽⁵²²⁾، و لدرجة أنه ينبذ التنافس و الصراع حتى و إن كان في شكل سباق مجنون بين شباب مغمور على متن سيارات فائقة السرعة و الأداء ، لأن ذلك يعني الهلاك و الموت.⁽⁵²³⁾

و في خضم استعراض هذه الأفكار، استوقفنا أيضاً موقف رسل الأخلاقي في ظل الصراعات الإيديولوجية و منطق الحفاظ على المصالح بين الدول الكبرى التي حازت فيما مضى على القوة التكنولوجية و العسكرية، حينما كان ينبغي باللائمة على الغرب لأنه يناصب القومية العربية العداء، لأن هذا أعطى للإتحاد السوفيتي فرصة لتظهر بمظهر الصديق للدول العربية، كما يدعو إلى نزع القواعد العسكرية في أوروبا إذا كان الهدف هو إرساء أركان السلام العالمي، و يجب إعادة مناطق النزاع للدول الأم مثل جزيرة فرموزة

520 – رمسيس عوض ، المرجع السابق، ص 58.

521 – رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 58.

522 – رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 59.

523 – رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 59.

التي يجب أن تعاد إلى الدولة الأم (الصين).⁵²⁴)، مثلما أن هناك خطر ناجم عن تطور التقنية متمثل فيما بلغته من قوة و شدة و سيطرة حكومية، حيث استغلت كل الوسائل والإمكانيات لتمكين الحكومات الاستبدادية من الاستمرارية. و قد استخدمت هذه التقنيات في تقليص الحرية الفردية وسيادة أشكال التطرف و العبودية و التعصب الديني.⁵²⁵)، إن هذه المخاطر -حسب رسل - لا تحل إلا بالعقل و النية الطيبة.⁵²⁶)

لقد أسهم رسل أيضا في أخلقة و عقلنة منطق العلاقات بين الأفراد و الدول، حيث يرى أن العمل بقاعدة " اجعل أسلحتك أقوى من أسلحة أي عدو يحتمل أن تضطر إلى قتاله، و بذلك إما أنت تخيفه إلى حد أن يحافظ على السلام، أو تنتصر عليه إذا قرر أن يحاربك"، سيؤدي إلى جعل الحروب مروعة إذا لم يعتقد العالم طرق وأساليب سياسية جديدة تقوم على الحكمة والتعقل.، فمستقبل الإنسانية يواجه أيضا خطراً آخر يدهمها متمثل في احتمالات اندلاع الحرب البكتولوجية (الجرثومية)، وهي ما زالت في طور البحث و التجريب، حيث يزعم رسل وجودها على جانب الستار الحديدي، زجاجات تحوي كميات من الميكروبات قمنة بإفناء الجنس البشري مع اتخاذ إجراءات لمنع المصابين بالعدوى من اللقاح و بذلك تحل الكارثة و هو سيناريو لا يقل رعباً و فضاة عن مخاطر القنبلة الهيدروجينية.⁵²⁷)

بالإضافة إلى ذلك، يدعونا رسل إلى وقف عادة أخذ الأسرى لأنها عادة خطيرة و هي تؤرخ لما أسهم به رسل في مجال حقوق الإنسان أو ما يعرف إن صح القول بأخلاق الحرب، فهي تولد الرغبة في تدمير الآخر إلى تدمير الطرفين معا. و الأهم من ذلك أن المستقبل يكشف وجود عدة طرق للقضاء على الأعداء من بينها تسميم التربة لتصبح غير منتجة أو نشر الأمراض في المحصولات و هذا يعني استحالة توقع ما يترتب عنها من أضرار خطيرة.⁵²⁸) .

524 - رمسيس عوض ، المرجع السابق ، ص 63.

525 - رسل ، السلطة و الفرد ، ص -58-59 .

526 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 60.

527 - رسل، المجتمع البشري في السياسة و الأخلاق.، ص 185 .

528 - رسل ، المصدر نفسه ، ، ص 186 .

ثم يعلل غياب الإدراك السليم لمخاطر الحرب بأنه ناتج عن المعتقدات و العادات العقلية المغروسة و التي يصعب إقناع الناس بعدم جدوها و استصاغة عواقبها على الجنس البشري، وتغييرها بحاجة إلى سنين طويلة، فيقول عن هذا: " فإذا قيض للناس أن ينحوا من نتائج مهاراتهم الساذجة، فعليهم أن يتعلموا في كل البلاد القوية في العالم، أو على الأقل في أمريكا و روسيا، ألا يفكروا في الناس باعتبارهم جماعات، بل أن يكون تفكيرهم في " الإنسان". و لم يسبق للإنسان، أبداً باعتباره نوعاً، أن تعرض للخطر، ولم يسبق أبداً أن هدد هذا التنافس بين جماعات العالم كله بالفناء." (529)

و يواصل في ذات السياق أن " كل زيادة في المهارة، إذا أريد لها أن تكون مصدراً للزيادة في سعادة البشر لا الإقلال منها، تتطلب زيادة في الحكمة، و لقد حدث خلال المائة و الخمسين السنة الماضية زيادة لم يسبق لها مثيل في المهارة، وليس هناك ما يشير إلى أن هذا المعدل في الزيادة سينخفض، ولكن لم يحدث في هذه الفترة أية زيادة في الحكمة. فقواعد السياسة لم تزل هي التي كانت سائدة في القرن الثامن عشر." (530)

و انطلاقاً مما سبق، يتضح لنا أن رسل يؤكد على أهمية الجانب الأخلاقي و اقترانه بتقدم و تطور العلم و المعرفة تحقيقاً لأبعاد إنسانية بالدرجة الأولى و تمكين كل الأفراد بالتمتع بها سلمياً و توفير ما يجعل الحياة الإنسانية مليئة بالسعادة ، فالمهارة بدون الحكمة أصل بلائنا وإذا أردنا علاجاً لهذا البلاء، فلن يكون السبيل مجرد زيادة في المهارة، بل نمواً في الحكمة بما يتطلبه العصر، فيشترط جملة من الإجراءات العملية لمواجهة أخطار المهارة فيقول: " فالواجب الذي يتحتم علينا جميعاً في السنوات المقبلة هو أن نكافح في استبدال الانفعالات البدائية القديمة من حقد و جشع و حسد بحكمة تقوم على إدراك الخطر المشترك الذي يواجها، الخطر الذي خلقتة حماقتنا و لا يحد منه سوى الحد من هذه حماقة." (531)

و تكمن أهمية فكر رسل الأخلاقي أيضاً في علاقته الجدلية بالجانب العلمي و التقني في قدرته على ربط هذه الانشغالات بشكل لافت بالجانب التربوي و التعليمي للناشئة، فيشترط في التعليم أن ينهض على الدولية وليس القومية و أن يسعى إلى خلق آدميين صالحين، لأن شروط المواطن الصالح تكاد تستبعد الإنسانية الصالحة من اعتبارها. و يفصل في هذا المضمار أن النظام التعليمي في أي بقعة من بقاع العالم يجب أن يحتضن مبدئين، مبدأ الأول للأسرة قبل الولاء للمحيط القومي، و مبدأ تشجيع المبادرة (المبادرة)

529 - رسل ، المصدر السابق ، ص 187 .

530 - رسل ، المصدر نفسه .، ص 187 .

531 - رسل ، المصدر السابق،، ص 187 .

و الحرية في الأفراد دون تجاوز حرية الآخرين.⁽⁵³²⁾، و يقوم خطاب رسل الفلسفي بشكل واضح على استفزاز العقول و الضمائر، و هذا يعني أنه لا يسدي مواعظاً باردة و نصائح راکدة جامدة لإمامه بجدية التهديدات التي تواجه الإنسانية أمام استفحال استخدام التقنية غير المسبوق في الصراعات الدولية بالاعتماد على تجربة الحربين الكونيتين في مطلع القرن العشرين.

ففي معرض حديث عن مستقبل السلام العالمي و ما يشويه من مخاطر، يكشف لنا أن الحرب العالمية الثالثة في حالة نشوبها لن تكون شبيهة بالحروب الكلاسيكية في شكل منهزم و منتصر، فالظروف والمعطيات من ناحية تطور أدوات الحرب وآلياتها باتت مختلفة، خاصة في ظل اكتساح أسلحة الدمار الشامل، إذ يعلن " أن حرباً عالمية ثالثة، أيا كانت نهايتها ، لن تحل أية مشاكل، مثلها في ذلك مثل سابقتها ، بل بالعكس ستخلف عالماً أسوأ حتى من ذلك الذي يوجد قبلها.⁽⁵³³⁾

و إزاء هذا الوضع المقلق، يدعو إلى اتخاذ إجراءات عملية لفرض منطق السلام و أولها هي إبرام اتفاق ينص على عدم اللجوء إلى الدعاية العدائية، فيقترح بأسلوب التوقع و الترجي بأنه " لعل أول و أسهل خطوة نحو إقرار السلام تكون اتفاقاً بين الجانبين للحد من نشاط الدعاية العدائية، و الخطوة الثانية، ينبغي أن يكون السماح للمعلومات الصحيحة بأن تعبر الستار الحديدي.⁽⁵³⁴⁾

و على ضوء هذه الطموحات، يحرص رسل بأمانة على رغبة في تحقيق طموح البشر في السلم و الطمأنينة، و يستعرض موقف فيه ما فيه من المفارقات على صلة بوضع القيم الإنسانية و ما تقتضيه مما ينبغي أن يكون و ما هو كائن بالفعل، حيث أن واقعنا الذي جعل من العلم محرراً للإنسان لم يعد كذلك الآن في العصر الحديث. و يكمن الخطر في رأي رسل في تهديد و تدمير الجنس البشري و لا يمكن تجنب ذلك إلا بدراسة الإنسان و الكشف عن نواذعه، فسبب سيطرة الغرب و انتشار ثقافته و ما أحرزه من رصيد علمي ومعرفي، مكنه من امتلاك التقنية والأفكار التي تهدف إلى تحقيق تطلعات المجتمعات الإنسانية، لكن ذلك حسب رسل لن يستمر بحكم استغلال هذه الوسائل في الحروب والدمار، وهذا ما شجع قارات أخرى على فرض استقلالها الثقافي.⁽⁵³⁵⁾

532 - رمسيس عوض - رسل مفكر سياسي،، 172.

533 - رسل ، المجتمع البشري في السياسة و الأخلاق ،، ص 200 .

534 - رسل ، المصدر السابق ، ص 200.

535 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 175—181 .

و عليه فإن هذه الظروف التي تميزت بالحروب ستؤدي إلى إمكانية العودة إلى الثقافات المحلية و البدائية و سيادة أنماط التفكير البدائي و ظهور إشكال الاقتتال الطائفي كما هو الآن في إفريقيا، و يوجز لنا حال عالمنا اليوم بأنه شبيه " بعالم العصور المظلمة ، مليء بالحروب و إشاعات الحروب و بتقهقر ثقافي سريع." (536)

لقد أراد رسل أن يوجه عنايتنا أيضا بأن انسحاب المنظومة الأخلاقية لا ينعكس سلبا على الوضع السياسي فقط، بل صاحبه أيضاً انهيار ثقافي تفكك اقتصادي، فالعلاقات التجارية بين الشرق و الغرب في تناقص دائم، و ساد الاعتقاد والإحساس أنه ما دام التصنيع هو مصدر القوة العسكرية، فيجب إذا أن تصنع كل دولة نفسها بأقصى سرعة ممكنة، و ما يتبع ذلك من إجراءات تقشفية لرفع ميزانية التصنيع بالإضافة إلى ذلك، و اكب التفكك الاقتصادي زيادة في عدد السكان، و هو ما يؤدي إلى التوتر والصدام بين الإيديولوجيات المختلفة و يعقبه كوارث سياسية و مجاعات وحروب، أما الحل فهو في صلب الاقتباس الذي ينذر بأنه " ليس من سبيل إلى تجنب هذه النتائج السيئة إلا إذا أراد الجنس البشري أن يتصرف بطريقة أقل جنونا مما هو سائد الآن." (537)

و ما دامت الأساليب التقنية و العلمية باقية و تشكل وحدة العلم، حيث تسعى كافة الأطراف إلى تطوير ترسانتها الحربية سواء في الشرق أو في الغرب، و في ظل وجود وحدة صنعتها وسائل الإعلام و التي ساهمت في إثارة الحقد و الخوف و بالتالي تقديم الآخر في شكل عدو و كاشفة على شروره فيما يبدو، و غافلة عن اشتراكنا معه في الجانب الإنساني ، في ظل هذه المعطيات كلها ، فإن العالم لن ينعم بالسلام و الوئام و لن تزداد أوضاعه إلا تفاقمًا و تعقيداً ما لم يلتزم كل طرف بالموضوعية في التعامل مع الحقائق و عرضها على المنابر الحرة التي تتمسك بالاحترافية و تدعي الحياد والموضوعية في نقل هذه الأخبار و الأحداث .

و على هذا الأساس، يدعو رسل دعوة المسالم إلى ضرورة أن نضع التنافس في الموضع السلمي، و ألا يكون سلوكا يراد به التدمير والحرب والقضاء على الآخر. (538)، فيكشف عن هواجس الصراع و التوتر لديه و عن مخاوفه من الحرب الكونية لكون أضرارها تؤدي إلى سقوط الحضارة الإنسانية، و يصبح الشغل الشاغل لمن كتبت له النجاة بأعجوبة هو البحث عن الطعام، و بذلك تزول كافة مظاهر الحياة الاجتماعية و أنظمتها، و يصبح هؤلاء عاجزين تماما عن نقل المعرفة و الأساليب العلمية إلى الأجيال القادمة، و عليه

536 - رسل ، المصدر السابق ، ص 181.

537 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 182-183 .

538 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 183 .

يتكرر تاريخ الإنسان المائة ألف الماضية ، فبعد أن يتوصل إليه من حكمة كما هو في الوقت الحاضر ،
يعجل بالسقوط للمرة الثانية .⁽⁵³⁹⁾

لقد ناضل رسل أيضا من أجل توعية الأفراد بضرورة العمل على طلب الحكمة في استغلال نعمة
العقل و العلم معا و دعا في أكثر من مرة الى التوأمة بينهما، و في رأيه أن زوال هذه المخاطر مرهون إلى
جد ما باحترام هذه التفاعل و التداخل، فلا ينفع علم بدون أخلاق، إذ يؤكد ديمومة الفكرة القائلة بأن
استمرار الحياة على سطح الأرض رغم كل الحروب الماضية كان نتيجة لنعمة الجهل الإنساني و عدم كفاءته
فيما يتعلق بأساليب الدمار، أما الآن ، فقد تبدد جهله و امتلك الوسائل العلمية الفتاكة مما يمكنه من
القضاء على الجنس البشري بأكمله . (المترجم)⁽⁵⁴⁰⁾

و لقد تمكن رسل في العديد من المناسبات من إيصال صوته لإحياء ضمير الإنسانية و يوقظها من
غفلتها إزاء تجاهلها لما يتهددها من مطبات مستقبلية و أخطار فعلية، فيكون بذلك عينة من الفلاسفة التي
اهتمت بشأن مستقبل الإنسان أكثر من اهتمامها بتطبيق نموذج فلسفتها والدفاع عن مذهبها، و يظهر
ذلك في معرض إجابته عن سؤال يتعلق حول إمكانية بقاء الإنسان العلمي على قيد الحياة، فيجيب رسل
أن الحظ لا يحالف الإنسان دوما، فالمخاطر التي يسمح الإنسان باستمرارها تقتص منه.

و عليه فالإنسان العلمي لا يمكنه أن يستمر لكثير من الوقت لاسيما إذا كانت القوات المسلحة بين
الدول غير متكافئة و باعثة على التوتر والخوف، وعليه فقيام الحرب أمر جد وارد، و طالما أن الأسلوب
العلمي مازال مستمرا، فستزداد الحرب و تتضاعف قدرتها على الفتك و الدمار و هذا ما يخشاه رسل
بالفعل.⁽⁵⁴¹⁾

539 - رمسيس عوض ، برتراند رسل الإنسان ، ص 67.

540 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 67

541 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 68.

إن تطور القنابل الهيدروجينية التي تستطيع الفتك و الدمار شبيهة بآلة يوم الحشر⁽⁵⁴²⁾، التي تم صنعها، فلها إمكانيات ما تقشعر من هولها الأبدان ، يضاف إلى ذلك النوع من القنابل، قنابل الكوبالت التي في حالة ما تم تفجيرها سيندثر سكان العالم برمتهم في ظرف سنوات قليلة . والأهم من ذلك أن هذه الوسائل في يد حكومات قد لا تتورع في استعمال بعضها و بالتالي فمهارات الإنسان صارت مصدر قلق ووبال على مستقبل الإنسان.⁽⁵⁴³⁾

و تبدو مساهمة رسل جليلة في إرساء السلام العالمي و تقديم حلول عملية للحفاظ على الأمن و الاستقرار، إذ يفصح أن الحل أمام هذه المخاوف هو نزع السلاح الشامل لكافة الأسلحة التقليدية و غير تقليدية، و أن تكون السيطرة للهيئة المشرفة على نزع السلاح تعبيراً عن حكومة عالمية تتمكنها من ذلك.⁽⁵⁴⁴⁾، و يشرح طبيعة هذه الحكومة على أنها حكومة عالمية تملك سلطة فيدرالية تشرف على الأمن و السلام العالمي، تتألف من جيوش ووسائل ردع تشارك فيها الدول المختلفة، و هو اقتراح قدمه رسل لتجنب الحرب و كوارثها مع الحرص على تحييدها بجنسيات مختلفة ممتزجة، على أن يشرف عليها أناس همهم هو الحفاظ على السلام و الوئام العالمي بامتلاك كل الصلاحيات كذلك منها التفتيش و المراقبة مثلاً.⁽⁵⁴⁵⁾

و يمثل رأي رسل الأخلاقي بالفعل فاتحة لتأسيس دولة القانون و صيانة حقوق المواطنة السياسية و الاجتماعية و محاربة الظلم و الفساد، إذ لم ينس في اقتراحه أن يقف على أهمية سيادة القانون و العقوبة و متابعة المجرمين، و بالموازاة يلح على ضرورة الاجتهاد على الاقتراب الدائم من المساواة الاقتصادية لمختلف دول العالم معيشياً، تفادياً للحسد بين الدول، و هي ذات أهمية إذا أريد للعالم أن ينعم بالسلام و الاستقرار الدائم.⁽⁵⁴⁶⁾

542 - صيغة تشبيه بأهوال يوم القيامة الواردة في سورة الحشر استخدامها المترجم للتوضيح عواقب استخدام القنابل الكوبالتا الشبيهة بالقنابل الهيدروجينية و التي لا تختلف عنها إلا من خلال غلافها المكون من الكوبالت و ليس اليورانيوم كما هو الحال في القنابل الهيدروجينية.

543 - رمسيس عوض ، المرجع السابق ، ص 68.

544 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 70.

545 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 71.

546 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 73-74.

و لقد برر رسل ارتفاع مستوى الخطورة في الوقت الراهن في سعيه لإيقاظ وعي المجتمع الدولي بالاعتماد على المستجدات و الأحداث العلمية الموسومة بانتشار التقنية و الوسائل التكنولوجية ، حيث أن أول خطوة هامة كانت في طريق التطور التكنولوجي هي إبراق الأنباء و سرعة نقلها، ولقد لعبت السكة الحديدية دوراً هاماً للغاية ، فيعتقد رسل أنه لو كان لنابليون هذه الوسائل خاصة السكة الحديدية ، لتمكن من هزم روسيا سنة 1712، إلا أن ما يعيشه الإنسان في هذا القرن أهم بكثير من السكة الحديدية و التلغراف، أي أن أهم إنجاز و انتصار هو غزو الفضاء، و أهم من ذلك سوءاً هو اختراع الأسلحة النووية.⁽⁵⁴⁷⁾

و تشكل هذه الانتصارات - في رأيه- مبرراً و ذريعة تدفعنا أكثر إلى التمسك بإقامة حكومة عالمية، القدرة على التدمير جراء استخدام الأسلحة النووية و السرعة الفائقة التي تستطيع بها هذه الأسلحة للوصول إلى أهدافها وبمعية تكاليفها الباهظة ، و يلاحظ حسب رسل أيضا أن هذه الوسائل قابلة للتمدد، فإن كانت اليوم قاصرة على سطح الأرض، فبإمكانها أن تمتد إلى القمر والكواكب بشكل أسرع و غير متوقع.⁽⁵⁴⁸⁾

و لاشك أن من شأن هذه الإجراءات و الحلول ذات البعد الإستراتيجي العالمي أن تمكن بشتى الطرق تجنب أكبر قدر من الجرائم و أعمال عنف في عالم مستقر كالذي يتصوره رسل إذا ما وفقنا في غرس الولاء للحكومة العالمية و كبح جماح الإثارة والتحريض على الحرب مع توفير حرية الصحافة وحرية الكلام وحرية الأسفار و تغيير النظم التعليمية بعدم تلقين النشء بالشعور بالافتخار لأوطانهم و استحسانا لجرائمهم.

و هنا نشير أيضا إلى الثورة التي أحدثها رسل في مجال التربية و التعليم، إذ ينبغي التفتن في اعتقاده إلى تعليم يهدف إلى إرساء ثقافة التعاون وتحقيق أهداف إنسانية و نمو مشاعر الصداقة و الود و الإقلال من الدعاية للكراهية.⁽⁵⁴⁹⁾، و يقتضي هذا ضرورة دعم محاولات التقدم العلمي و تشجيع المغامرة العلمية مع الشعور بالمسؤولية والتعاون خاصة الحملات العلمية التي تهدف إلى اكتشاف منطقتي القطب الشمالي والجنوبي و جبال الهمالايا و سلسلة جبال الأنديز في أمريكا الجنوبية وتوفير أسباب السفر إلى الفضاء الذي أصبح وشيكاً لمن يتوق إلى درجة أكبر من المخاطرة و المغامرة.⁽⁵⁵⁰⁾

547 - رمسيس عوض ، المرجع السابق ، ص 78.

548 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 78.

549 - رمسيس عوض ، رسل المفكر السياسي ، ص 79.

550 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 79.

و يعتقد رسل بأن القدرة على تكييف السلوك الإنساني أمر ممكن في ظل حقيقة مفادها بأن تسعة أعشار الطبيعة البشرية تعتمد على التجربة و يتكفل بها التعليم، و الجزء العاشر فقط يعتمد على الوراثة و من المحتمل أن يثبت في الوقت المناسب أنه سيخضع لتأثير العلم فيه بمعنى إخضاعه لعلم الوراثة.⁵⁵¹)، و يرى رسل أنه بإمكان التحرر، إذ أننا نقاسي من العلم و نتائجه الوخيمة، و لكن بوجود تعليم يتضمن درجة من المغامرة أكبر مما هي عليه الآن سيتمكن الإنسان تجاوز هذا الوضع و يستثمر تطبيقات العلم بشكل أفضل و أحسن مما هو عليه حاليا.⁵⁵²)

و من الواضح أنه لازم الثورة العلمية مخاطر مختلفة و تهديدات متعددة، تهدد بشكل جدي كيان العالم في إشارة إلى توظيف نتائج العلوم واستثمارها سلبا سواء في التفوق العسكري أو بغية الدعاية المغرضة المباشرة بالتوجهات السياسية ونصرة لأطروحات إيديولوجية سياسية أو اقتصادية أو فلسفية، أو استخدامها المفرط في الحياة اليومية وما ينطوي عليه من أخطار صحية و بيئية.

فكثيرا ما كانت هذه التكنولوجيات علة مرضية أو مسببة لأخطار إيكولوجية أو تهديدا صريحا من خلال استخدامها في التلويح بالقوة العسكرية خاصة في ظل وجود اتجاهات فكرية تنادي بفصل السياسية عن الأخلاق أمثال ميكافيلي و نيتشه و هوبز، و هم يعدون من قبل الكثيرين بمثابة العرفين لفلسفة القوة، مما يجعل العالم على حافة حرب كونية تتجاوز فيها الحروب التقليدية عتادا ونطاق التدمير، لكون الأسلحة الحديثة ذات دمار فتاك وشامل فالنظام الذي لا يستطيع إنقاذ الحضارة من هذه النكبة المهلكة نظام خاطئ من بعض الوجوه، و لا نستطيع أن نرجو له صلاحا ما لم يثبت لنا قدرته على درء الحروب أو تخفيف مصائبها على الأقل. على أن الحرب ليست سوى الثمرة الناضجة في شجرة الشرور العالمية".⁵⁵³)

551 - رمسيس عوض ، المرجع السابق، ص 81.

552 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 81.

553 - رسل، مثل عليا سياسية ، ص 16.

و تبين من خلال هذا العرض أن الصعوبة تكمن في كيفية التعامل مع هذا الوضع ؟ وهل ينبغي أن نحمل العلم و التقنية نتيجة هذه الحماقات ؟ أليس العلم حياديا و التقنية قابلة للاستخدام المزدوج ؟ ألا يمكن أن تكون أداة إيجابية في يد الإنسان كما يمكن أن توظف في غير ذلك ؟ إذن في اعتقادنا الأمر مرهون بأخلاق الإنسان بالدرجة الأولى، و عليه ينبغي أن نراهن على الرفع من مستوى الوعي لدى الأفراد وتنبيههم بمخاطر سوء استغلال العلو التكنولوجيا، و يجب تحسيس الأفراد بالحفاظ على إرثهم الطبيعي و الإنساني و أن يميلوا إلى السلم و الاستقرار و يغلبوا لغة الحوار و التسامح و ينشروا قيم التعاون و المحبة و الإخوة ، عسا أن نجعل من العلم وسيلة إعمار، لا أداة تهديد و دمار.

2- دور الأخلاق و القيم التربوية و الدينية في معرفة الذات و معرفة الغير. (حوار الحضارات).

لقد اهتم رسل بالحوار مع الآخر و اعتبر ذلك شرطا لتحصيل السعادة مما حدا به إلى القول أن الفرد لا يكون إنسانا سعيداً إلا إذا كانت هذه الاهتمامات التي سبق ذكرها، موجهة نحو الخارج لا باتجاه الباطن. هذا يعني أن الشعور بالسعادة لا يتجسد إلا إذا كانت المساعي التربوية والتعليمية تستهدف بالأساس تفادي الانفعالات والأهواء والأفكار العواطف التي تتمحور فقط على الذات وفيها إغفال لصلة الفرد بعالمه الخارجي⁽⁵⁵⁴⁾.

وبخلاف ذلك، من كان سجين عالمه الخاص ومنطوي على ذاته، صعب عليه إدراك السعادة و الفوز بها، ومعنى هذا فلا يمكن أن يكون الإنسان سعيدا وهو محدود في حدود ذاته، في تفكيره وانفعاله وعواطفه، فيوجز الحقيقة فقط كما تقدم له ، أما أحكامه فهي نابعة من صميم اعتقاده، وهو كثير الانطواء، ميال إلى الوحدة والعزلة، يغلب عليه التوقع و الانكماش على الذات⁽⁵⁵⁵⁾، وهذا ما لا ينصح به عموما إذا أُريد تحقيق السعادة، و يحدد لنا معنى " أن الإنسان السعيد هو ذاك الذي يعيش موضوعيا، و هو ذو عواطف حرة واهتمامات واسعة، يضمن سعادته عن طريق هذه العواطف، لأنها تكفل له أن يكون موضع حب واهتمام الكثيرين بالمثل." ⁽⁵⁵⁶⁾

و على النقيض من ذلك، فإن حب الذات المفرط و الأنانية الجارفة، التي تنشأ إثار الذات وتفضيلها على نظيراتها سيحول دون اندماج الفرد مع بقية أفراد الزمرة ويصيبه بالخيبة والإحباط والفشل، وهو ما ينجر عنه شعور بالتهميش و الإقصاء إذ أن " التعاسة كلها تعتمد على نوع من التفريق أو نقص في الشمول، فيكون هناك تفاضل في الذات لافتقارها إلى التناسق في الشعور واللاشعور، ويغيب التكامل بين الذات و المجتمع عندما لا يتلاحمان بفعل الاهتمامات و العواطف الموضوعية." ⁽⁵⁵⁷⁾، و بالتالي يفوت عليه الفرصة في العيش السعيد والمتعة الدائمة.

554 - رسل ، مثل عليا سياسية ، ص 192.

555 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 193.

556 - رسل ، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

557 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 195.

إن الإنسان السعيد في اعتقاد رسل إنسان يعيش بذهنية المشاركة والتفتح على الغير، يكشف عن عواطفه و اهتماماته، و يتجاوب بالحب و الاحترام و التقدير والاهتمام من طرف الغير، يشاركونهم بكل صدق في عواطفهم، دون أن ينتظر لذلك مقابلا، إنه إنسان يتفاعل بإيجابية مع الآخرين، طبعه انبساطي. يسهل عليه التواصل بكل سلاسة مع وسطه الاجتماعي، يملك رصيذا من الشجاعة وقليل من الخوف و متحرر من الشعور بالإثم، يولي عناية فائقة بكافة مناحي الحياة، يتميز بالتفاؤل و ينبذ اليأس والاستسلام وينفر من التشاؤم والتردد. حيث يبين لنا " أن أولئك الذين يحيون حياة فيها فائدة لأنفسهم ولأصدقائهم أو العالم إنما يلهمهم الأمل وتدعمهم البهجة" (558).

و نستشف أيضا أن تحقيق السعادة بناء على رؤية رسالية، تستلزم توطيد العلاقة مع الغير و المشاركة الفعلية في الحياة، وتستدعي الاعتقاد بأن الحياة تستحق العيش من أجلها، دون خداع نفس أو تصنع، فقبل أن نكون سعداء، علينا إنكار ذاتنا قدر الإمكان (559)، وقد سئل رسل عن معنى مشاركة الغير فأجاب: " يبدو لي أن الأمر واضح، إنها الصداقة، إنه الحب، إنها العلاقات التي كانت لدينا مع أولئك الأطفال، و في الختام تعني العلاقات الحميمة مع الآخر، الحياة صعبة إذا كانت العلاقات تعيسة" (560).

من خلال هذه المقدمات نستنتج أن دور فلسفة رسل الأخلاقية في الدعوة إلى الحوار و التواصل مع الغير، و أنه من الضروري توجيه اهتمامنا نحو العالم الخارجي والانفتاح عليه، وإظهار الرغبة بصدق في إسعاد الآخرين تماما مثل مثل رغبتنا في إسعاد أنفسنا، فالسعادة تقتضي الوعي والاتصال مع العالم الخارجي، فنحن لدينا العديد من الوظائف من إدراك حسي أو ذاكرة أو فكر و كلها تشترك فيما بينها من خلال أنها معا تتجه نحو موضوعات (561)

558 - رسل، سبيل الحرية ، ص 179.

559 - رسل، الفوز بالسعادة ، ص 194.

560 -- B. Russell, *Ma conception du monde*, p.100 .

561 - محمد مهران، فلسفة رسل، ص 132.

فالسعادة الفعلية إذن مقترنة بالاحتفاظ بالحيوية و النشاط أيضا، و ممارسة ميولنا ورغباتنا، و هذه الحركية والدينامكية كفيلة - حسب رسل - بإسعاد الإنسان، فقطع الاتصال مع الوسط، يجعل الإنسان متعلقا أكثر بذاته، وهو ما يحدث التعاسة و الشقاء، لاسيما إذا كان الإنسان بالتعريف كائن اجتماعي بطبعه، لا مناص من مقاسمة الغير للمكان والزمان، فهو لا يتحمل مشاق الوحدة والعزلة ولا يقوى على مقاطعة بني جنسه، وإن فعل، فالتعاسة والضجر هما مآله ، فسعادته تعتمد على ضرورة مشاركتهم في كل المناسبات، و التواصل معهم في كل الأحوال، أفراحهم وأحزانهم بشكل مباشر وبحضور مستمر وفعال لأن ذلك علة سعادته وبهجته.

فإذن سعادة الفرد لا تقوم على اهتمامه بذاته فقط و لا تقتصر على ما يطمح إلى تحقيقه على مستواه الخاص، و لا تتركز على السلوك الذي يكرس الأنانية وحب الذات فهذه كلها من مسببات التعاسة و الشقاء و العزلة والانطواء، فطبيعته الإنسانية موجبة للاتصال مع الغير وداعية إلى مشاركتهم مضمرا الحياة و السعي للعمل من أجل ما يجعلهم سعداء أيضا، فتكون الظروف مهيأة ليرتقي الإنسان من النظرة التي تختصر العالم في ذاته إلى ما يوسع نظره إلى الأخر، متيقنا من أن سعادته من صميم سعادة الآخرين.

و أما الاستغناء عنهم لا يبعث على البهجة مطلقا، فما من فرد يقطع صلته بالغير إلا انتابه نقص و دفعه ذلك إلى الشعور بعدم الراحة و التوازن، بخلاف من أبدى الاستعداد لمقاسمة الآخرين وقائع الحياة و تفاصيلها و كان سلسا في علاقته مع الغير ومستعدا لمساندتهم و التخفيف عنهم وقت الحاجة، و بالتالي سيشعر بمكانته و دوره داخل اللحمة الاجتماعية و يعطي بذلك معنى لوجوده وأنه فرد لا يفكر في كيانه فحسب بل أنه و طيد الصلة بغيره فيفرح لفرحهم و يسوؤه ما يسوؤهم، فتتحقق بذلك أسمى معاني الفرحة و السعادة.

كما بين لنا أن التوازن الذاتي مرهون بعدم الانغلاق على الذات ، ذلك يجعلها في نظر رسل منقسمة ومفتتة ومضطربة غير متزنة، تهاب لمواجهة وتخشى الفشل والمجازفة، وتمضي في كل لحظة في التفكير في كيانها وماهيتها، وتجتهد في التأمل والاستبطان لأحوالها⁽⁵⁶²⁾، ذات قررت أن تكون جامدة لا تهتم لأحوال يرها لن تستطيع أن تشق طريقها بكل سلام نحو لسعادة يتأكد ذلك مع هذا القول لورسل: " و تعتمد سعادة معظم الناس، بعد أن يتم إشباع حاجاتهم الأولية، على شيئين: عملهم وعلاقاتهم الإنسانية."⁽⁵⁶³⁾

لقد اتضح لنا بما لا يدعو للشك حجم أصالة فلسفة رسل و إسهاماتها ، و ما خلفه من منتج فكري اجتماعي أخلاقي الذي يكشف بسلاسة مدى إيمانه العميق بضرورة الانفتاح على الغير، و أن هناك كثير من الشعوب و المجتمعات تعتقد باطلا باستثناء قلة من مفكريها أن القيم العليا للحياة إنما تنحصر في توفر وسائل الترف و مظاهر الرخاء، و لكن حقيقة الأمر أن هناك قيما أعلى من هذه بكثير، هي قيم الثقافة و المعرفة و تحقيق الذات، و علة هذا الاعتقاد هي تأصيل قيم الرخاء المادي في النفوس.

و من المؤكد أن ما كان يدعو إليه مصلحو البشرية و قادتها الروحيون منذ أقدم العصور حتى اليوم هو أن يكون للإنسان هدف أسمى من الرخاء المادي الذي يعده الكثيرون في علمنا هذا أقصى أمانهم.⁽⁵⁶⁴⁾ ، و يذكرنا أن الغاية من الحياة هي تحصيل السعادة و يصل إليها الإنسان بمكافحة الخوف و بتأكيد الشجاعة عن طريق التربية و بإيصال البشر درجات متصلة من الكمال من كافة المواطن، دون التسليم بالأفكار الخرافية ملحا على ضرورة دراسة الطبيعة البشرية باعتبارها موضوعا للعلم للرفع من مستوى السعادة .⁽⁵⁶⁵⁾

⁵⁶² -رسل، الفوز بالسعادة ، ص 195.

⁵⁶³ -رسل، سبل الحرية، ص 20.

⁵⁶⁴ - فؤاد زكريا ، التفكير العلمي ، ص 185 . 56.

⁵⁶⁵ - أ.م. بوشنسكي ، الفلسفة المعاصرة في أوروبا ، ترجمة د. عزت قربي - سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، 1992-

العدد 165 ، ص 80.

و على ضوء هذه الشذرات الفلسفية الفكرية، نلمس أيضا مساهمة رسل في التأسيس للحقوق العامة للأفراد، أو ما يعرف اصطلاحا بالحقوق الطبيعية التي من بينها احترام الحريات الفردية و حرية التفكير و احترام الغير و الحق في الحياة الكريمة توفير شروط الإبداع و الابتكار و محاربة الاستغلال و العبودية، فيذكر أنه يجب على المجتمعات التي تريد التقدم أن تمنح لأفرادها قدرا كافيا من الحرية دون إفراط ، لأنه من المحتمل أن يؤدي ذلك إلى الفوضى و الاضطراب و دون تفريط أيضا باعتبار أن ذلك يترتب عنه حالة من الجمود و الفتور، وهو ما يتنافى مع شروط الإبداع و ما تقتضيه من إعطاء الفرصة للإفراد المبدعين. فعامل الموهبة الفنية الفذة ووجود قوى عقلية مهمة جدا في عملية الإبداع العلمي.⁽⁵⁶⁶⁾

و في ذات اللحظة، يؤمن رسل أن القيم الأخلاقية الراهنة حاصرت كثيرا إمكانات استغلال العلم والتقنية في المجال الإنساني، من جهة تضع العديد من العراقيل أمام العلماء والمبدعين من خلال الرقابة الحكومية و ضع قيود على حرية التفكير و تسطير قيم أخلاقية لا عقلية قائمة على التعصب و التطرف، و من جهة ثانية إمكانية و قابلية العلماء بعد ترويضهم و إقناعهم بوضع أنفسهم تحت تصرف الحكومات أكثر من سعيهم لخدمة الجنس البشري.

و يشير إلى أهمية المنظومة الأخلاقية في الحفاظ على المكاسب الإنسانية التي حققتها المجتمعات، و يعزي معظم ذلك للعلم، حيث أن " كل ما يميز عصرنا تقريبا من خير و شر عن العصور السابقة هو كله راجع للعلم، فلدينا في حياتنا اليومية الضوء الكهربائي و المذياع و السينما، و في الصناعة تستخدم الآلات و القوى التي ندين بها للعلم، و بسبب الطاقة الإنتاجية المتزايدة ، أصبحنا قادرين على تكريس طاقاتنا للحرب و الاستعداد للحرب أكثر مما كان ممكنا سابقا." ⁽⁵⁶⁷⁾

⁵⁶⁶ - رسل ، السلطة و الفرد ، ص 62.

⁵⁶⁷ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 63.

و يعلن في نفس السياق أيضا. " و بسبب العلم صار بوسعنا أن نبث أخبارا أو ننفي أخبارا بواسطة الصحافة والمذيعات تصل إلى كل شخص من الوجهة العلمية، و بسبب العلم نستطيع أن نجعل إفلات من لا ترغب الحكومة فيهم من قبضتها أصعب إلى حد كبير بعيد جدا مما كان سابقا ، إن حياتنا اليومية بكليتها و نظامها الاجتماعي برمته هو ما هو بسبب العلم." (568).

و بالإضافة إلى ذلك، أظهر رسل اهتمامه بمستقبل الإنسان ليقرر أن الطرق المستخدمة في الزراعة بصرف النظر عن بعض المساحة التي تزرع بعناية، تستنفذ خصب الأرض بسرعة و الدليل على ذلك حسب رسل هو تصحر المناطق الداخلية في و.م.أ ، و هذا ما يهدد بسقوط مستويات الإنتاج و تعرض السكان لخطر المجاعة. (569) ، مؤكداً أن من شروط الإبداع هو الظروف و البيئة التي تجعل الأمل في النجاح يبدو معقولا. (570)

و من قناعات رسل أن حرية الفرد و قدراته الخلاقة على الإبداع تستوجب وضع حد للممارسات المعيقة والمؤسسات التي تصادر الرأي و تحد من حرية الفكر، إذ يصرح " أن حياة الفرد ما زالت تحتل مكانتها اللاتقة، و يجب أن لا تخضع إخضاعا تاما لسيطرة المؤسسات الكبيرة و الاحتراز من هذا الخطر ضروري جدا في العالم الذي خلقه التكنيك الحديث. " (571)، كما يزعم أن وجود الجمعيات العلمية و الجامعات شرط أساسي للتطور العلمي، لكن في آن واحد يعبر عن أسفه لما يعانيه رجال العلم من قسوة من خلال السلطة البوليسية و الاقتصادية حينما تكون آرائهم العلمية في خلاف مع رأي الساسة، و يقصد بهذا أن رسل يعارض تدخل رجال السياسة في القضايا العلمية الصرفة. (572)

568 - رسل ، المصدر السابق ص 69-70.

569 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 115.

570 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 127.

571 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 129.

572 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 131-132.

و يتناول رسل الحديث عن الجانب الأخلاقي، مؤكداً أن التقدم الأخلاقي يتكون أساساً من الوقوف في وجه العادات التي تتسم بالقسوة و الغلظة، و ضرورة توسيع هذا المسعى ليشمل كل الناس عطفاً و شفقة، وقد دعا الرواقيون في السابق إلى تعميم هذه الفضائل، و رأوا أنها لا تقتصر على الإغريق الأحرار فحسب، بل يجب أن تتعداهم إلى البرابرة و العبيد، بل إلى الإنسانية بأسرها في واقع الأمر، و من ثمة تجاوز الأسس الأخلاقية البدائية التي كانت تعتبر مثل هذه القيم خطيئة لا تقبل و لا تغتفر. أما عن إمكانية تجسيد هذه الفضائل، فيثبت رسل أن هذا الهدف صعب المنال.

و يقف أيضاً ليؤكد على خطورة الدولة على مصائر أفرادها في العصر الحديث، وعلى الأخص الدولة الشمولية، ففي الماضي كان المصلح الديني أو الأخلاقي يستطيع أن يصبر على الكثير من العنف والاضطهاد، بل الاستشهاد بنفسه في سبيل وصول صوته إلى مسامع الناس قبل أن يلقي حتفه، وهذا ما فعله -حسب رسل - سقراط و المسيح، ولكن الدولة الشمولية الحديثة تخدم أنفاس أية محاولة للإصلاح الخلقى، و هي في المهد، ولن تجدي معها أية تضحية بالنفس أو أية شجاعة أديبة، و يعطينا هذا فكرة عن مقدار الخطر الجسيم الذي يبدد الأمل في أي نوع من التقدم الأخلاقي في ظل الدولة التوتاليرية -الشمولية.

و لهذا كله، يكاد يتعذر على الفرد مهما بلغت قدراته أن يصل أثره في مجال الإصلاح الأخلاقي ما وصل إليه المصلحون السابقون في العصور الماضية. إذ أن المصلحين الدينيين والأخلاقيين بذلوا قصارى جهدهم لتوسيع رقعة التعاطف الإنساني والحد من قسوة البشر، إلا أن نتائج الإصلاح لم تبلغ الغاية المنشودة .

و يتحول رسل للحديث عن العلماء عبر التاريخ، فيصنفهم إلى نوعين، صنف ساهم بجهده لخدمة صالح الإنسانية خيراً، و صنف آخر ألحق بها ضرراً بليغاً، فالعلماء في مساعيهم للسيطرة على قوى الطبيعة واستثمارها إما أن يكون سعيهم للخير أو للشر.

و في هذا الصدد يميز رسل بين النظرة الميكانيكية أو الآلية و النظرة الإنسانية المعجب بها و التي تنال منه كل التقدير، باعتبار أن النظرة الآلية تعتبر الخير شيئاً مستقلاً عن الفرد، وانه يتحقق من خلال المجتمع ككل سواء كان التعاون على تحقيق ذلك طوعية أو قسراً، أما المفهوم الإنساني فيعتبر الخير موجوداً في حياة الأفراد، كما ينظر إلى التعاون الاجتماعي على أنه ذو قيمة فقط في الحدود الذي يسهم فيها في توفير سعادة كل المواطنين.

هذا و يحدد لنا رسل مقتضيات التكافل الاجتماعي من منظور الواجبات الأخلاقية للفرد نحو الآخرين، بأن "...نخفف أحزانهم بأكف التعاطف، و تمنحهم الغبطة الخالصة للتعاطف الذي يفتر، بأن نقوي العزائم المنهارة و نوفر لهم الإيمان في ساعات اليأس، و نتوقف عن قياس مزاياهم و عيوبهم بمقاييس جامدة، و لنفكر فقط في احتياجاتهم، في الأحزان والصعوبات و القهر و العمى الذي يكتنف حياتهم و يسبب لهم البؤس."⁽⁵⁷³⁾، ثم يقرر رسل أنه يمكن توفير فرص النمو الطبيعي للأفراد إذا توفر عاملا العدالة و الحرية، و إذا أمكن التوفيق بينهما، إذ أن العدالة تضمن للفرد ضرورات الحياة، و الحرية توفر له تحقيق ذاته و سعادته، إلا أنه يشترط ألا تتجاوز حرية الفرد حرية الآخرين.

و يكشف لنا الواقع في وقتنا الراهن وجود تعارض بين بعض جوانب أخلاقيات الفرد و بين أخلاقيات المجتمع، و يعلن رسل أنه لا يوجد إنسان حر حرية كاملة، كما أنه لا يوجد إنسان مستعبد عبودية كاملة، فحتى وإن كان الفرد حراً، فهو بحاجة إلى أخلاقيات شخصية توجه سلوكه، وإن كان بعض الناس يعتقدون أن الفرد لا يحتاج أكثر من إتباع القانون الأخلاقي السائد في مجتمعه. و على الرغم من ذلك، لم يقتنع رسل بهذا الموقف، بدليل أن هناك بعض العادات قد اندثرت مثل أكل لحوم البشر و تقديم القران و صيد رؤوس البشر وقطعها، كنتيجة للإجماع الأخلاقي ضد الآراء الأخلاقية البدائية، حيث يعلق أنه "إذا كان للإنسان رغبة جادة صادقة في أن يعيش أفضل حياة، فعليه أن ينتقد العادات و المعتقدات القبلية السائدة عموماً بين جيرانه. فالمنظومة

⁵⁷³ - رسل، عبادة الإنسان الحر، ص 18.

الأخلاقية ينبغي أن يكون فيها انسجام بين مصلحة الفرد الشخصية و المصلحة العامة الاجتماعية، و هي وظيفة تلقى على عاتق المؤسسات الاجتماعية." (574).

و بناءً على هذا، يقف رسل موقفاً يؤكد من خلاله أنه لا يحق للدولة أن ترغم إنساناً⁽⁵⁷⁵⁾، حتى إذا كان مخطئاً، على الإتيان بعمل يجافي أفكار ضميره⁽⁵⁷⁶⁾، و يصرح أيضاً أن بعض الثورات مشروعة في بعض الأحيان، حتى و إن كانت تجر إلى فوضى في أذيالها، فعندما تكون الحكومة الشرعية فاسدة بصورة مروعة، يجب التخلص منها عن طريق الثورة كما هو الحال في انكلترا و أمريكا، التي قام بها رجال تشبعوا بروح الحرية و احترام القانون، أما إذا كان القائمون بالثورة لا يقيمون للقانون وزناً أو اعتباراً، تفضي الثورة إلى الفوضى و الديكتاتورية.

كانت هذه بعض المبادئ التي آمن بها رسل و حاول الدفاع عنها بدافع إنساني بحت، فمنها من كان ناقماً عنها، و بعضها الآخر معجباً بها، أما واقع السعادة فيبدأ باستعراض أنواع الأذى التي يوقعها الناس بعضهم ببعض، التي لم تتناقص بكل وضوح، فما تزال هناك حروب و اضطهادات و أعمال بربرية بشعة، و ما يزال الناس الجشعين يتخاطفون الثروة من أولئك الذين هم أقل منهم مهارة أو أرق منهم قلباً، و ما يزال حب السلطة يؤدي إلى استبداد أوسع أو إلى مجرد عوائق عندما تكون أشكالها أكثر غلاظه غير ممكنة، و ما يزال الخوف العميق، الذي يمثل الدافع المسيطر في حياة أناس كثيرين⁽⁵⁷⁷⁾، و أما في علاقاتهم مع الوسط الطبيعي فهم لا يباليون مطلقاً بنتائج حركتهم الاقتصادية و أضرارها الايكولوجية المختلفة و الاستغلال المفرط لخيرات و مصادر الإنتاج لاسيما بعد إدخال التقنية و الأساليب التكنولوجية بغية تحسين عائدات الإنتاج كما و كيفاً. فإذا كان العلم قد ساهم في

574 - رسل ، الدين و العلم، ص 243.

575 - رسل ، المجتمع البشري في الأخلاق و السياسة ، ت ، عبد الكريم احمد ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ص 105-106 .

576 - رسل ، الفرد و السلطة ، ص 136-137.

577 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 149-150.

تحرير الإنسان من سلطان اللاهوت، فهو أيضا تضمن جوانب سلبية جلية، سواء استخدام التكنيك و استغلالها سلبيا، ذلك أنه يدافع عن الطرح الذي مفاده أن " جميع الشرور التي يعاني منها زماننا ترجع إلى حد ما إلى القضية العلمية و من ثمة فهي ترجع في نهاية الأمر إلى العلم."⁽⁵⁷⁸⁾

و يحذرنا رسل بالمناسبة من اهتمام الناس المغالط بمصير الأرض، فلا أحد سيقلق على مصيرها، فاهتمامهم ينصب حول أشياء دنيوية، و مرة ثانية " فلا أحد سيقلق على مصير الأرض لملايين السنين نتيجة لذلك، حتى و إن تصوروا أنهم يقلقون كثيرا حيال هذا الأمر، إنهم حقا يخادعون أنفسهم، إنهم يقلقون عن أشياء دنيوية طبيعية، و قد لا تكون إلا هضما للحقائق، إنه لا يوجد شخص أعلن قلقه و استيائه من مصير الحياة لملايين السنين."⁽⁵⁷⁹⁾، بل إن الخطورة حسبته تمتد إلى الكوكب برمته الذي بدأ يفقد توازنه و نظامه بفعل النشاط الاقتصادي الإنساني فهاهو يعبر عن التحول، حيث " يبدو أن الكون كان كله مرتبا في وقت من الأوقات، فكان كل شيء منه في مكانه الصحيح، و منذ ذلك الحين أخذ نظامه في الاضطراب تدريجيا حتى أصبح لا يستطيع أن يعاد إلى سابق ترتيبه إلا بعملية كبرى تعيد إليه نظامه الرتيب." ⁽⁵⁸⁰⁾.

بالإضافة إلى ما سبق، يطرح رسل موقفا إضافيا معارضا لفلاسفة القوة ، إذ يبادر بالقول أن كل الممارسات الأخلاقية لا مبرر لها بالضرورة، فليس هناك شيء في الطبيعة البشرية ما يدعو إلى مثل هذه السلوكات بشكل حتمي، و بهذا يخالف من يعتقد بوجود دوافع فطرية وعدوانية إنسانية تتطلب الحرب و اللجوء إلى العنف و أشكال أخرى من الصراع انطلاقا من تتبع ملامح العراك اليومي في استجاباتنا، مؤكدا أن لأشكال العراك دورا إيجابيا بالتأكيد من خلال المنافسة و الإبداع و الابتكار دون المبالغة في ذلك، حيث أن أشكال العنف الضارة بالإمكان التقليل منها إلى حد كبير، فإمكانيات الخير في هذا العالم الذي نجد فيه أنفسنا، غير محدودة تقريبا، و ليست إمكانيات الشر بأقل من ذلك.. إلى درجة كبيرة." ⁽⁵⁸¹⁾

⁵⁷⁸ - B. Russell , **why I am not Christian** . , Touchstone edition, London, 2004 ، p 05 .

⁵⁷⁹ - **Ibid.** p 05 .

580 - رسل، النظرية العلمية ، ص 105 .

581 - رسل، الفرد و السلطة، ص 151 .

أما على مستوى العلاقات الدولية فيدعو رسل إلى ضرورة مراعاة القيم الأخلاقية في الممارسة السياسية و نبد أشكال الحرب و العنف و الدعوة إلى فض الخلافات و النزعات داخل المجتمع الدولي بالطرق الدبلوماسية و تفضيل فتح قنوات الحوار بين الأطراف المتنازعة و السعي إلى تطويق بؤر التوتر بالمبادرات السلمية و التفاوض دون التفكير في نقل الخلاف إلى ساحة المعركة والمواجهة لاسيما في ظل التطور المذهل لوسائل الحرب النووية وتكنولوجية الدمار الشامل، و الكيفية الناجعة للنجاة " و الطريقة الوحيدة للهروب من هذا الواقع هو حل أكبر قدر ممكن من النزعات بالطرق القانونية بدل من مجاهات بالقوة." (582)

و يؤكد ذلك أيضا أنه " ليس من شك أن القوة التي تستخدم طبقا للقواعد و القانون هي أقل أذى من القوة التي تحركها الأهواء، فلو تسنى للقانون الدولي أن يسيطر على عواطف الولاء عند الناس سيطرة كافية في تنظيم العلاقات بين الدول، لأحرزنا تقدما كبيرا على وضعنا الحالي، الفوضى البدائية التي تسبق تشكيل القانون هي أسوأ من سوء القوانين." (583)

و هكذا يعبر لنا رسل عن قلقه الدائم بشأن ما يشهده العالم من تحولات سياسية و اقتصادية أطاحت بكل المنظومة الأخلاقية و الأدبية وأوجبت بما لا يدعو إلى الشك إلى شعور باليأس و الخوف المستطيل، و في ظل واقع أيضا حبلى بأشكال الجريمة من سرقة وانحراف واحتيال أصبحت الحياة لا تطاق، مما ترتب عنه ثورة سماتها اضطراب رعب و خوف من المذابح و الحروب.

و هذا يعني أن رسل كان مجموعة حساسة من المشاعر على الرغم من محاولته أن يكون عقلا مجرداً (584)، و هنا يصف لنا رسل حالة الفرد في وسط هذه الملابس، حيث " أن العالم قد أصبح هكذا لا يطاق، متوترا و مشحونا بالكراهية، و مليئا بالتعاسة و الألم، حيث فقد الناس قوة الحكم المتعادل، والذي يحتاج إليه للتخلص من التورط الذي يتخبط فيه الجنس البشري، إن عصرنا مؤلم لدرجة حيث أن اليأس قد حل بأحسن الناس." (585)

582 - رسل، أثر العلم في المجتمع، ص 68 .

583 - رسل أسس لإعادة البناء الاجتماعي ، ص 40

584 - ول ديورانت ، قصة الفلسفة ، ، ص 591 .

585 -رسل، التربية و النظم الاجتماعي ، ت ، سمير عبده، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت. ط 2، 1985 ص 239 .

المبحث الثالث : أثر الأخلاق في أنسنة الإنسان من خلال أبعاده المادية و الروحية.

1- دور الأخلاق في الحفاظ على توازنه الطبيعي و المادي و الروحي.

من الضروري الإشارة إلى ما تتميز به فلسفة رسل و مضامنها الإنسانية وما تدعو إليها من توازن بين الجانب المادي و الروحي، و يبدو ذلك جليا من خلال اعتقاد رسل أن الإنسان قد استطاع أن يروض الطبيعة ويتغلب عليها و مع ذلك فممازالت تمارس سطوتها من خلال الفيضانات و المجاعات و الأوبئة، ففي عصرنا يبدو هناك تناقض في علاقة الفرد مع وسطه الطبيعي نتيجة للتطور العلمي، إذ يحيلنا رسل على واقع، فيه " يتناقض خضوعنا للطبيعة تناقضا سريعا في عصرنا هذا، نتيجة لنمو العقل العلمي، و ما تزال المجاعات و الأوبئة تحدث، و لكننا نزداد معرفة، عام بعد عام، بما يجب أن نفعله لتجنبها." (586)

و يكشف لنا أيضا أن هناك عدة تحديات ما زالت تواجه الإنسان بالإضافة إلى ذلك العمل الشاق و غياب التعاون و السلام، فما تزال هناك حروب و اضطهادات و أعمال بربرية بشعة، و هذا بالرغم من تقدم التكنيك و نتائج العلم. (587)، و بالتالي يستبعد رسل أن تكون أسباب الصراع مشروعة و لها ما يبررها في طبيعة الإنسان، فالطبيعة لا تتطلب الحرب و لا تتطلب أشكالا من العراك المدمرة و أن هذه العوامل قد تكون مفيدة و ذلك بتقليل من أضرار الصراع و العراك. (588)

586 - رسل ، المصدر السابق ، ص 148.

587 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 149.

588 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 150.

و ينتقد بشكل جريء أننا قد تعلمنا شيء من فهم و السيطرة على قوى الطبيعة المحيطة بنا و لكننا عجزنا أن نسيطر على القوى التي بداخلنا و أهمها ضبط النفس التي تعد أهم الفضائل الأخلاقية. و يبدو إذا أن النظام الأنسب هو الذي يقوم على روح المبادرة و أفرادا جريئين و مغامرين لا خانعين و جبناء.⁽⁵⁸⁹⁾

و يشكو رسل غياب القيم الأخلاقية التي تضمن السعادة لكل فرد و تُؤمِّن بقاء الجنس البشري، فيدعونا إلى التعاون من صميم القلوب و تمنى الخير للفرد و تمنيه أيضا للآخرين و إلا كانت عواقب استخدام الأساليب الفنية العلمية وخيمة، فيلح أيضا على مراعاة الأخلاق في الشق السياسي فيقول عن هذا أنه " إذا أردنا البقاء لأي أمة منا فلا بد للسياسة العملية من أن تتعلم أن تدخل في اعتبارها نوعا من الحكمة التي اعتقد الرجال العمليون حتى الآن أنها أفضل من أن يستحقها هذا العالم."⁽⁵⁹⁰⁾

و لا يستثني رسل أيضا أهمية الدعوة إلى التسامح و نبذ العنف و التطرف باعتبارها مقوما أساسيا يقوم عليه المجتمع العلمي، ولا يكون ذلك ممكنا إلا بإرساء عنصر المحبة و الأخوة و تجنب مساعي الإقصاء للآخر، فالتطرف لا شك أنه سينجم عنه محاصرة حرية التفكير و تقييد حرية التعبير و مصادرة حقوق النشر و الكتابة.⁽⁵⁹¹⁾

و للإشارة، فإن التحول الذي شهدته في العصور الوسطى المتمثل في اكتشاف البارود وبوصلة الملاحين، كان له تأثير كبير، فأهمية البارود تتمثل في التيسير للحكومات للقضاء على الفوضى و توطيد النظام و احترام القانون، أي أن قوة الحكومات المركزية الحديثة بدأت في نهايات القرن الخامس عشر نتيجة استخدام البارود سواء في انكلترا أو في اسبانيا، فتزايدت بذلك سلطة الدولة المعتمدة على التحسينات التي عرفتتها أسلحة الحرب من بينها عملية التطوير التي بدأت مع هنري السابع و لويس الحادي عشر و فرديناند و إيزابيلا، و بذلك اعتبرت المدفعية العامل الأهم الذي ساعدهم على ذلك الإنجاز.

⁵⁸⁹ - رسل ، المصدر السابق ، ص 151.

⁵⁹⁰ - رسل ، المجتمع البشري في السياسة و الأخلاق.، ص 188 .

⁵⁹¹ - Russell- **Ma conception du monde** , p.150-151

و أما بوصلة الملاحة، فهي الأخرى كانت ذات أهمية، إذ مهدت لعصر الاكتشافات الجغرافية، مما ساعد على فتح العالم للمستعمرين البيض و اكتشاف رأس الرجاء الصالح كطريق للوصول إلى الشرق، فمكّن المجتمعات الغربية الحديثة من إخضاع الهند و الاتصال بين أوروبا و الصين، فزادها بسطة و نفوذاً في قوتها البحرية، و من ثمة توصلت أوروبا إلى السيادة على العالم و تواصل هذا التأثير مع عصر البخار والثورة الصناعية لدى رسل⁽⁵⁹²⁾، مما يعني أن هذه التحولات الاقتصادية و السياسية السابقة الذكر قد ساهمت في إحداث العديد من الارتدادات على المستوى الإنساني و الأخلاقي و حتى الحضاري، فصار العلم و التقنية في خدمة هذه التوجهات الجديدة دون مراعاة منظومة القيم الأخلاقية و هذا ما ترتب عنه انعكاسات وخيمة على الصعيد المادي و الروحي .

و الجدير بالذكر، بأن التقنية طورت بشكل مبالغ فيه و أكثر مما يجب في نظره، لاسيما في ظل الاكتشافات الأخير بمعية سلبياتها، و تطوير الترسانة العسكرية وأهمها القنبلة الذرية، لكنه يؤكد بأن المآسي ليست وليدة عصرنا بل ترتبط بالثورة الصناعية، بل أنها كانت موجودة حتى قبل حلول الثورة الصناعية كانتشار الاستغلال و الهيمنة و حوادث العلم المميتة و المشوهة و الفقر المدقع و البطالة، سواء في انكلترا أو في أمريكا مع إدخال المكننة و أثارها السلبية المختلفة.

و من المفارقات التي سجلها رسل في نفس السياق أن المآسي و المصائب الناجمة عن استخدامنا للتقنية ليست بالشيء الجديد، فقد توقف بعضها، و البعض الآخر لا يزال موجوداً، فيلخص لنا هذا بالقول: " أردت التأكيد على أن المصائب الناجمة عن التقنية ليست بالشيء الجديد، عن المصائب التي تكلمت عنها توقفت مع الوقت، فعمالة الأطفال حُرمت في انكلترا، و الرق حُرِم في أمريكا، و الاستعمار لم ينتهي الآن في الهند، أما في إفريقيا ، فإن المصائب لا تزال تكتنفها." (593)

⁵⁹² رسل، أثر العلم في المجتمع ، ص 42-43 .

⁵⁹³ رسل ، المصدر نفسه ، ص 44 .

من جهة ثانية، ينتهي رسل إلى التأكيد على الجوانب الإيجابية التي ساهمت في تغيير منحنى الحياة المادية للمجتمعات، و التي أتت بها التقنية في بعدها الأخلاقي مبينا أن التطور التقني لم يصاحبه مصائب في مراحل التصنيع الأولى لكونه قام على تحريم الرق و لازمه نمو للديمقراطية و زيادة مستوى الرخاء و زيادة عدد السكان لاسيما بعد الاستفادة من الثورة الصناعية من البخار الذي ساعد استخدامه في النقل في السفن و القطارات مما أدى إلى اكتشاف الغرب الأمريكي، و مع ذلك بقيت مناطق أخرى تعاني كما هو الحال في روسيا و إيرلندا لافتقادهم لحياتهم.⁽⁵⁹⁴⁾

لقد نجح رسل إلى حد ما في الرد بامتياز على أولئك الذين يشككون في جدوى البحث العلمي و المعادين لاستخدام التقنية بحجة الضرر أكبر من النفع و بالتالي وجوب رفضها و الإقلاع عنها، إذ أن المرحلة التالية في تطوير التقنية و التي كان لها انعكاس إيجابي تتمثل في الكهرباء و النفط، فالكهرباء استخدمت لفترة طويلة في تشغيل التلغراف قبل أن تستغل للإنارة و مصدرا للطاقة، فساعد ذلك في تطوير وسائل الاتصال و تنظيم العالم الإداري و الأمني، فكان فضل ذلك تقريب المسافات و استتباب الأمن و فرض الرقابة و المراقبة في إدارة شؤون الدولة.

و تجلّى أثر التلغراف في زيادة قوة الحكومة المركزية و الإقلال من مبادرة المرؤوسين في المناطق البعيدة، و أصل تأثير الإذاعة أيضا في هذا الجانب، و هو نفس التأثير الذي يلاحظ في استخدام الكهرباء و ما أفرزته من تبعية في حالة انقطاعها و ظروفها التي لا تحتمل، فأصبح الإنسان يدي انزعاجا عند انقطاع التيار الكهربائي معلنا عدم القدرة على الاستغناء عنها . أما النفط حسب رسل ، فقد ساهم في احتكاك الغرب بالشرق الأوسط و إندونيسيا و الإتحاد السوفيتي و يشجع على التقارب بينهما بهدف تحقيق مصالح إستراتيجية.⁽⁵⁹⁵⁾

⁵⁹⁴ - رسل ، المصدر السابق ، ص 44-45 .

⁵⁹⁵ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 46-47-49.

و من أهم تطورات التي عرفتها التقنية - في اعتقاده - هو الطيران الذي زاد من قوة الحكومات والدول والمجتمعات وأصبح الغطاء الجوي هو الحاسم في أي شكل من أشكال الصراع، و ساهم ذلك حتى في عدم التناسب بين قوة الدول، فمنها دول كبرى ذات قوة حيوية كبيرة، و هي دول عظمى لا يمكن لقوة صغرى أن تقف أمامها، فهي تمتلك تفوقاً جويًا رادعاً.

و لا شك أيضاً أن استخدام العلوم الفيزيائية و ما يفترضه من استغلال و توظيف للطاقة الذرية كان له تأثير بالغ، فليس بالإمكان الآن تقدير استخداماتها السلمية كما تدعي بعض الدول في تغيير الطبيعة الجغرافية من نسف للجبال و تحويل للصحاري إلى بحيرات، و مع ذلك فكل المخاوف تتجلى في استخداماتها العسكرية ، فيعلن رسل ذلك بقوله : " ... لكن ما يمكننا الحكم عليه الآن هو أن القوة الذرية لا يتوقع لها اكتساب أهمية سلمية توازي أهميتها الحربية. " (596)

و على الرغم من أن الأساليب الحربية كانت ذات تأثير محدود في السابق، إذ كان هدف الحروب هو جعل الدول أكثر اتساعاً، كما يشهد على ذلك تاريخ الإمبراطورية الرومانية و حملات نابليون، أما اليوم فالتطور التكنولوجي ساعد بشكل أكبر على تطوير وسائل الاتصال و من ثمة التغلب على المسافات خاصة بعد اختراع التلغراف والسكك الحديدية، الآن و بعد اختراع الطائرات المدنية والعسكرية ولا يستبعد اليوم ظهور إمبراطوريات تحتوي العالم بأكمله.

و لهذا تبدو الحاجة ماسة - في ظل هذا الزخم الهائل من التقنيات و التطور التكنولوجي و ما يشكله من خطر على استقرار العالم و تهديد للأمن و السلام العالمي نتيجة توفر أسلحة الدمار الشامل - لتوحيد العالم تحت حكومة واحدة حسب رسل، أملاً في عدم إفناء الجنس البشري و العودة إلى حالة الحرب وفق تعبير **توماس هوبز** بالاستناد على القوة و الردع، و " لما كان من المتوقع أن تصبح الحرب أكثر دماراً بالنسبة للأرواح البشرية مما كانت عليه خلال القرون السابقة ، أصبح توحيد العالم تحت ظل حكومة واحدة أمراً ضرورياً حسب توقعي، ما لم نوافق ضمناً على إفناء الجنس البشري أو العودة إلى الحالة الهمجية. " (597)

596 - رسل ، المصدر السابق، ص 50 .

597 رسل ، المصدر نفسه ، ص 51 .

لقد أثرت التقنية في بعدها البيولوجي والسيكولوجي بشكل لا يقل تأثيرها عن تأثير الفيزياء والكيمياء، فأمام ارتفاع عدد السكان للعالم، و في نفس الوقت قلة الموارد الغذائية نتيجة الاستغلال غير العقلاني في المجال الزراعي و تدمير الغابات، إن احتمال نشوب الحرب و نقص الغذاء كان جد وارد لولا الإنجازات التقنية المحققة و التي قدمت العديد من الحلول المقللة للآثار الوخيمة من خلال توفير الخدمات الطبية و ما يصاحبها من قلة الوفيات، و في آن واحد تحديد النسل الذي يساعد على تحديد عدد المواليد و ما يتبعه من شيخوخة ساكنة الغرب.

و مع ذلك لا يمكن إنكار البعد الإيجابي للتقنية الحديثة حسب رسل، إذ ساهمت في تجاوز خطر نقص الغذاء وإجراء تحسين أساليب الزراعة ووسائل الإنتاج الذي له آثار إيجابية على المدى الطويل، و ذلك بالعمل على ضمان استقرار عدد سكان العالم الذي يجب أن يكون ثابتا بهدف القضاء على الفقر والطبقية داخل المجتمعات الإنسانية، فمن الضروري إذن أن يبقى عدد السكان ثابتا و هذا يستدعي إجراءات حكومية جادة و يقتضي في نظر رسل توسيع استخدام التقنية العلمية، أما تحقيق هذا الاستقرار في عدد السكان يكون من خلال الآثار التدميرية للحرب و التي يزول معها زيادة عدد السكان، و إلا سادت الفوضى داخل المجتمع العلمي و ما يترتب عنه من زوال و تدمير لتلك التقنية العلمية. (598)

و في نفس الإطار، ساهم رسل في تبيان أن للمعرفة العلمية المتوامة بالقيم الأخلاقية دور فعال في تجسيد الجوانب الخيرية والإبداعية في الإنسان و ما تفرضه من انسجام على مستوى الجانب الروحي، و ذلك من خلال تأكيده هنا على أهمية التعاون في تحقيق السعادة والاستقرار الاجتماعي وأن هذه الخاصية هي ما يميز الإنسان عن عالم العجماوات، التي سمتها الصراع و المنافسة الشرسة، كالصراع بين الرجل الأبيض و الهنود الحمر مثلا، إلا أن رسل يلح على أن التنظيم الاجتماعي يستدعي التعاون والتقليل من المنافسة، " فكلما زاد التنظيم الاجتماعي تعقيدا بواسطة الذكاء والاختراع، زادت فوائد التعاون و قلت فوائد المنافسة، و لو أنه لم يكن هناك سوى الذكاء وحده، أو النزعة وحدها، لما كان هناك مكان للأخلاق .

598 - رسل ، المصدر السابق، ص 52-53.

و يدعو رسل إلى ضرورة الحفاظ على معالم الصراع في بعدها الايجابي، بمعنى المنافسة حتى تكون للوجود الإنساني نكهته و هنا تبرير لحاجة الإنسان للأخلاق، من منطلق أيضا أن الإنسان حسب رسل حيوان شبه اجتماعي، فهو ليس تماما مثل النمل والنحل، و لا هو إنفرادي مثل النمر و الأسود، و لأننا لسنا اجتماعيين تماما، فنحن بحاجة إلى أخلاق لتولنا بالأهداف، و إلى قواعد أخلاقية لتفرض علينا قواعد التصرفات، فهو به يتذبذب بين الجانب الشخصي و الجانب الاجتماعي في الطبيعة البشرية، مثال ذلك أن الناس لديهم جهاز دفاعي من السلوك الاجتماعي الذي يقصد به حمايتهم من المغالاة في الاتصالات الآدمية غير المرغوب فيها، فسكان المدن أقل قابلية في الاتصال مع الغرباء إلا في حالة وقوع شيء مثير.⁽⁵⁹⁹⁾

و فيما يخص دائما التوازن الروحي، فإن رسل يرجح بأن التفوق البشري تتحكم فيه شرطان أساسيان، أحدهما اجتماعي و الآخر انفرادي، فأى نظام أخلاقي يدخل في اعتباره أحدهما دون الآخر يكون غير كامل و غير مرض، و أمام هذا التشريح للطبيعة البشرية و ما يكتنفها من تركيب في علاقة الفرد مع الآخر، فيزعم أن سمة الأخلاق الأساسية هي الوعي نحو تحقيق الهدف أي أن تكون الأخلاق مؤسسة على أبعاد نفعية براغماتية، تستوجب معرفة المصالح و الأهداف التي تنشدها المنظومة الأخلاقية لأي مجتمع كان.⁽⁶⁰⁰⁾

و من جهة ثانية، يزعم رسل أن شخصية الفرد تتحكم فيها الجوانب الوراثية و الجوانب البيئية و أن " كل مخلوق بشري، بعد الأيام الأولى القليلة من حياته، نتاج عاملين: فهناك من ناحية، موهبته الخاصة، و من ناحية أخرى، تأثير البيئة بما فيها التربية."⁽⁶⁰¹⁾، و يوضح لنا رسل كذلك أن لكل كائن رغبات مختلفة بعضها محل اتفاق و بعضها موضع تعارض، و عليه يجب على النظام الاجتماعي الحكيم أن يشجع ما كان متفقا و يثبط ما كان محل تعارض عن طريق التربية و مؤسسات الدولة.⁽⁶⁰²⁾

599 - رسل ، المجتمع البشري في الأخلاق و السياسة ، ص 09-10 .

600 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 11 .

601 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 12 .

602 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 13 .

و من الطبيعي أيضا أن ينه - و هو يمثل ضمير الإنسانية - بأن الواجب الأخلاقي يحتم على الفرد ألا يستخدم كافة الوسائل لبلوغ الغايات، فلا يمكن الاستعانة بكل الوسائل للحصول على الثروة في المجال الاقتصادي من خلال ما يعرض من وسائل إنتاجية واقتصادية، و أنه ليس من الحكمة من شيء القبول بالمنفعة و الغاية المادية دون الاهتمام لما يترتب عن استخدام لتلك الوسائل و التقنيات و الأدوات من آثار في الواقع، سواء تعلق الأمر بالجانب الاقتصادي أو الصناعي أو التعليمي.

و يستشهد رسل للتدليل على صدق هذه التقريرات على أمثلة من تاريخ البشرية و مساوئ استثمار نتائج العلوم و ما أفرزته من عواقب، فيستحضر مثال أرخميدس الذي استخدم العلوم الرياضية في قتل الرومانيين، و جاليليو في إدخال تحسينات على المدفعية لدوق توسكانيا (**Duc de Tuscanie**)، و تستعمل اليوم من قبل علماء الطبيعة الحديثين و يحركهم الطموح في ذلك رغبة في استئصال الجنس البشري، فاستخدموا الرياضيات لتحقيق أغراض سياسية، و هو أيضا نفس الواقع في روسيا التي يكرس البحث العلمي فيها من خلال إدخال تحسينات على الآلات الحربية.⁽⁶⁰³⁾

و بشأن التوازن المادي، يزعم رسل أن المحك الأساسي للنظام الاقتصادي لا يكمن في جعل الأفراد أكثر ثراء أو يضمن عدالة في التوزيع مع أن كل منهما مرغوب فيه، بل إذا كان هذا النظام يعيق نمو الإنسان الغريزي ، أي نجاحه يكمن في عدم مضايقة عواطف الإنسان الخاصة و إفساح أكبر مجال ممكن أمام الميل للإبداع ، و بالتالي فمن شروط الإبداع العلمي توفير العوامل المادية للمبدع و الميل الإبداعي، و إلا كان الاهتمام بالمادية لوحدها غير مجدي كما هو الحال للأنظمة الرأسمالية - حسب رسل - التي لا تقف إلا على الأبعاد المادية فيكون العمل الإبداعي مجرد أداة لكسب المعاش فقط، " فإذا كنا نريد المحافظة على حيوية الأمة و الإبقاء على القدرة على إنتاج أفكار جديدة و الابتعاد عن الغرق في حالة الجمود الصيني الذي يأخذ بأطراف الأشياء التقليدية " ⁽⁶⁰⁴⁾

⁶⁰³ - رسل ، المصدر السابق ، ص 44-45 .

⁶⁰⁴ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 112-113 .

و في ذات الاهتمام ، يؤكد رسل على أهمية تشجيع العمل الإبداعي بجميع أشكاله و ذلك من خلال فتح المجال أمام كل الأفراد و تقديم دعم مادي و معنوي نظير جهودهم و إنجازاتهم و احتياجاتهم، كما يلح على وجوب إعطاء فرصة لكل الشباب حتى يكملوا مساهمهم الدراسي و لو بعد ترك المدرسة، خاصة ذوي المطامح الفكرية أو من يرغب في الوصول إلى تستدعي الاستعداد و التميز.⁽⁶⁰⁵⁾

و كان لرسل دور متميز في إثبات ما للتربية و التنشئة السليمة من أثر في تهذيب السلوك الفردي و الجماعي وما يترتب عنهما من ارتدادات على الجانب الروحي، فيشدد - بما لا يدعو إلى الشك- على أهمية التربية في اكتساب القيم الأخلاقية و بلورة العمل الإبداعي والتقني، فهي أقوى قدرة تقف إلى جانب ما هو فطري في الإنسان و تصد كل ما يمثل تغييرا مفاجئا تواجهه الذات في مراحلها المتأخرة، فتجتمع لديها العديد من القيم و تترسب في ذهنها الكثير من الأوامر و النواهي، التي تتعزز كل يوم بفعل الوسائل التعليمية و التربوية.

و يكتسب الأولاد من خلال التربية العادات المتأصلة والاعتقادات المتجذرة، حيث تستخدم آلة التعليم لغرس في عقول النشء احترام و تقدير مفاهيم معينة أو قبول حقائق واعتبارات محددة، و مع هذا، فرسل يخالف استخدام التربية بهذه الكيفية، ففي رأيه، وجدت التربية لاستغلال العقل و القدرة على التفكير الشخصي الحر دون إتباع آراء الغير بما فيهم المعلمين، فيستوقفنا قوله التالي: " لم تقصد التربية إلى جعلهم ينتمون إلى الفئة أو تلك، بل إلى تمكينهم من الاختيار بين الفئات بشكل عقلائي، و إلى جعلهم قادرين على التفكير الشخصي، لا الالتزام بأفكار معلمهم." ⁽⁶⁰⁶⁾

⁶⁰⁵ - رسل ، المصدر السابق ، ص 115 .

⁶⁰⁶ - رسل ،. أنسس لإعادة البناء الاجتماعي ص 118 .

و ينبهنا إلى إلزامية احترام الأولاد وعدم استخدام التربية معهم بغرض تحقيق مرامي سياسية، بل على النقيض من ذلك، وجب تعليمهم بغرس المعرفة والعادات الفكرية الأساسية لتكوين آراء تتصف بالاستقلالية و تخضع إلى معيار المعقولة، و هنا يأسف رسل لغياب هذه الجهود اليوم، حيث " تسعى التربية كمؤسسة سياسية إلى تكوين عادات تخدم هذه السياسة و تحصر المعرفة في إطار معين لكي تظهر فئة معينة من الآراء كأنها حتمية." (607)

و من المفيد بناء مجتمع تربوي يتأسس على قيم الاحترام و ما يستدعي ذلك من تسخير كل الوسائل والإمكانات و المناهج التعليمية والتي تتوج في النهاية بتمكين الفرد من ممارسة التفكير الحر و احترام الرأي الأخر، و يلح رسل أيضا من خلال وصية جانبية بأهمية التزام المعلمين و أهل التربية باحترام المتعلم و خطورة احتقار التلميذ. (608)

و لعل رسل كان سبقا للدعوة بالاهتمام بمحاربة الأمية و الرفع من المستوى الثقافي للأفراد باعتبار أن ذلك يعد شرطا ضروريا لتحقيق التقدم و الرقي الاجتماعي و الحضاري و يقرر بموجب ذلك أن للتربية دور مهم في وقتنا الحاضر لاسيما في الدول المتحضرة على حد قوله، و أنه من الضروري أن تواصل التربية مهامها ، فيجب أن يتعلم كل الناشئة الكتابة و القراءة، و ضروري جدا أن يكتسب البعض المعرفة الضرورية لممارسة بعض المهن كالطب و القانون و الهندسة ، و كذلك ينبغي أن تبقى التربية المتميزة للعلوم و الفنون بمراعاة استعداد الأفراد و مواهبهم و قدراتهم على النبوغ و الإبداع. (609).

و لا يعارض رسل إمكانية خصخصة التعليم و فتح المجال لليبرالية التعليم حتى تنكشف لنا حقول معرفية جديدة تستجيب لمتطلبات المجتمع و حاجيته، مع التحفظ على بعض المواد التي يجب دوما إخضاعها لمراقبة و إشراف الدولة و مؤسساتها التكوينية في مجال التربية، في إشارة إلى التاريخ و الدين بشكل خاص، فلا يجب أن نكتفي في رأي رسل بالفعل التقليدي المميت.

607 - رسل ، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

608 - رسل ، المصدر السابق ، ص 120 .

609 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 122 .

و أما التاريخ فعلينا أن نعيد صياغته وأهدافه و أن نسعى إلى عرضه بشكل موضوعي للأجيال الراهنة تفاديا للحقد و الكذب و الكراهية و التعصب و الافتخار، و هذا ما يجب نسخه أيضا على الدين الذي يجب أن يحمل معاني الاحترام و التعاون و الحوار و التواصل، و في الآن ذاته، ينبذ التطرف و التكفير و الأساطير الخرافات انطلاقا مما هو موجود - حسب رسل - في المدارس الكنائسية التي تكرر و تحث على القداسة و تزرع الخوف و الرعب و التصلب للعقائد، فيعقب ذلك آليا كبت البحث الحر و محاصرة حق التفكير و تجريد العقل من فاعلياته و وظائفه العليا.⁽⁶¹⁰⁾

أما إسهاماته في المجال التربوي، فتتجلى من خلال رفضه إقامة الفعل التربوي على أسس علمانية و عدم إقحامها في المناهج الدراسية، لما ينطوي عليه من إشكالات حين إثارة أسئلة ذات صلة بالدين فيصدم الفرد ويشكك في انتمائه العقائدي، و على رجالات التربية الفاعلين أن تفتح المجال أمام النقد و المراجعة و عدم القبول بالمتداول من الآراء دون فحص و تحليل و تبني المواقف و القوالب الجاهزة و اعتبار الحقيقة الذاتية حقيقة مطلقة.

و يرفع رسل للدفاع عن حقوق أن الفرد الذي بإمكانه أن يدع و يفكر و ينشط بشكل حيوي في غياب المظهر الخارجي و المكانة الاجتماعية و طرق التصرف الشخصي " فلا مفر من قتل البحث الحر طالما يكون هدف التربية خلق موقف بدلا من خلق فكر، و دفع النشء إلى التمسك بآراء إيجابية في مواضع يملؤها الشك بدلا من تركه يكشف هذه الحقيقة بتشجيعه على تقليد رأيه بجرية . يفترض بالتربية أن تغرس الرغبة في معرفة الحقيقة و ليس الاعتقاد بأن عقيدة ما هي الحقيقة."⁽⁶¹¹⁾

610 - رسل ، المصدر السابق ، ص 123-124 .

611 - رسل ، المصدر السابق ، ص 126 .

و يسلم هنا أن الإبداع العلمي يستدعي الابتعاد عن التعصب الذي يتفشى في الفرد عن طريق أساليب التعليمية السكولائية و الكنيسية أو في الدوائر الحزبية و أجهزة الدولة و تيارات الاتجاهات الفكرية المترتبة، إذ يصبح الفرد دوغماطيا التفكير أو في أحسن الأحوال يراوده الشك الهدام الذي يقبر الميول الإبداعية للفرد.⁽⁶¹²⁾ ، و من هذا المنطلق يؤكد رسل أهمية الحيوية الفكرية في الإبداع و الحاجة إلى استخدام العقل في شؤوننا العملية، فالتربية الصحيحة التي تقود الى التقدم، تسعى إلى المحافظة على روح البحث الحرة في الإنسان.

و يترتب عن هذا معارضة رسل لمن يعتقد بإيجابية بعض العادات العقلية من قبيل الطاعة والتنظيم و (**Discipline**)، على المستوى المادي و الإيمان بالعلم، فيلزم تأمين الاستقلالية و الميل لدى الفرد و العدل و التفكير و الاحترام و بذل الجهد من أجل الفهم، و إقحام الروح النقدية البناءة و مصاحبة ذلك بحب المغامرة العقلية و الفضول و حب الاطلاع و التسلح بالشجاعة الفكرية. و يوصي رسل أيضا المجتمع التربوي بإلحاح على أن تكون التربية منهج تذكية نمو التلميذ الشخصي و ليس وسيلة للتسلط و قلة احترام، و بناء على هذا التشريح للواقع التربوي، يشدد رسل على الإسراع في مباشرة الإصلاح التربوي.⁽⁶¹³⁾

كما أعاد رسل الاعتبار لأهمية الفكر، فيدافع عن الفكر الحر الذي لا يعترف بالامتيازات و المؤسسات الراسخة و العادات المريحة، فيمدح رسل الفكر الانقلابي الذي لا يحده قانون و لا يتأثر بسلطة و لا يعبأ بالحكمة المتوارثة، فيرسخ هذه المواصفات في ثنايا الفكر، ذلك أن "الفكر هو عظيم و دقيق و حر، هو النور في العالم و مجد الإنسان الرئيسي".⁽⁶¹⁴⁾، فالفكر لا يكون فعالا إلا بوضع حدود لمخاوف الإنسان و يبددها بإيجاد تفسير منطقي للأحداث و الأحكام المتداولة، هو فكر يتجه نحو المستقبل و لا يركن إلى الماضي و تفاصيله، و يحذوه أمل بغد و مستقبل أفضل.⁽⁶¹⁵⁾

612 - رسل ، المصدر السابق ، ص 126 .

613 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 127 .

614 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 135 .

615 - رسل ، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

و بالنظر إلى التطور التاريخي الذي يكشف لنا أن الفكر المتحرر تجاوز دوما السلطة الدينية و سيطرة الكنيسة الكاثوليكية خلال القرون الوسطى، لاسيما مع القديس فرنسيس و توما الإكوييني و دانتي و التي كانت تمثل عائقا أمام تطور الفكر و تقدمه، ويتضح ذلك بالخصوص في قول رسل بأن " كلا من الغريزة و العقل و القروح عانى كثيرا البتر و التقطيع حتى يتم تناسقهما مع الخط العام، لقد وجد العلمانيون أنفسهم خاضعين للكنيسة بطرق استهجنوها. " (616)

و هنا لا بد من الإشارة إلى الأولوية التي يوليها رسل إلى الفكر الحر و الحاجة إلى استبعاد الفكر المتحجر و أخلاق الخضوع و استبدالها بأخلاق منطق الفهم والتحليل و النقد، أي أخلاق الأمل و الإبداع لا أخلاق اليأس و الخوف، و التفكير في الأشياء التي يجب علينا القيام بها، لا الأخلاق التي يجب الامتناع عنها.

و يبقى الدافع لاكتساب المعرفة من منظور رسل هو حب الإطلاع و الفضول باعتبارهما صرحا المعرفة العلمية، حيث أن " الفضول هو الدافع الأول الذي يبنى عليه صرح المعرفة العلمية إذ يصرح " أن الدافع لاكتساب المعرفة و النشاطات التي تتركز فيها هو ما يشكل حياة العقل التي أقصدها .. و لا يزال حب المعرفة المباشر و كره الفشل يلعبان دورا كبيرا و خاصة أولئك الذين هم أكثر نجاحا في العلم. " (617)

و يضيف إلى ذلك عاملا آخر لا يقل أهمية عن سابقه متمثلا في المتعة و الانشغال بالبحث والولع بطلب العلم، وهذا ما يجعل الباحث منكباً بشكل منقطع النظير على بحثه دون أن يكثر بما يجري من حوله ، " فلا يحاول أحدا اكتساب كثير من المعرفة لو لم يكن هذا الاكتساب بحد ذاته ملاذا، بصرف النظر عن أي تصور لاستعمال المعرفة. " (618)

616 - رسل ، المصدر السابق ، ص 162-163 .

617 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 168 .

618 - رسل ، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

كما يدعو رسل إلى تسهيل النمو و الحيوية في الأفراد والمجتمعات قدر المستطاع، مع الحرص ألا يكون ذلك على حساب أفراد و مجتمعات أخرى، أي ينبغي محاربة الظلم والاستعمار و استغلال و ربط مصالح الأفراد بمصالح المجتمع، و تسخير نتائج البحث العلمي لتحقيق منافع شخصية.⁽⁶¹⁹⁾، و يشار إلى ما يعتقد رسل بنجاعة نظام التعليم المجاني و هو النظام الوحيد في رأيه الكفيل بتوفير شروط الإبداع باعتبار أنه يراعي الحرية و مبادئها و ما تقتضيه من إتباع النزعة المخالفة و إعطاء حرية التعبير عن ملكات الفرد و قدراته و ميوله و يبدع ما يبدو له مفيدا دون الاكتراث برأي الخبراء.⁽⁶²⁰⁾

⁶¹⁹ رسل ، المصدر السابق ، ص 183-184 .

⁶²⁰ رسل ، سبل الحرية ، ص 176 .

2- دور الأخلاق في الحفاظ على إنسانية الإنسان باعتباره غاية في ذاته.

إن موقف رسل ضد الحرب يؤكد بذور الإنسانية و ثمارها، و هذا ما يقتضي منا البحث عن الحقيقة و اشتراط أن تكون المعرفة و العلم دعامتان لخدمة الصالح الإنساني بعيدا عن الأنانية و النفعية الضيقة.⁽⁶²¹⁾، إذ يؤكد رسل في أكثر من مرة أن الدعوة إلى السلام نابعة من صوت الضمير وإدراكا بالمخاطر المحدقة بالفرد، و دأب إلى استمرار في المقاومة بالرغم من تيقنه بفلاحها، و رغم كافة مظاهر العداة التي قيل موقفه بها، و هو صوت ليس غريبا من إنسانا يطمح للحفاظ على حياة أصدقائه ووطنه مبديا صبراً و تجلدا و تماسكا في مواجهة اضطهاد الناس له.⁽⁶²²⁾

كما اعتقد رسل أن وقف الحرب و حسن استغلال العلم و التقنية يستوجب حتما، " التغيير في شعور الأفراد والذي يتراكم مع الطفولة ونظام التعليم والصراع الاقتصادي و النجاح والفشل الذي يصيب الإنسان في حياته وعلاقاته الخاصة ومشاعر الإنسان نحو العائلة الإنسانية و ما تقتضيه من شعور بالشفقة و الحنو و الطمأنينة و الرغبة في التعاون و المساعدة.⁽⁶²³⁾

ثم إن لدى رسل مخاوف في استعمال القنابل الهيدروجينية و أن أخطارها و أضرارها ستعم كافة مناطق العالم و أنه لا يمكن تجاوز هذه التحديات إلا بوضع اتفاق صادق يهدف إلى نزع هذه الأسلحة و حظر استخدامها، ثم الاعتقاد الجازم بأن أهداف الدول لا تتحقق بالحرب و أن الحرب لم تعد حرب كلاسيكية، كما يجب أيضا القضاء على أشكال الاستعمار والاستغلال و الهيمنة، و إحداث أدوات للمراقبة والتفتيش للتأكد من تدمير كافة الأسلحة الفتاكة التي هي الآن بحوزة القوى العظمى.⁽⁶²⁴⁾

621 - رمسيس عوض ، برتراند رسل الإنسان ،، الدار القومية للطباعة و النشر ، القاهرة ، 1984 . ص 46.

622 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 46.

623 - رمسيس عوض، المرجع نفسه ، ص 49-50.

624 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 52-54.

يضاف إلى هذا، بأن معالم الميل الإنساني لدى رسل و التفكير في مستقبله و حماية حقوقه الطبيعية تبدو جلية انطلاقاً من دعوة المجتمع العلمي في أنحاء العالم لدعم مساعي السلام و ذلك بالكشف عن الآثار المتوقعة من جراء حرب نووية وفتح قنوات الحوار بين الدول التي تعرف توتراً فيما بينها مثال ذلك كوبا و الهند الصينية بوساطة صينية.⁶²⁵)، فيقترح رسل أنه يجب أن تحول المهارات العلمية من إنتاج وسائل الدمار إلى وسائل الإعمار، فتغير وجه الطبيعة لتجعله أكثر إمكاناً للتكيف.⁶²⁶)

و يبدو حرص رسل هنا بجلاء على الجانب الإنساني، في اعتبار التعاون أهم من المعرفة، لأنه يمكن الإنسان من خلال استخدام قدراته العقلية لاستثمارها لصالح الأشخاص الذين يكن لهم المحبة والعطف، و هذا يعني أن كل معرفة أو علم وحب أن تكون أهدافه الجوهرية خدمة الإنسانية .⁶²⁷) و في ذات السياق ، يعتقد أن مهمة الدولة هي الحفاظ على الأمن و الاستقرار، و مع ذلك فقد حادت عن فضيلتها الأساسية في ظل تشجيعها للعنف بين الأفراد بما في ذلك الديمقراطيات العريقة، وعليه صار الفرد عاجزاً عن مقاومتها ومطالبتها بتحقيق الحرية و العدالة و نشر التسامح و نبذ الحرب و الاعتداء سواء كان ذلك السلوك العدواني استجابة لميل طبيعي في الإنسان، مثلما يعتقد ذات الفيلسوف، أو من أجل حسابان الأرباح و توزيع الغنائم بين المنتصرين.

و للتوضيح، يقصد رسل بالميل الطبيعي هو ما يشترط فيه البشر من إظهار القوة و الدفاع عن البقاء و الحسد و الكراهية اتجاه الآخر وهي بمثابة وقود الحرب نظيرها ما شهدته العالم إبان الحربين الكونيتين، و التي رسمها رجال مثقفون على معرفة بالغير و يسعون إلى حماية مصالح دولهم و لو على حساب أضرار تصيب الغير، فالشعور بالنقص و الحسد يقود إلى توجيه كافة القوى إلى التنظيم العسكري و الصناعي و شن الحرب للقضاء على ذلك التفاوت و هذا ما يجعل وقف الحرب حسب رسل أمراً صعباً⁶²⁸)

⁶²⁵ - رمسيس عوض ، المرجع السابق، ص 52-53.

⁶²⁶ - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 55.

⁶²⁷ - Maryin Kohl – **Russell and Happy Life**. Free Inquiry 1995.p.01.

⁶²⁸ - رسل ، أسس لإعادة البناء الاجتماعي ، ص 65-66

و كل السلوكات العدوانية التي يديها الفرد اتجاه الآخر ناتجة عن تقصير الدولة و عدم رعاية مواطنيها و بعث التسامح و الاحترام للغير و الدعوة إلى تقدير الذات دون الرغبة في افتكاك ما يملك هذا الآخر، و من هذا المنبر يشير رسل أن مستقبل العالم هو رهين الحالة النفسية التي تعيشها الأمم، إذ سيكون العالم أكثر تعاسة إذا كانت حالات الأمم مملوءة بالتكبر و الحسد، و بعيدا عن الكبرياء و الحسد و النفور، يستطيع المجتمع ضمان استقراره و تحقيق متطلبات أفراده و توجيه قدراته لخدمة مصالح أقرانه بشكل إيجابي.⁽⁶²⁹⁾

و يكشف رسل أنه من صالح الإنسان وليس من أجل الفخر القومي أن أصوب شيء ينبغي فعله هو العمل على ضمان الأمن و الاستقرار العالمي لما فيه من خير إنسانية بوجه عام و لا يجب أن ننقاد إلى الحرب بدافع التكبر عن الاعتراف بالهزيمة و رؤية ما يجلب بالأمم المتحاربة حين مواصلتها للقتال و الاعتداء، و لا شك أن لهذا الموقف سياق أخلاقي متميز، حيث يدعو رسل بجد إلى إعادة النظر في طرق التعامل بين الدول و استبعاد التطرف و القدسية في المواقف إذا ما أرادت أن تحافظ على الاستقرار.

و يلزم ذلك حسب رسل، قبولها بفكرة التداول بين الأمم و أحقيتها في النمو و التطور إذ يعلن أنه " إذا ما أرادت الأمم أن تحافظ على السلام العالمي، فلا بد لها أن تتعلم قبول تغييرات غير مرضية لها في خريطتها الجغرافية دون أن تشعر بأن قبولها بذلك التغيير من دون حرب هو ذل و عار." ⁽⁶³⁰⁾، و هنا يأتي دور التربية و التنشئة في إبراز هذه الفضائل الأخلاقية و الحرص عليها معرفيا لتقوية الروابط الإنسانية بين الأفراد، و عدم التسرع في اللجوء إلى القوة التكنولوجية و تسخير الجهد الفكري في مواجهة هذه التغييرات التي وردت عن رسل.

⁶²⁹ - رسل ، المصدر السابق ، ص 63-64-67-68-69

⁶³⁰ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 71-72 .

و من هنا ينادي بضرورة وضع حد للميول العمياء و تحكيم العقل و الحكمة من أجل الحفاظ على السلام العالمي من خلال مساهمة فعالة للمؤسسات التربوية و مشاركة وسائل التهذيب و التكوين المعرفي في بعده الأخلاقي التي تزرع في الناشئة كراهية الحرب و حب القتال ، فيخبرنا عن ذلك بالقول، " إذا صممت أكثرية الدول الكبرى تصميماً أكيدا على المحافظة على السلام، فلا تبقى أية صعوبة في اختراع الآلة السياسية التي تجد حلاً للمنازعات أو في إنشاء نية تربوية تستطيع أن تغرس في عقول النشء مقت القتال الذي يتعلمون التباهي به الآن مقتاً لا يحويه الزمن. " (631)

و أما تحقيق القدرة على الإبداع و النجاح في بلورة الجهد الفكري فيقتضي حسب رسل تلاحم ثلاث عوامل و هي في مجملها عبارة عن رغبات فردية ، أولها ، ضرورة عطاء الفرد كل ما يملك من طاقات و قدرات و استعدادات فطرية، و ثانيهما، تخطي المقاومة بنجاح من خلال الإصرار و الكد و الجهد المبذول و أخيراً احترام الآخر و ما ينجزه، فغياب ذلك يورث العظمة و الكبرياء و هي علة الويلات و المآسي التي أحاطت بالبشرية منذ القدم. (632)

و في نفس السياق ، يزعم رسل أن بناء مجتمع مستقر و مسالم يستوجب إحداث تغيير في المناهج الدراسية و المنظومة الأخلاقية في محاولة لاجتثاث الميول العدوانية التي ما فتئت تعصف بمجتمعات متعددة، و غير ذلك، يقر بصعوبة وقف أشكال الاعتداء و شن الحرب، إذ من الواجب تلقين قيم التسامح و الحوار مع الغير و بناء ثقة متبادلة بينهم و إرساء الحاجة إلى التعاون بين الأفراد و نبذ الفرقة و الشتات و التطرف، لاسيما في الأوساط العلمية و الفكرية و استغلال مقدرات الأرض و استخدام الوسائل التكنولوجية بشكل عام مؤكداً أنه " لا يمكن القضاء على هذه الميول إلا بتغييرات جذرية في التربية، و في بنية المجتمع الاقتصادي، و في الوضع الأخلاقي الذي يسمح للرأي العام أن يكبل أرواح الرجال و النساء من المواطنين. " (633)

631 - رسل ، المصدر السابق ، ص 73 .

632 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 74 .

633 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 77 .

و لابد من الإشارة إلى وجه الصعوبة في إرساء السلام في غياب هذه الإصلاحات الأخلاقية التي اقترحها رسل، فيشير بأنه ، " لو وجدت في كل الأمم المتحضرة إرادة قوية إلى السلام، لسهل لحم القوى الاقتصادية و السياسية التي تدعو إلى الحرب، و لطلما أن العامة معرضة إلى حمى الحرب، فمن المحتم أن يبقى كل جهد من أجل السلام متضععا. " (634)

و يقرر رسل أن وحدة العالم بفضل التقدم العلمي ليس هدفا مرغوبا فيه فحسب، بل هو هدف لا غنى عنه من أجل بقاء البشرية. و هي حقيقة أدركها الكثير من المفكرين المعاصرين الذين رفع بعضهم شعار، إما عالم موحد، أو لا عالم على الإطلاق، فهل يكفي العلم للتوحيد؟ فالغرب يؤمن بذلك، فالتقدم العلمي والتكنولوجي هو وحده يستطيع أن يقرب بين الاتجاهات المتباينة، و حتى في أشد الحالات تنافرا كما هي الحال في التضاد الإيديولوجي بين الرأسمالية و الاشتراكية.

ففي التقدم العلمي نهاية للصراع الإيديولوجي. أما الشرق الاشتراكي فيعتقد أن الصراع الإيديولوجي هو الذي يقرر في النهاية مصير العالم ، فالإيدولوجيا هي التي تعطي اتجاهها و معنى، و حين نتأمل صورة الإنسانية في المستقبل فلن نملك إلا أن نتصورها و هي تفكر بعقلية عالمية و ترعى مصالح الإنسانية بغض النظر عن اللون و الجنس و الوطن و العقيدة، و وقتئذ يكون التفكير العلمي لدى البشر قد استعاد طبيعته الحقة بوصفه بحثا موضوعيا نزيها عن الحقيقة ، يعلو كل ضروب التحيز و الهوى ، و يزن كل شيء بميزان واحد هو ميزان العقل. (635)

و يوصينا بوجود الحذر من التعميم بشأن الميول، فليس كل ما يدفع إلى الحرب منها ضار، فقد تكون نافعة و ضرورية في الحياة لزرع النشاط و الحيوية و الإبداع والابتكار في شكل تنافس و سباق و إبداء القدرة على الانجاز والاختراع، وتكون مصحوبة بالعمل و الفاعلية الذاتية و إشراك المتعة والاستمتاع تماشيا مع مطالب الطبيعة البشرية التي تمل برتابة العمل و تنهك بغياب الراحة و الاسترخاء، شريطة ألا تقود هذه الميول إلى الدمار و الهلاك و الكراهية. (636)

634 - رسل ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها

635 - فؤاد زكريا - التفكير العلمي ، ص 251-252-253.

636 - رسل ، أسس لإعادة البناء الاجتماعي ، ص 78.

و يواصل نضاله الإنساني بدعوة رجال السياسة في العالم أن تدرك أن الشعوب ترغب في البقاء و لا تكثرث بالمنازعات الإيديولوجية، و عليهم أن يدركوا الوشائج التي لا تنفصم والتي تربط الكيان الإنساني شرقا و غربا، فالإنسانية جمعاء تجمعها وحدة الآمال و الأفراح و الأحزان.⁽⁶³⁷⁾، وبخصوص الحفاظ على البقاء دائما و فيما يتعلق بالشروط الطبيعية التي تجعل الإنسان يعيش لأجل طويل ، فليس هنالك وجه يمنعنا من القول بذلك ، فالخطر لا يكمن في بيئة الإنسان الطبيعية أو البيولوجية ، بل في الإنسان نفسه.⁽⁶³⁸⁾

و يوجز رسل الحديث عن عوامل الإبداع و أبعاده الإنسانية، فيبين لنا أن كافة أشكال الإبداع أساسها النشاط و الحيوية، و كلما كان هذان العاملين حاضرا كلما كانت فرص الإبداع أكثر عطاء و إسهاما، فيقرر بأن الصناعة التي برع بها عصرنا و أجاد هي صناعة العلم ."⁽⁶³⁹⁾، بخلاف ذلك فإن الميل إلى الحرب هو ميل طبيعي يهدف إلى التسلط و إظهار القوة عوض إبداء الشعور بالعطف و الود، فيسلم أن البشر بطبعهم ميالون إلى المخاصمة.

و هكذا تنتاب الإنسان مخاوف لافتقاره لوسائل الدفاع و عجزه عن صد آليات الهجوم، فيفترض أن " الحقيقة الأخيرة التي تصدر عنها الحرب هي الحقيقة المبنية على الواقع الذي يدل على أن قسما كبيرا من البشرية يميل إلى المخاصمة عوضا عن المصالحة ولا يمكن دفعه إلى التعاون مع الآخرين إلا في المقاومة أو مهاجمة عدو مشترك "، و يواصل في نفس الاطار أنه " عندما يشعر أكثر الناس أنهم أقوىاء إلى درجة كافية ، يبدءون في فرض سطوتهم على الآخرين بدلا من إظهار رغبة الود في التودد إليهم ، " لقد جرت القاعدة على أن لا يطلب كسب ود الآخرين إلا من لم يحصل بعد على سلطة ثابتة." ⁽⁶⁴⁰⁾

637 - رمسيس عوض ، برتراند رسل الإنسان ، ص 60

638 - رمسيس عوض ، المرجع نفسه ، ص 67.

639 رسل ، أسس لإعادة البناء الاجتماعي ، ص 79 .

640 - رسل ، المصدر نفسه، ص 88 .

و لا يتم القضاء على الواقع و تعديله حسب رسل إلا بفرض سلطة الدولة العالمية في إشارة إلى الحكومة العالمية التي تضمن في رأيه السلم و الاستقرار العالمي لما تملكه من وسائل الردع و الإنفراد بها و تحقيق العدل بين الدول و الأفراد و الكيانات. و لكن هذا لا يكفي في منظوره ما لم تحدث تغييرا في منظومتها الفكرية و الأخلاقية، من خلال المؤسسات و العادات التي تحث على عداء الحرب و الانتقام و تبارك فضائل العطف و التعاون و نشر المبادئ الإنسانية.

و بهذا يدعوننا إلى إحداث قطيعة مع الموروث الذي يعبئ الناس للحرب و ينفر من قيم التسامح و التواصل و تجنب القسوة و الانفتاح على الغير، " إذ تستطيع البشرية و من دون إجراء أي تعديل جذري في الطبيعة الإنسانية ، أن تتعلم من خلال المؤسسات والعادات أن تطرح وراءها الحرب طرحا تاما كما تركت خلفها إحراق المراطقة أو تقديم ضحايا حية على مذابح الآلهة." (641)

فينصح هذا الفيلسوف عموم الناس من أجل حياة أفضل و سعادة تعم الجميع على أنه " إذا أريد الخلاص للعالم وحب على الناس أن تتعلم كيف تكون نبيلة بلا قساوة، كيف تكون ممتلئة بالإيمان، و بنفس الوقت، متفتحة على حب الحقيقة، و كيف تندفع وراء أهداف عظيمة من دون أن تكره من يحاول تغيير هذه الأهداف." (642)، و لعل فهم رسل الرياضي يحمل في حثياته روح فنان عظيم، مرهف الحس، رقيق الشعور، كما أن إكبار رسل للفنون لم يصبه الفتور في أية لحظة من حياته ، حيث يتضح في كتابه في سبيل الحرية و في فصله الختامي بالتحديد موقف فنان يحلم بتحقيق جنة السماء على الأرض و إقامة عالم أمثل يفيض بالسعادة و يعمه الحب و يخلو من الحسد و الأحقاد و الضغائن و سائر الصغائر البشرية التي تشوه وجود الإنسان. (643)

641 - رسل ، المصدر السابق ، ص 89

642 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 91 .

643 - رمسيس عوض ، رسل المفكر السياسي ، ص 35.

و على هامش حديثه عن ضرورة مراعاة البعد الإنساني و القيم الإنسانية و ما تقتضيه من عمل و تضحية للحفاظ على كرامة الإنسان باعتباره غاية في ذاته بالمقارنة مع ما يحيط بنا من كائنات و جمادات و ما تتعرض له أيضا من تجارب علمية، فإن رسل ينظر من جهة أخرى إلى الأبحاث التي أجريت على علم الأجنة و في علم الكيمياء و العضوية و في الإنتاج الصناعي للمركبات العضوية تزيد من احتمالات الاعتقاد بأن خصائص المادة الحية يمكن تفسيرها بالاستناد على لغة العلوم المساعدة كعلم الفيزياء و الكيمياء، و بطبيعة الحال نجد نظرية التطور جعلت من المستحيل افتراض أن المبادئ نفسها التي تنطبق على جسم الحيوان تختلف عن تلك التي تنطبق على الجسم البشري.⁽⁶⁴⁴⁾

و يؤكد بنبرة متفائلة على وجود تمايز في الممارسات السياسية و الاجتماعية اتجاه الكيان الإنساني، إذ أن طبيعة الاختلاف بين التوجه العلمي و ما يقتضيه من خصوصيات في الممارسة السياسية و ما هو على الآن في ظل بعض الممارسة الحكومية تمام مثل اختلاف طبيعته في العصور السابقة و ما عرفته من تدخل و احتكار للحياة السياسية من قبل رجال الكنيسة.

و يقف على هذا الاختلاف بالقول أن سلطة العلم التي أقر بها معظم فلاسفة الحقبة الحديثة، هي شيء مختلف غاية الاختلاف عن سلطة الكنيسة، من حيث كونها سلطة عقلية و ليست سلطة حكومية، فليس ثمة عقوبات تقع على من يندونها، و ليس ثمة حجج متعلقة فيمن يتقبلونها، و إنما هي تغلب فقط - و دون أي اعتبار آخر - بمناشدتها الفعلية للعقل.⁽⁶⁴⁵⁾ و الاختلاف الثاني يتمثل في أن ما تقره سلطة الكنيسة يمثل يقينا مطلقا و ثابتا ثبوتا سرمديا، بينما قرارات العلم قرارات مؤقتة و نسبية، و مؤسسة على الاحتمال و القابلية للتعديل.⁽⁶⁴⁶⁾

⁶⁴⁴ - رسل ، الدين و العلم ، ص 120-121-122 .

⁶⁴⁵ - رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية - الكتاب 3، الفلسفة الحديثة ، ترجمة د. فتحي الشنيطي ، المكتبة العامة المصرية للكتاب ، 1977 . ص 06 .

⁶⁴⁶ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 07 .

و يشار هنا إلى أن رسل لا يلقي باللائمة على العلم، إذ يصفه بشكل ضمني بالحياد و لربما يود القول بأن المآسي الإنسانية لم يتسبب فيها العلم بقدر ما هي نتيجة عن تمادي الإنسان في جهله و النزوع إلى دوافعه الفطرية، إذ يعرج على هذا معتبرا أن العلم ينقسم إلى ما هو نظري و يعني به محاولة فهم العالم، و علم عملي و هو يهتم بمحاولة تغيير العالم، فالعلم العملي حظي بالأهمية لارتباطه بتطوير أدوات وآلات الحرب و التحصين و هو ما زاد باطراد من مكانة دور رجال العلم في الحرب و بعد ذلك ازداد دورهم في تطوير الآلة و تعويد الناس على استخدام البخار و بعد ذلك الكهرباء والتي زادت من اثر العلم خاصة بالاقتراب من نهاية القرن الثامن عشر، فانتصار العلم يعزى بصفة جوهرية إلى منفعته العملية ، فأصبحت صفة العلم الأساسية عملية تقنية.⁽⁶⁴⁷⁾

إن التقنية منحت الإنسان - و التي هي امتداد للعلم العملي - نظرة مختلفة تمام الاختلاف عن أية نظرة كانت موجودة عند الفلاسفة النظريين إذ منحت الإنسان إحساسا بالقوة أي أنه صار أقل خضوعا و استسلاما للبيئة و سلطانها من ذي قبل، و تأكدت هذه القوة أكثر في بعدها الاجتماعي و ليس الفردي فقط، بحيث تسعى إلى التماسك الاجتماعي.

إذ أن التقنية العلمية على خلاف الدين تقف موقف حياد من الأخلاق، فهي توجب أن الناس بإمكانهم تحقيق الكثير من الإنجازات و لكن لا تذكرهم بما يجب القيام به لاستغلالها استغلالا أمثل حيث أن " الرجال الذين يرأسون المنظمات الضخمة التي تستلزمها، يمكنهم - دون أن يتخطوا الحدود - أن يوجهوها على هذا النحو أو ذاك حيثما طاب لهم، و على ذلك فدافع القوة له مجال لم يكن له البتة من قبل.

⁶⁴⁷ - رسل ، المصدر السابق ، ص 08 .

و على سبيل المقارنة لإبراز دور العلم في تحرير الإنسان، يؤكد رسل أن الفلسفات التي استلهمت من التقنية العلمية هي فلسفات القوة، و هي تميل إلى اعتبار كل شيء لا إنساني مجرد خامة أولية، و لم تعد الغايات تدخل في الاعتبار، و إنما القيمة قاصرة على براعة العمل فقط، هذه هي صورة من صور الجنون، و هي في أيامنا، أخطر صورة، الصورة التي ينبغي لفلسفة معقولة أن تزودنا بترياق ضدها.⁽⁶⁴⁸⁾ ، و من جهة أخرى ، يؤكد أن الفترة التي يطلق عليها " بالفترة الحديثة " ، و التي طبعت بالنظرة العقلية، تختلف في العديد من الجوانب عن نظرة الفترة الوسيطة، من بينها أنها شهدت تضائل سلطة الكنيسة و تزايد سلطة العلم و ثقافتها باتت ثقافة علمانية تختلف في جوهرها عن الثقافة الدينية الوسيطة و شهدت تحولا في النظم السياسية من الملكيات إلى الديمقراطيات أو الطغاة⁽⁶⁴⁹⁾.

و يتفاءل رسل بإمكانية تجنب الشعور بالعداء نحو الآخرين بواسطة التفهم المتفتح و ما يولد من تعاطف،" إذ يستحيل إيجاد الدواء الذي يطرد الشر الذي يشكو منه العالم من دون التفهم و الانعطاف."⁽⁶⁵⁰⁾ ، فتغيير الاعتقادات شرط أساسي لتفادي الشرور داخل المجتمعات، فمن ضروري إرساء ثقافة الكراهية للحرب والسلوكات العدوانية و ترشيد السلوك الفردي و الجماعي على فضائل العقل و الحكمة ، بل أكثر من ذلك، فإن رسل يرى أن تجنب الشرور لا يكون فقط باستخدام العقل .

و يبدو من المهم أيضا تبني موقف من الحياة أساسه استحضار ميول إيجابية تناهض و ترفض الشهوات التي تقود إلى الحرب ،" فليس ما يحتاج إلى تغيير هو حياة التفكير الواعي بل الميول أيضا."⁽⁶⁵¹⁾ ، و وظيفة الأخلاق هي تهذيب الميول والرغبات الإنسانية و الاستعدادات الغريزية حتى نحصل على نتائج ملائمة تساعد على الابتكار والتجديد بما فيها الاختراعات العلمية والناجحة في أغلب الأحيان عن التصرف العاقل و المتروي، و هذا ما اهتمت به عديد من الفلسفات، في اعتقاده، سعيها منها للإلمام بطرق التقويم الأخلاقي التي تستهدف تسخير الميول والاستعدادات الفطرية وجعلها أسلوبا للإنسان العقلاني.

648 - رسل ، المصدر السابق ، ص 09-10 .

649 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 05 .

650 - رسل ، أسس لإعادة البناء الاجتماعي ، ص 12 .

651 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 12-13 .

و في هذا المضمار ، يرى رسل " أن الفكر الصحيح هو الفكر الذي ينبع من الميل إلى الفضول العقلي فقط و الذي يقود إلى الرغبة في المعرفة و الفهم." (652)، و يكشف لنا مدى أهمية الجانب الأخلاقي ، فيقرر أنها تكمن في إعطاء الأفراد الفرصة للتعبير عن مواهبهم و قدراتهم العقلية الإبداعية و تقوي فيهم الحب و غريزة البقاء و الابتهاج بالحياة، و تجعل الفرد يميل إلى العطف والحكمة في التعامل مع الوقائع و الحقائق و تجاوز البرغماتية الضيقة و رفض الاستسلام، و العمل على تجاوز العوائق و العقبات. (653)، و غياب هذه القوى والاتجاهات يقتل روح المجتمع و العواطف التي سمتها الود و التفاؤل نحو العالم.

أما تحقيق هذه المساعي حسب ما يؤكد رسل، فَيُلْقَى على عاتق المؤسسات الاجتماعية و ما توفره للفرد من خدمات فتجعله في نموه حرا و حيويا بعيدا عن التقليد، فتغرس فيه مسالك التحكم في الذات و احترام الآخر و الحفاظ على المصلحة العامة. (654)، و يشترط رسل في القدرة على الإبداع توفير شروط معينة أساسها الحرية و العدالة و عدم فرض قيود على الفكر و البحث العلمي بدعوى معارضته لقيم عقائدية أو سياسية معينة، و هذا ما يساعد على النمو و التطور السليم. فيتهدي إلى قناعة مضمونها أن الدولة هي مصدر الأذى و التضيق على الأفراد للحصول على أكبر قدر ممكن من القوة الاستعراضية، فينجم عن ذلك تكبير لحرية المواطنين و رفض كل اتهام بالتقصير لرجالاته.

و يبدو دور رسل في التأسيس للتقييد للسلطة السياسية واضحا، باعتباره داعيا لضرورة أن تكون سلطة القوانين نسبية و مرنة، إذا ما ابتغينا تجنب الثورات و القلاقل التي تجبر الطبقة الحاكمة على تغييرها، و إذا ما أردنا أيضا أن نعيد الاعتبار لوظيفة الدولية الأساسية المتمثلة في توفير و تلبية حاجيات الأفراد و تحقيق الرفاهية الاجتماعية و الحفاظ على النظام و مقاومة أشكال الظلم و الاستبداد و استبدالها بالعدالة و المساواة، فالدولة لم توجد لتمارس العنف وهي نقطة تقاطع جلية بين موقف رسل و موقف سبينوزا. (655)

652 - رسل ، المصدر السابق ، ص 16 .

653 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 21-22 .

654 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 23 .

655 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 27-29-53 . 57-58 .

و من خلال التحليل ينكشف لنا موقف رسل الإنساني داعيا إلى ضرورة تحريره من التبعية الفكرية و أشكال الوصاية الرامية إلى الاستغلال و العبودية المنافية حتما للقيم و الكرامة الإنسانية التي لا تتحقق إلا بالاهتمام بالجانب التربوي التعليمي الذي يفتح المجال أمام التفكير الحر و يقدم فرص حقيقية للإبداع، فلا يمكن إنكار أيضا أهمية الجانب التربوي في عملية التكوين المعرفي و التمهيد للنشاط الإبداعي.

و من هذا المنطلق يدعو رسل إلى إقرار التعليم الإجباري كضرورة مثلها مثل الصحة العامة، لأن وجود حشود جاهلة بين الناس يمثل خطرا حقيقيا على المجتمع ، فإن كان النظام السياسي يدعي ديمقراطية التعليم، فمن المفارقة أن نجد فيها عدد أكبر لا يحسن القراءة ، فيوجز هذا الوضع بالقول، " إذ يستحيل وجود الديمقراطية في شكلها المعاصر في دولة حيث جماعة كبيرة لا تحسن القراءة".⁽⁶⁵⁶⁾ و في نفس الاتجاه، يدعو الحكومة للعناية بالأولاد و رعاية مصالحهم و عدم التعويل على العناية الوالدية، فهي غير كافية في نظره، إذ تلزم الدولة نفسها بضرورة بتوفير الحد الأدنى للأولاد من الثقافة و الصحة التي يتطلبها بناء الضمير الاجتماعي، أي ما يمكن الفرد من اكتساب الأطر الأخلاقية و الاجتماعية لمجتمعه.

و في آن واحد يشدد على وجوب تشجيع الدولة للبحث العلمي بحكم أن ما يقدمه الفرد من الإنجازات والاكتشافات يعود بالنفع على المجتمع عينه. وبالموازاة مع ذلك يحث الدولة على منح الاستقلالية للمؤسسات التعليمية، كالتعليم الابتدائي (المدارس الخاصة)، والجامعات وإعطائها الفرصة في الأبحاث العلمية مع التأكيد على الحفاظ على قدرتها على المستوى الاقتصادي، و لا شك أن ذلك سيؤدي إلى تشجيع الإبداع و إفساح المجال بشكل أفضل أمام الأشخاص لإبراز مقدراتهم و طاقاتهم الإبداعية، بخلاف ذلك فإن غياب هذا الجو الفكري يترتب عنها إقبارها و وأدها ، و طغيان الشعور بالعجز و استرخاء العزيمة. ⁽⁶⁵⁷⁾

⁶⁵⁶ - رسل ، المصدر السابق ، ص 59.

⁶⁵⁷ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 61

و لا ينبغي رسل صعوبة بلوغ حرية التفكير وحرية الكلام، فذاك لا يتحقق إلا بالعمل و يقتضي أيضا وجود رأي متحمس، كما يزعم أن للحرية دور من أجل الحد من رقابة الدولة و تدخلها المباشر الذي ليس مطلوباً ماعدا إشرافها على المؤسسات بما فيها التعليمية لمتابعة تصرفها و حل الخلافات الداخلية و الخارجية بين التنظيمات التي تقع بينها وديا، فيؤكد ذلك بأنه " لا تحترم المؤسسات الحرية إلا إذا وجد أناس يعتبرون الحرية باهضة القيمة و هم على أتم الاستعداد لتحمل الضيق في سبيل المحافظة عليها حية مضيئة." (658) .

و في معرض حديثه عن أفاق العلم و ما يترتب عن الاستغلال التقني لإفرازاته ، و الذي يبدأ بتحديد مفهوم مصطلح المجتمع العلمي الذي يعني حسب رسل درجة حضور المعرفة العلمية فيه و التقنية التي تستند إلى التراكم المعرفي في الحياة اليومية و الاقتصادية و السياسية، فيختصر تعريف المجتمع العلمي اقتباسا. " إنني أدعو المجتمع (علمياً) اعتماداً على الدرجة التي تؤثر فيه المعرفة العلمية و التقنية المستندة إلى تلك المعرفة، على الحياة اليومية و الاقتصاد و السياسة." (659)

و يجربنا هنا أيضا أن درجة تأثير العلم في المجتمع تتناسب مع مراحل تطوره و التي انتهت بتأثيره البارز في القرن الماضي و التي تتضح من خلال تغيير النظم الفكرية و العديد من الحقائق المعرفية و مجرى الحياة الاعتيادية عموماً، فيكون تأثير العلم في المجتمعات متفاوتاً و نسبياً بنسبية قدرتها على تجسيد السلوك العلمي، و عليه فقد نكون أمام مجتمعات قد لا توصف بالمجتمعات العلمية بالمطلق و مجتمعات أخرى تسعى أن تكون أكثر علمية، و على النقيض من ذلك ، نجد البعض الآخر منها يناصر العداة للتفكير العلمي بشكل مفضوح. (660)

658 - رسل ، المصدر السابق ، ص 62 .

659 - رسل ، أثر العلم في المجتمع ، ص 135

660 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 135-136 .

و لا شك أن الحفاظ على المبادئ و القيم الإنسانية مرهون بسيادة العلم و التنوير و محاربة الجهل و الأمية، و بقدر ما يكون مستوى التفكير راقيا في مجتمع ما، كلما كان ذلك أدمى للدفاع عن منظومة القيم الروحية و الإنسانية و ألزم باحترامها، و على النقيض من ذلك، كلما غاب أو غيب التفكير العلمي و المنطقي، كلما شهدنا العديد من الانتهاكات و الممارسات البدائية و الوحشية. و أما بشأن الاستقرار العلمي، الذي يعني الدوام و الاستمرارية و حالة معينة من الثبات و إمكانات ضمان ديمومة العلم و التقنية و المنهج العلمي، فإنه سيكون لها تأثير بالغ و إيجابي على المجتمع لاسيما إذا عرفنا بأن هذه المعرفة ذات خصوصية تراكمية و إذا لم تستمر فالمؤكد في نظره أنه سيترب عنها إما اضمحلال تدريجي أو انفجار ثوري غير ناجح. فإذا سلمنا برغبة جليلة لدى الإنسان لامتلاك المزيد من المهارات و الوسائل، فالملاحظ أن ذلك يوازيه طيش باتجاه الغايات من وراء ذلك، فهي زيادة تراكمية تستهدف الأسوأ، فيعزى هذا السباق المعرفي لجهل الإنسان و جشعه و عدم كفايته و طلب المزيد.

و يُعدّ موقف رسل المناوئ لاستخدام العلم و التكنيك لتحقيق أغراض لا إنسانية، شاهداً على نزعتة الإنسانية و نضاله المستمر لصون القيم الإنسانية السامية و المثل العليا، فيضيف أن آثار استخدام الأسلحة النووية لها انعكاسات هامة على الإنسانية جمعاء و كل ما يتصل بما هو طبيعي، بحيث تصبح الأرض غير قابلة للحياة مع إفساد و إتلاف كل إمكانية لاستغلال مقدراتها و كل النشاطات الإنسانية الصناعية ستشل، و لن يستثن من ذلك أي بقعة على الأرض.

و لهذا يدعونا رسل إلى التفكير في عواقب أي حرب نووية، و يقتضي ذلك فرض منطق التعاون بين القوى العظمى من روسيا و أمريكا لإيجاد حلول لفض النزاعات و إعادة بعث الثقة بين القيادات السياسية في كل من موسكو و واشنطن، و بالتالي تبرز على المستوى السياسي أهمية آلية تفادي الحرب و التي تكمن في الحكومة العالمية التي تمتلك زمام الأمر بامتلاكها لوحدها وسائل الردع.⁽⁶⁶¹⁾

⁶⁶¹ - Russell - **The Bulletin of The Atomic Scientists** - October .1st .1946.p02.

إن أهمية العلم و التكنولوجيا هما قبل كل شيء وسائل اصطنعهما الإنسان لكي يبنى لنفسه حياة أفضل ، هذا الوعي المتأخر دفع إلى حرص الإنسان على دراسة تأثير أي نشاط يقوم به في بيئته الطبيعية و أخذ يضع القوانين و يتخذ من الاحتياطات ما يعتقد أنه كفيل بصيانة هذه البيئة من أخطار التدخل الزائد في توازنها الطبيعي و بذلك نلاحظ وجود تحول في النظرة إلى مشكلة البيئة التي يعتقد البعض أنها ناجمة عن التصنيع و التقدم العلمي و تمثل ضريبة حتمية ينبغي دفعها كلما زادت سيطرة الإنسان على الطبيعة، ليظهر فكر جديد يتخذ اتجاهها مخالفا يؤكد أن قدرة الإنسان على قهرهم قوانين الطبيعة واستغلالها لا ينبغي على الإطلاق أن يؤدي إلى تشويه الإنسان لبيئته الطبيعية.⁶⁶²

إن الاهتمام بقضايا الإنسان لا ينفصل عن اهتمامنا بالبيئة التي يستوطنها، و من ثمة يتجلى أيضا حرص رسل على الحفاظ على هذا المحيط الطبيعي و الذي يشكل ضرورة لاستمرار الإنسان و أجياله القادمة و لهذا تعاطى بكل جدية مع هذه التهديدات، فاعتبر أن مشكلة التلوث قد تنطوي على آثار هامة على المستوى الجمالي والذوقي التي يتعلمها الفرد من وسطه الطبيعي و بذلك يفقد عنصرا هاما من إنسانيته و ما تقتضيه من تناسق و جمال.⁶⁶³

و من المؤكد أن معدل الاستهلاك في الدول الغنية يزداد بدرجة تندر بخطر حقيقي في المستقبل إذ يصل الاستهلاك إلى حد التبيد السفيه الذي لا يحدث نتيجة إشباع ضرورات حيوية، بل يحدث لإرضاء رغبات أنانية و نزوات استهلاكية مجنونة لا يلبي معظمها حاجات أصيلة لدى الإنسان، فإذا كان هذا الاستهلاك الزائد عن الحاجة يتم على حساب الضرورات الأساسية التي ستحتاج إليها الأجيال المقبلة، أليس من حق المرء أن يعترض و يطالب بالتريث و التفكير في الآخرين؟ ، لاسيما إذا كان هؤلاء الآخرين هم أبناؤنا و أحفادنا.

⁶⁶² - فؤاد زكريا ، التفكير العلمي ، ص 176.

⁶⁶³ - فؤاد زكريا ، المرجع نفسه ، ص 177.

فمن الواضح في نظر الكثير أن الأجيال البشرية ينبغي أن تتخلى عن أنانيتها و عن رغبتها في ضمان أعلى مستوى ممكن لمعيشتها، و عليها أن تفكر في مصير الأجيال التي ستعقبها، فلا تبدد موارد الطبيعة إلى حد الذي لا يترك لهذه الأجيال اللاحقة ما تستطيع أن تستهلكه، مما يدفعنا إلى طرح مشكلة أخلاقية هامة، هل ينبغي نحن الذين نعيش في الحاضر، أن نراعي حقوق جيلنا وحده، أم أن الجيل الناشئ و الأجيال التي لم تولد لها بدورها حقوق ينبغي مراعاتها عند استهلاك موارد العالم الطبيعية؟ فالموقف الأول كان إنسانيا و دعا إلى التفكير في مصير الأجيال القادمة .

أما الرأي المضاد فهو يسوق حجج تبدو في نظر الكثيرين معقولة، فمن الواجب أن تترك في رأيهم الأجيال المقبلة تواجه مشكلاتها بنفسها، و لو افترضنا أن استهلاكنا لها قد قل، فهذا لن يحل المشكلة لسببين الأول، لأن المستهلك الحقيقي هم قلة و الأغلبية فقراء و بالتالي و جب مساعدتها و عدم تحديد سقف استهلاكها، و السبب الثاني هو أن مهما سعينا لترشيد الاستهلاك، فهذا لن يمنع حدوث أزمات في الموارد الطبيعية في المستقبل و هو يؤجل المشكلة دون حلها. (664)

و يبدو موقف رسل أكثر تماسكا من حيث الأهداف الإنسانية حينما يثير انشغالات حساسة تحدد مصير الإنسانية بشكل مباشر من قبل ما تعلق بظاهرة التبذير و الإسراف في التعامل مع المقدرات و الثروات الطبيعية، إذ ينقل لنا حقيقة مفادها أن المجتمعات المتقدمة في عصرنا الحاضر أصعب بالنظر إلى توسيع الاستهلاك كما لو كان غاية في حد ذاته و تعده قيمة أساسية من قيم الحياة، و بذلك يكون المجتمع مطالب بتوفير أكبر قدر من فرص الاستهلاك، بل أصبحنا نعتبره جزء من طبيعة الأشياء و نظاما من أنظمة الكون، دون علمنا أن هذه ثقافة و اتجاه حديث ينتمي إلى المجتمع الصناعي الغربي، و هذا ما لم يكن موجودا مثلا عند اليونان الذين كان تفكيرهم في الأمر بطريقة مغايرة .

664 - فؤاد زكريا ، المرجع السابق ، ص 181-182.

لقد كان الفكر الفلسفي و الأخلاقي عند اليونان و خاصة عند سقراط و أرسطو، و الرواقيين يتجه إلى تعويد الإنسان للسيطرة على رغباته و التحكم فيه، فكان الإنسان المثالي في العصور الوسطى مثلا هو الذي يعزف عن تحقيق مطالب الترف و الرفاهية، دون أن يتضمن ذلك دعوة إلى الزهد أو التحامل على الحياة الحديثة المترفة و ما يترتب عنه ربما من كبت و قمع، فالموضوع لا يتعلق بالاستهلاك أو عدم الاستهلاك، بل بنوع الاستهلاك، فقد نجد أنفسنا مدفوعين إلى استهلاك أشياء تافهة تحت تأثير شبكة محكمة من وسائل الإعلام والإعلانات الضخمة و تغرينا بانتقاء أشياء مختلفة بلهفة و نهم حتى حد الإغراق السوقي فيها، أي الدعوة إلى تغييرات في المقتنيات دون الحاجة في ظل هذه الواقع الإنسان الذي تحكمه الدوافع الفطرية و النوازع العدوانية.

فمن الجلي في منظور رسل، أنها ستؤدي إلى التقليل من فرص البقاء و استمرارية النوع البشري، فيراجع الظاهرة قوله المقتبس من مصدره ، " و قد استمر السباق الإنساني حتى الآن بسبب الجهل و عدم الكفاية، لكن إذا اجتمعت المعرفة و الكفاية مع الطيش فإن التحقق من البقاء يصبح غير ممكن، فالمعرفة قوة، لكن القوة يمكن أن تكون للشر قدر كونها للخير، يستنتج من ذلك أن الإنسان ما لم تزدد حكمته بقدر علمه، فإن زيادة العلم تعني زيادة الأحزان." (665)

و يرى كذلك أن الإنسان أسرف في طوره الصناعي خلال المائة والخمسين عاما الماضية في استنزاف موارد الأرض الطبيعية و سيكون لهذا الإسراف أوحم العواقب عندما تنفذ هذه الموارد أو تشرف على النضوب، ضف إلى ذلك أن السعي وراء هذه الموارد كثيرا ما يدفع إلى الحروب كالبترول مثلا، و هو ما ينطبق أيضا في الزراعة في كثير من أنحاء العالم، حيث خصوبة الأرض تقل نتيجة الإعياء الذي يصيبها بسبب الإسراف و سوء الاستهلاك. (666) إلى ذلك بفعل تأثير الإعلانات التجارية. (667)

665 - رسل ، أثر العلم في المجتمع ، ص 136

666 - رمسيس عوض ، رسل المفكر السياسي، ص 203.

667 - فؤاد زكريا ، التفكير العلمي ، ص 181-184.

و ساهم رسل بشكل واضح في الدفاع عن قيمة الإنسان وكرامته و نادى بوجوب احترامه و هاجم كل محاولة لاستغلاله و تشييعه و استهداف سلامته الجسمية و العقلية، إذ أن استغلال الإنسان لأغراض تجارية أدى إلى تشكيل عقله بطريقة يريدتها المنتجون و التي تضمن لهم أكبر قدر من الربح، بل أن بعضها يجلب على المدى الطويل ضررا، فإذا كان بحوزتك فرشاة تتحرك بالكهرباء لا باليد، أو جهاز تحكم عن بعد بدلا من جهاز تغيير يدوي، فإن كانت في ظاهرها مريحة، و لكنها في حقيقتها تُعوِّد الإنسان على الخمول الزائد و تحرمه من ممارسة أقل قدر من الجهد الجسمي الذي هو في أشد الحاجة إليه كي لا يتعرض لأمراض الترف والحضارة.⁽⁶⁶⁸⁾

و تكمن قيمة فلسفة رسل لكونه تمكنت من وضع معيار الأخلاق و اشترط في مقياسها أن يهدف إلى خدمة الإنسانية بصفة جوهرية و تتجاوز الأنانية و حب الذات و استخدام المعارف لتحقيق مصالح شخصية و دوافع غريزية آنية تقضي على مساعي تحقيق الخير الأسمى و القيم الإنسانية النبيلة، و يبدو هذا جليا إذا ما علمنا أن مهمة الأخلاق الأساسية في نظر رسل تكمن في تعميم الخيرات لتطال كل أفراد المجتمعات الإنسانية دون أنانية أو تحيز، فيعبر عن ذلك صراحة عن هذا الحكم أن " الأخلاق هي، إلى حد كبير جدا، محاولة لمواجهة هذا التحيز و حمل الناس على أن يهتموا في تصرفاتهم بخير الآخرين بعدما يهتموا بخيرهم." ⁽⁶⁶⁹⁾

و تكمن قيمة هذه الفلسفة أيضا من خلال دعوته أيضا إلى ضرورة مراعاة حقوق الأجيال المستقبلية عرفانا منا لما بذل من جهود من قبل الأجيال السابقة لتكريس نفس المبدأ، مقتنعا بأنه " و مع ذلك فللأجيال المقبلة حقوقها، فنحن ندين بالشكر لأولئك الذين زرعوا ما لم يعيشوا ليحصده، و لدينا من الأسباب الوجيها ما يجعلنا نقلق عندما ترهق التربة بالزراعة غير الحكيمة، كما أننا نغالي في إشباع شهوة القتال عندنا إلى الحد الذي يبدو فيه أننا أصبحنا نواجه في هدوء احتمال القضاء على الجنس البشري." ⁽⁶⁷⁰⁾

⁶⁶⁸ - فؤاد زكريا ، المرجع السابق، ص 185.

⁶⁶⁹ - رسل ، المجتمع البشري في الأخلاق و السياسة ، ص 116 .

⁶⁷⁰ - رسل ، المصدر نفسه ، ص 120-121 .

و قبل الانتهاء من عرض هذا المبحث، عرضنا بعض التعقيبات التي نعتقد أنه من أنسب الإشارة إليها، فبدا لنا أن القيم الاجتماعية و الأطر الفكرية التي اعترض رسل على الكثير منها، لا تشكل حاجزا أمام سعادة الإنسان، فيكفي أن المجتمع لا يتوانى في الاجتهاد لتحقيقها على أرض الواقع بتوفير الإمكانيات و الوسائل المادية و المعنوية للإبداع و الابتكار سواء في المجال العلمي أو الفني، فكما هو مؤكد تجريبيا، لا إبداع في ظل هذه الشروط الاجتماعية بمعية طبعاً الشروط الذاتية ومن ثمة المساهمة في زيادة حظوظ الإنسان في الفوز بالسعادة. أما العلم فهو محايد كما أكد، رسل لكن هذا الحياد، قد يكون دافعا لاستخدام نتائج العلم سلبييا، و بالتالي لا بد من العمل على تحسيس المجتمع الدولي بمخاطر استغلال نتائج العلم و التقنية في غير مواقعها المنتظرة.

الخاتمة :

إن استعراضنا لعناصر البحث من فصول و مباحث ومعاينة تفاصيلها و مضمونها مكّنا من استخلاص جملة من الاستنتاجات و الحقائق ذات الصلة بعلاقة العلم بالأخلاق في نظر رسل، والوقوف على أوجه هذه العلاقة، أي سواء كانت تتصل بعلاقة العلم بالأخلاق أو الأخلاق بالعلم، و التي لمخنا فيها وفاء لمنهج أصيل لدى رسل يقوم على التحليل والبرهنة و دعمها بالتأصيل و التأسيس وتأييدها بالأمثلة و الشواهد، و مراجعة ما هو متداول بالنقد و التعقيب و تقديم البديل. و تبين لنا أيضا محدودية الإنتاج المعرفي الإنساني من خلال ما يشوب البعض من مواقفه من مبالغة و تعميم و نقائص و عيوب فيما تعلق بأهمية بعض الجوانب و دورها في تحقيق التوأمة بين الأخلاق و العلم في عصرنا هذا .

من جهة أخرى، يمكن تلخيص أهم أفكار رسل حول جدلية الأخلاق و العلم في عدة نقاط و التي نعتقد أنه بإمكانها أن تسلط الضوء على فلسفة الحياة من زاوية رسلية خاصة، و التي تتجلى بشكل موجز على النحو الذي يجعل من غير الممكن الفصل بين القيم الأخلاقية و النشاط العلمي و ما يترتب عنه من وسائل تقنية و معدات، و التي تكون مبدئيا محايدة.

و لما كانت كذلك، و جب علينا التحلي بالحكمة و التعقل و الحرص على احترام حقوق الأفراد و الأجيال القادمة و ضرورة الحفاظ على بيئتهم الطبيعية و مقدراتها، و يقتضى أيضا منا الابتعاد عن التعصب و ممارسة الوصاية على العقول بتوظيف نتائج العلوم و تطبيقاتها المختلفة، و بعضها الآخر معجبا بها، فيبدأ باستعراض أنواع الأذى التي يوقعها الناس بعضهم ببعض ، التي لم تتناقص بكل وضوح ، فما تزال هناك حروب واضطهاد وأعمال بربرية بشعة، وما يزال الناس الجشعين يتخاطفون الثروة من أولئك الذين هم أقل منهم مهارة أو أرق منهم قلبا، و ما يزال حب السلطة يؤدي إلى استبداد أوسع أو إلى مجرد عوائق عندما تكون أشكالها أكثر غلاظة غير ممكنة، وما يزال الخوف العميق، الذي يمثل الدافع المسيطر في حياة أناس كثيرين⁽⁶⁷¹⁾.

⁶⁷¹ - رسل ، المجتمع البشري في الأخلاق و السياسة ، ص ، 149 ، ص ، 150 .

و هذا يمهّد للحديث عن الاستنتاج الأول من وراء هذه الأطروحة، و التي تكشف لنا مدى اهتمامه بالثق الإنسانية و الأيكولوجي، الذي هو على علاقة مباشرة بالعلم و التقنية و ما يترتب عنها من عواقب في هذين المجالين . فمعظم الناس في علاقاتهم مع الوسط الطبيعي لا يباليون مطلقاً بنتائج حركتهم الاقتصادية و أضرارها الأيكولوجية المختلفة و الاستغلال المفرط لخيرات و مصادر الإنتاج لاسيما بعد إدخال التقنية و الأساليب التكنولوجية بغية تحسين عائدات الإنتاج كما و كيفاً. فإذا كان العلم قد ساهم في تحرير الإنسان من سلطان اللاهوت، فهو أيضاً تضمن جوانب سلبية جلية، خاصة في استخدام التكنيك و استغلاله سلبياً.

ففي اعتقاد رسل أن " جميع الشرور التي يعاني منها زماننا ترجع إلى حد ما إلى القضية العلمية و من ثمة فهي ترجع في نهاية الأمر إلى العلم."⁽⁶⁷²⁾ ، فيحذرنا رسل من اهتمام الناس المغالط بمصير الأرض، فلا أحد سيقلق على مصيرها، فاهتمامهم ينصب حول أشياء دنيوية، بل إن الخطورة حسبه تمتد إلى الكوكب برمته الذي بدأ يفقد توازنه و نظامه بفعل النشاط الاقتصادي الإنساني، إذ " يبدو أن الكون كان كله مرتباً في وقت من الأوقات، فكان كل شيء منه في مكانه الصحيح، و منذ ذلك الحين أخذ نظامه في الاضطراب تدريجياً حتى أصبح لا يستطيع أن يعاد إلى سابق ترتيبه إلا بعملية كبرى تعيد إليه نظامه الرتيب."⁽⁶⁷³⁾

و من أهم الأفكار التي انتهينا إليها بعد تحليلنا هي تأكيد رسل أن كل الممارسات الأخلاقية لا مبرر لها بالضرورة، فليس هناك شيء في الطبيعة البشرية ما يدعو إلى مثل هذه السلوكيات بشكل حتمي، و بهذا يخالف رسل من يعتقد بوجود دوافع فطرية وعدوانية إنسانية تتطلب الحرب و اللجوء إلى العنف و أشكال أخرى من الصراع انطلاقاً من تتبع ملامح العراك اليومي في استجاباتنا، مؤكداً

⁶⁷² - B. Russell, *why I am not Christian*. P,05.

⁶⁷³ - رسل، النظرة العلمية ، ص ، 105.

أن لأشكال العراك دورا إيجابيا بالتأكيد من خلال المنافسة و الإبداع و الابتكار دون المبالغة في ذلك، حيث أن أشكال العنف الضارة بالإمكان حسب رسل التقليل منها إلى حد كبير، " فإمكانيات الخير في هذا العالم الذي نجد فيه أنفسنا، غير محدودة تقريبا، و ليست إمكانيات الشر بأقل من ذلك.. إلى درجة كبيرة"⁽⁶⁷⁴⁾.

و لقد خلصنا إلى استنباط آخر لا يقل أهمية عن سابقه على صلة بالجانب السياسي والعلاقات الدولية خاصة، إذ يدعو رسل إلى ضرورة مراعاة القيم الأخلاقية في الممارسة السياسية و نبد أشكال الحرب و العنف و الدعوة إلى فض الخلافات و النزعات داخل المجتمع الدولي بالطرق الدبلوماسية و تفضيل فتح قنوات الحوار بين الأطراف المتنازعة والسعي إلى تطويق بؤر التوتر بالمبادرات السلمية و التفاوض دون التفكير في نقل الخلاف إلى ساحة المعركة والمواجهة لاسيما في ظل التطور المذهل لوسائل الحرب النووية وتكنولوجية الدمار الشامل حيث يتحدث عن هذا بإسهاب في أكثر من مناسبة أن " الطريقة الوحيدة للهروب من هذا الواقع هو حل أكبر قدر ممكن من النزعات بالطرق القانونية بدل من مجابهات بالقوة." ⁽⁶⁷⁵⁾.

و يؤكد ذلك أيضا أنه " ليس من شك أن القوة التي تستخدم طبقا للقواعد والقانون هي أقل أذى من القوة التي تحركها الأهواء، فلو تسنى للقانون الدولي أن يسيطر على عواطف الولاء عند الناس سيطرة كافية في تنظيم العلاقات بين الدول، لأحرزنا تقدما كبيرا على وضعنا الحالي، الفوضى البدائية التي تسبق تشكيل القانون هي أسوأ من سوء القوانين." ⁽⁶⁷⁶⁾ و هكذا يعبر لنا رسل عن قلقه الدائم بشأن ما يشهده العالم من تحولات سياسية و اقتصادية أطاحت بكل المنظومة الأخلاقية و الأدبية و أوجبت بما لا يدعو إلى الشك حلول شعور باليأس و الخوف المستطيل، و في ظل واقع أيضا حبلى بأشكال الجريمة من سرقة وانحراف واحتيال، أصبحت الحياة لا تطاق، مما ترتب عنه ثورة سماتها اضطراب و رعب و خوف من المذابح و الحروب.

⁶⁷⁴ - رسل، الفرد و السلطة، ص، 151.

⁶⁷⁵ - رسل، أثر العلم في المجتمع، ص، 68.

⁶⁷⁶ - رسل، أسس لإعادة البناء الاجتماعي، ص، 40.

و هذا يلّمح إلى حضور الجانب الإنساني في فلسفة رسل الأخلاقية، حيث عاينا أن رسل كان مجموعة حساسة من المشاعر على الرغم من محاولته أن يكون عقلاً مجرداً⁽⁶⁷⁷⁾، و بذلك صارت حالة الفرد في وسط هذه الملابس بئسة و يائسة، إذ " أن العالم قد أصبح هكذا لا يطاق، متوتراً و مشحوناً بالكراهية، وملئاً بالنعاسة و الألم، حيث فقد الناس قوة الحكم المتعادل، والذي يحتاج إليه للتخلص من التورط الذي يتخبط فيه الجنس البشري، إن عصرنا مؤلم لدرجة حيث أن اليأس قد حل بأحسن الناس."⁽⁶⁷⁸⁾.

يبقى أيضاً أن نشير إلى بعض الاستنتاجات الجانبية في سياق معالجتنا لهذا الموضوع، منها ما يلاحظ هنا من رفض للدين باعتباره عائفاً أمام تحقيق السعادة الفردية والجماعية، حيث يقر بوجود مكان لا تحتله أهمية الطبيعة، فالإنسان قادر على تكوين مثل أعلى للحياة هو عند رسل مثل أعلى للحياة الطيبة، أي حياة يسيطر عليها الحب و الوجدان و تنبع فيها بقيادة المعرفة، و هو أساس يكفي وحده لقيام الأخلاق، و كل النظام الأخلاقي النظري، هو بغير تبرير و لا لازمة.

و لا ينكر رسل في ذات الوقت تأثير القواعد الأخلاقية العملية و لكن معظمها يقوم على أفكار خرافية، بمعنى لا تفرض كافة المعتقدات بالضرورة هذه القيود على التفكير والبحث المعرفي، بل على العكس من ذلك، فهي تدعو بشكل ملح إلى احترام الحريات الفردية والاهتمام بمطالب الفرد والجماعة، و فتح المجال أمام المبادرة الفردية، و بالتالي نعتقد أنه ليس من الموضوعية بشيء تعميم التجربة المسيحية على عموم الاعتقادات الإنسانية، أخلاقياً يبدو أن رسل يرفض أيضاً المفاهيم الأخلاقية التي تمثل عقبة في وجه أي تقدم نحو السعادة و الانفتاح، إلا أننا لمس تعميماً غير مشروع و تنطوي على الكثير من المبالغة، فهذه المنظومة الأخلاقية في بعض جوانبها تعتبر شرطاً أساسياً في التمتع بالسعادة كاحترام الغير و الدعوة إلى التعاون و السلم.

و تمكنا أيضاً من استخلاص جملة من الاستنتاجات و الحقائق، أهمها ردة فعل رسل ضد التوجهات الفكرية الحديثة المتفائلة بشكل لا محدود بالعلم والتقنية، والتي أبدت إعجاباً بإنجازات الآلة وما وصل إليه التطور التكنولوجي والبحث العلمي من نتائج. فيعلل تحفظه بشأن هذا التطور الكمي

⁶⁷⁷ - ول ديورانت ، قصة الفلسفة ، ص ، 591 .

⁶⁷⁸ -رسل، التربية و النظام الاجتماعي ، ص ، 239 .

في مجال المعرفة بحجة الأخطار التي ينطوي عليها العلم و التقنية في وقتنا الحاضر وما أحرزته من إنجازات، بمعنى أن رسل تتابه عدة مخاوف فيما يخص استثمار واستخدام نتائج العلم والتكنيك.

لقد استنبطنا من فلسفة رسل أن التقدم العلمي المادي وحده لا يكفي في نظره، فقد يكون مصدراً للشقاء التام، عوض أن يكون مدخلاً للسعادة الإنسانية. فيؤكد هذا الموقف معلنا " أن الاتساع الهائل في نطلق السيطرة العلمية يثير مشكلات اجتماعية جديدة ذات طابع أخلاقي، ولو نظرنا إلى كشوف العلماء واختراعاتهم في ذاتها، لكانت محايدة، و لكن القوة التي تكسبنا إياها هي التي يمكن تحويلها في اتجاه الخير أو الشر. و لكن ما يجعل نتائج العلم أشد خطورة في أيامنا هذه هو الفعالية لأدوات الدمار المتوفرة في الوقت الراهن " (679)، فالفرد يملك من وسائل الدمار و القوة الشيء الكثير و لكنه لا يتحلى بالحكمة لا في القليل ولا في الكثير (680)

و من هنا خلصنا إلى ما يتبناه رسل أنه بإمكان العلم أن يتحول في نهاية الأمر إلى قوة ضارة تستخدم الوسائل العلمية المستمدة من العلوم المختلفة كعلم النفس و علم الأعضاء و علم البيولوجيا، وتوظيفها لاحقاً في مجالات التعليم، فيستطيع القائمون على ذلك في إطار المجتمع العلمي، تكوين وتنشئة أجيال كالألات الصماء، تفكر كما يريد حكامها أن تفكر، ومن ثمة تنعدم قدرتها على التمييز و الفعل الإرادي المستقل، فعلى العالم في منظور رسل، إذا كان ينبغي إسعاد البشر، أن يجعل العلم خادماً مفيداً لا سيداً مستبداً، يصبغ العقول وفق أهواء الحكام وشهواتهم.

و وقفنا كذلك على تصور المجتمع العلمي مستقبلاً كما يتخيله رسل، و هو الذي إلتهم فيه باعث السيطرة باعث الحب، وهذا هو المصدر لمظاهر القسوة التي نخشى أن ينحسر عنها" (681).

فلقد اعترض رسل على الكثير من الاتجاهات والمذاهب الفلسفية التي تهتم بالجانب التطبيقي للعلم دون مراعاة منظومة القيم الأخلاقية في الممارسة العلمية، كانتقاده للماركسية والبراغماتية، فيؤكد أنهما يستمدان قوتهما من الجانب التطبيقي للعلم، على أساس أن هذا الجانب نافع و مفيد و يمنح الفرد السيطرة على الطبيعة. فيعبر رسل عن امتعاضه من هذه النظريات.

679 - رسل ، حكمة الغرب ، سلسلة عالم المعرفة ، ت، فؤاد زكريا ، بيروت ، ج2 ، 1978.

680 - رمسيس عوض ، رسل المفكر السياسي، ص ، 11.

681 - رسل، النظرة العلمية، ص ، 242.

و يتفاءل رسل خيراً بشأن مستقبل البشرية - لينفي طابع التشاؤم المطلق - " إذا استطاع الناس أن يحرروا أنفسهم من تأثير النظريات الساذجة المفرطة أو هذه المشاحنات التي تنشأ عنها، فسيكون من الممكن، باستعمال حكم التكنيك العلمي، أن يهيئ كلا من الفرصة للمجتمع والحماية للمجتمع معاً، و لسوء الحظ فإن نظريتنا السياسية أدنى ذكاء مما وصلت إليه من المستوى العلمي، و لم نتعلم بعد كيف نستفيد من معرفتنا و مهارتنا بالطرق التي تؤدي أكثر من غيرها لأن تجعل الحياة سعيدة بل ومشرفة أيضاً." (682)،

و لعل هذه السيطرة هي الأخرى تتماشى مع رغبة الفرد في امتلاك أسباب القوة و السلطان، ، و هنا نشير إلى النقد الذي وجهه رسل إلى هذه الفلسفة، فلكي لا تصير الحياة الإنسانية قائمة مملّة، فإنه من المهم أن نتحقق أن هنالك أشياء لها قيمة مستقلة تماماً عن المنفعة، إن المفيد مفيد لأنه وسيلة إلى شيء آخر، و هذا الشيء الآخر إذا لم يكن هو أيضاً وسيلة بدوره، يجب أن يُقيم لذاته، لأن الفائدة لا تكون بغير ذلك إلا سرايا خادعا (683)،

و استنبطنا حقيقة جد مهمة كذلك، مفادها إلحاح رسل على القول بأن العالم في محنته الراهنة يحتاج إلى الحكمة أكثر من حاجته إلى المعرفة التكنولوجية، و يختبر الواقع الإنساني بملاحظة جد مهمة ، دلالتها ازدواجية عواقب و آثار نتائج العلم و التقنية، حيث " استطاعت العلوم أن تمكن الإنسان من السيطرة على الطبيعة، مما يعني إمكانية تحقيق سعادته ورفاهيته، و كان بالإمكان أن يكون هذا ممكناً لو كان البشر عقلاء، إلا أنه في الحقيقة هم حزمة من العواطف والغرائز، كنوع حيواني في بيئة مستقرة، وإذا لم يتم إطفائها بإحداث توازن بين دوافع شروط الحياة، و إذا تم تعديل هذه الشروط بشكل مفاجئ، فإن ذلك التوازن سيفتقد" (684)

682 - رسل، الفرد و السلطة ، ص ، 146 .

683 - رسل ، المصدر نفسه ، ص 138.

684 - B-Russell , **L' avenir de la science**, Edition Gallimard, paris , 1994 , p 08.

و يواصل أيضا ناصحا و منها الضمير الإنساني بأنه قد حال بين الإنسان حتى الآن و بين تحقيق أماله جهله بالوسائل، و كلما اختفى هذا الجهل، تزايدت قدرته على تشكيل نفسه وتشكيل بيئته على النحو الذي يفضله، فالقوة التي يخلقها العلم تكون خيرة بقدر الحكمة التي يتميز بها الإنسان، وتكون شريرة بقدر ما في الإنسان من حمق، و لذلك فإن أريد للحضارة العلمية أن تكون حضارة خيرة، فقد وجب أن يقترن بزيادة المعرفة زيادة في الحكمة، و أعني بالحكمة الإدراك السليم لغايات الحياة " (685) .

أما الاستنتاج الأهم بالنسبة إلينا، يأتي في سياق حديثه عن أهمية الأسلوب العلمي، فيعتقد أنه يقوم على الشك و لا ينهض على يقين، و من هذا المنطلق ينبهنا رسل أن بعض اعتقادات الحس المشترك توجب التحلي عنها، فهي تدل على أننا مضطرين إلى قبول البعض منها حتى و لو كانت تحمل تناقضاً في حد ذاته (686)، بمعنى أن الفرد الباحث يدخل في اعتباره دوما احتمالات الخطأ والصواب و لا بد لنا من معالجة كل القضايا بمنهج الشك الذي هو سمة التفكير العلمي الأصيل (687)، و يوجز مبيناً بأنه " قد يكون الشك أليماً، و قد يكون جديداً، ولكنه على الأقل مخلص أمين، و ثمرة من ثمار البحث عن الحقيقة، و ربما كان الشك مرحلة مؤقتة، و لكن النجاة منه لا تكون بالعودة إلى العقائد المنبوذة، و التي تنتمي إلى جيل أغبي من هذا الجيل " (688) و يوضح لنا كيفية الوصول إلى اليقين بالقول أن " كل نظريات المعرفة يجب أن تبدأ من السؤال " ما الذي أعرفه؟ "، و ليس من السؤال ما الذي يعرفه البشر؟ لكن كيف يمكن لنا أن أعرف الذي يعرفه البشر؟ يمكن فقط بواسطة مشاهدات شخصية لما يقال في الكتب، و تحقيق الدليل المؤيد بأن ما يوجد في الكتب هو الصدق. (689)، فإذا أمكن لنا في نظر رسل أن نحمل الناس على اكتساب إطار فكري متشكك لا يقطع بيقين فيما تعلق بهذه القضايا، فلسوف تختفي غالبية شرور العالم الحديث وستصبح الحرب مستحيلة لأن كلا من الطرفين سيتحقق من أن الطرفين لا بد و أن يكونا على خطأ، وسيبطل الاضطهاد بعد زوال التعصب.

685 - رسل، النظرة العلمية، ص ، 07.

686 - B-Russell, **Mysticism and logic and other essays**, Library book edition, London, 2008. p. 62.

687 - B-Russell, **Problem of philosophy**, Library edition, London, 1976, p. 22.

688 - رسل النظرة العلمية، ص ، 91.

689 - رسل، ما وراء المعنى و الحقيقة، ص، 150.

و يتبنى هذا الافتراض بعد فحص دقيق و استقراء التاريخ و التجربة الإنسانية على وجه العموم،" فعلى النقيض من النظرة اللاهوتية، كان انتشار النظرة العلمية حتى يومنا هذا سببا دون منازع في تحقيق السعادة البشرية."⁽⁶⁹⁰⁾، و سيهدف التعليم إلى اتساع العقول لا إلى تضيقها كما هو الحال اليوم، و سيقع الاختيار على الناس لشغل الوظائف حسب كفاءتهم في القيام بالعمل و ليس لأنهم يتبعون المسلمات اللاعقلية التي يدين بها من هم في السلطان، فيقرر إمكانية تحقيق السعادة بأننا نجد الشك العقلي-وحده-إذا أمكن توليده، سيكفي لتحقيق الفردوس.⁽⁶⁹¹⁾، وعلى هذا الأساس يقرر رسل بأن العلم لا يؤسس على المطلقات، بل تتمثل روحه الحقة في مبدأ التشكيك العقلي الذي يضع في اعتباره فرضية الخطأ و الصواب .⁽⁶⁹²⁾

و في الختام، فإن الناس لا شك أنهم سيختلفون في تقديرهم لرسل من وجهة النظر الفكرية و الفلسفية، و لكن لا يختلفون معه في دعوته إلى السلام، فإنسانية هذا الرجل و صدقه و حرصه الخالص الأكيد على مستقبل الإنسان لا يرقى إليه شك، على الرغم من أنه لم يستطع بناء نظام فلسفي يحرص على الاتساق و النسقية المطلوبة عادة في كل بناء فلسفي، كما لم يستطع تفادي عدد من المتناقضات و التعميمات الخالية من أساليب الحصر و الاستثناء التي وقع فيها.

⁶⁹⁰ - رسل، العلم و الدين، ص، 244.

⁶⁹¹ - رمسيس عوض ، رسل المفكر السياسي، ص، 8 ، ص، 9.

⁶⁹² - B-Russell , **My philosophical development**, New edition, London, 1975, p.161.

- قائمة المصادر و المراجع -

أ- المصادر باللغة العربية:

- 1- رسل، ما وراء المعنى و الحقيقة، ت، محمد قدرى عمارة، القاهرة، 2005.
- 2- رسل، الفوز بالسعادة، ترجمة سمير عبده، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1980.
- 3- رسل، سبل الحرية، ت عبد الكريم أحمد، القاهرة، 1985.
- 4- رسل، السلطة و الفرد، ترجمة شاهر الحمود، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت 1961.
- 5- رسل، التربية و النظام الاجتماعي، ت، سمير عبده، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت. ط 2، 1985.
- 6- رسل، في التربية، ترجمة سمير عبده. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1982.
- 7- رسل، النظرة العلمية، ت. عثمان نويه، دار المدى للثقافة و النشر، دمشق، ط 1، 2007.
- 8- رسل، أثر العلم في المجتمع، ت، صباح الصديق الدمولوجي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008.
- 9- رسل، المجتمع البشري في الأخلاق و السياسة، ت، عبد الكريم أحمد، مكتبة الانجلوالمصرية، القاهرة، 1986.
- 10- رسل، أسس لإعادة البناء الاجتماعي، ت، إبراهيم يوسف النجار، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط 4، 1983.
- 11- رسل، عبادة الإنسان الحر، ت، محمد قدرى عمارة، القاهرة، ط 1، 2005.
- 12- رسل، الدين و العلم، دار الهلال، القاهرة، 1977.
- 13- رسل، مثل عليا سياسية، ت. فؤاد كامل عبد العزيز، الدار القومية للنشر، القاهرة، 1986.
- 14- رسل، حكمة الغرب، سلسلة عالم المعرفة، ت فؤاد زكريا، بيروت، ج 2، 1978.
- 15- رسل، سيرتي الذاتية، ت، عبدالله عبد الحافظ و آخرين، دار المعارف، القاهرة، 1970.
- 16- ما الذي أؤمن به، مقالات في الحرية و الدين و العقلانية"، ترجمة د. عدي الزغبى، دار ممدوح عدوان للنشر و التوزيع - سوريا، ط 1 - 2015.
- 17 - رسل، آمال جديدة في عالم متغير، ترجمة: عبد الكريم أحمد، مراجعة: على آراهم دار سعد. (مصر، ب. ت .
- 18- رسل، تاريخ الفلسفة الغربية - الكتاب الثالث، الفلسفة الحديثة، ترجمة د. فتحي الشنيطي، المكتبة العامة المصرية للكتاب، 1977.

ب- المصادر باللغة الأجنبية:

- **B.Russell, Ma conception du monde**, traduit de l'anglais par louis Evrard- Edition Gallimard, Paris, 1962
- **B. Russell, common sense and nuclear warfare**, Rutledge edition, London, 2001.
- **B. Russell, L'avenir de la science**, Edition Gallimard, paris, 1994.
- **B. Russell, Eloge de l'oisiveté**, Traduit par M. Parmentier, Edition Allia, Paris, 2004.
- **B. Russell, Problem of philosophy**, Library edition, London, 1976.
- **B. Russell, why I am not Christian**, Touchstone edition, London, 2004.
- **B.Russell, Analysis of mind**, Classic series edition, London, 2006
- **B-Russell, My philosophical development**, New edition, London, 1975.
- **B-Russell, Mysticism and logic and other essays**, Library book edition, London, 2008.
- Russell – The Bulletin of The Atomic Scientists – October .1st .1946

ج- المراجع باللغة العربية :

1. - رمسيس عوض ، برتراند رسل الإنسان ، الدار القومية للطباعة و النشر ، القاهرة ، 1984 .
2. محمد مهران-، فلسفة رسل، دار المعارف، القاهرة، 1976 .
3. رمسيس عوض ، برتراند رسل المفكر السياسي، دار الطباعة و النشر، القاهرة، 1966 .
4. ول ديورانت ، قصة الفلسفة ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ط 6 ، 1988 .
5. ماركس و أنجلز، الشيوعية العلمية ، دار الطباعة ، دمشق ، ط1، 1972 .
6. كارل ماركس ، رأس المال ، وزارة الثقافة ، دمشق، ج1، ط2، 1971 .
7. وليام جيمس ، البراغماتية، ترجمة محمد علي العريان، دار النهضة العربية، القاهرة، 1965 .
8. الطيب بوعزة ، نقد الليبرالية، مكتبة فهد الوطنية، الرياض ، ط1، 2009 .
9. سبينوزا ، رسالة في السياسة ، ترجمة عمر مهيل ، المطبعة الوطنية ، الجزائر ، 1995 ، ص ، 124 .
10. فريدريك أنجلز ، الاشتراكية بين الخيال و العلوم ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ .
11. ج. كونتو: الحضارة الفينيقية، نقلا عن إرث الفينيقيين إلى الفلسفة، ص.19. نقلا عن طراييشي، نظرية العقل، دار الساقى، ط1 ، بيروت، 1996
12. - موزس فنلي، الإغريق القدامى، ص.75. عن طراييشي، نظرية العقل.
13. الطيب بوعزة، في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة نقد التمركز الأوروبي مركز نماء للبحوث و الدراسات، ط1، بيروت ، 2012
14. جورج. جي. إم. جيمس، التراث المسروق، الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة، ترجمة: شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1996
15. فؤاد زكريا ، التفكير العلمي ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد 3 ، الكويت ، 1978
16. د. عبد الفتاح مصطفى غنيمه ، فلسفة العلوم الطبيعية (النظريات الذرية و الكوانتم و النسبية) ، مكتبة الإسكندرية

17. د . يمنى طريف الخولي، **فلسفة العلم في القرن العشرين** ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد 264
18. أ . س . قرايلينغ ، **بوتراندرسل**، مقدمة قصيرة جدا، ت إيمان جمال الدين الفرماوي ، ط 1 ، 2013 .
19. ديكسون، **العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع**، (الترجمة باليونيسكو، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون والثقافة) د . جون . ب . الحديث، ترجمة شعبة ، الكويت إبريل 1987 – 2001.
20. أرسطو طاليس، **علم الأخلاق إلى نيقوماخوس**، ترجمة سانتهيلير ج 1، لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة 1914.
21. كارل ياسبرز، **مستقبل الإنسانية**، ترجمة وتقديم: عثمان أمين، الدار القومية للطباعة والنشر، ط 1 . القاهرة 1963.
22. أ.م. بوشنسكي ، **الفلسفة المعاصرة في أوروبا** ، ترجمة د. عزت قرني – سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، 1992-
العدد 165
23. ألان وود، **بوتراندرسل بين الشك و العاطفة** ، دار الاندلس للطباعة و التوزيع ، ط1، 1984

د- المراجع باللغة الأجنبية:

- Charles Pigde, **Russell moral philosophy**, Edition 2006
- Royden Harrison, **B. Russell, From liberalism to socialism**, summer edition, 1986.
- Marvin kohl, **Russell and the happy life**, free inquiry 1995.
- Kader . S. Nair , **Théorie et politique** , Imprimerie nationale, Alger, 1984
- T. Heath, **Greek Mathematics**, Oxford, v.1
- René BOIREL . **Théorie Générale de l'invention** . Edité par PUF (1961)

هـ – القواميس باللغة العربية:

- أندري لالاند، **موسوعة المصطلحات التقنية والنقدية الفلسفية**، تعريب خليل أحمد خليل المجلد الأول، منشورات عويدات، بيروت، 1963.

و – القواميس باللغة الأجنبية:

- Paul foulquie, **Dictionnaire de la langue philosophique**, presse universitaire de France, 5eme édition, , paris,1986.

ي- المواقع الالكترونية:

- <https://ar.wikipedia.org/wiki/>
- <http://www.alzakera.eu/music/vetenskap/Biologia/bio-0136.htm>

:15 - 2017 -07 -23

- قائمة أهم المصطلحات -

Research	أبحاث علمية
Epistemology	إبستمولوجيا
Judgment	أحكام
Disorder	اختلال ،
Ethics	الأخلاق ،
Induction	استقراء
Deduction	استنتاج
Socialism	اشتراكية
Absolutism	إطلاقية ،
Discovery	اكتشاف
Humanity	الإنسانية ،
Harmony	انسجام
oligarchy	أوليغارشية
Bio-ethics	بيوتيقا
Analysis	تحليل
Industrialization	التصنيع
Experimental	تطبيقي
Generalization	تعميم ،
Critics	تقد ،
Technics	تقنية،
Equilibrium	توازن
Dialectic	جدلية
Civilization	حضارة
Dialog	حوار
Democracy	ديمقراطية ،
Happiness	سعادة
Scientist	عالم
Science	العلم
Ecophilosophy	فلسفة البيئة

Knowledge
Interest
Objectivity
Relativity
Theoric

المعرفة
منفعة
موضوعية
النسبية
نظري

فهرس أهم الأعلام -

41 ص.....	Epicure	أبيقور
28 ص.....	A. Smith	أدم سميث
46 ص	Aristippe	أرستيب
46 ض.....,,,,,	Aristote	أرسطو
59 ص.....	Aristarchu	أرسيتاكوس
47 ص.....	Platon	أفلاطون
80 ص.....	Xavier François	أكسا فير فرانسيس
15 ص	Althusser	ألتوسير
80 ص.....	Queen Anne	آن
54 ص	A, Comte	أوغست كونت
25 ص.....,,,	Einstein	أينشتاين
51 ص.....	S . Bach	باخ
59 ص.....,,,	Claude Ptolémée	بطليموس
69 ص.....	Biffon	بيفون
81 ص	- Pieux 5 -	بيوس الخام
72 ص	- Charles Eugène Guye	تشارلز يوجين جوي
43 ص	T. Heath	توماس هيث
25 ص	Galilée	جاليليو
45 ص.....	Gilbert	جلبرت
41 ص	J. Dewey	جون ديوي
28 ص	J.S.Mill	جون ستيوارت ميل
08 ص.....	J. Locke	جون لوك
41 ص.....	J. Bentham	جيرمي بنتام
62ص.....	Giordano Brun	جيوردانو برونو
70 ص.....	Ch .Darwin	داروين
52 ص	Dante	دانتي

68 ص.....	Dumont d'Urville	دورفيل
44 ص	Démocrite	ديمقريطس
45 ص	Boyle	روبرت بويل
41 ص.....	C. Pearce	شارل بيرس
52 ص.....	Shakespeare	شكسبير
42 ص.....	Thalès	طاليس المالطي
51 ص	Faraday	فارادي
14 ص	Voltaire	فولتير
44 ص.....	Pythagore	فيثاغور
32 ص.....	K. Marx	كارل ماركس
68 ص.....	Kant	كانط
60 ص.....	J. Kepler	كبلر
45 ص.....	Copernic	كوبرنيكوس
73 ص.....	G.B.Leathes	ليتز
51 ص.....	M, Wells	ماكس وال
28 ص.....	Malthus	مالتوس
43 ص.....	S.F. MORSE	مورس فنلي
52 ص.....	Mozart	موزارت
14 ص	Montesquieu	مونتسكيو
15 ص.....	Michel Foucault	ميشيل فوكو
23 ص.....	MICHIARELLI	ميكيافالي
23 ص	NIETZCHE	نيتشه
44 ص.....	Newton	نيوتن
45 ص.....	Harvey	هارفي
68 ص.....	HALLEY	هالي
51 ص.....	Hertz	هرتز
23 ص.....	T. Hobbes	هوبز
45 ص.....	Huygens	هوجنز

62	ص.....	Osée	هوشع
43	ص.....	Hérodote	هيرودوت
44	ص.....	Héraclites	هيراكليدس
39	ص.....	W. James	وليام جيمس
74	ص.....	W. CHURCHIL	وينستون تشرشل
163	ص.....		جابر بن حيان
163	ص.....		وابن الهيثم
163	ص.....		ابن النفيس

- فهرس المحتويات -

مقدمة

01.....	مدخل عام
06.....	<u>الفصل الاول</u> : السياق التاريخي و تأثيره في تصور علاقة الأخلاق بالعلم عند رسل.....
07.....	المبحث الاول : العلم و التقنية دون الأخلاق في خدمة السياسة
17.....	المبحث الثاني: توظيف العلم والتقنية في الحياة الاجتماعية و الاقتصادية دون الاعتبارات الأخلاقية..
36.....	المبحث الثالث: العلم في خدمة الايدولوجيا بعيدا عن الأخلاق.....
44.....	<u>الفصل الثاني</u> : علاقة العلم بالأخلاق.....
45.....	المبحث الاول: أهمية العلم في تحصيل الأخلاق عند رسل.....
89.....	المبحث الثاني : أثر العلم و الأخلاق في بناء المجتمع العلمي و الإنساني.....
106.....	المبحث الثالث: أهمية العلم و الأخلاق في الممارسة السياسية و الاقتصادية.....
138.....	<u>الفصل الثالث</u> : أهمية البعد الأخلاقي في العلم و تطبيقاته عند رسل.....
139.....	المبحث الاول: مكانة الأخلاق في تحصيل العلم و المعرفة عند رسل
168.....	المبحث الثاني: دور الأخلاق في الممارسة العلمية – البيوتিকা
181.....	المبحث الثالث: أهمية الأخلاق في بناء المجتمع العلمي.....
204	<u>الفصل الرابع</u> : موقف رسل ، تأسيس لأخلة العلم و علمنة الأخلاق و أنسنة الحضارة.....
205.....	المبحث الاول: دور رسل في تأسيس الاستمولوجيا و البيوتিকা
227.....	المبحث الثاني: أثر موقف رسل الأخلاقي- العلمي للتأسيس لحوار الحضارات
251.....	المبحث الثالث : أثر الأخلاق في أنسنة الإنسان من خلال أبعاده المادية و الروحية.....
284.....	<u>الخاتمة</u> :
293.....	المصادر و المراجع
296	فهرس المصطلحات.....
297.....	فهرس الأعلام.....
298	الملاحق.....
308.....	فهرس المحتويات

